السيد عبد الحسين دستغيب

جنة الخلد

ترجمة: لجنة الهدى



دار البلاغة

جنة الخلد

السيد عبد الحسين دستغيب

جنة الخلد

ترجمة: لجنة الهدى

دار البلاغة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع .

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرّحمٰن* علّم القرآن* خلق الأنسٰان* علّمه البيٰان﴾[1]

* الحفظ من الشرور ببركة تلاوة سورة الرحمٰن:

تعد سورة الرحمن من السور المكية ، اي انها نزلت في مكة المكرمة ، وتشتمل علىٰ ثمان وسبعين آية ، جميعها مكي بأستثناء آية **﴿يسئله من في السماوات والأرض﴾** إذ قيل عنها أنها مدنية .

وقد جاءت روايات كثيرة تؤكد اهمية وعظمة هذه السورة ، نذكر بعضها علىٰ سبيل التبرّك مما أورده صاحب تفسير مجمع البيان ، فقد روي أن من قرأ سورة الرحمن في ليلته ، أوكل الله تعالىٰ به ملكين يحفظانه حتىٰ يصبح ، ومن قرأها صباحاً ، أوكل الله به ملكين يحفظانه حتىٰ يمسي .

* شمول قاريء سورة الرحمن بالرحمة:

وفي رواية أخرىٰ عن نبينا الاكرم (ص) أنه قال: إن إخوانكم الجن لأحسن إستماعاً الى سور الرحمن منكم (لأنهم سكتوا ولم يردوا بشيء عندما تلىٰ الرسول (ص) هذه السورة علىٰ مسلمي الأنس وذكر قوله تعالىٰ **﴿فبأي آلاي ربكما تكذبان؟﴾** في حين أن الجن رددوا عقيب هذه الآية قائلين (لا

بشيء من الائك ربِ نكذب) وهم يعنون بردهم هذا الذي جاء بعد استماعهم للسؤال الرباني الذي يستنطق الجن والأنس ، أنهم قد اقرّوا بالتصديق والأيمان بكل نعمة انعمها الله عليهم) وهناك قال النبي (ص): فقولـوا انتم أيضاً بمثـل مقالتهم . وقد ورد عن النبي (ص) انه قال: ان من قرأ سورة الـرحمن ثم قال عقيب قوله تعالىٰ: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ذلك القول (أي لا بشيء من آلائك رب اكذب) ثم مات في يومـه ذاك ، فقد مـات شهيداً . بـل أن قاريء سورة الرحمن يكون في قرائته لكل آية من آي السورة الكريمة قـد أدّىٰ الشكر علىٰ حق النعم الالهية ويزيده تعالىٰ من الفضل أن يرحم ضعفـه (لأن الانسان في واقع حاله ضعيف ممتليء بالضعف من أُمّ رأسه وحتىٰ أخمص قدميه ، فهو في حاله هذا أَمَسُّ ما يكون الى نيل الرحمة الالهية سواء كان ذلك في دنياه أم في بـرزخه أو في عـالم الآخرة . هـذا الضعف الملازم لـلانسان والـذي يبرز واضحاً عندما يواجه الانسان اعداءه الداخليين أو الخارجيين في عالم الـدنيا ، وكلنا يعلم مقدار ضعف الانسان في احوال موته وقبره واجتيازه للصـراط . فهو ضعيف في ضعفه ولا يملك الا ان يكون محتاجاً في حاجته وفاقته الى الله (عز وجل) ، لذلك كان الله في موضع الرحمة والرأفة لقاريء سورة الرحمن كما هو امل ورجاء العبد في ربه تعالىٰ) .

* بياض وجه قاريء سورة الرحمن ، وقبول شفاعته:

وقـد ورد عن الامام كشـاف الحقائق جعفـر بن محمد الصـادق (عليهما السلام) أنه قال: «لا تَدَعوا قراءة سورة الرحمن والقيام بها وفي روايـة اخرىٰ: واقلّهـا مرة في الأسبـوع (وقد ورد في قـراءة هذه السـورة أيام الجمـع ان فيـه استحباباً مؤكداً) ، فأنّها لا تقر في قلوب المنافقين (ولعل المقصود من ذلك ، أن المنافق لا يحصل له التوفيق في المداومة علىٰ قراءة هذه السورة) ، ويؤتىٰ بها في يوم القيامة في احسن صورة وأطيب ريح حتىٰ تقف من الله تعالىٰ موقفاً لا يكون أحد أقرب الىٰ الله منها ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ: من ذا الذي كان يقوم بك فى الحياة الـدنيا ويـدمن قرائتـك؟ فتقول: يـا رب فلان وفـلان ، فتبيّض

وجوههم ، فيقول لهم: اشفعوا فمن أحببتم ، فيشفعون حتىٰ لا تبقىٰ لهم غاية ولا أحد يشفعون له ، فيقول لهم: ادخلوا الجنة واسكنوا فيها حيث شئتم»[1] . اذاً يُخوّل قاريء السورة بالشفاعة للآخرين فينقذهم من أليم العذاب إن كانوا مسيئين ، ويرقىٰ بهم في رفيع المنازل والدرجات فيما لو كانوا محسنين ، فتأملوا أيها الأعزاء عظمة مقام الشفيع ، فالقرآن يُشّفع بمن تلاه وقاريء القرآن يُشفّع بمن أحب ، وقد ورد في الروايات أن القرآن يجيء في يوم القيامة علىٰ هيئة البشر فيَنطق ويَشفع . ولعل البعض تتملكه الدهشة والاستغراب من ذلك ، فنقول ينبغي ان لا نستبعد مثل هذه المسائل لأن موجودات عالم الآخرة تختلف عن موجودات عالمنا الدنيوي ، فبعض موجودات هذا العالم هي من الأعراض ولكنها تتمثل في عالم الآخرة علىٰ صور وهيئات معينة بأعتبار عدم امتناع أو صعوبة مثل هذه الأمور في قبالة قدرة الله (عز وجل) وعلمه .

* تحقق الجمال اللفظي:

وتشتمل هذه السورة المباركة علىٰ ذكر الآلاء والنعم الالهية المتمثلة بجميع صور اللطف والرحمة وعجائب الأبداع والخلق ، اذ يجدها القاريء تستعرض كل ما هو جمال في جمال وعندما يحين موعدنا مع غد الآخرة نجد جميع صور الجمال التي تستعرضها الآيات في قوالب الألفاظ قد تجسدت علىٰ أشكال وأمثال بقدرة الله تعالىٰ .

والسعيد حقاً هو ذلك الانسان الذي يصغي الى مسألة من مسائل الآخرة ثم لا يجد في نفسه القدرة علىٰ هضمها بعقله فلا ينكرها علىٰ أية حال ، لأن حقيقة الانكار تنبع من الجهل وتنشأ عن ضحالة وسطحية التفكير ، ولكن وبقليل من التأني وشرح الصدر لمثل تلك الأمور ، والعمل علىٰ تدبرها يجد المرء نفسه مستعداً لقبولها ، بأعتبار انتقاله من مستوىٰ الادراك في عالم المادة ومغادرة رحم عالم الطبع الى مستوىٰ العقل والادراك في عالم المعنويات والمثل وبذلك يتهيأ

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١ ـ ٤) .

له قبولها بأعتبارها اموراً عادية لأن عالمي البرزخ والقيامة تتجسد فيها جميع الملكات والأعمال علىٰ صورها الحقيقية وهيئاتها الملكوتية ، فتتجلىٰ بمظاهر حسان ان كانت ملكاتاً حسان ، وتتجسد بصور مشوهة ودميمة (والعياذ بالله) فيما لو كانت رذائل واعمالاً قبيحة فتصدر عنها روائح نتنة تزكم الأنوف لفرط قبحها ، بينما تفوح من الملكات الحسان أطيب الروائح واكثرها شذىً لما فيها من حُسن وصلاح . اذاً حقيقة هذا العالم ما هو إلاّ أنموذج لما سيكون عليه ذلك العالم .

* ضُمرة ، وعاقبة هزوءةبالحديث النبوي:

ومما جاء في كتاب بحار الانوار في تأييد ما تعرضنا له ، ان جماعة حضرت مجلس الامام الرابع من أئمة اهل البيت الامام زين العابدين (ع) ، فسأل احدهم الامام (ع) أن يحدثهم بحديث شريف ، فتردد الامام (ع) في ذلك كارهاً وقال: ان لم نحدث قالوا بخلوا ، وان حدثناهم ردّوه علينا واستهزأوا به ، فقال بعض من حضر: ومن ذا الذي يتجرأ علىٰ حديثكم بالهزو والسخرية؟ نحن كلّنا آذان صاغية لما تحدثونا به لا نرّد منه شيئاً .

فقال الامام (ع): حدثني ابي عن جدي رسول الله (ص) انه قال: لا يفارق المرء هذه الدنيا ويُشيِّع الاهل والاصحاب جنازته حتىٰ تأتي روحه وتحوم حول جنازتها ثم تولّي بوجهها صوب الاهل والاولاد والأحبة تناديهم: اياكم ان تخدعكم هذه الدنيا بغرورها كما خدعتني وجعلتني اجمع المال الحرام الى الحلال ، فكانت عاقبته ان صار نفعه لغيري ووزره عليّ ، فأرفقوا بي وتمهلّوا ، ولا تستعجلوا بي الى قبري .

فقال حينئذ ضمرة المنافق مستهزئاً: أو ينطق الأموات؟! (ففي ظن ذلك الأحمق ان النطق يصدر عن الجسد المسجىٰ في النعش ، وفي انكاره هذا دليل علىٰ ضحالة تفكيره وجهله) فقال الامام السجاد (ع): اللهم ان كان ضمرة قد رام الهزو من حديث رسولك ، فأذقه العذاب وانتقم منه . ولم تمض أيام حتىٰ مرض ضمرة مرض الموت ، وفارق عالم الدنيا بعد مرور اربعين يوماً من حادثة هزوه بالحديث النبوي ، فجاء أبو حمزة الثمالي الى الامام زين العابدين وأخبره

خبر ضمـ ة الملعون وكيف أنه مات ، يقول أبو حمزة : حضرت جنازة ضمرة ولما ارادوا ان يـدخلوه في قبره ، بـادرت بالنـزول الى قبـره لكي أضـع خـده علىٰ التراب ، فما أن أزحت الكفن عن وجهه حتىٰ سمعته يقول «الويل لضمرة فأن مأواه النار» .

وبالطبع ان هذه المشاهد ما هي الاّ صور من اللطف الالهي الذي يشمل حال بعض الأعزاء من امثال ابي حمزة الثمالي كيما يترسخ اعتقادهم ويقوىٰ ، فتصل ندبة روح ضمرة عبر بدنه المسجىٰ الى مسامع ابي حمزة . اذاً الروح هي التي تحرك البدن واعضائه بـاعتباره آلـة واداة فيتحرك البـدن وينطق ويسمـع . ولنعد الآن الى موضوعنا فنقول :

* علو المنزلة في كثرة التلاوة :

وما الترغيب والتشجيع في حقيقته الا دافع للانسـان نحو مـواصلة قراءة القرآن ، وخصوصاً هذه السورة الكريمة موضع بحثنا ، يقول الله تعالىٰ في كتابه المجيد ﴿**فاقرأوا ما تيسر من القرآن**﴾[٢] ، والميسور منه هو ما يكـون جزءً أو حزباً أو سورة واحدة ، مع ان كثرة قراءة القرآن في ذاتها ممدوحة ومستحبة لمن اشتغل بها دون ما يشغله عنها ، وقد قيل عن الامام علي بن موسىٰ الرضا (ع) انه كان يختم القرآن مرة كل ثلاثة أيام وكان يقول لو شئت لختمته في اقل من هذا ولكني ابغي التأني طلباً للتدبر في آياته . وهذا ما يؤكده قوله تعالىٰ ﴿**ورتّل القرآن ترتيلاً**﴾[٣] ، وكثرة تلاوة القرآن ترفع درجات القاريء في القيامة ، ففي القيامة يُقال للمرء اقرأ وارقىٰ ، وهذا يعني ان منزلة الانسان تتصاعد تبعاً لكثرة ما يقرأه من القرآن ، بل ان بعض الـروايات تؤكـد علىٰ ضرورة عـدم التفريط بالمداومة علىٰ ما حفظه المرء من سور القرآن الكريم ، لأنه سيقف يوماً ما وقد رقى في درجاته ومنازله عند منزلة معينة فيبصر المنزلة والدرّجة الأرفع فيقال له أن

---

(٢) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٨٧) .

(٣) سورة المزمّل ، الآية (٢٠) .

تلك الدرجة هي درجة السورة الفلانية التي لم تتعاهدها ونسيتها ، فالقرآن كله من عند الله تعالىٰ وهو كلامه المجيد ولكن تبقىٰ لكل سورة ميزة تمتاز بها عما سواها من السور كما أن لكل وردة عطر تمتاز به علىٰ مثيلاتها ، فمثلاً سورة يس هي قلب القـرآن ، وسورة الـرحمن عروس القـرآن ، وهكذا في سـائـر سـور القرآن . وفي حديثنا عن سورة الرحمن موضع البحث فأننا قد أشرنا الى بعض خصائص المداومة على قراءتها والآثار المترتبة علىٰ قارئها .



* سورة الرحمٰن عروس القرآن:

نقل تفسير مجمع البيان وغيره من كتب التفسير ان الامام موسىٰ بن جعفر (ع) روىٰ عن آبائه الكرام ، عن امير المؤمنين (ع) ، عن الرسول الاكرم (ص) انه قال: لكل شيء عروس ، وسورة الرحمن عروس القرآن .

والعروس لغةً: هي صفة يشترك فيها الذكر والأنثىٰ ، وهي كناية من وصول الشخص الىٰ أقصىٰ درجات السعادة ومنتهىٰ مراتب السرور في ساعة تعدّ من أفضل وأحسن ساعات العمر وبتعبير آخر ، العروس هو الشخص الذي يرفل في السعادة والنعيم التامّين . ولذلك قيل لليلة الزفاف (ليلة العرس) ، لأن ليلة الزفاف هي أفضل وأسعد أوقات المرء ، ففي تلك الليلة تساق الفتاة الى منزل الزوج بكل خيلاءٍ وتبجيل محفوفة بالتكريم والتجليل ثم يصار بها الى مخدع الزوجية بكل حفاوة وبهجة ، فتجد العروس في ساعاتها تلك كل مظاهر الاعزاز وآيات الحب والأنس وقد جاء جميع الأحبة والأهل بأبهىٰ زينة وأجمل لباس وقد تسابقوا الى نيل شرف خدمة عروسهم العزيزة .

من ذلك المثال الحي نجد وجه الشبه في تسمية سورة الرحمن بعروس القرآن ، فجميع آيات وسور القرآن تتلألأ وقد اعتمرت بمظاهر الزينة والبهجة والنعيم وهن يُحِطن سورة الرحمن المباركة التي قد ضمت في كنفها صور النعم

والآلاء ومظاهر اللطف الرباني والوان النعيم والسرور وعجائب الخلق والابداع والانشاء الالهي الذي منّ به الله عز وجل علىٰ الإنسان في دار الدنيا أو ما سيجده العبد الصالح في غده الآتي الذي سيخلد فيه بعد ان ينتقل الى دار الآخرة عبر قطار الموت ، ثم يذكّر الله عز وجل عباده بعد أن يستعرض لهم نعمة عليهم فيقول (جل جلاله): ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان؟﴾ تذكيراً منه تعالىٰ بعظيم نعمه وجليل آلائه ، فتبدو هذه السورة وقد حملت في كنفها الوجه الواقعي للزينة .

* عبادالرحمٰن، عروس عالم الوجود:

وقد ذكر بعض العلماء هذه النقطة اللطيفة التي تفيد أن عباد الرحمن هم عرائس عالم الوجود كما ان سورة الرحمن عروس القرآن ، لأن المرء عندما يصير عبداً للرحمن حقاً ، يكون قد صار سيداً وعزيزاً وزيناً للخلائق ، فالأرض تنتشي وتمتليء فخراً وسروراً لأن عبد الرحمن قد حمله ظهرها ، وفي رواية عندما ينزل العبد المؤمن في قبره تقول له الارض (بالطبع ان الذي يتحدث هو ملكوت الارض) يا مؤمن والله اني كنت لاحبك وانت تمشي علىٰ ظهري وكان الفخر يملئني بذلك ولطالما تمنيت أن أضمك الي بين أحضاني .

وعندما ينزل بالفاسق او الكافر الى قبره تقول له الارض: يا عدو الله ، والله اني كنت لأبغضك وانت تمشي علىٰ ظهري ولطالما تمنيت ان اضمك واضغطك فأحشرك كحشر المسمار في الجدار .

* عباد الرحمن قبلة انظار الموجودات:

فكما ان العروس في ليلة زفافها محط انظار الناس المتجمهرين حولها ، فعباد الرحمن يصبحون قبلة تجيل النظر اليهم جميع موجودات العالم ، بل ويتعدىٰ ذلك بحيث يصبح ملكوت جميع الموجودات خاضع لعباد الرحمن لأنهم أدّوا حق العبودية لله عز وجل ، تلك العبودية التي تشتمل علىٰ المعاني الحقيقية للسلطان والملك الواقعيين ، فيصير عبد الرحمن سلطاناً لتلك

الموجودات ، ولما نقول شواهد كثيرة نعزفْ عن ذكرها ابتغاءً لطلب مواصلة الشرح والتفسير .

* الوقوف بوقار وحضور قلب علىٰ بساط الرحمن:

ومن يرقب العروس في ليلة عرسها عن كثب يجدها تنقل خطوها وئيداً بكل وقار واختيال ، وهو عين حال عباد الرحمن الذين يصف المولىٰ عز وجل نقل خطوهم علىٰ الارض قائلاً: **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون علىٰ الأرض هوناً﴾**[1]واحد معاني الهون هو الوقار والسكينة ، فهم يمشون علىٰ بساط الرحمن بكل طمأنينة ووقار وسكينة وراحة بال ، ويتحركون وقد استحضروا الله عز وجل في كل خطوة يخطونها ، فهم لا يستكبرون ولا يتبخترون في مشيهم لأن ذلك من دأب الجهال الذين تخدعهم المناصب والثروات فينسون الله ويفقدون لذة ذكره تعالىٰ . ووضوح هذا الأمر لا يخفىٰ علىٰ اللبيب لذلك لا نرىٰ حاجة تدفعنا لبسط القول فيه . وهناك من يقول انه معنىٰ كلمة (هون) هو التواضع فيكون معنىٰ الآية ان عباد الرحمن ينقلون خطوهم علىٰ الأرض بكل تواضع ، ولو رماهم الجاهلون بالقول القبيح لما ردوا عليهم بمثله ، بل لأكتفوا بقول سلام لكم منّا فنحن لا نروم لكم الفحش أو الأذىٰ فهذا هو شأن عروس عالم الوجود تترفع عن الجهال ولا ترد عليهم الاّ بالقول المليح الذي يخجل الطرف المقابل ، لأن الرد بفاحش القول انما هو من دأب عباد الشيطان الذي قد يرد على الاساءة بما هو اكبر منها ، بل ويجد متعته في الحاق الأذىٰ والضرر بالآخرين .

* قبور عباد الرحمٰن مخادع عرس:

وعندما يكون خلق العباد الابرار علىٰ تلك الصورة تكون قبورهم مخادع عرس لهم ، فقد روي ان العبد بعد ان يجيب علىٰ مسائلة الملكين في قبره

---

(١) سورة الفرقان ، الآية (٦٣) .

ويفصح عن عقائده الحقة ، يقال له (نم نومة العروس)[٢]اي نم نومة ليلة الزفاف وأرفل بالمتعة واللذة والارتياح . ثم يضاء القبر وتتلألأ الانوار في مخدع العرس كما تصرح بذلك الروايات ، فيسطع نور من جناحه الايمن ، ويسطع نور من جناحه الأيسر ، يسطع آخر من فوقه ، وآخر من تحت قدميه ويسطع نور آخر من أمامه ، فأما ما يسطع عن يمينه فهو نور صيام العبد ، وما يسطع عن يساره فهو نور حجه ، وما يسطع من تحت قدميه فهو نور زكاته ، وأما النور الساطع من امام العبد فهو نور ولاية آل محمد (صلوات الله عليهم اجمعين)[٣]يقول الشيخ الطريحي في كتابه مجمع البحرين ، ان العلة الكامنة وراء قول الملائكة للمؤمن الميت (نم نومة العروس) لأن العروس ترفل في ليلة عرسها في افضل واحلىٰ النعم ، والمؤمن الميت حاله في قبره هكذا ، اذ تقدم عليه ارواح المؤمنين لأستقباله ويحتفون به فيتلاقفه الواحد تلو الآخر كمن يتلاقف الورد ، وهنا نستشهد بهذه القصة التي تفيد مقالنا هذا .

* الاحتفال بقدوم المؤمن الى عالم البرزخ:

كان قد تعاهد رجلين من العلماء فيما بينهما أن يسارع الذي يبكر بالرحيل منهما الى عالم البرزخ بالأتصال بالآخر عن طريق الرؤيا ليخبره عن مشاهداته في عالم البرزخ ، بعد ذلك فارق احدهما العالم الفاني ورحل الى العالم الآخر ، فمضت مدة من الزمان الى أن شاهد الآخر صاحبه في عالم الرؤيا ، فعاتبه علىٰ جفائه له طيلة تلك المدة ، فأجابه الميت قائلاً: لقد كنت مشغولاً في حفل كبير غمرنا فيه بألوان البهجة والأنشراح والمتعة . فرد عليه صاحبه قائلاً: ولأي شيء كان ذلك الحفل؟ ، فأجابه: لعلك لم تدري ان الشيخ الانصاري قد ترك عالمكم الفاني وأقبل علينا ، فلقد عقدنا له مجلس ترحيب لأربعين يوماً بلياليه .

---

(٢) بحار الانوار ، (ج ، ص) .
(٣) بحار الانوار ، (ج ، ص) .

« ٣ »

* عنوان موضوعات القرآن ، بسم الله:

تعد عبارة بسم الله الرحمن الرحيم الواردة في مفاتيح سور القرآن الكريم جزءً من تلك السور طبقاً لمذهب أهل البيت (ع) وحسب آراء اكثر الفقهاء ، بل وتتعدىٰ ذلك الىٰ أن يأتي بها المصلي في افتتاح السورة التي تلي سورة الحمد بنيّة انها تختص بالسورة الفلانية إحتياطاً .

وهي اول آية من آيات الكتب السماوية التي نزلت ، وهي ايضاً اول عبارة ألقي بها الى آدم ابي البشر (ع) وهي أُولىٰ آيات القرآن الكريم وبها افتتح القرآن الكريم عنواناً ، وبهذا الشأن أورد المحقق النيشابوري في تفسيره قصة لطيفة يقرب فيها معنىٰ ان آية بسم الله الرحمن الرحيم هي عنوان الكتاب المجيد ، يقول النيشابوري :

* واجهة القصر الجميلة ، والعطاء القليل:

مرّ فقير يوماً بقصر ذي بوابة عظيمة وواجهة رائعة فقال في سرّه: ان هذه الواجهة لتعرب عن أن صاحب هذا القصر أحد الأشراف او الأغنياء ، فلأناديهم بفقري واسألهم بسد فاقتي وحاجتي لعليّ اصلح احوالي ، فشرع يناديهم بحاجته ويقول ارحموا البائس الفقير ، فجاؤوه بكسرة خبز يابسة ، فنظر اليها واليهم ثم لم يلبث أن تركهم هنيهة ثم عاد يحمل معولاً فنزل يضرب البوابة

بالمعول ، فصاحوا به: ويحك ما الذي دهاك يا هذا؟ فأجابهم: دعوني اهدم هذه البوابة المشؤومة لأنها تعلن كذباً عن ان صاحب هذا القصر المنيف ما هو الاّ امرؤ عظيم والحال ان صاحبه لا يعدو ان يكون ذي فاقة ، فناشدوه الكف عن الضرب بالمعول وما زالوا يلحون عليه حتىٰ قال لهم: ما يكون ما تريدون حتىٰ تزيدوني في عطائي!!

ويضرب المحقق النيشابوري بهذه القصة مثلاً علىٰ واجهة القرآن الكريم في آية بسم الله الرحمن الرحيم ، فهذه الواجهة تعرب عن كونها مدخلاً الى الرحمة الإلهية وتنطق بلسان الحال قائلة: تعالوا واسألوا الله برحمته الرحمانية والرحيمية ، فمن ذا الذي اقبل بوجهه الى رحمة الله تعالىٰ وهو يشكو له ما به من الضر فلا يجد لنفسه حينها الدواء الناجع لضره؟

* بسم الله ، تزيل الاحزان وتحل المعضلات:

ويروىٰ ان من اصابهُ الحزن لعارض يعترضه أو مصيبة ثم يقول بسم الله الرحمن الرحيم مستيقناً بالله راجياً لرحمته ، يمن عليه الله تعالىٰ بأحد أمرين ، فأما أن يعطيه مسألته ، واما ان تكون الاجابة فيها ما يعارض صلاح العبد فيعوضه الله تعالىٰ بأن يهبه من فضله ما يشرح به صدر عبده . ولعل الرواية الواردة عن الامام علي الرضا (ع) التي تقول (بسم الله الرحمن الرحيم اقرب الىٰ اسم الله الاعظم من سواد العين الى بياضها) غير خافية علىٰ الكثيرين منّا ، فنحن نعرف ان النطق بأسم الله الاعظم يفتح جميع الابواب الموصدة ، اذاً فما يمنعنا عن حل مشكلاتنا ونيل الرخاء بعد الشدائد من استعمال بسم الله الرحمن الرحيم هذه الآية التي تطرد الشياطين بمجرد النطق بها .

* الاستعانة بالله أحد آثار فهم معنىٰ بسم الله:

وما يهمنا هنا هو حقيقة ومعنىٰ بسم الله باعتبار شدة قرب من الاسم الأعظم فالباء في (بسم الله) هي باء الاستعانة ، فيكون معنىٰ بسم الله (بعون اسم الله) ويعظم اثر حقيقة بسم الله عندما يدرك قائلها بما يملك من علم وسلوك أنه قد استيقن ان العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة بدون عون

الله لأن المرء لا يمكنه أن يبتدع شيئاً من نفسه ، بل ان الانسان لا يملك حتىٰ نفسه التي بين جنبيه ، مع ان اسم الله لوحده لا يقدم عملاً أو يؤخره بدون ارادة الله تعالىٰ في تقديم العون المنشود لعبده ، فكم من خارج من داره لم يعد لها ثانية؟ وكم من مشيد بناء لم يتم بناءه؟

اذاً لو ادرك العبد حقيقة بسم الله فسيجد ان حالة الاستعانة والتوجه الى الله قد حصل عنده ، فهو عندما يقول في صلاته بسم الله انما يعني انه يقول بسم الله أقرأ وافتح ، وبسم الله اعمل وانطلق واقول ، لأنه يعلم يقيناً أنه لا استقلالية له البتة .

يقول الامام الحسن العسكري(ع) عن معنىٰ بسم الله (تقول بسم الله اي استعين علىٰ اموري كلها بالله)[1] ، اذاً علينا ان ندرك هذه الحقيقة بحيث تصبح لدينا ملكة وسلوكاً دائراً نفهم مع كل بسم الله نقولها أننا قد استيقنا عجز ذواتنا وسائر الاشياء دون ارادة الله تعالىٰ ومشيئته ، بل أن المصباح المضيء لا يضيء بذاته أو بذات وقوده النفطي أو الزيتي أو الكهربائي وانما تحصل اضائته وفق ارادة الله عز وجل ، وان حركة ووجود وبقاء كل موجود انما يتم وفقاً لارادة الله تعالىٰ . فهذا الحال لو تملك العبد فصدر سلوكه وفق هذا الاساس فسيدرك معنىٰ المسكنة والعبودية الدائمة لله عز وجل الذي ينبع من علمه بحقيقة ومعنىٰ بسم الله .

* أَسِمُ علىٰ نفسي سمة العبودية:

وقد نقل عن الامام الرضا (ع) معنىٰ قول بسم الله فقال اسم علىٰ نفسي بسمة من سمات الله وهي العبادة ، يقول الراوي فقلت يا بن رسول الله (ص) وما السمة؟ قال: هي العلامة) . وعلىٰ هذا الاساس يكون معنىٰ بسم الله لقائلها انه يسم نفسه بسمة العبودية لله عز وجل لانه قد ختم قلبه بخاتم العبودية الكاملة لله تعالىٰ معرباً عن عجزه وانكساره وضعفه وأن لا عصمة له الا بالله وحده .

---

(١) تفسير الامام العسكري (ع) (ص ٥) .

بينما نرىٰ أن الجنس البشري يتهافت منذ القدم في دعوات الربوبية والاستقلالية فيزعم مكابراً انه قام بفعل العمل الفلاني ، وابدع الأمر الفلاني وانه سيفعل كذا وكذا ، ولولاي لم يكن الامر الكذائي وما الىٰ ذلك من المزاعم والأدعاءات التي تقف علىٰ طرف النقيض من عبارة بسم الله التي لا يفتأ المرء من ترديده اياها لأنه انما ينطق بها باللفظ دون ادراك وجهها الحقيقي وعليه فلا يستغرب من عدم ترتب الاثر علىٰ النطق بها ، لأن الجسد الذي تفارقه الروح لا قيمة له ، بينما تكمن القيمة الحقيقية بسم الله عندما يتعين مكان وجودها في الروح الانسانية فيحصل حينذاك علىٰ تجلي فيوض آثارها .

* إشغال القلب بذكر الله:

وعن رسول الله (ص) في صدد اسم الله الاعظم حينما سئل عنه اي شيء يكون؟ قال (ص) (اقطع القلب عما سواه وقل يا الله)[٢] ، ومعنىٰ ذلك ان ينقطع الانسان عن الغير تماماً الى الله وحده ، وهي تمام التوكل علىٰ الله والاستعانة الحقيقية به ، وعن صحة وقبول عمل الانسان ينبغي ايضاً أن يكون العمل بالصورة التي لا يرىٰ فيها العبد سوىٰ الله وحده حينئذ يمكن الوصول والحصول علىٰ اسم الله الاعظم ، لأن ما سيدركه الانسان في اسم الله عز وجل سيكون هو بذاته الاسم الاعظم ، ولو حصل الانسان جميع الشرائط والاسباب اللازمة للوصول الى اسم الله الاعظم ثم لم ينقطع الىٰ الله وحده فليعلم انه لن يتيسر له أبداً ان ينتهل من حقائق وآثار الاسم الاعظم .

* إحترام اسم الله يوجب شمول الوالدين بعفو الله ورحمته:

وينقل عن الامام امير المؤمنين (ع) ان من وجد كتابة بسم الله الرحمٰن الرحيم ملقاة على الأرض فرفعها احتراماً وتعظيماً لكلام الله واسمه الكريم منّ الله علىٰ والديه بالراحة فيما لو كانا في شدة ونصب ، وانعم عليها بفيوض الروح والريحان ان كانا في راحة وثواب ، وفوق ذلك كله يدرجه الباري تعالىٰ في

(٢) لئالىء الاخبار .

الصديقين[٣] .

لذلك وجب علينا ان نهتم بهذا الأمر الذي كثر حصوله في زماننا هذا نتيجة كثرة الصحف والمجلات والاعلانات التي تحمل كلام الله تعالىٰ واسماءه الكريمة التي نراها ملقاة في الأزقة والشوارع فنسارع الى رفعها وازاحتها عن سبيل المارة لئلا تسحقها الأرجل اجلالاً وتعظيماً لأسماء الله وآياته ، فنحصل بعملنا ذلك على النفع والرحمة .

(٣) الكبريت الاحمر ، للبيرجندي .



﴿الرحمٰن * علّم القرآن﴾[1] .

* وجهان في إعراب كلمة الرحمن:

كلمة الرحمن التي وردت في صدر السورة هي آية كاملة ، ولهـا وجهان إعرابيان .

الوجه الأول : هو أن تكون كلمة الرحمٰن خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هو الله دلّ عليه المعنى بحيث يكون أصل العبارة (الله الرحمٰن) .

الوجه الثاني : أن تكون كلمة الرحمن مبتـدأً للجملة التي تليها (علَّم القـرآن) بحيث تكـون العبارة الـلاحقة خبـراً للمبدأ ، وتـأتي العبـارات التـاليـة (خلق الإنسـان . علّمه البيـان . . . الخ) خبـراً ثانيـاً وثالثـاً وهلمّ جرا لـذلك المبتـدأ (الـرحمٰن)، وقد حـذف حرف العـطف (الـواو) بين الأخبـار المتعـددة لتعـدد العطف، وهو أمر مألوف لغةً .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١و٢) .

* سبب افتتاح السورة بكلمة الرحمن:

لقد افتتحت السورة بكلمة الرحمن لأن متن السورة اشتمل علىٰ احصاء وذكر بعض النعم والآلاء الالهية ، المادية منها والمعنوية ، الظاهرية منها والباطنية التي أنعم الله بها علىٰ عباده ، ثم عزز السورة بذكر الطافه الدنيوية والآخروية بما فيها اصناف الرحمات العامة والخاصة ، لأجل كل ما سبق جاء الاسم الشريف (الرحمن) في بداية السورة تذكيراً لنا بعظمة تلك النعم والآلاء الالهية وتعريفاً لنا بأقسام رحمة الله (عز وجل) .

يقول الامام الصادق (ع) في معنىٰ (الرحمن) انه اسم خاص لصفة عامة ، و(الرحيم) اسم عام لصفة خاصة كما اشار الى ذلك صاحب تفسير مجمع البيان ، فاسم (الرحمن) يختص بالله وحده ويحمل صفة رحمته الواسعة الشاملة لكل شيء ، اما اسم (الرحيم) فهو اسم عام قد يشترك به الآخرون ولكنه يحمل عن الله عز وجل صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين لوحدهم .

* لم لا يقال لغير الله رحماناً؟

علىٰ الرغم من ان كلمة (الرحمن) هي صفة ولكنها تدخل في حكم الاسم العلم لأنها صفة غالبة ، وطبقاً لذلك لم يحصل الجواز في تسمية غير الله تعالىٰ بالرحمن فكان هذا الاسم خاصاً بالذات الالهية المقدسة ، ولو اردنا ان نقول لغير الله رحماناً لما صح ذلك حتىٰ نسبق هذا الاسم بكلمة عبد حينئذ يصح منا أن نناديه بعبد الرحمن .

وقد ذهب البعض الى ان العلة الكامنة وراء عدم جواز تسمية غير الله رحمن ، لأن الرحمن هو من يمتلك الرحمة الواسعة ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾(٢) فرحمة الله عز وجل تسع لتشمل وتغطي كل شيء من اناس وجمادات وملائكة وسائر الخلق بملكها وملكوتها ، وما خلق

---

(٢) سورة الاعراف ، الآية (١٥٦) .

الله وأمره الاّ من اثار رحمته (عز وجل) .

فالنباتات والزروع في حقيقتها اثر من آثار رحمة الله كما يؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿فأنظر الىٰ آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها﴾[٣] ، بل أن وجود أي موجود هو بفضل رحمة الله تعالىٰ فقد اعطاه بمقدار وجوده وبمقدار ما تستدعيه ارادته تعالىٰ في بقاء الموجود ودوامه ، وهذا الأمر لا يمكن ان يصدر عن غير الله تعالىٰ ، لذلك انحصرت الرحمة الواسعة الشاملة بالله وحده ، وصدق اسم الرحمن عليه دون سواه (تبارك ربنا وتعالىٰ) .

* تجلي رحمة الله في ثمار الصيف:

في كتاب توحيد المفضل ، ساق الامام الصادق (ع) جملة من الأمثلة علىٰ رحمة الله الواسعة ومن جملة ما ذكره الامام (ع) : فانظر الى البطيخ ، فلو كانت نبتة هذه الثمار أشجاراً لما استطاعت اغصانها أن تتحمل ثقل وزن هذه الثمار (اذ قد يصل وزن بعض هذه الثمار الى عشرات الكيلوغرامات) لذلك كانت هذه النبتة زاحفة علىٰ الأرض معروشة عليها .

ومن رحمته الواسعة أيضاً ان خلق الثمار ذات القدرة علىٰ اختزان السوائل من ثمار الصيف ليطفيء بها الانسان حرارة صيفه ويمد بدنه بما ينضح منه من عرق لئلا يجف البدن فتكون هذه الثمار معيناً لبدن الانسان من حيث الرطوبة والسوائل اللازمة لتوقي جفاف البدن . فجعل الله ثمار البطيخ والرقي واشباه ذلك في فصل الصيف دون الشتاء تبعاً للمنفعة اللازمة .

* اعطاء الحس والشعور اللازمين للموجودات:

ولقد أعطىٰ الله تعالى لكل شيء من الكائنات ما يستلزمه في حياته ، حتى المقدار الضروري من الحس والشعور والوسائل والأسباب التي يفترض وجودها لتحقق الشعور والحس والادراك ، فمثلاً نرىٰ الحس والشعور موجوداً

---

(٣) سورة الروم ، الآية (٥٠) .

في النباتات ، فهي عندما تنمو نراهـا تتنحىٰ عن الأجسام الصلبـة التي تعترض حركتها بحيث تبقي علىٰ نفسها من حالة استمرار تعرضها لأشعة الشمس باعتباره أحد العناصر اللازمة في تأمين الغذاء والنمو ومواصلة الحياة ، لأن الجزء الذي لا يتعرض الىٰ اشعة الشمس بصورة مباشـرة أو غير مبـاشرة سيؤول الى التلف والفساد ، وهذا المقدار المحدود من الحس والادراك لازم وضروري في حياة النبات ، لذلك يهبه الباري تعالىٰ وفق مستلزمات حياة النباتات .

وما صدق علىٰ النبات ، يصدق على الحيوان أيضاً فهو كالنبـات وسائـر الأحياء الأخرىٰ بحاجة ماسة الىٰ توافر الشعور والادراك فيه ولكن علىٰ نحو اكثر رقي وتطور مما هو عليه في النبات .

فهـو (الحيوان) يحتـاج الى الحس والشعور الـلازم لتوفيـر الاستعدادات الدفاعية والحفاظ علىٰ حياته من الأخطار الخارجية المحدقـة به ومن الأخـطار الداخلية المحيقة به أيضاً ، بحيث نرىٰ أن قوائم الحيوان وعيونه وآذانه واسنانه وغيرها تكون علىٰ نحو تمكنه من تأمين الدفاع الذاتي له في مواجهة الاعداء .

فنجد من الحيوانات ما هو زاحف علىٰ بطنه ، ومنها ما يمشي علىٰ رجلين ومنها ما يمشي على أربع كما يشير الى هذه الحقيقـة قولـه تعالىٰ ﴿**فمنهم من يمشي علىٰ بـطنـه ومنهـم من يـمشـي علىٰ أربـع ومـنهـم من يـمشـي علىٰ رجلين**﴾[٤]وقوله عز وجل ﴿**الـذي اعطى كـل شيء خلقه ثم هـدىٰ**﴾[٥] ، اذاً اعطىٰ الله (عز وجـل) لكل مـوجود ومخلوق تـركيبته وهيئتـه التي تناسبـه حالاً وكمالاً ، وهذا ما نعبر عنه بالرحمة التي خُلق فيها الموجود واعطائه من القدرة التي تمكنه من تمييز الضر والسوء من الخير والصلاح كيما يستطيـع دفع ذلـك الضر وجلب النفع لنفسه وهو ما عبّر عنه الباري تعالىٰ بالهدىٰ ، وما الهدىٰ الّا لون من الوان الرّحمة الالهية لمن يتأمّل .

---

(٤) سورة النور ، الآية (٤٤) .
(٥) سورة طه ، الآية (٥٠) .

* إلمام الحيوان بصنعة الطب:

ولقد ذكر بعض أهل العلم عن معرفة الحيوانات لمنفعة الطب قائلين: -

١ - إذا مرض الأسد، فانه يعالج نفسه من خلال أكل القردة.

٢ - ويعالج الكلب نفسه بأكل ورق النيل[٦].

٣ - ويعالج الخنزير البري نفسه بأكل السرطان.

٤ - ويعالج البعير نفسه بتناول ورق البلوط.

٥ - ويعالج الضبع نفسه بأكل عُذرة الكلب.

٦ - ويعالج الببر[٧] نفسه بتناول الكلاب.

٧ - ويعالج الدب نفسه بأكل النمل.

٨ - ويعالج الذئب نفسه بأكل التراب.

٩ - ويعالج النمر نفسه بأكل التراب.

١٠ - ويعالج الفهد نفسه بأكل الفئران.

١١ - ويعالج الثعلب نفسه بأكل القصب، وهكذا أيضاً بالنسبة للأرنب.

١٢ - ويعالج الغراب نفسه بأكل الشعير.

١٣ - ويعالج الهدهد نفسه بأكل العقارب.

١٤ - ويعالج الحمام الجبلي نفسه بأكل الجراد.

١٥ - وتعالج القطة نفسها بأكل نبتة سطوح المنازل[٨].

---

(٦) النيل، نبات ينمو في المناطق الحارة كالهند ويستعمل في صناعة صبغ الملابس والأقمشة باللون الازرق (النيلي).

(٧) البَبْر، بفتح الباء الاولىٰ وسكون الثانية، وهو حيوان من السنوريّات يشبه النمر ولكنه اضخم منه ويقارن الأسد في هيئته ولكنه يتخلف عنه في الفعالية والنشاط.

(٨) وهو نبات طبيعي ينبت علىٰ سطوح المنازل الطينية في فصل الربيع.

* الأدوية الناجحة لأوجاع القطط القلبية ، والعمىٰ عند الأفاعي:

واعجب ما قيل عن ادوية آلام الحيوانات التي توصلت اليها تلك الحيوانات بفضل ما اودعه الله تعالى فيها من غرائز ما ذكره الدميري في كتابه (حياة الحيوان) فقد اشار الى موارد لطيفة بهذا الشأن ، يقول ان القطط عندما تشتكي وجع القلب ، تذهب الى سطوح المنازل حيث ينبت عشب أخضر زاهي اللون فتتداوىٰ به عن طريق أكله ، فلا تلبث حتىٰ تتحسن أحوالها وتعود لها عافيتها من جديد ، وعن الافاعي (وهي انواع من الحيّات السامة) يقول أن الأفاعي غالباً ما تعمر الف سنة أو اكثر ، فهي بعد أن تطوي من عمرها الالف عام تصاب بالعمىٰ أو بضعف البصر الشديد ، فتتحرك (وفق الغريزة التي اودعها الباري فيها) صوب شجرة تدعىٰ شجرة الرازيانه أو شجرة الأسرار ، (وتمتاز هذه الشجرة بالقدرة علىٰ سحب الأشياء والادواء الحائلة دون القدرة علىٰ الابصار لدىٰ الأفاعي) ، فتطوي الافعىٰ الفيافي والقفار والمسافات من خلال قدرتها الفائقة علىٰ الشم حتىٰ تعثر علىٰ تلك الشجرة ثم تقترب منها وتأخذ بدلك عينيها بورق تلك الشجرة لتنتهي من عملية الدلك هذه وقد عادت صحيحة البصر .

* الرحمة الواسعة التي لا تستثني شيئاً:

كل ذلك كان من آثار رحمة الله الواسعة التي لا تغادر شيئاً من اشياء الوجود ، والجميع يرفل في نعيمها ، الغني والفقير علىٰ حد سواء ، باعتبار ان هذه الرحمة هي لون من ألوان العطاء الإلهي الذي يعمم جميع الكائنات دون تفاوت او استثناء يقول تعالى ﴿ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت﴾(٩) ، ويذهب القرآن الكريم الى تأييد هذا الأمر في قوله (عز وجل) ﴿انزل من السماء ماءً فسالت به اودية بقدرها﴾(١٠) وهو تشبيه لرحمة الله تعالىٰ التي مثلها مثل الماء الذي تمطره السماء فتمتليء به الاوعية ، كل وعاء بقدر

---

(٩) سورة الملك ، الآية (٣) .

(١٠) سورة الرعد ، الآية (١٧) .

سعته ، فالكأس يمتليء بسعته ، والحفيرة تمتليء بسعتها ، والبحر يمتليء بسعته ، فرحمة الله الرحمانية تغمر الخلائق جميعاً كل حسب قدره وسعته واستعداداته الذاتية وقابلياته التكوينية لينعموا بها .

نَحنُ كنّا عَدَماً دونَ أنْ نُفصِح سُؤالاً   سمِعَ الباريء منّا ما عَجزنا عنهُ مُقالاً

* والرحمة الخاصة بالمؤمنين أوسع :

أما القسم أو النوع الآخر من رحمة الخالق (تعالىٰ) فهي الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، والتي يُعبر عنها بالرحمة الرحيمية ، وهي اوسع من الرحمة الرحمانية بمراتب متعددة ، فهي وان كانت محدودة بأهل الايمان الاّ انها من حيث الكم والمقدار تعدل مائة ضعف من الرحمة الرحمانية وهذا ما يؤكده قول النبي (ص) (ان الله عز وجل مائة رحمة ، انزل منها واحدة الىٰ الارض فقسمها بين خلقه ، فبها يتعاطفون ويتراحمون ، وأخّر تسعاً وتسعين يرحم بها عباده يوم القيامة)[11]فما رحمة الله عز وجل الواسعة التي عمّت الخلائق أجمعين الاّ جزء من مائة جزءٍ من الرحمة الالهية التي اودعها (جل جلاله) في قلوب وارواح المؤمنين واوليائه الصالحين وهذا يعني ان الرحمة الرحيمية هي رحمة اكتسابية لا تكوينية ، أي انها تصل الى متناول بني البشر من خلال السعي لها وطلبها فهي تختلف عن سنخ الرحمة العامة التي هي في واقع الحال قد صارت في متناول الجميع دون سعي لها أو طلب للحصول عليها ، فبالرحمة الرحيمية التي يحصل عليها العبد ينعم بآثارها المتجسدة بالمنازل الشامخة والمراتب المعنوية الرفيعة ونيل جنة الخلد والوصول الى رضوان الله تعالىٰ ، وهذا لا يتحقق بالضرورة الاّ ان يرتفع الانسان الى منزلة الانسانية التي ارادها الله له ، وبعكس ذلك فان الانحدار نحو مرتبة الحيوانية لا تؤمن للمرء اكتساب هذا القسم من الرحمة كما قد سلّمنا بداهة الى أنه ما من سبيل للحيوانات الىٰ الجنة والرضوان ، ولو قلنا جدلاً بأن الحيوانات يمكن أن يصار بها الى الجنة فستبقىٰ

(١١) تفسير مجمع البيان ، للطبرسي .

غير قادرة علىٰ الانتفاع من سنايا الجنة ومواهبها . وما يصدق علىٰ الحيوانات ذوات الاربع يصدق ايضاً علىٰ الحيوانات ذوات الرجلين ، لأن العدل يأبىٰ على الله عز وجل أن يساوي في النعيم بين المؤمن الكادح وبين الحيوان اللاهي باعتبار التمايز بين القدرات المعنوية والبهيمية ، ثم إن الجنة وما فيها محض أنوار ، وهذه الأنوار لا يستطيع الابصار بها من عمي عنها في دار الدنيا ، ومن انعدمت لديه القدرة على رؤية الانوار ستنعدم لديه القدرة علىٰ رؤية الالوان فلن يكون بمقدار الأعمى ان يبصر الوان ازاهير واوراد الجنة وانعدام التمييز لديه فصارت الالوان كلها سوداء في ناظريه ، ومن يفقد حاسة شمه لن يعد بمقدوره ان يشم طيب الروائح والعطور ، بل وما فائدة انغام الجنة وصوت داود (ع) لمن به صمم؟! ، وبعد كل هذا وذاك ايحسن الادراك من عمي وصم بكم عن الحق كما يقول المولىٰ تعالىٰ ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾[12]؟! اذاً لا بد من توفر الاستعداد والصلاحية الذاتية الاختيارية لدىٰ الافراد لنيل الرحمة الرحيمية ، وعندما نقول اختيارية نعني ان يفتح المرء اذنيه لسماع دوي الحق وان يكشف عن بصره لرؤيته جلياً وأن ينزع الاغلال والاصفاد المادية التي يقيد بها يديه ورجليه .

* العمىٰ والصمم الناشيء عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب:

ففي النظرة المحرمة الى غير المحارم خيانة ، لأنها سهم شيطاني يسدده المرء نحو بصيرته ولعل تكرارها يؤدي الى الاصابة بالعمىٰ فيصبح المرء محروماً من القدرة علىٰ رؤية الوان الرحمة الخاصة بسبب عميه عن رؤية الحق بعينه .

وكل استماع واصغاء للغو المحرم من موسيقىٰ مطربة أو أغانٍ محرمة ما هو الاّ إسدال لستائر الصمم علىٰ الأذن الباطنية لدىٰ الانسان ، مما يؤدي الاسراف فيها الى وقوع الصمم في أذني المرء الظاهريتين ، ويعدّ الكذب واستماع التهمة وعيوب الناس من جملة اللغو المحرم استماعه ، ولو تحاشىٰ

---

(١٢) سورة البقرة ، الآية (١٧١) .

المرء كل ذلك لكتبت له الرحمة الخاصة وعداً من الله حقاً كما يبشر الله تعالىٰ عباده بها في قوله ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾[13] اذ ان الرحمة الرحيمية قد آل بها الله عز وجل على نفسه أن يهبها للمتقين من عباده ومعنىٰ ذلك ان يتناسب نيل الرحمة الرحيمية مع مقدار التقوىٰ لدىٰ العبد المسلم ، فكلما ارتفع منسوب التقوىٰ لديه إزداد نصيبه من الاستعدادات والقابليات علىٰ الانتفاع والاستمتاع بالوان وعطور ونعم الجنة ، وكلما ازداد تطهر الانسان وزكىٰ عمله في دار الدنيا كلما تحقق له الرصيد الاوفىٰ من النعيم والسعادة الابدية في الآخرة ، لأن الآخرة هي دار الفصل والتمايز بين الطاهرين والمتنجسين كما يشير الى هذه الحقيقة قوله عز وجل ﴿أن يوم الفصل ميقاتهم اجمعين﴾[14] فكيف يمكن لنا أن نرىٰ من قد علا الدرن والاقذار جسده وهو يجالس سلمان الفارسي؟!!

لذلك كان حريّ بنا جميعاً ان نبادر ونسارع بالرجوع الى ذواتنا ونجيل النظر في شريط عمرنا لنبحث فيه عن مقدار ما كسبنا فيه من حصيلة التقوىٰ لنعرف درجة اللياقة والاستعداد في نيلنا لرحمة الله الرحيمية الخاصة .

اذاً نخلص بالقول من كل ما سبق أن (الرحمن) هو صاحب الرحمة العامة الشاملة لكافة الموجودات في عالم الدنيا ، و(الرحيم) هو صاحب الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، ورغم ان الرحمة الرحمانية تشمل الجميع الا ان الرحمة الرحيمية اهم واكبر لأنها الرحمة الباقية الابدية ، وهي الرحمة التي تنفع الانسان في يوم يكون فيه في أشد الحاجة وأمسّها الى مثل تلك الرحمة ولكن لن ينالها أبداً الا من سار في ركب اهل الايمان وأعدّ نفسه للتأهل بها .

* التوفيق للاسلام في ضيافة إبراهيم الخليل (ع):

وفي مناقب سيدنا ابراهيم الخليل (ع) أنه كان لا يتناول الطعام وهو وحيد دون أن يكون عنده ضيف ، ولعله كان يخرج في كثير من الأحايين ثم يقف علىٰ

(١٣) سورة الأعراف ، الآية (١٥٦) .

(١٤) سورة الدخان ، الآية (٤٠) .

قارعة الطريق ليقدم الدعوة الى الضيافة لعـابر سبيـل ، وفي أحد الأيـام جلب بصحبته رجلاً كافراً قد دعاه لتناول الطعام في ضيافته ، ولما شرعا بتناول الطعام بادر النبي ابراهيم بالقول «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم التفت الىٰ ضيفه قائلاً: قل بسم الله وباشر بتناول طعامك ، فأجابه الرجل: ولكني لا ادري من هو الله لاذكر اسمه! فقال ابراهيم (ع): اذاً انفض يديك عن الطعام وانصرف لشأنك .

فأنصرف الضيف الىٰ حال سبيله ، وفي تلك الاثناء نـزل الوحي الالهي علىٰ ابراهيم وهو يحمل العتاب قائلاً: لِمَ رددت الضيف؟ لقد كان الله تعـالىٰ يرزقه طيلة سنيّه السبعين ، ولما اوكل الله تعالىٰ لك رزقه ليوم واحد رددته!

(ولقد أجاد الشاعر الايراني سعدي الشيـرازي وهو يصف رحمـة الباري تعالىٰ في جزيل عطائه حيث يقول:

اديـم زمـيـن سـفــره عــام اواسـت　　　براين خوان يغماچه وشمن چه دوست

ومعناه:

وما أديم الأرض الاّ مائـدة منه غيـداً　　　قد دعا لها الشقي ممن بَرَا والسعيدا

فلما سمع ذلك من الوحي ، سارع ابراهيم الى اللحوق بضيفه وطلب منه العودة ، فأعترت الدهشة الدهشة وقال له: ليس لك الى ذلـك من سبيل حتىٰ تعرفني سبب لحوقك بي ، فحدثه ابراهيم (ع) بما جرىٰ من خبر الوحي ، وهنا اعترىٰ الكافر الخجل من عظيم أدب ربه وراح يقول: الويل لي ، كيف يكون عندي هكذا رب ثم أولي بوجهي عنه وعلىٰ إثر ذلك اعلن هذا الرجل اسلامـه علىٰ يد الخليل ابراهيم (ع) .

نعم اسلم بفعل ما للرحمة والتوفيق من جـاذبية ، فـوصل ببـركتهما الى ساحل الهداية ، ولذلك جاء الحديث النبوي الشريف «اكرموا الضيف ولو كان كافراً» لما لهذا الأدب الرباني من جاذبية في تـربية الانسـان وجره الى سـاحل النجاة ، ولكن وللأسف الشديد بل ومع كل الأسىٰ ، فأن ضيف كربلاء الكريم

سبط الـرسول (ص) وفلذة كيـد أمير المؤمنين وبضعـة الزهـراء البتـول (ع) لم يحجب عنه الماء وهو ظمآن فحسب بل وانتهك اهل الكوفة حرمتـه ثم اوردوه الردىٰ بعد أن دعوه اليهم .

«٥»

﴿الرحمٰن * علّم القرآن * خلق الانسان * علّمه البيان﴾[١] .

* تعلم القرآن احد السبل المشرعة نحو نيل النعم:

لقد ذكرنا آنفاً ان العلة الكامنة في افتتاح هذه السورة الكريمة بالاسم المبارك (الرحمن) هي ما تستعرضه هذه السورة من الوان النعم الظاهرية والباطنية علىٰ ما سيأتي التطرق اليه ، ولعل اكبر هذه النعم التي تستعرضها السورة هي نعمة تعليم القرآن ﴿علّم القرآن﴾ التي لولاها لما تيسّرت الاستفادة من سائر النعم الأخر ، فقد علّم الرحمٰن تعالىٰ حبيبه محمد (ص) القرآن ، وقام النبي (ص) بدوره في تعليمه لسائر المسلمين ، هذا الكتاب الذي جمع بين دفّتيه مختلف المعارف والعلوم المشتملة علىٰ المعاني التي لا تنتهي حدودها بقوالب لفظية اتسعت لهن الفاظ القرآن بالشكل الذي يعجز عن مساجلته بني البشر ، فضلاً عن الاتيان بمثله باعتبار عجز قدراتهم ، ولقد استطاع قلب الرسول الكريم (ص) علىٰ الاتساع لهذا القول الثقيل من الوحي ﴿انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾[٢] ، فأجراه الباريء عز وجل علىٰ لسان النبي

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١ ـ٤) .

(٢) سورة المزمّل ، الآية (٥) .

الشريف بيسر وعلّمه الآخرين ، ولذلك يعد بعض العلماء مسألة قبول الوحي مشكلة حقيقية لم يستطع أحد ان ينبري لها سوىٰ رسولنا الكريم (ص) بما أمدّه الله تعالىٰ من قوة وقدرة الهيتين .جعلته مؤهلاً لاستقبال الالقاء الالهي للقرآن وحمله الى الآخرين بكل يسر وسهولة ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر﴾[٣] .

* لا يعدو الانسان المنزلة الحيوانية عند التجرّد عن الروحانية :

وبفضل القرآن ومعارفه وتعاليمه الأخلاقية يترفّع الانسان عن حد البهيميّة فيستحيل إنساناً ، وبغير ذلك يبقىٰ الانسان موجوداً حيوانياً يمشي علىٰ رجلين ، ولعله يتسافل وينحدر في شهواته الىٰ ما دون أي حيوان آخر ، بل قد يتوحش في سلطان غضبه الى الدرجة التي تهون دونه كل الوحوش الكاسرة ، أو يصبح حريصاً علىٰ جمع الأموال فيتفوق علىٰ كل حيوان ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾[٤] ، لذلك تأتي بركة القرآن الكريم في تنظيم وتقنين الاستفادة من الروح وملكاتها كما يؤكد هذه الحقيقة الحديث الشريف الذي استشهد به عامة اصحاب التفاسير في قول الرسول (ص) «اشراف أمتي حملة القرآن واصحاب الليل» لأن الشرف الذي يكتسبه الناس من القرآن سواء كان معرفة او كمالاً انما هو شرف حقيقي استودعه القرآن لبني البشر ، وعلىٰ ذلك كان الافراد المشتغلون والمتعاطون للقرآن هم الذين قد اكتسبوا الشرف والكمال لما في القرآن من نظام للحياتين في داري الدنيا والأخرة ، ولقد كان القرآن شفاء من علل واسقام الجهل ، اذ ان الطب الالهي القرآني هو الذي يتصدّىٰ لعلاج وشفاء الامراض والادواء الباطنية للنفس والهوىٰ وما يعتلج في الصدور ﴿وشفاء لما في الصدور﴾[٥]وكذلك فان القرآن يأخذ بأيدي الناس نحو الهدىٰ والرشاد من خلال آياته المشتملة علىٰ المعارف القرآنية وتحديد ملامح المبدأ والمعاد واستعراض صفات الله تعالىٰ وافعاله ، ولولا القرآن لما أطلّع أحد علىٰ انباء

---

(٣) سورة القمر ، الآية (١٧) .

(٤) سورة النجم ، الآية (٣٠) .

(٥) سور يونس ، الآية (٥٦) .

مبدأه ومعاده وحقيقة وجوده بشكل واضح .

* الأشراف ، أصحاب اللّيل :

والمجموعة الثانية من اشراف الأمة هم اصحاب الليل كما ورد في الرواية الشريفة الآنفة الذكر ، والمقصود بأصحاب الليل هم أهل احياء الليل الذين يقضون الليل قياماً لله تعالىٰ ويقفون علىٰ عتبته المقدسة في الأسحار ويتوجهون اليه وقد استيقنوا ما سيؤول اليه معادهم ببركة ما اخبرهم به القرآن العظيم ، لذلك تراهم قد أعدّوا عددهم وهيّئوا زادهم في رحلة الى دار البقاء بما صدقوا به واعتقدوه فلن يصيبهم بعد ذلك نصب أو قتر مما يصيب اهل الدين الذين حرصوا علىٰ الدنيا واموالها فهم يقومون الليل ويكدّون النهار رجاء جمع المال ونيل الأوطار من نعم تزول ونعيم لا يطول ، فرحل اهل الآخرة في حرصهم علىٰ طلب الحسنات والزهد في الدنيا سعياً وراء لآخرة ، لذا نراهم يهجرون الفراش الوثير والنوم الهانيء الى رقدة القبر ، فيقومون الليل يتلوون في بكاء وانين وبث الشكوىٰ متأرجحين بين الخوف من ربهم والرجاء لما عنده في دعاء وتضرع ومناجاة كما يتصور هذا المشهد الرائع في قوله تعالى **﴿تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع . يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾**[٦] .

* خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه :

يقول النبي المختار (ص) «خيركم ـ أو خياركم ـ من تعلّم القرآن وعلمه»[٧] ، والمقصود بالتعلّم هنا هو العلم المقرون بالعمل ، وبالطبع فان العلم بالقرآن يؤدي الىٰ معرفة الله وتوحيده والاستخبار عن المعاد من خلال الآيات الدالة على المعاد كيما يضمّها القلب في كنفه ويستحضرها الفكر متاعاً للسفر نحو الدار الآخرة فيتعرف الانسان علىٰ آيات العمل ليعمل بها ، اما تعلّم القراءة لوحده لا نعتقد بوجود نفع كبير فيه باعتبار ان تلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه

---

(٦) سورة السجدة ، الآية (١٦) .

(٧) تفسير البرهان ، (ج١ ، ص ٤) .

انما هو في الواقع مقدمة للمعرفة واليقين والعمل .

أفليس عجيباً ان يلم المرء بتعاليم القرآن الاخلاقية بشكل جيد ويُحسن تلاوة القرآن وينقل علومه ومعارفه ويعلّمها بشكل فذ ، لكنه في سلوكه العملي يقف علىٰ النقيض من ذلك؟ ولكي نضع هذا الأمر موضع الوضوح نورد هنا بعض الأمثلة على ذلك .

* العفو ، ودفع السيئة بالحسنة:

فلقد ورد في جملة التعاليم الأخلاقية القرآنية ، العفو والتجاوز عن المسيئين ، يقول المولىٰ عز وجل: ﴿**فآعفوا وآصفحوا* ألا تحبّون أن يغفر الله لكم**﴾(٨)أي لو عفىٰ بعضكم عن بعض لعفىٰ الله عنكم ، وفي آية اخرىٰ يقول تبارك وتعالىٰ ﴿**لا تستوي الحسنة ولا السيئة * ادفع بالتي هي أحسن**﴾(٩) ، فكيف بنا لا نستغرب ادعاءات البعض أنهم من اهل القرآن ثم نجدهم لا يتجاوزون عمن اساء بحقهم أو يدفعون السيئة بالحسنة!!

اذاً لا بد لاهل القرآن ان يردوا علىٰ من فحش لهم بالقول بليّن الحديث ، وان يحسنوا القول فيمن ذكرهم في غيابهم بسوء ، وان يحترموا من احتقرهم ، وان يصلوا من قطعهم ، أليس كذلك؟

* تعلّم القرآن لأجل العمل به:

لذلك كان تعلم القرآن يهدف الىٰ الحصول علىٰ النتائج العلمية والعملية التي تحقق خير البشرية كما نجده في الرواية الشريفة التالية التي أوردها كتاب بحار الأنوار في المجلد التاسع عشر من باب قراءة القرآن كما في مضمونه الآتي: (في صدر الاسلام الاول كان الرجل الذي يعلن اسلامه يبعث به الىٰ أحد اصحاب النبي (ص) لأجل ان يتعلّم القرآن ، فيباشر الصحابي تعليم

---

(٨) سورة النور ، الآية (٢٢) .

(٩) سورة فصلت ، الآية (٣٤) .

المسلم الجديد العهد بالاسلام عشر آيات ولا يعلموهم عشر أخريات حتىٰ يعملوا بالعشر الأوائل) ، وها قد تعلمنا نحن أيضاً هاتين الآيتين المتضمنتين للعفو عن المسيء ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، كيما نجعلهما نموذجين في حياتنا العملية لكي لا نكون ممن ادعىٰ نسبه لاهل القرآن ثم تلكّأ في العمل بما فيه .

* نزول السكينة في قلب قاريء القرآن:

وعندما يجلس المرء ليتلو القرآن ينزل الله تعالىٰ عليه النور والسكينة فيعمر قلبه بها كما في قوله تعالىٰ **﴿هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾**(١٠)وانما يتم نزول السكينة في قلوب المؤمنين لكي يزدادوا ايماناً ، وهذه البركة القرآنية العظيمة انما تحصل لأهل القرآن لكي لا تضطرب بعد ذلك قلوبهم تأثراً بالاضطرابات الدنيوية ، فيشمخ اولئك كالجبال الرواسي ، وينعمون بالاً لأنهم «من فزع يومئذ آمنون» فلا تهولهم الافكار ولا الظنون ، وقد جاء في حديث شريف ما مضمونه (خيركم من كان كحال المرتحل ، قيل وما ذاك يا رسول الله (ص)؟ قال: من يختم القرآن ثم يعاود الكرّة من جديد)(١١)وعن الامام الصادق (ع): (عندما تعييك الحاجة ، فأجعل القرآن وسيلتك في طلب الحوائج)(١٢) .

* القرآن ، أعظم النعم الالهيّة:

ولا شك ان القرآن الكريم هو افضل نعم الله تعالىٰ علىٰ الانسان ، فقد اشتملت سورة الرحمن علىٰ ذكر الكثير من النعم الربانية ما ظهر منها وما بطن ، وعلىٰ رأس تلك النعم جاء ذكر القرآن والشمس والقمر وغيرها ولكن ما الفائدة من سائر النعم الإلهية فيما لو افتقد الانسان نعمة الهدي القرآني؟ فتصور نفع وجود الجنة للناس في حال افتقادهم للقرآن الهادي والدليل الصائب نحو

---

(١٠) سورة الفتح ، الآية (٤) .
(١١ ، ١٢) بحار الانوار ، المجلد التاسع عشر .

الجنان ، لذلك جاء الباري تعالىٰ بذكر تعليم القرآن في أول سرده للنعم ، وجاءت آخر وصايا النبي (ص) بالتزام القرآن والعترة النبوية (ص) .

* التوسل بالقرآن والعترة لأجل قضاء الحوائج العظيمة:

روي عن الامام الصادق (ع) كما جاء في كتاب الصلاة من كتاب بحار الانوار أنه قال: (لو كانت لديك حاجة هامة فتوضأ عندما يسدل الليل أستاره علىٰ الدنيا وصلّ لله ركعتين ، تقرأ في الاولىٰ بعد الحمد آية الكرسي ، وفي الثانية بعد الحمد أواخر سورة الحشر ﴿**لو انزلنا هذا القرآن. . .**﴾ ثم تقرأ هذا الدعاء بعد سلام الصلاة (وهو الدعاء الذي يقرأ في ليالي القدر) وقد نشرت القرآن علىٰ رأسك قائلاً بك يا الله عشر مرات ثم بمحمد (ص) عشر مرات ثم. . . (وتذكر اسماء بقية المعصومين الاربعة عشر علىٰ النحو الذي مر ذكره) الىٰ ان تصل الىٰ ذكر الحجة (ع) ثم تطلب حاجتك فانها تقضىٰ باذن الله تعالىٰ أياً كانت الحاجة) . نعم لأن التوسل بالقرآن والعترة لا يرد وخصوصاً في اوقات السحر لأن له فضيلة اكبر .

« ٦ »

﴿الرحمن* علّم القرآن* خلق الانسان* علّمه البيان﴾[1] .

* خلْق الانسان ونعمة البيان:

قلنا أن الرحمن علم حبيبه محمد (ص) القرآن المجيد ، وقام النبي (ص) بدوره بتعليم القرآن الىٰ أمّته بعد أن يسر عليهم مطالبيه من حيث الكشف عن خفي اموره اللطيفة واسراره الربانية ومكنونات عالم الخلق ومسائل المبدأ والمعاد ، ثم تسوق السورة الكريمة نعمة أخرىٰ عظيمة هي افضل النعم بعد تعليم القرآن الا وهي نعمة خلق الانسان وتعليمه البيان ، والمقصود بالبيان هو الافصاح عن رغباته الداخلية ، وقد يكون البيان نطقاً أو خطاً بالقلم أو اشارةً وايماءً يعرب فيها الانسان عما يريد الافصاح به للآخرين ، وهو يختلف عما لدىٰ سائر الحيوانات التي تستخدم وسائل محدودة من البيان للأعراب عن الاحساسات والمعاني تكون محدودة باعتبار محدودية المعاني والادراكات لديها عما هي عليه لدىٰ الانسان لأن انما تستخدم هذا البيان لاجل رفع حاجاتها ليس إلّا ، فمواء القطط عند الجوع يأخذ نبرة معينة يختلف عن نبرة الغضب ويختلف

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١ ـ ٤) .

أيضاً عن نبرة التملّق أو الدلال ويختلف كذلك عن نبرة الاجابة عندما تسمع صوت وليدها ، ولكننا لو انتبهنا الىٰ وسيلة بيان القطط لا نراها تعدو عبارة (ميو ميو) ولكنها تدرك الف الميو وباءه بشكل مختلف تماماً عما ندركه نحن في جميع تلك الموارد ، وهكذا الحال لدىٰ سائر الحيوانات وان تباين زيادة أو نقيصة في الأفهام أو الاستفهام ولكن يبقىٰ بيانها بياناً محدوداً وناقصاً .

اما عن الانسان فان الله (عز وجل) ميّزه بنعمة البيان والمنطق بأحلىٰ صور البيان وأروعها بحيث يستطيع من خلالها أن يدرك أخفىٰ الموضوعات ، وان يعرب عن الالم الذي يكتنفه وان يبين المعاني الجزئية فضلاً عن الكليّة ، والحقائق والمعارف فهو يمتلك من القدرة ما يستطيع به ان يفصح عن كل ما يدركه نطقاً وهو ما نسميه بالبيان نعم ، لقد خلق الله تعالىٰ الانسان علىٰ نحو يستطيع فيه ان يقول ﴿**خلق الانسان* علّمه البيان**﴾ .

* اللسان ومخارج الحروف ، من عجائب الخلق:

فتعالوا الىٰ اللسان ، هذه القطعة اللّحمية المستقرة في الفم وانظروا الىٰ روعتها ، فهي تتحرك بكل حرية في محيط الفم بين الحنجرة والشفاه لتخرج ثمانية وعشرين حرفاً عربياً واثني وثلاثين حرفاً فارسياً ، اذ لدينا ستة حروف عربية تنشأ عن حركة اللسان في الحلق وهي (الهاء والحاء والخاء والعين والغين والهمزة) ومنشأ اصوات هذه الحروف في حلق الفم انما يتم بتحريك الانسان للسان ليضرب بمخارجها فتظهر اصواتهن جليّات .

وهناك اثنا وعشرون حرفاً عربياً تصدر عن اول الحلقوم الىٰ الشفتين بضمنها حرفان يصدران عن الشفتين هما (الباء والميم) فيصبح مجموع الحروف علىٰ ما ذكرنا ثمانية وعشرين حرفاً عربياً ، علماً ان للاسنان من ثنايا وانياب دور مهم في ظهور اصوات عدد من هذه الحروف ، رغم ان المسافة الممتدة بين الحلقوم وفضاء الفم (الحلق) لا تعدو شبراً واحداً ولكن يصدر عن هذه المحيط المحدود ثمانية وعشرون حرفاً في قدرة ابداع الهية جلية ، يتم بعد ذلك التوليف والعقد بين هذه الحروف لتخرج الكلمات والجمل والعبارات والموضوعات

المفيدة التي تتزاحم بل وقد تتصارع في ذهن الانسان لينقلها الىٰ الآخرين في المحيط الخارجي فيتعرف بنيٓ الانسان علىٰ حاجات ورغبات وافكار بعضهم البعض . وما التعلّم والتعليم الاّ من النتائج الحاصلة لبركة نعمة النطق والبيان ، بل وما هذا التطور والرقي في ميادين التصنيع والاختراعات والمكتشفات الاّ من آثار فضل النطق والبيان الذي نقله الاسلاف الىٰ الاجيال الآتية وصولاً الىٰ تكاملها ، فتأمل كيف ان النطق والبيان لو لم يكن لضاعت اتعاب وجهود الناس لثلاثين او اربعين سنة في ميادين التصنيع والمخترعات ، وقد أشار الامام الصادق (ع) الىٰ هذه الحقيقة ضمن وصاياه للمفضل بن عمر حيث قال (ع) ما مضمونه: (ولو لم يكن الله (تعالىٰ) قد أنعم علىٰ الناس بنعمة النطق والبيان لضاعت ومحيت جميع العلوم والصناعات والحرف ان معنوية كانت أم علوماً دينية) لأن المعارف الالهية لا تتحقق الا بفضل النطق والبيان .

* أدوار القلب والدماغ والذاكرة في النطق:

والشيء العجيب هنا هوان نعمة البيان لها صلة وثيقة بسائر الاعضاء والجوارح ، وخصوصاً بالقلب والدماغ ، فلو أصيب القلب بالجلطة لأصبح لسان المرء ثقيلاً فيبتلىٰ حينها (بالتلعثم) أو ما يسمىٰ باللكنة او اللثغة الكلامية .

ولو اصيب الدماغ بجلطة او بضربة أو صدمة او ارتجاج علىٰ فرض سلامة باقي اعضاء واجزاء البدن لتعطل اللسان عن العمل في اغلب تلك الحالات .

وللنطق اللساني صلة وثيقة أيضاً بالقوىٰ الباطنية لدىٰ الانسان ، فهو يرتبط بالحس ويرتبط ايضاً بالذاكرة التي تسمىٰ أيضاً (الحافظة) ، ودور الذاكرة يتحدد في مهمة تسجيل المعاني باعتبارها خزانة لحفظ المعاني والألفاظ ، فعندما يريد المرء ان يشرع بقراءة بسورة الفاتحة في صلاته يفترض انها قد حفظت في الذاكرة ، ولو افترضنا ان الذاكرة لم تسجلها ، فتصوروا كيف سيتأتىٰ لهذا الانسان ان ينطق بسورة الفاتحة؟ بل لو لم تحتفظ الذاكرة بالمواضيع والمعلومات لتعطل دور الخطيب في الارشاد والتذكير لانه سوف لا يجد ما يريد قوله للناس من علىٰ منبره ، لذلك كان دور الذاكرة وقوة حفظها دوراً فاعلاً يساعد حتىٰ في

عملية الكتابة ، فالخطاط الذي يفقد ذاكرتـه لا يستطيـع بعدهـا ان يخط بيمينه حرفاً واحداً الفاً كان أو باءً (لا سمح الله تعالى) ، بل ان عدم وجود الذاكرة لعله ينقلنا بشكل قاطع الىٰ العدم لما يترتب علىٰ ذلك الامر من مخاطر ومفاسد .

فالرحمن علم القـرآن وخلق الانسان ثم علمـه البيان بحيث جعله يثبّت ويسجّل المواضيع والامور التفصيلية وان ينشأ الالفاظ المناسبة للمعاني ، وعلىٰ ذلك يكون معنىٰ الآيـة المباركـة ان الرحمن علم الانسـان الافهام والاستفهـام بالشكل الذي يمكنه ايصال ما يريده للآخرين بكـل يسر وسهـولة ، وان يـدرك ايضاً ما يريده ويقصده الآخرون .

* تكامل النبات والحيوان في الانسان:

ان نعمة البيان التي مَنّ الله تعالىٰ بها علىٰ الانسان ودعّمها بدرك المعاني وتثبيتهـا وتسجيلها ، استلزمت ان يصبـح النبات والحيـوان انسانـاً في تخـطي مراحل الوصول الى التكامل اي ان يصبح جزءاً من بـدنه ، فيكـون من شرف الخضار والثمار ولحوم الضأن ان يشتهيها الانسان المؤمن فتصبح جزءً من بدنه ثم من لسانه الذي سينطق اذّاك قائلاً الله اكبر والحمد لله بنطقه التكويني ، لأن امنية تلك الموجودات ان تصل بدورها الى الكمال .

التمر مثلاً ليس لديه لسان يستطيع ان يسبح الله تعالىٰ به تسبيحاً لسانياً ، لـذلك فهـو يتمنىٰ ان يصبح جـزءً من بدن الانسـان المؤمن وان يصدع قـائـلاً «سبحـان الله فـالق الحب والنـوىٰ» وأن يـردد قـائـلاً «الحمـد لله رب الانهـار والاشجار» وهكذا الحال تكويناً لدى الحيوانات من الأنعام وغيرها . فحرام علىٰ الانسان الذي قدّم له الباريء كل ذلك لينعم به ثم يضع لسانه وفكره وقلمه في غير رضا الله (جل وعلا) .

وعلىٰ ذلك يكون شأن البيان هو اظهار شؤون الربوبية ، وما سائر الامور الاخرىٰ الّا مقدمة لهذه الحقيقة ، لأن الادراك العقلي سوف يترجم الىٰ الفاظ لسانية ، فحقيقة التوحيد العقلي والايمان بالله تعالىٰ يستدعي جريان قول لا اله

الاّ الله علىٰ لسان المرء ، وعندما يتعرف المرء علىٰ كرم الله ينادي بلسانه يا كريم ويا رحيم ، وعندما يقف الانسان علىٰ ذنوبه وآثامه يردد قائلاً يا غفور ، يا شكور طلباً للصفح والمغفرة .

اذاً اللسان ترجمان العقل والقلب الفهم ، فهل ترون كل ذلك لا يستدعي ولو القليل من الشكر لله عز وجل؟!

دعاء رائع للامام زين العابدين (ع):

يقول الامام زين العابدين (ع) في دعاء مكارم الاخلاق «واجعل ما أجري علىٰ لساني من لفظة فحش أو هجر أو شتم عرض أو شهادة باطل او اغتياب مؤمن غائب او سب حاضر وما اشبه ذلك ، نطقاً بالحمد لك وإغراقاً في الثناء عليك»(٢) . نعم ، فاجعلني اللّهم محصياً لآلائك مستكثراً لنعمك ، فلك الحمد علىٰ ما انعمت به علي من عينين واذنين ولساناً ، ولك الحمد علىٰ ما دفعت عني من بلاء فسلّمتني ، ولك الحمد علىٰ ما حلت به بيني وبين العلل والاسقام فشفيتني .

هذا اللسان الذي يستطيع ان يحصي ذكر نعم الله ، وان يقدم آيات الشكر والحمد لله علىٰ ما أولىٰ من نعم واحسان ، كيف يأن له ان يجري بلفظ الأمور الباطلات؟! يقول الامام الصادق (ع) (ولطالما كان والدي يكثر من قول لا اله الاّ الله حتىٰ يجف ريقه) ، ولقد ورد من الروايات ما يدفع المرء نحو ترديد الاذكار كما في الرواية الواردة في اصول الكافي التي تفيد (من قال في يومه لا اله الاّ الله مائة مرة ، كان اثقل الناس عملاً ، الاّ من قالها اكثر منه)(٣) .

---

(٢) الصحيفة السجادية ، دعاء مكارم الأخلاق .

(٣) اصول الكافي ، للكليني ، (ج٢ ، ص٥١٩) .

* آدم (ع) ومحمد (ص) من مصاديق الانسان:

(خلق الانسان) ، اوردت روايات اهل البيت (ع) وآراء العلماء والمفسرين أن من مصاديق هذه الآية الكريمة هو خلق آدم (ع) ، وآية (علّمه البيان) تعني علّمه الله تعالىٰ الاسماء كلّها ، لأن أحد موارد تعليم البيان هو ما علّمه الله (عز وجل) آدم أبو البشر وهي الاسماء الحسنىٰ ، وقد جاء في رواية أن الله تعالىٰ علّم آدم (ع) سبعمائة ألف لسان ، وهذا هو أحد وجوه الانسان في هذه الآية .

اما الوجه الثاني لآية (خلق الانسان) فهو ان المقصود بالإنسان هنا هو محمد (ص) وآية ﴿علّمه البيان﴾ تعني ان الله علّمه الحلال والحرام كيما يبلغه للناس ليأخذوا بالطيبات ويذروا الخبائث كما يشير الىٰ هذه الحقيقة قوله تعالىٰ **﴿يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾**(٤) .

* إنعام الباري علىٰ علي (ع) بأحاطته بكافة العلوم:

أما الوجه الآخر في مصاديق قوله تعالى ﴿خلق الانسان﴾ فهو خلق علي بن ابي طالب (ع) ، وآية ﴿علمه البيان﴾ تعني ان الله تعالىٰ علّمه بيان كل شيء بفضل عنايته كما يستشف من قوله تعالى **﴿وكل شيء احصيناه في امام مبين﴾**(٥)فقد نقش الله (جلّت قدرته وعظمته) في لوح قلب الامام علي (ع) المقدس علم كل شيء ، وعلوم الحوادث والكائنات وهكذا الحال ايضاً في قلوب ابنائه الائمة الأحد عشر المعصومين (ع) ، وقد بيّن الله (تعالىٰ) جميع الامور لهم بما أوقره في صدورهم الشريفة ، واستناداً الىٰ ذلك قيل أن القرآن مجموعة الفاظ ، وأن قلب الامام هو معنىٰ تلك الالفاظ وحقيقتها ، لأن القرآن صامت بألفاظه ، والامام قرآن ناطق بحقائق الالفاظ ، ورغم كل هذا وذاك تقع

---

(٤) سورة الأعراف ، الآية (١٥٧) .

(٥) سورة يس ، الآية (٤٢) .

الفاجعة ممن لبس لباس الاسلام ، فهم يزعمون انهم قد احترزوا من النائبات باسم النبي (ص) ثم لا يتورعوا عن فري كبده الحسين (ع) .

قـد جـعـلوا مـن يس حـرزاً وعـلىٰ آل طـه راشـوا السـهـامـا



﴿الشمس والقمر بحسبان* والنجم والشجر يسجدان﴾[1] .

* الحركة المنتظمة للشمس والقمر:

بعدما بين الرحمن كيف انه تعالىٰ علّم القرآن لمحمد(ص) ليبلّغه للناس ، وقلنا ان القرآن هو اعظم النعم الالهية وخلق الانسان ثم علّمه البيان لكي يتسنىٰ له من خلاله ان يستفيد وان يوصل ما يروم التعبير عنه للآخرين مع ما اشتمل هذا البيان من مقدمات في القوىٰ المدركة والمفكرة والحافظة التي تسبق نعمة البيان كما أشرنا من قبل ، وقد تبين لنا جلياً ان الباري تعالىٰ قد عرف لنا النموذجين من رحمته العامة (الرحمانية) ، ثم عقّب تعالىٰ ذلك بذكر نموذجين آخرين من نعمه العلويات ونموذجين تاليين من نعمه السفليات ، اما عن نعمه العلوية فهما ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ . وكلمة ـ بحسبان ـ هي جار ومجرور يتعلقان بفعل مقدر نحو (يجريان) ومعنى كلمة بحسبان تعني بحساب منتظم ، وحسبان مصدر علىٰ وزن غفران من باب نصر ينصر وهو الحساب والنظم والترتيب ، وتكون خلاصة معنى الآية هي (ان الشمس والقمر يتحركان

---

(١) سوره الرحمن ، الآيات (٥ ـ٦) .

بحركة منتظمة محسوبة دون أدنىٰ تغيير او عشوائية في دورانهما .

* إنتظام السنتين القمرية والشمسية:

تبلغ الدورة القمرية الواحدة ٢٨ يوماً ، ويبلغ عدد أيام السنة القمرية ٣٥٦ يوماً علىٰ التمام ، بينما تبلغ السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وربع اليوم في دورة تامة علىٰ اثني عشر شهراً على التمام .

فيا أهل السبعين ، هل شعر أحدكم في ماضي عمره بأدنىٰ تغيير في هذا الحساب؟ بل وتتعاقب الفصول الأربعة للسنة (الربيع ، الصيف ، الخريف ، الشتاء) في نظام محدد فهل صادف أن شوهد الربيع يسبق الشتاء؟ أو ان يأتي معقباً للصيف؟

* حركة المنظومة الشمسية باتجاه النجم (النسر الواقع):

ولعله من الباعث علىٰ الدهشة ما تمّ كشفه في هذا العصر من أن الشمس ومنظومتها تتحرك بسرعة مذهلة نحو نجم يقع في كبد السماء يسمىٰ النجم فيغا (أو النسر الواقع) . فالشمس كرة هائلة ملتهبة يبلغ حجمها مليون وثلاثمائة الف ضعف من حجم الكرة الأرضية التي نسكنها ، فعلىٰ سبيل المثال التحقيقي الذي اورده العلماء يقال ان لو افترضنا حجم الارض بحجم (الأجّاصة) فأن حجم الشمس سيكون بقدر كرة قطرها مائتي متر ، ولكن الشمس تبدو للرائي صغيرة بسبب المسافة الشاسعة التي تفصل بينها وبين أرضنا والتي تقدّر بـ ٩٠ مليون ميل .

وعن حركة الشمس فهي تجري ضمن مدار محدد ومعروف يقدّر بعشرين مليون كيلومتراً في الثانية الواحدة من حيث سرعة الحركة ، اي انها تطوي بسرعتها في الدقيقة الواحدة ألفاً ومائتي مليون كيلومتراً مع منظومتها التي تصحبها برفقتها وهي (الارض ، عطارد ، المرّيخ ، المشتري ، زحل ، الزهرة ، اورانوس ، نبتون ، بلوتو) بأتجاه النجم فيغا ، وقد أشار القرآن الكريم

الىٰ هذا الأمر في قوله تعالىٰ ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾(٢) .

ومن كل ما سبق نخلص الىٰ أن الله تعالىٰ خلق بقدرته القاهرة الشمس ، ثم جعل لها فلكاً تسبح فيه ، فأنظر الىٰ عظمة الله وقدرته التي لا يعجزها شيء وقد شهدت لـه بها احـدىٰ مخلوقاتـه التي لا تحصىٰ ، هذه الشمس بحجمهـا الهائل وبحركتها المذهلة في مدار منتظم لا تزيد علىٰ العشرين مليـون كيلومتر في الثانية ولا تنقص عنه شيئاً .

* الأهلّة ، ظاهرة القدرة الالهية المدهشة:

وعن الأهلة ، وهي تغير صورة القمـر من هلال الىٰ بـدر الىٰ هلال الىٰ محاق ، هذه الصور التي تثير اعجاب الرائي والباعثة علىٰ تحيّر المشاهد لها من خلال دقة النظام والحساب في تدرّج مراحلها لتقدّم تقويماً جميلاً للناس كـافة يعرفه الأميّ والمتعلّم ، وتبدأ الأهلة بأولىٰ مراحلها عندما تكون صورة القمر في ليلته الأولىٰ علىٰ شكل خيط دقيق ، ثم لا يلبث في الليلة اللاحقة حتىٰ يصبح هلالاً نحيفاً ثم يتدرج في باقي الليـالي اللاحقـة حتىٰ يصبح بـدراً في الليالي الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر من الشهر بحيث تـظهر صفحـة القمر كاملة متألقة ، بعد ذلك تأخذ صورة القمر (البدر) بالانحسار في الليالي المقبلة تدريجياً فتستحيل الىٰ هلال عـريض لا يلبث أن تزداد نحـافته ليلة بعـد أخرىٰ حتىٰ تحل الليالي السادسة والعشرين والسابعة والعشرين وكأنه خيط دقيق ، ثم تستحيـل صورة القمـر الى محاق فتنعـدم صـورتـه تمـامـاً في الليلتين الثـامنـة والعشرين والتاسعة والعشرين ، ثم تبـدأ من جديـد رحلة الظهـور ليبدأ الشهـر الآخر من الاشهر القمرية علىٰ وتيرة ما ذكرنا آنفاً دواليك ، ولقد أنعم الله تعالىٰ علينا ان جعلنا نتعرف ببركة الأهلة علىٰ حساب الشهـر القمري لنحـدد موعـد الصيام وشهره ، وأوان الحج واعياد المسلمين وفقاً لنظام طبيعي يسهـل ادراكه

---

(٢) سورة يس ، الآية (٣٨) ويمكن الرجوع الىٰ ما ذكره السيـد المؤلف (رض) حول هـذا الموضوع في كتابه الموسوم (قلب القرآن) المتضمن لتفسير سورة يس لمن اراد المزيد .

للجميع فتحدد الأشهر الحرم بواسطته . ويبقىٰ هذا النظام دون ادنىٰ تغيير حتىٰ يأذن الله تعالىٰ بقيام الساعة كما يشير الىٰ هذه الحقيقة قوله تعالى **﴿إن عدّة الشهور عند الله إثني عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيّم﴾**(٣) .

* النبات الزاحف والقائم :

ثم يذكرنا الله عز وجل بآيتين ونعمتين من نعمه السفلية في قوله عز وجل **﴿والنجم والشجر يسجدان﴾** ، ولعل المراد هنا (بالنجم) في هذه الآية هو ما ينجم اي يخرج عن الأرض ويفترشها ناشراً عليها اغصانه وثماره من النبات ، كالقرع والخيار والرقي والبطيخ ، وهو ما نصطلح عليه بالنبات الزاحف .

وهناك نوع آخر من النبات يقوم علىٰ الأرض ، اي يثبت عليها قائماً بواسطة سيقانه كما في أشجار التفاح والبرتقال والرمان وما سواها ، ولذلك قالت العرب للنبات الزاحف نجماً وقالت للنوع الآخر أشجاراً أو شجراً ، ولو التفتنا الىٰ مقدار فصاحة وبلاغة هذه الآيات لادركنا السر في الترتيب اذ ان الآية تدعونا فيما سبق الىٰ رفع رؤوسنا نحو السماء لنرقب الشمس والقمر ونظام حركتهما لندرك من خلال ذلك عظمة الباري تعالىٰ ثم تدعونا الآية اللاحقة الى ان نطأطيء رؤوسنا نحو الأرض لننظر النبات الذي إفترش الارض او ما قام عليها وهما يسجدان لله سبحانه وتعالىٰ .

* الجميع يسجد لله (تعالىٰ) تكويناً :

السجود لغة يعني الانقياد ، وقد جاء معنىٰ السجود هنا بمعنىٰ الانقياد التكويني ، والسجود التكويني للنباتات انما هو في حدود ما حدده الله تعالىٰ لها ، فهي لا تتعدىٰ ما رسم لها ، فالحب والنوىٰ ينفلق في حدود ما أراده الله لها ، فحبة القمح لا تنفلق عن نبتة شعير اطلاقاً ، وهكذا الحال في سائر الشجر والنبات لأنها لا تباشر فعالياتها الاّ وفقاً للخصوصيات التي أودعت فيها تكويناً ،

---

(٣) سورة التوبة ، الآية (٣٦) .

لذلك كانت منقادة في شؤونها التكوينية كسائر الموجودات ، وعلىٰ هذا الاساس فهي تسجد انقياداً لامر الله تعالىٰ وارادته وفقاً لما هو مطلوب منها .

والشيء المهم في موضوع الانقياد هو السجود الاختياري في الانسان رغم انه يسجد سجوداً تكوينياً أيضاً لله كسائر المخلوقات ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾(٤) .

فالانسان منقاد لأمر الله تعالىٰ مذ كان نطفة ، وعندما يلج عالم الدنيا ، ذكراً كان ام انثىٰ ، وجميلاً كان ام دميماً ، قمئياً كان ام فارعاً ، فقيراً كان ام غنياً ، سليماً كان أم سقيماً وحتىٰ يدركه الضعف والعجز والشيخوخة ثم يصير الى الموت ، فهو جميع تلك الاحوال منقاد لله يسجد له ولا سبيل له الاّ التسليم لمشيئة الله (جل جلاله) . ويبقىٰ الشرف والكرامة للأنسان عندما يسجد لله بمحض ارادته واختياره .

يقول السيد ابن طاووس (عليه الرحمة) في وصيته لولده (وعندما تبلغ عام تكليفك الشرعي فأحتفل به وتصدق بمائة وخمسين سكة نقدية ، لأن يومك هذا هو اليوم الذي لفت الله تعالىٰ نظرك فيه الىٰ طاعته ، ولانك قد بت فيه مؤهلاً لقبول الأمر والنهي الربانيين ، فحري بك ان تقول ـ انه لمن دواعي الشرف والكرامة ان يأمرني الباري عز وجل ان اطأطيء رأسي أرضاءاً له وامرّغ وجهي بالتراب تعْظيماً لله بمحض ارادتي واختياري فأبرز للملأ عظمة الله سبحانه وتعالىٰ) .

---

(٤) سورة الرعد ، الآية (١٥) .



﴿والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[1] .

* عن القمح ينفلق القمح ، وعن الشعير الشعير :

يقال ان السجود هو اعلىٰ درجات الانقياد والتذلـل ، وتعد عمليـة وضع الجباه علىٰ التراب صورة من صور السجود ، وهذا لا يعني بالضرورة إنحصار عملية السجود بتلك العملية ، فنحن طيلة اعمارنا لم نشعر مثلاً بأن مرت هنيهة سكنت فيها حركة الارض أو الشمس ، بل ان الاشياء جميعاً تبذل طاعتها للأمر الالهي التكويني مع العلم به أو بدونه ، فالأشجار والنباتات باعتراشها الارض او قيامها عليها نجدها في سجود انقياد وطاعة للأمر الالهي التكويني وفقاً لما عيّنه الله عز وجل من حيث نوع الأوراق واشكالها ونوع الثمار واشكالها مثلاً . فهل صادف ان اثمرت شجرة الأجاص تفاحاً؟

يقـول الله تعالىٰ في كتـابـه المجيـد **﴿ألم تـر أن الله يسجـد لـه من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب**

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٦ ـ ٧) .

وكثير من الناس﴾[٢] .

كـل مـا في الكـون ينقـاد إليـه ما خـلا الانسـان جهـلاً وآغتـراراً

* ولوج الجذر في أعماق التربة ، صورة من صور السجود:

ومن جملة معاني السجدة هنا ، هو ما تعرّض الىٰ ذكره الفخر الرازي من أن سجدة النبات والشجر شبيهة بسجدة الانسان ، فكما ان الانسان يضع رأسه في التراب تعبيراً عن تعظيمه لله (تعالىٰ) ، فان النباتات هي الاخرىٰ تضع في الواقع رأسها واساسها في التراب فتولجه الأرض ، وواقع الأمر ان الجزء العلوي من النباتات لا يعد رأساً لها ، وقد اخطأ من ظن ذلك ، لأن اساس النبات الذي يتغذّىٰ بواسطته ومن خلاله يحصل له النمو والنضج هو الجذر والذي هو بمنزلة الرأس لدىٰ الانسان ، فكما ان الانسان يتغذّىٰ عن طريق الفم ، ثم ينتقل منه الى بطونهم ليتوزع علىٰ سائر البدن فهكذا الأمـر لدىٰ الـزروع والنباتـات فهي تتغـذىٰ عن طريق الجـذور ، ومنـزلـة الجـذر من النبـات كمنـزلـة الـرأس من الانسان ، لذلك صح أن النباتات جميعاً هي في حال سجود تكويني دائم .

* سجود الزرع شهادة علىٰ عظمة المبدع:

والوجه الآخر الذي يذهب اليه عدد غفير من المفسرين واحدهم الطبرسي أن معنىٰ سجدة الزرع هو في واقعه شهادة علىٰ عظمة الصانع (تعالىٰ) .

كـل نـبـت يـفـلق الارض يـردد لا الـه الاّ الله بـذا أشـهـد

وانها لجديرة حقاً بالمشاهـدة والملاحـظة تلك القدرة المـودعة في هـذا الكائن الحي ، فمن خواص الماء انه ينحدر من اعلىٰ الىٰ اسفل ، ويتطلب رفع المـاء الى الاعالي وجـود وأسطة تـأمن صعوده ، فلو صببنـا الماء علىٰ اصـول النبات نجد ان لدىٰ النبات قوة تجعل الماء ينفذ صعـوداً فيه حتىٰ يبلغ عـروق الورق منتقلاً الى ارتفـاعات عـدة أمتار أحيـاناً ثم يتم تـوزيع المـاء علىٰ مئات

(٢) سورة الحج ، الآية (١٨) .

الآلاف من الاوراق دون ان تستثنىٰ ورقة واحدة من الماء ويصل الماء الى جميع الثمار أيضاً ، فتأمل كيف ان كل جزء في النبات يشهد علىٰ عظمة الصانع؟!

ونعود الآن إلىٰ الآية الكريمة ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾ وتكون خلاصة معناها ان هذين الصنفين من النبات يشهدان بالربوبية لله عز وجل ، فقد ورد عن أئمة الهدىٰ (ع) في دعاء القنوت كما نقله السيد ابن طاووس (رحمه الله) في كتاب العروة الوثقىٰ ما فيه اشارة الىٰ هذا المضمون «سبحان من دانت له السماوات والأرض بالعبودية ، وأقرتا له بالوحدانية ، وشهدتا له بالربوبية ، لا اله الاّ الله الحليم الكريم» .

* السجود الملكوتي والتسبيح الملكوتي:

والمعنىٰ الآخر الذي ذكره العلامة الطبرسي وغيره من المفسرين هو أن السجود هنا الذي اوردته الآية إنما هو علىٰ النحو الملكوتي ، فكما ان الشجر يسبح باللسان الملكوتي كسائر الاشياء لا باللسان الملكي ، فالمقصود بالسجود هنا هو السجود الملكوتي الذي تؤويه الاشياء كما في قوله تعالىٰ ﴿**وإن من شيء الاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾[٣] . وبذلك نخلص الىٰ أن لجميع الاشياء ظاهر وباطن ، وباطنها هو عالم الملكوت كما أن ظاهرها هو عالم الملك ، وان جميع الاشياء في تسبيح وسجود دائمين من حيث جهتها الملكوتية ولكننا لا نستطيع درك هذه الحقيقة طالما نحن في عالم الملك ولكننا سندرك ذلك حتماً عندما نرد عالم الملكوت فتصبح الحقائق حينئذ واضحة جلية بعد أن نخلّف وراءنا الماء والتراب كما يؤكد ذلك قوله تعالىٰ ﴿**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾[٤] باعتبارنا نجهل ما يجري في العالم العلوي .

---

(٣) سورة الاسراء ، الآية (٤٤) .
(٤) سورة الاسراء ، الآية (٤٤) .

* والسماء رفعها:

ومن آيات الرحمة الرحمانية الالهية الاخرىٰ هي (رفع السماء) علاوة علىٰ خلقها ، فهي رفيعة في الجانب الحسي ، ورفيعة ايضاً من حيث المنزلة والدرجة .

فعندما نقول انها رفيعة حساً او مكاناً فنعني ان الله تعالىٰ قد وضعها في مكان عالٍ ورفيع ، اما عندما نقول انها رفيعة من حيث المنزلة والدرجة فنقصد أنها قد شرفت علىٰ الأرض فارتفعت من موارد عدة سنتناول ذلك بالتوضيح لاحقاً .

* وفي السماء رزقكم:

يعد نزول الرزق أحد خصائص السماء كما يشير الىٰ ذلك قوله عز وجل **﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾**[٥]: فقد كتب المفسر الطنطاوي (وهو عالم مصري ضالع في العلوم الحديثة ، وله تحقيقات مفصلة ومسهبة بهذا الشأن) ان العلم الحديث توصل الىٰ أن الفضاء المحيط بالارض امتداداً من سطحها وحتىٰ قطر ١٦ فرسخاً يشتمل علىٰ وجود المواد الغذائية ، وأن الجزء الذي تنتجه التربة من الغذاء انما حصل بفضل وجود الهواء ، ولا زالت التحقيقات جارية من اجل التوصل الىٰ امكانية الحصول علىٰ الغذاء من الهواء مباشرة[٦] .

وبداهة أنا لا اريد هنا القول ما يتبادر الىٰ الذهن عن معنىٰ السماء في آية **﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾** هو السحاب لانه مرتفع في الفضاء باعتبار وجود الفضل والبركة فيه ، وان كان هذا المعنىٰ غير بعيد .

---

(٥) سورة الذاريات ، الآية (٢٢) .

(٦) **﴿وان من شيء الاّ عندنا خزائنه وما ننزله الاّ بقدر معلوم﴾** سورة الحجر ، الآية (٢١) .

* نزول البركات من السماوات:

وفوق نزول الارزاق فأن الوان البركة واشكـال الرحمـة الالهية تنـزل من السماء حيث محل وجود الملائكة ، اذ ان الملائكة بأصنافهم العديدة وعظمـة خلقهم وضخامة هيئاتهم نجدهم قد عمروا السمـاوات ، ومن الامور الاخـرىٰ التي اعطت للسماء رفعتها درجة ومنزلة ، هو ان جعل الله تعالىٰ العرش فـوقها ووضع الجنة عليها ، فقد جاء من سأل الامام كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصـادق (ع) قائـلاً: يقول الله تعـالىٰ عن الجنة **﴿وجنـة عـرضهـا السمـاوات والأرض﴾**[٧]فأين هي الآن؟ (قاصداً اين يكون مقرها ان كـان عرضهـا لوحـده يعدل السماوات والارض مجتمعات ، فما بالك بطولها؟) فأجابـه الامام (ع): الجنة فوق السماوات والعرش من فوقهن[٨] .

* عروج صحائف الأعمال وارواح المؤمنين الىٰ السماء:

ومن الامور الاخرىٰ التي تدلل علىٰ رفعة السماء هـو ان الله تعالىٰ يـأمر المـلائكة المكلفـة بحمل صحـائف اعمال المؤمنين بـالعروج بهـا الى السماء تكريماً لمقام المؤمنين ، وقد اشار القرآن الكريم الىٰ هذا المعنىٰ في قوله تعالى **﴿ان كتاب الابرار لفي عليين﴾**[٩] ، فضلاً عن ان ارواح المؤمنين يُصعد بها الىٰ السماء .

وقد اثار البعض شبهة مفادهـا ان لا شرف للسمـاء على الارض ، اذ ان الارض هي محل هبوط الوحي الالهي ، ويكفي الارض فخراً وشرفاً أنها ضمّت أجساد أشرف الكائنات سيدنا محمد (ص) وعترتـه الطاهـرة (ع) ، والرد على هذه الشبهة نقول فيه: ـ

---

(٧) سورة آل عمران ، الآية (١٣٣) .

(٨) بحار الانوار ، المجلد الثالث .

(٩) سورة المطففين ، الآية (١٨) .

* السماء محل صدور الوحي وقرار أرواح أهل البيت (ع):

نعم ان الارض كانت محلاً لنزول الوحي الالهي ، ولكن السماء كانت محل صدور ذلك الوحي ، ومن البديهي ان يكون محل الصدور أعظم شرفاً من محل الهبوط ، ثم ان الارض تحتضن الابدان الطاهرة للنبي وآله (ص) ولكن السماء محل قرار ارواحهم (ع) وللتدليل علىٰ صحة ما ذهبنا اليه نستشهد بهذه الرواية الشريفة المروية عن الامام الصادق (ع) حيث يقول «ان جدي الحسين (ع) لعلىٰ يمين العرش وهو ينظر الىٰ زوار قبره»[10] ، اذاً ـ والسماء رفعها ـ تعني ان الله عز وجل شرفها برفعتها فأين منها الارض وسائر الأفلاك؟ .

* لماذا نرفع ايدينا بالدعاء نحو السماء؟

جاء رجل الىٰ امير المؤمنين (ع) وسأله: أليس الله موجود في كل مكان **﴿اينما تولوا فثم وجه الله﴾**[11]وهو معنا جميعاً **﴿وهو معكم اينما كنتم﴾**[12]؟ اذاً لماذا تأمروننا برفع ايدينا نحو السماء في الدعاء؟ فأجابه الامام (ع) بما مفاده: ذلك لأن السماء محل صدور البركات[13] .

نعم ان اية بركة من قضاء حاجة او قبول طاعة وعبدة أو نزول رزق انما يصدر عن السماء .

---

(١٠) نفس المهموم للقمي .

(١١) سورة البقرة ، الآية (١١٥) .

(١٢) سورة الحديد ، الآية (٤) .

(١٣) بحار الانوار ، المجلد الرابع .



﴿والسماء رفعها ووضع الميزان* الآّ تطغوا في الميزان* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾[1] .

* إقامة القسط والعدل:

بعد أن ذكرنا رفعة السماء الظاهرية والمعنوية علىٰ ما مضىٰ من شرحنا ، نأتي الىٰ موضوع (الميزان) لنجد أن الله تعالىٰ قد وسم ثلاث آيات بسمة الميزان في حين أن مفادهن واحد ، ولعل التكرار الحاصل هنا هو بمثابة التأكيد علىٰ موضوع امتثال الأمر الالهي في تطبيق الميزان علىٰ السلوك الانساني كما سنأتي اليه بشرحنا .

﴿**ووضع الميزان**﴾ تعني وأقرّ الميزان ، ﴿**الاّ تطغوا في الميزان**﴾ أي أن لا تتجاوزوا الميزان ﴿**وأقيموا الوزن بالقسط**﴾ تعني الأمر الالهي باقامة العدل ، ﴿**ولا تخسروا الميزان**﴾ أي اعدلوا في الوزن ولا تعطوه ناقصاً .

وهنا يثار هذا التساؤل: ما المراد من الميزان الذي تكرر ذكره في هذه

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٧ ـ ٩) .

الآيات الكريمات وجاءت الاوامر الالهية لتؤكد ضرورة مراعاته والنهي عن تجاوزه؟

لقد أورد المفسرون معنيين للميزان ، **أحدهما: بمعنىٰ العدل ، فيكون علىٰ هذا المعنىٰ (وضع الميزان) يعني تشريع العدل ، كما اشار القرآن الكريم في مواضع متعددة منه علىٰ تأكيد حقيقة تشريع العدل ﴿إعدلوا هو اقرب للتقوىٰ﴾**[٢]ولقد جاء التشريع الالهي للعدل لكي يراعي الناس العدالة في افعالهم الأختيارية كما حكّم الله (عز وجل) العدل في مملكته علىٰ سائر مخلوقاته .

* العدل في الخلق:

في بداية هذه السورة ذكر المولى عز وجل حركة الشمس والقمر، وقد وضع الباري تلك الحركة علىٰ اساس العدل ، فلو لم تتحرك الشمس في مدارها الحالي لما كان الحال هو ما عليه الآن ، فعلىٰ فرض بقاء حالة الغروب وديمومتها لن يكون بمقدور النباتات والزروع مواصلة النمو والنضج باعتبار حاجتها الملحة الىٰ نور الشمس ، بل وان وجود المسافات والأبعاد بين النجوم والأفلاك علىٰ هذا النحو السائد هو لون من الوان العدل الالهي .

فالمسافة الفاصلة بين الشمس والارض هي ٩٠ مليون ميل ، وشرارة واحدة من الشمس بأمكانها ان تحرق الارض وما عليها ، ولكن هذه المسافة الهائلة بينهما والتي تقدّر بثلاثين مليون فرسخ هي التي جعلت الحرارة تصل الىٰ الأرض بالمقدار المألوف . فلو حصل (لا سمح الله) ان قصرت المسافة بين الشمس والارض لاشتدت الحرارة واحترق كل حي علىٰ البسيطة ، ولو بعدت المسافة بينهما لانخفضت الحرارة وتجمدت الحياة وأنعدمت . اذاً من يراقب نظم الأفلاك ومداراتها يدرك ان نظام حركة كل فلك انما قد جعله الله تعالىٰ في حد معين يوافق العدل والقسط **﴿شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا**

---

(٢) سورة المائدة ، الآية (٨) .

العلم قائماً بالقسط﴾[٣] ، فبالعدل قامت السماوات والأرض ، اي ان الله تعالىٰ قد وضع كيفية خلق الارض والموجودات التي عليها علىٰ نحو من الدقة بحيث يصدق القول ان ميزان العدل قد عمّ كلٰ شيء بالسعة والاستعداد الذي يحتاجه ذلك الشيء **﴿الذي اعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىً﴾**[٤] ، فلم يعط الباري عز وجل للشيء ما هو فائض عن حاجته بحيث انه يضر به اضراراً واضحاً ، ولعل هذه الأبيات المترجمة عن الاصل الفارسي فيها خير دليل علىٰ ما ذهبنا اليه :

إنّ مَنْ قَسّمَ ذي الدنيا على الأنظار سبعةْ ... هو مَنْ مَنَّ علىٰ الشيءِ بما يُؤْمِنُ نَفَعَهْ

لـو كان للقطِّ من أجنحـةً يسموْ بهـا ... لما ألفيتَ بيضاً للطيـرٍ في أعشاشِهـا

أو نَبَتَ للحُمُـرِ في رأسها قـرن البَقَرْ ... لتنّحىٰ الناس عنها من خشيةِ أن تبتقر

* العدل في أقوال الانسان وأفعاله :

لقـد جعل الله الانسـان مختاراً في اقـواله وافعـاله ، وقـد تفضـل عليـه بالاختيار كيما يقتدي العبد بربه في حركاته وسكناته وسائر شؤونـه ، لكي يقيم العدل ويلتحق بعالم الانوار ، ويجنب نفسه ظلمات الظلم والردىٰ، لذلك وجب على الانسان ان يكون عادلاً مع ربه وسائر المخلوقات مع ما في هذا الامر من صعوبات بالغة ، وتـطبيقه للعـدل ينبغي أن يسود الكبيـر الصغير ، والصـاحب والغريب علىٰ حد سواء ، بل ينبغي به أيضاً أن يعدل مع نفسه ، ولعل الوصف الجميل للصراط من أنه (أدق من الشعرة وأحدّ من نصل السيف) تعبيـر يصدق علىٰ العدل وصفاً ، فالعدل دقيق دقة الشعرة من حيث التشخيص والتحـديد ، وهو حديّ من حيث التطبيق والعمل به كحدة نصل السيف لمن اراد السير علىٰ منهجه .

---

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٨) .

(٤) سورة طه ، الآية (٥٠) .

* ظلمت نفسي:

وفي دعاء كميل نقرأ عبارة (ظلمت نفسي) ، والظلم خلاف العدل ، فقد يحصل ان نسأل الله تعالىٰ حاجة لم يقدرها لنا بلطفه ، فتضج نفوسنا بـالأسىٰ والحزن لعدم الاستجابة مع أننا نغفـل او نتغافـل عن مئات الالـوف من الآلاء الالهية التي غمرنا بها المـولىٰ جل شـأنه ، وينسىٰ كـل ذلك الاحسـان القديم والمن الجسيم وتبقىٰ ابصارنا معلقة برجاء تلك الحاجة التي تقدر لنـا الاجابـة فيها ، ونبقىٰ نصر علىٰ ما نريد ولا نلتفت الى ما يُراد منا ، يقول تعالىٰ ﴿**حافظوا علىٰ الصلوات والصلاة الوسطىٰ**﴾(٥)فندع ما يريده الله تعالىٰ منا في اداء الصلاة لوقتها ، فأي ظلم هذا الظلم الذي نمارسه نحن؟ ثم ننتظر من الله ان ينظر الينا نـظرة رحيمة ، ولقـد عبّر الله عـز وجل عن هـذا الموقف الـظالم بقولـه تعالىٰ ﴿**الـذين اذا اكتـالـوا علىٰ النـاس يستـوفـون واذا كـالـوهم أو وزنـوهم يخسرون**﴾(٦) ، فلم نشتري إستيفاءً ونبيع بخساً؟ اليس هذا هو الظلم؟ عندما يتوقع المرء ان يحقق له مولاه حاجاته ورغائبه ويفيض عليه بالاحسان وضروب النعم وهـو في مقابـل ذلك لا يلبي اوامـر مولاه ويتقـاعس عنها ، وصـدق الله العظيم ﴿**انه كان ظلوماً جهولاً**﴾(٧) .

* إجعل من نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك(٨):

وقد أوجز امير المؤمنين (ع) معنىٰ العدل مع الناس في عبارة واحدة يقول فيها (اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك) ، فلو كنت لا تحب ان يتقـدم اليك أحد ما باساءة ، فلا تسيء للآخرين ، فاحجز لسانك عن بذاءة القول لكي تجنب نفسك بذاءة اقوال الآخرين ، وصن لسانك عن رمي الافتراء علىٰ الناس

---

(٥) سورة البقرة ، الآية (٢٣٨) .
(٦) سورة المطففين ، الآية (٢ ، ٣) .
(٧) سورة الاحزاب ، الآية (٧٢) .
(٨) نهج البلاغة .

لتجنب نفسك فريّة الآخرين وكن مِصداق الحديث الشريف القائل «حب لاخيك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها» .

* العدل ، هو الحد الأوسط بين الافراط والتفريط:

﴿ووضع الميزان﴾ اي ان الله تعالىٰ وضع بعدله ميزان العدل .

﴿الاّ تطغوا في الميزان﴾ الاّ ـ في الاصل هي لئلاّ والـ (لا) ناهية ، فيكون معنىٰ الآية (ان الله وضع ميزان العدل لكي لا تعتدوا) فالميزان عدل ، والطغيان ظلم ، وعلىٰ هذا الاعتبار يكون العدل هو الحد الاوسط بين افراط الطغيان وتفريط الانقاص والتخسير ، والظلم خلاف العدل .

﴿ولا تخسروا الميزان﴾ اي ولا تنقصوا الميزان لأن ذلك تفريط كما هو الطغيان افراط وهو أمر لا يساير العدل أيضاً ، وكثيراً ما يحصل مثل هذا الامر في المسائل الاعتيادية الحياتية ، لذلك جاء الحديث النبوي الشريف ليصحح المنهج الحياتي للانسان ، يقول (ص) (خير الامور اوسطها) ، ويدلل علىٰ هذه الحقيقة قول الشاعر الايراني في ترجمة بيته الشعري علىٰ ما في معناه:

لا تكثر الأكل شرهاً حتّىٰ تغصّ بهِ ولا تمنع البطن حتىٰ تلقىٰ المحاذيرا

ولقد جاء القرآن الكريم لمنهج وسط بين الافراط والتفريط كما في قوله تعالىٰ ﴿**كلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾[٩]وقوله عز وجل ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة الىٰ عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾[١٠] ، وعليه يكون الحد الاوسط هو الحد الامثل والافضل في تنظيم وتدبير الحياة الانسانية ، ولو عرجنا علىٰ موضوع النوم عند الانسان ، لوجدنا ان فترة النوم الممتدة من اول الليل حتىٰ طلوع الشمس يعد تفريطاً ، واحياء الليل كله حتىٰ الصباح دون نوم يعد افراطاً ، فلا ان يرمي المرء نفسه كالجثة الهامدة ولا أن يتحامل علىٰ ثقل

---

(٩) سورة الاعراف ، الآية (٣١) .
(١٠) سورة الاسراء ، الآية (٢٩)

اجفانه فيمنع سلطان النوم عن عيونه ، بل يفترض ان يعد لنفسه ساعات يـريح بها بدنه ويهيئه لما بعد النوم من سعي وعبادات ، وما يصدق علىٰ النوم يصدق أيضاً علىٰ المعاشرة الزوجية والوضع العائلي ، فلا يصح ان تترك الحرية الكاملة للزوجة والاطفال بالذهاب حيث شاؤوا (مع افتراض وجود اماكن مشبـوهة) ولا ان يضيق المرء علىٰ عيالـه فيجعلهم نزلاء داره فيكـون خروجهم منـه كخروج اللص ، وعن الشراء وتأمين احتياجات الانسان الضرورية يفترض الاقـلاع عن الاسراف والتبذير لكي لا يلقىٰ المرء في الأيام الكؤود عندما يجور عليه الزمان ولا يجد ما يجلبه لعياله ، مشاجرة العيال معه وضجرهم من مغايرة الحـال عن سابق الأحوال ، ويصح ايضاً ان يقلع المرء عن التقتير والبخل وحرمـان العيال بحيث انه يمهد لهم بفعلته هذه طريق الاختلاس والسـرقة من جيبـه أو جيوب الآخرين . لذلك ينبغي ان يكون المرء عادلاً في صِلاته مع ربه ومع مخلوقات ربه ، مع القريب ومع البعيد لكي لا ينكب عن صراط القيامة فيما لو نكب عن صراط العدل في دنياه كما في قوله تعـالىٰ **﴿ان الذين لا يؤمنـون بالآخـرة عن الصراط لناكبون﴾** لأن سعة الصراط في القيامة تكون وفقاً لاوضاع المرء في دار الدنيا ، وعلىٰ هذا الاساس جاء القرآن الكريم ووردت الاحاديث الشريفة تؤكد وتوصي وتحذّر الانسـان من السقوط النهـائي وتدعـوه الىٰ المسارعـة في طلب المغفـرة ونيل العفـو والتوبـة من الله عـز وجـل كمـا في نص الانقـاذ الآتي : ـ (استغفر الله ذا الجلال والاكرام من جميع الذنوب والآثام) ، والىٰ هنا نصل الى تمام حديثنا عن معنىٰ الميزان الأول وهو العدل .

* الميزان ، آلة الوزن:

اما **المعنىٰ الثاني** للميزان: فهو المعنىٰ اللغوي والاصطلاحي المعروف لآلـة الوزن . والميـزان علىٰ وزن (مفعال) وهـو يوزن بـه الشيء ويتم تحديـد مقداره ومعرفة وزنه ، فالاشياء المادية التي يمكن وزنها يتم حساب اوزانها من خلال آلتي الميزان والقّبان ويروىٰ ان اول من صنع الميزان هو نبي الله شعيب (ع) ، وفي رواية أخرىٰ أن اول من صنع الميزان هو نبي الله نوح (ع) ، ولعل

اول من صنعه هو نوح (ع) ولكن نتيجة حصول الطوفان انتهىٰ رواج الميزان حينذاك فجاء النبي شعيب (ع) فصنعه ثانية وكثر اقبال الناس عليه .

* لماذا يعد الميزان نعمة؟

قلنا في بداية شرحنا لهذه السورة الكريمة أنها قد استعرضت النعم والآلاء الظاهرية والباطنية وآية ﴿ووضع الميزان﴾ تعد الميزان نعمة الهية (من حيث المعنىٰ الثاني للكلمة ميزان) ، وهنا نتسائل: كيف يعد وضع الميزان نعمة؟ . يقول الفخر الرازي ، ان الباعث علىٰ اعتبار الميزان نعمة هو فرضنا انعدام الميزان الذي سيؤدي الىٰ حصول العداءات الكثيرة بين الافراد التي يصعب ان لم يستحيل فضها باعتبار تولد سوء الظن من عدم يقين الناس من أن ما قدموه من اموال لشراء احتياجاتهم (كالدقيق والحنطة وغير ذلك) يعادل المقدار الذي يقدمه لهم الباعة من السلعة المطلوبة ، فتحصل حالات الغش والخيانة .

لذلك جاءت التعاليم في الشرع المقدس باعتماد الكيل والميزان ، بل وببطلان التعامل والتبادل والبيع والشراء دون الرجوع الىٰ الميزان والكيل ، ولعلنا ندرك بوضوح كيف ان المرء الذي يرىٰ بناظريه سلعته التي يروم اقتنائها قد وزنت قد بدت عليه علائم الارتياح والرضا ، لأنه بغير ذلك لا يمكنه تصديق ان المقدار الذي قدّم له لقاء الثمن الذي دفعه هو حقه دون غبن او اجحاف مسه ، وحتىٰ لو ادعىٰ البائع ان المقدار المعطىٰ له قد استوفىٰ السعر ومار عليه . لذلك كان الميزان نعمة عظيمة جنّبت الكثير من الحيرة والشك والمفاسد . وقد اورد الرازي وجوهاً أُخر يعد فيها الميزان نعمة قد عزفنا عن ذكرها والتطرّق اليها لاعتقادنا بكفاية ما تم ذكره .

* تنوع صور الميزان بتنوع أجناس الأشياء:

ولا يخفىٰ عليكم ايها الاعزاء ان بعض الاشياء يتم حساب مقاديرها بالأحجام كالسوائل مثلاً (من قبيل الحليب والبنزين وغيرهما) حيث يتم الحساب بواسطة مكاييل خاصة كاللتر أو الغالون مثلاً ، والبعض الآخر يحسب مقداره بوعاء خاص (كالحنطة والملح) ، وبعض آخر يحسب مقداره وفق معايير الطول (كالاقمشة والأراضي) وحتىٰ عملية البناء فهي تستدعي وجود آلة حساب ونظم خاصة تدعىٰ (الشاقول) يتم خلالها موازنة هندسية البناء وعدم وجود الانحرافات المحتملة فيه ، كل تلك الاشكال هي في واقع أمرها آلات ميزان يتم قياس مقادير الأشياء بواسطتها وحساب كمياتها ، بل ان الساعة في حقيقتها ما هي الاّ آلة لوزن الزمن الصحيح ، من كل ذلك ندرك الاسباب الكامنة وراء الهام الله عز وجل الانسان في صناعة الميزان وتشديده علىٰ ضرورة استعماله في المعاملات . ولقد عدّ الباري تعالىٰ مسألة رعاية الميزان من المسائل المهمة والخطيرة في الامور المادية ، فقد انزل قرآناً يتلىٰ بشأن المطففين في السورة التي تحمل عنوان التطفيف كدليل علىٰ خطورة هذه الحالة وعظم دور الميزان في علاج هذه الظاهرة الخطيرة ، كما انزل الله آية كريمة تؤكد علىٰ الانزال الالهي للميزان مع الكتاب كما نقرأ في سورة الحديد **﴿لقد ارسلنا رسلنا بالبينات ، وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾**(١١) ، وفي قصة النبي شعيب (ع) التي حدثنا بها الكتاب المجيد حيث جاءت مسألة مراعاة الميزان كأحد التعاليم الأولىٰ في دعوته الشريفة الىٰ الله تعالىٰ ، وحتىٰ انه يروىٰ ان اول موضوع شُرّع بعد مجيء النبي (ص) الىٰ المدينة المنورة هو موضوع اتخاذ الكيل والميزان في التعامل الاجتماعي .

---

(١١) سورة الحديد ، الآية ٢٤ .

* العذاب بين جبلي نار:

في قصة مالك بن دينار ، ورد أن كان له صاحباً ، فجاءه الخبر أن إلحق بصاحبك فأنه في النزع الأخير ، فجاءه مالك ووقف عند رأسه واذا به يراه يرتعش مضطرباً كمن أخذته النار اليها وهو يصرخ بين الفينة (و) الأخرىٰ إحترقت. . إحترقت فسأله مالك: كيف حالك؟ فرد عليه: اني بين جبلين من نار وقد جاءني الأمر بصعودهما ، فالتفت حينذاك مالك الى زوجة الرجل وسألها عن حاله باحثاً عن دواعي وضعه السيء ، فأخبرته قائلة: أنه كان لزوجها مكيالين ، أحدهما ينقص به الكيل لما يريد بيع بضاعة ، والآخر يزيد به الكيل عندما يريد ان يبتاع بضاعة ، فهو يسرق في بيعه وشراءه ، فأصابته النار بسوء عمله وقد اشعل لنفسه ناراً يحرق به نفسه الى الأبد .

لذلك اصبح لزاماً علينا جميعاً ان نلتفت الىٰ حالنا، ولا نقول (الحمد لله الذي لم يجعلنا ممن يتكسب بالميزان والمكيال) لأننا وان لم تكن لدينا آلة ميزان ولم نكن نمتهن البيع والشراء، فيفترض بنا ان نجعل افعالنا واقوالنا موزونة وصحيحة، فمن يدري فلعل فينا من قد اشعل نيراناً لنفسه بسوء عمله وقوله . فلقد ذكرت احدىٰ الروايات أن (عندما يحين وقت الصلاة ، تنادي الملائكة: ايها الناس قوموا الىٰ نيرانكم التي اوقدتموها علىٰ ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم)[١٢] .

وانا اقول لكم هلموا واغسلوا ذنوبكم بقطرة دمع تذرفونها علىٰ الحسين المظلوم ، فكلنا غرقىٰ في بحار الذنوب وليس لنا الاّ من حسين واحد (عليه الصلاة والسلام) .

---

(١٢) بحار الانوار/ كتاب الصلاة .



﴿ووضع الميزان* الاّ تـطغوا في الميـزان *
واقيموا الوزن بالقسط* ولا تخسروا الميزان﴾[1] .

* وضع الله ميزاناً لكل شيء:

لقد ذكرنا فيما سبق أن الميزان الذي تناولته الآيات الكريمة بالذكر له من حيث المعنىٰ إحتمالان: **الاول**: يعني العدل ، وقلنا ان معنى كلمة (وضـع) هو أَمَرَ ، فيكون معنىٰ آية ﴿ووضع الميزان﴾ أن امر الله بالعدل ، كما أن افعاله تعالىٰ تصدر عن جهة العدل ، اما **الاحتمال الثاني** الذي ذكرناه فهو آلة الوزن والقياس المعروفة ، والتي يتم بواسطتها وزن الأشياء والتعرّف علىٰ مقاديرها ، فيكون معنىٰ ﴿ووضع الميزان﴾ علىٰ الاحتمال الثاني هو خلق الله الميزان لكي يشاع به العدل .

اذاً الميزان الذي وضعه الباري (عز وجل) ، يمكّن النـاس وزن الأشياء المادية الصورية والمعنـوية الـروحانيـة ، لذلـك كان الميـزان من النعم الالهية المهمّة ، وأحد ألوان الرحمة الرحمانية . وقد تناولنا بالحديث ما يتعلق بميزان الاشياء المادية ، وأمّا ما يتعلق بالمسائل العقلية فأن العقل الفطري الذي وهبه

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٧ ـ ٩) .

الله للانسان يعد في ذاته ميزاناً من شأنه أن يحدد الحق من الباطل وأن يفصل بين الصائب والصالح من الأمور وبين النقيض من ذلك ، وقد ذكر أهل العلم قوانيناً عدة بهذا الصدد .

* ضرورة الميزان في الأمور المعنوية:

لو افترضنا أن الخالق (تعالىٰ) لم يجعل للأمور المعنوية والباطنية والروحانية ميزاناً يستنبط من تلك الأمور العلم والمعرفة والحكمة التي تعد أساس سعادة الدارين ، لهوىٰ الانسان في وادي الضلال والجهل والضياع ، ولظن كل فرد منّا نفسه أفضل الخلق وأعتبر نفسه روحانياً من الطراز الأول ، لأن الانسان بطبيعة حاله يحب نفسه ويكرم شؤونه ويرىٰ لذاته الرفعة علىٰ ذوات الآخرين في ضرورة اكتساب المنافع وتأمين المصالح . وعندئذ يبتلىٰ بالعجب والغرور ولا ينظر بعد ذاك الى الآخرين سوىٰ نظرة التحقير والاستصغار .

ولذلك وتجنّباً من حصول المنازعات والخصامات وطفو الضغائن والأحقاد والعداوات علىٰ سطح الحياة الانسانية ، ألهم الله (تعالى) الانسان الميزان والقبّان المكيال وسائر آلات القياس والعيار ، ثم أوصاه بتعاهدها لكي يستطيع من تنظيم شؤون حياته المادية في تبادل المنافع ، وفوق هذا وذاك وضع المولىٰ (جل جلاله) موازيناً ومقاييس للأمور المعنوية لكي يُخرج الانسان والبشرية جمعاء من ظلمات الجهل ونتائجه الوخيمة المترتبة عليه ، كالجهل والغرور والكبر ، فجاءت تلك الموازين علىٰ صور شتىٰ كما سنرىٰ : ـ

* القرآن الكريم ميزان للسعادة والشقاء:

فقد جعل الله (عز وجل) القرآن الحكيم ميزاناً للسعادات والشقاوات من حيث جنبة الألفاظ . وما من شك في حقيقة صحة إخبار القرآن لمن اراد أن يستخبره عن نفسه أهو من أهل السعادة أم من اهل الشقاء أن يجده دليلاً مرشداً لما طلب ففي قصة بهلول العاقل مع هارون الرشيد كفاية عن استخبار القرآن في هذا الشأن ، فلقد كان هارون في هودجه وقد ارتدىٰ ملابس السلطنة

البهيّة ، وقد سار موكبه بكل عظمة وحشمة ، واذا بصائح يصيح . . يا هارون!! فأنزعج الخليفة من سوى أدب المنادي وصاح بحاشيته : ائتوني بهذا . (لأنه كان يعتقد بأن ينادىٰ بلقب (يا أمير المؤمنين) ومع اظهار آيات الاحترام والتبجيل) فجاؤوه ببهلول ، فبادره هارون قائلاً : كأنك لم تعرفني من أنا يا هذا فناديتني بما ناديتني؟ فأجابه بهلول : كلا ، واني لاعرفك بشكل جيد من أنت ، ألست أنت من خزنة جهنم؟ فاستشاظ هارون غضباً وقال له : وكيف ذاك؟ قال بهلول : لأن الله تعالىٰ وهبك الملك والقوة لكي تحول بين الناس وبين أن يسلكوا سبيل جهنم بأن تنهىٰ عن المنكر ، ولكنك حيث لم تفلح في حمل الناس علىٰ ما آتاك الله الى سبيل الجنة والرضوان ، كنت بذلك أول وارد علىٰ جهنم ، حينئذ بكىٰ هارون (أما تظاهراً بتأثير الموعظة فيه ، وأما تأثراً مؤقتاً) فقال هارون : أصبت يا بهلول ، فالىٰ ما سيؤول حالي؟ قال بهلول : (لقد انزل الله قرآناً ميزاناً للاعمال يستطيع كل منّا ان يعرض حاله عليه) ، فاعرض نفسك علىٰ قوله تعالىٰ ﴿**إنّ الأبرار لفي نعيم ، وان الفجّار لفي جحيم**﴾[٢] وانظر الىٰ مَا سيؤول اليه أمرك؟ ففي الجنة مثواك ان كنت من الأبرار والصالحين ، وفي النار عقباك ان كنت من الفجار والاشرار) .

* أهل بيت النبي (ص) ميزانُ الأفعال والأقوال:

اما الميزان الآخر لأقوال الانسان وافعاله فهم الانوار الطيبة والعترة الطاهرة للنبي محمد (ص) ، فهم الحد الاوسط الحقيقي ، والقسط الواقعي ، والميزان الدقيق لمن اراد ان يستخبر حاله ، فسلوكهم المثال وشأنهم الاعتدال ، ومن اراد زنة نفسه فليزن اقواله وافعاله بأقوالهم وافعالهم (ولا نقصد هنا تطابق فعل المرء وقوله مع اقوال وافعال اهل البيت (ع) كأن ذلك مستحيل علىٰ كل أحد ، ولكننا نريد بقولنا هذا أن يختبر الانسان افعاله واقواله هل هي مؤالفة لأقوالهم وافعالهم (ع) أم أنها مخالفة) .

---

(٢) سورة الانفطار ، الآية (١٣) .

* ولاية عليّ (ع) ميزان للأمور المعنويّة:

جـاء في تفسير علي بن ابـراهيم القمي ، ان الامام الصـادق (ع) قال: «والنجم والشجر يسجدان» النجم هـو النجم هو جـدي خاتم الانبيـاء (ص) ، ويسجـدان ـ يعني يعبدان الله تعـالىٰ ، و(السماء رفعهـا) يقصد بـذلـك سمـاء النبـوة ، اذ ان الباري عـز وجل قـد منّ علىٰ جـدي رسـول الله (ص) بـالمقـام الشامخ ، ﴿ووضع الميزان﴾ يعني ان جعل ولاية علي بن ابي طـالب (ع) ، فعلي هو القسطاس المستقيم ، وعندما تقوم الساعة وتنصب الموازين في يـوم الحساب ، تأتي مسألة ولاية علي (ع) ، فان كـان المرء في ولايتـه لعلي (ع) مراعياً شؤون وسلوك واقوال علي (ع) كان من اهل النجاة والفوز (وهذا بالطبع لا يخـلّ بالـوجوه والمعـاني الأخـر للميـزان) ، لأن الله تعـالىٰ يقـول ﴿وزنـوا بالقسطاس المستقيم﴾[٣] معنىٰ القسطاس المستقيم هو الميزان الصحيح ، فهو في الامـور الماديـة يمثل الميـزان والقبان والمكيـال وغيرهـا ، أما في الامـور المعنوية فهو الامام علي (ع) كأحد مصاديقه وأبرزها .

* الأنبياء موازين لأممهم:

وقد جاء في رواية حول مضمون قوله تعالىٰ ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ . ان الامام (ع) يفسر هذه الأية قائلاً: المـوازين القسط هم الانبياء وحجج الله عز وجل ، اذ ان النبي (ع) هو ميزان الأمة ، فكلما اقترب الانسان في احـواله وسلوكـه واقوالـه ومعتقداتـه من النبي أو امام الـزمان لنـال السعادة والمنزلة الرفيعة بنفس ذلك المقدار ، لـذلك كـان علينا لـزاماً أن نقيّم احـوالنا واوضاعنا مع احوال واوضاع ائمتنا (ع) كما نرىٰ في هذا الأنموذج : ـ

* ترويض النفس علىٰ كظم الغيظ:

لقد علمنا مولانا أمير المؤمنين (ع) فضيلة كظم الغيظ ، ولا ندري مقدار

---

(٣) سورة الاسراء ، الآية (٣٥) .

ما استفدنا منه في تعليم مولانا ، فكلنا يعرف قصة عمرو بن عبد ود العامري في نزاله مع الامام علي (ع) ، وكيف ان ذلك الدنيء بصق في الوجه الشريف للامام امير المؤمنين فما كان من الامام الّا ان كظم غيظ نفسه ولم يؤاخذه علىٰ ما فعل انتصاراً لنفسه بل تركه هنيهة دون رد حتىٰ يأخذه بالانتقام في ذات الله عز وجل فكان رده (ع) موضع فخر جميع الأولياء والأوصياء (ع) وسائر الخلق .

من عليّ خذ درس إخلاص العمل   أسد الله وفخر ذي الأولىٰ
حين جار الوغد عمرو وبصق   حيّر في الردّ أرباب النهىٰ

ولعل من رائع القول ما نُسب الىٰ الامام علي (ع) قوله:

ولقد امرّ علىٰ اللئيم يسبني   فمضيت ثمة قلت لا يعنيني

* إطلالة علىٰ إنفاق وزهد أمير المؤمنين:

نطل من خلال الآيات المباركة في سورة الدهر علىٰ جانب من انفاق الامام علي (ع) في سبيل الله عز وجل كما في قوله تعالىٰ ﴿**ويطعمون الطعام علىٰ حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾[٤] ، فلقد قدموا طعامهم للآخرين رغم حاجتهم الماسة إليه لصيامهم وفرط جوعهم لانهم مصداق قوله تعالىٰ ﴿**ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[٥]وعن زهد مولىٰ المتقين (ع) الذي صار حديثاً تتناقله الركبان والبوادي من اهل خاصته أو من عامة الناس ، فلباسه البسيط الذي لم يكن يحظىٰ منه بأدنىٰ اهتمام يقول عنه مقسماً «والله لقد رقعت مدرعتي هذه ، حتىٰ استحييت من راقعها ، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها عنك؟ فقلت اغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[٦] ، نعم أليس هو القماش لستر العورة ورفع الحاجة ، فأي اهمية تولىٰ لقماش يكون سعر المتر

---

(٤) سورة الدهر ، الآية (٨) .
(٥) سورة المجادلة ، الآية (٩) .
(٦) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٦٠ .

الواحد منه مائة دينار ، أو نصف دينار؟ لأن المهم في الأمر هو ان يجد الانسان ما يستر به عورته ويغطي به بدنه ، وان لا يولي الانسان اهمية لأقوال الآخرين او أن يتهيب مقالتهم له لبساطة ما تقنيه لسد حاجاته او حاجات عياله ، ولقد قال معاوية (عليه الهاوية) وهو أحد أشد اعداء امير المؤمنين (ع) ، عن زهد الامام علي (ع) (والفضل ما شهدت به الاعداء): علي هو من لو كان لديه وعاء مملوء بالتبر وآخر بالتبن ، لتصدّق بالتبر أولاً ثم لأتبعه بالتصدق بالتبن .

* وصف ضرار لعلي (ع):

يقول ضرار بن ضمرة ، دخلت علىٰ معاوية بعد موت امير المؤمنين (ع) فقال لي : صف لي علياً ، فقلت اعفني ، فقال: لا بد ان تصفه ، قال ضرار: قلت ، إمّا اذاً فانه كان والله بعيد المدىٰ ، شديد القوىٰ ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزخرفها ، ويأنس بالليل ووحشته ، غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا ، يجيب اذا سألناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ، يعظم اهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله ، فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخىٰ الليل سدوله وغابت نجومه قابضاً علىٰ لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غرّي غيري ، أبيّ تعرضتي؟ أم اليّ تشوقتي؟ هيهات ، هيهات ، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وحظك يسير ، وعيشك حقير ، آه آه من طول السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق)[٨] .

بلىٰ والله ، متىٰ كان لعلي (ع) رغبة بالدنيا؟ وما الدنيا؟ لكي يعلق المرء بها قلبه وقد عاش بها ستين او سبعين سنة؟ فحقاً قول سيدنا امير المؤمنين أن

---

(٧) التبر: الذهب .
(٨) عدّة الداعي ، لأحمد بن فهد الحلي .

متاعها الى زوال ولذاتها الى اضمحلال وهمومها كثيرة ، وأحزانها طويلة .

بعد استعراضنا لجانب من هذا المّيزان نقول: لنزن انفسنا به ولنر هل نمتلك نحن الآن القرب من تلك الأحوال والصفات ، أم لا؟ والعياذ بالله تعالىٰ . لندرك بوضوح معنىٰ الميزان الظاهري والباطني .

* لا تعرضوا عن الامام (ع):

﴿الاّ تطغوا في الميزان﴾ اي اياكم ان تبخسوا الناس اشيائهم وان تجوروا عليهم هذا عن الميزان الظاهري ، اما في الميزان الباطني فتعني هذه الآية ، اياكم ان تظلموا ائمتكم وتعرضوا عنهم لانهم هم موازين العدل الالهي ، فمن اعرض منكم بوجهه عن آل محمد (ص) فقد رمىٰ بنفسه في الهلكات ، وعليكم ايضاً ان لا تدعوا موازين القسط هذه رهينة دورهم أو ان تتركونها معطلة ثم تركضون خلف من هو سواهم معنى نقض القرآن وظلم نفسه فاصبحوا من المحرومين بما جنته ايديهم .



﴿ووضع الميزان* الاّ تطغوا في الميـزان*
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾[1] .

* تقييم الأعمال بميزان الأعمال:

إن من رام الحصول علىٰ السعادة التامة وجب عليه ان يجعل من ميـزان سلوك الامام علي (ع) مثالاً يقتدى به في سلوكه ، لان الامام هو ميزان الأعمال كما في زيارة الامام (ع) «السلام علىٰ ميزان الاعمال» ، بل حرّي بنا ان نجعل امير المؤمنين (ع) نموذجاً لتقييم انفسنا من خلال موازين صفاته وأحواله علاوة علىٰ ذلك .

ولعل البعض يعتلج في صدره هذا التساؤل: مـا معنىٰ ان امير المؤمنين ميزان للاعمال؟ وكيف يكون الانبياء والاوصياء موازيناً الهية؟ ، والجواب علىٰ هذا التساؤل هو ان ما يتبادر الى اذهان البعض من ان اعمال العباد ستكون في كفة ميزان ثم تكون اعمال الامام علي (ع) أو اعمال النبيين والوصيين في كفة أخرىٰ لمعرفة اي كفة سترجح على الأخـرىٰ هو تصـور خاطيء ، وانمـا نعني

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٧ ـ ٩) .

بميزان الأعمال هو تقييم اعمالنا وفق عمل الامام باعتباره اصلاً واساساً ونموذجاً للقياس والتقييم من حيث درجة القرب والبعد والتشابه والتنافر في الاعمال والسلوك ، لا ان نتصور ان هناك من سيكون له اخلاص كأخلاص علي (ع) او عمل كعمل الانبياء ، أو عرفان كعرفان الأئمة ، لأن هذا التقييم سيعني بالضرورة هلاك جميع الناس وفق هذا المنظور ، لأنه ما من أحد يمتلك من الصفات والفضائل ما لدىٰ اتباع الأئمة (ع) كسلمان وابي ذر (رض) ، فكيف سنتصور رقي الحال بهم الى درجات الأئمة والنبيين (ع)؟

* ومن مثل علي (ع) في عبادته؟

في مرة اعترض بعض الاشخاص علىٰ الامام السجاد (ع) قائلاً له: لم تثقلون على أنفسكم بكثرة العبادة وطول الصيام وغزير البكاء؟ ألستم معصومون؟ ألستم من ذرية النبي (ص)؟ وهنا صاح الامام السجاد (ع) علىٰ ولده وقال له: ائتني بالصحيفة التي تشتمل علىٰ ذكر عبادة جدي علي (ع) ، فجاءه الامام الباقر (ع) بها ، ثم شرع في تلاوة ما كتب فيها وهنا استرسل الامام بالبكاء ثم قال: ومن مثل علي (ع)؟!

نعم الامام السجاد (ع) يقول هذه المقالة ، وانه ليعني بها ما يقول ، من انه هو أيضاً ليس بمقدوره أن يكون كعلي (ع) ، وفي هذا الدليل الكاف لكي يدرك الآخرون منزلتهم ويعرفون حقيقة حالهم ، واظنني وفقت في الاجابة علىٰ تلك الشبهة ، فكما عرفتم اننا كنا نتحدث مرة عن النجاة ، ونتحدث أخرىٰ عن السعادة التي تمثل منزلة رفيعة للغاية لا تفوقها منزلة ، وهذه المنزلة هي المقام الشامخ الخاص بالامام علي (ع) ، وتبقىٰ منازل الآخرين تتدرج في القرب من تلك المنزلة بحظوهم بالسعادة التي تقترب من السعادة التامة بمقدار قربهم من الامام (ع) وبمقدار كمالاتهم ، فعلىٰ سبيل المثال ان للاخلاص وحضور القلب درجات ، فان لم يكن بميسور المرء تحقيق الاخلاص وحضور القلب ، فيجب ان يحصل علىٰ الأقل علىٰ ما لا يقابل نقض الاخلاص والغفلة ، لأن العمل الذي يفتقر الى الاخلاص لا قيمة له وإن كان في عظم الجبال .

اذاً ، الامام علي (ع) ميزان ، وهذا يعني ان اسس السعادة تكمن في علي فلو عمل الانسان وفقاً لتلك الأسس لحصل على السعادة بالمقدار الذي نهل به من تلك الاسس وعمل بها فيكون الميزان هو ما يحققه الانسان في كسب براءة النجاة .

* أنوار بحار الولاية تغسل أدران الذنوب:

والمعوّل في النجاة هو رجوح الحسنات علىٰ السيئات ، فلو كانت حسنات المسلم اكثر من سيئاته (حيث تقف حسنة الايمان بالله ، وولاية اهل البيت (ع) في رأس قائمة الحسنات بالطبع) كان من أهل النجاة ، ويروىٰ انه (يأتىٰ في يوم القيامة عند الميزان بأعمال المؤمن ، فاذا بكفة سيئاته ترجح علىٰ كفة حسناته ، حينئذ يأخذ اليأس من النجاة يسري في عروقه حتىٰ ليكاد ان ينقطع به الرجاء ، فاذا بنور يشع فجأة ويأخذ بغسل ذنوب المؤمن وسيئاته ، فيقول: ما هذا النور يا رب؟ فيأتيه الرد: انه نور حب علي (ع)) .

وقد جاءت عدة روايات بهذا الشأن لمن اراد الاستزادة ، يجدها في المجلّد الثالث من كتاب بحار الانوار .

اذاً كلما ازدادت درجة التعلق والحب (بغضّ النظر عن قلة عمل المحب) ، كلّما ظهر أثر جاذبية الحب بين الحبيب والمحبوب ، الى ان يصار بهما الى الاجتماع .

* ميزان الأعمال رادع عن الغرور:

والنقطة الأخرىٰ المهمة في موضوع وضع الميزان هي ، الحيلولة دون اصابة المرء بالعجب والغرور ، لأن من يراقب اخلاص علي (ع) سيقول في نفسه: اين اخلاصنا من اخلاص علي (ع)؟ ومن يرىٰ عمل علي (ع) في ضربة ضربها في يوم الخندق كانت افضل من عبادة الثقلين ، سيقول أين عملنا من عمل علي (ع)؟ ورغم ان علياً (ع) مع كل ما كان عنده من عمل واخلاص يتأوه مردداً: (آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق)!! اذاً ما الذي ينبغي ان

نقوله نحن؟ أليس انه من البخس ان نولول ونندب صارخين من قلة فهمنا ووعينا لنكون قد عبّرنا عن ادراكنا لقلة اعمالنا وضعف اخلاصنا لنكون قد مارسنا عبادة ترقق قلوبنا القاسية فنردد في كل حين حروفاً تترجم صدق ما تعتمر به قلوبنا وضمائرنا (الهي انا المتسوّل الذي قد رام وصلك ، قد جئتك وانا اعلم اني لن أنال ما لم استحقه منك بعملي ، ولكني يا رب لست ابرح عن بابك المشرع ولن اقطع من فضلك رجائي (لأن سليمان في سعة ملكه لم يرم النملة بالحرمان من لطفه) .

* حب علي (ع) ينفع في سبعة مواطن:

يعد موطن الميزان في مواقف القيامة من اصعب المواطن والمواقف ، فقد نقل عن النبي (ص) أنه قال: (حبي وحب اهل بيتي نافع في سبعة مواطن ، أهوالهن عظيمة ، عند الوفاة ، وفي القبر ، وعند النشور ، وعند (تطاير) الكتب ، وعند الحساب ، وعند الميزان ، وعند الصراط)[٢] ، وفي رواية أخرىٰ منقولة عن الامام الرضا (ع) يقول فيها: (من زارني علىٰ بعد داري ، أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتىٰ اخلصه من أهوالها ، اذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً ، وعند الصراط ، وعند الميزان)[٣] .

* القحط والغلاء من آثار نقص المكيال:

ورد في الخبر أن امير المؤمنين (ع) كان ماضياً في السوق ، فرأىٰ عطاراً يزن الزعفران وقد مالت كفة الميزان بشكل مفرط يثير لدىٰ الرائي شكاً ان الميزان فيه عيب ، فقال له الامام (ع): اعمد الى اصلاح ميزانك اولاً ، ثم بعد ذلك زن به ﴿ألّا تطغوا في الميزان﴾ ، وقد ذكر البعض ان معنىٰ الآية هو (اياكم ان تجوروا فيما وزنتم به) .

ثم تأتي آية ﴿واقيموا الوزن بالقسط﴾ وهو تأكيد علىٰ ضرورة اقامة الوزن

---

(٢) خصال الصدوق .
(٣) عيون اخبار الرضا (ع) (ص ٣٦١ ، باب ٦٦) .

بالعدل ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ اي خذوا حذركم ان تنقصوا الكيل والميزان ، وقد ثبت ان انتشار نقص المكيال والميزان في أمة ما يؤدي الى شمولها بالآثار والنتائج السيئة في الدارين ، كما أكّد ذلك الحديث النبوي الشريف «لو أخسر قوم موازينهم ، رفع الله تعالىٰ البركة عن زروعهم» اي انهم سيبتلون بالقحط والغلاء ، اذ ان بعض آثار الذنوب السيئة كما في القحط والغلاء تظهر واضحة في دار الدنيا بسبب نقص الميزان ، وحصول الجفاف وقلة الامطار بسبب منع الزكاة ، وكثرة موت الفجأة نتيجة شيوع الزنا ، وما الىٰ ذلك .

* سيول الغش أغرقت البقرة!

وفي معرض الحديث عن النقص في الميزان ، يتندّر البعض بتناقل هذه القصة التي تقول ان رجلاً كان يمتلك بقرة يعتاش علىٰ بيع لبنها ، فصادف ان كثر الطلب علىٰ لبنه فعمد لاجل تأمين حاجة الناس الى خلط اللبن بالماء ، وكان لهذا الرجل صاحب ناصح ما ان ادرك ما عمد اليه صاحبه حتىٰ سارع الى نهيه عن الغش وردعه الى حالته الاولىٰ ، ولكن صاحب البقرة لم يرعوي وضاعت نصائح الصاحب المخلص هباءً ، واستمرت الحال بصاحب البقرة ، يخلط لبنها بالماء ويقدمه للناس فترة من الزمن ، حتىٰ جاء في أحد الأيام سيل عظيم أجترف المنازل والمزارع ، وكان من ضمن ما اجترفه السيل ، بقرة البائع الغشاش ، فحزن صاحب البقرة علىٰ ضياع رأس ماله وأهتم كثيراً لذلك ، فجاءه صاحبه الناصح مغتنماً الفرصة ليقدم له العزاء علىٰ ما اصابه قائلاً له: لا تحزن يا أخي وليكن حسن عزائك التجمل بالصبر ، كل ما في الأمر ان الماء الذي خلطته طيلة ايامك الماضية مع لبن بقرتك قد استحال سيلاً وأجترف البقرة ، فلا تبتأس!! .

نعم ان النقص في الكيل والميزان تعدم البركة ، لأن المنقص عندما يظن انه قد خدع المشتري انما قد خدع نفسه في الواقع وظلمها ، لأنه سيخسر ماله في الدنيا نتيجة سوء عمله ، وسيكون نصيبه في الآخرة: ـ

* إحاطة الديّانون بالمخسر في يوم القيامة:

عند قيام القيامة يتعلق الديانـون بمن أخسر النـاس حقوقهم وانقصـوهم كيلهم ووزنهم فيطالبونه عن كل درهم بسبعمائة ركعة صلاة ، فأن اعطىٰ وفىٰ ، وان لم يعط حمّلوه من اوزارهم وذنـوبهم بذلـك المقدار ، وفي روايـة يرويهـا العامة ، أن المخسر يطالب عن كل درهم بأربعة آلاف ركعة فأن وفىٰ فبها والاّ فانه يعذب بذلك المقدار .

وبعد ان تتم تصفية حسابات النـاس مع المخسـر ، يساق بـه الى جهنم فيجد امامه جبلين من نار ، فيقال له: اذهب وزن من هذين الجبلين)(٤)!

وكان الامام امير المؤمنين (ع) يأتي الىٰ سوق الكوفة وينادي ﴿اتقوا الله* ولا تخسروا الميزان* وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ ، وحقيقة الأمر ان النقص في الميزان لا قيمة له ، لأن البطن تمتليء بكل ما يملأها المرء ، ولكن العمل هذا يؤدي بصاحبه الى خسران الدنيا والآخرة ونحن نعلم ان العيال والاطفال لا يأكلون الا ما قدرّ الله لهم من رزق ، فالله الله ان تجعلوا رزق عيالكم مالاً حراماً فيأتونكم في القيـامة هم أيضـاً ويأخـذون بتلابيبكم صـارخين بكم لم أخسرتم الميزان واطعمتونا مالاً حراماً؟

فتأملوا كيف ان لذة اي عمـل لا تعدو طـرف اللسان ثم يكـون مصيرهـا الزوال بسرعة ، فلم يضيع الانسان نفسه في وديان الشقاء والبـلاء العظيمين ، أترونها لذة لها عظيم نفع؟!

---

(٤) (روي عن النبي (ص) انه قال: ان من يختان الناس في المكيال والميزان ، يأتىٰ به في القيامة الىٰ جهنم ، ويوضع بين جبلين من نار ، ثم يقال له: كِل وزِن هذين الجبلين ، ويبقىٰ علىٰ هذه الحال في النار) . تفسير منهاج الصالحين .

* إكراماً لصنمِهِ ، لا يُخسر عابدُ الصنمِ الميزانَ!!

كتب احد اصحاب كتاب التذكرة انه في سفر له الى الهند ذهب الى دكان قصاب ليشتري اللحم فلفت نظره تشاغل القصاب عند وزن اللحم بالنـظر بين الحين والآخر الى شيء قد لفّه بالمنديل في أعلىٰ الميزان: يقول سألته: مالك كلّما أردتَ أن تزن اللحم نظرت الى ذلك المنديل الملفوف؟ فأجابني: ان ذلك الذي تراه ملفوفاً هو صنمي ، وقد علقته في اعلىٰ الميزان لكي أرقبه كلما اردت وزن اللحم لئلا تدفعني نفسي الى انقاص الوزن!!

واسوء من عبدة الاصنام اولئك الـذين يبرأ الاسـلام منهم وهم يزعمـون انهم يؤمنون بالقرآن ويؤمنون بقوله تعـالىٰ ﴿**وهو معكم اينمـا كنتم**﴾[٥] ولكنهم عندما يجدون انفسهم تدفعهم لطلب المزيد من المال من غير حِلّه يسارعون الى انقاص الوزن والكيل ويغشّون الناس ويرتكبون الوان الجرائم والخيانات ، كما كان شأن عسكر كربلاء عندما ارتكبوا أفظع جريمة بحق الدين رجاء جائزة حقيرة أمّلهم يزيد (لعنه الله) بتقديمها لهم .

---

(٥) سورة الحديد ، الآية (٤) .

« ١٢ »

﴿والأرض وضعها للأنام﴾[١] .

* العدل في خلق الأرض:

بعد ان اشارت السورة الىٰ خلق السماء ورفعها ، والتطرّق الىٰ النظام والعدل السائدين في حركة الشمس ومدار القمر ، قرّر الباري تعالىٰ العدل قانوناً ثابتاً للناس وشدوه أوامره بمراعاة الميزان كما تحدثنا في ذلك من قبل ، وقد ساق لنا الله عز وجل أمثلة علىٰ العدل الالهي لكي نحكّم العدل في جميع شؤوننا مختارين طائعين تأسياً بخالقنا تعالىٰ ، ثم جاء الحديث الآن الى ذكر خلق الأرض وتأكيده علىٰ ضرورة إلتزام العدل في الأرض كيما ينظم الناس شؤون حياتهم وفق ذلك بعد استحكام شيوع العدل في السماء والأرض تكويناً .

* صلاحية الأرض للحياة:

﴿والارض وضعها للأنام﴾ ومعناها ان الله (جل وعلا) جعل الارض صالحة لحياة المخلوقات التي أوجدها لتعيش على تلك الأرض ، و(الانام) جمع لا مفرد له ويعني الخلائق . وقد أزاح المولىٰ تعالىٰ جميع الحوائل

---

(١) سورة الرحمن ، الآية (١٠) .

والموانع التي تعيق حياة الموجودات في كوكب الأرض بجعلها ممهدة لسكانّها وعمّارها كما يؤكده قوله تعالىٰ ﴿**ألم نجعل الارض مهاداً**﴾[٢]فكوكب الارض هو أحد الكواكب والأجرام التي لا تحصىٰ عدداً في هذا الكون الرحب الفسيح ويؤّلف الماء ثلاثة أرباع سطحها حسب رأي العلماء قديماً وحديثاً ، وقد كتب صاحب كتاب أنيس الأعلام المرحوم فخر الاسلام عن مساحات البحار قائلاً ، أن مساحة المياه التي تغطي سطح الأرض تصل الىٰ اربعة واربعين مليون وسبعمائة وخمسين الف ميل مربع ، في حين تتفاوت اعماق المحيطات بحيث يبلغ أبعدها عمقاً ستة آلاف قامة (أي ما يعادل عشرة آلاف متر تقريباً) .

* تأثير المد والجزر علىٰ الظروف الحياتية :

ان المراقب لحركة كوكب الأرض المذهلة ليعجب كيف أن المياه الموجودة علىٰ سطحه لا تغرق سطح الأرض ، ومن يراقب حالة المد والجزر البحري كيف تنتظم حركته بنظم معين فيدفع البحر الرمال والحصىٰ الى سواحل البحار وشطئانه فيصنع منها تلالاً وسدوداً وجدراناً ، ليدرك بلا ادنىٰ شك ان ما يصنعه البحر لم يكن بوازع من وعي وحس وشعور أبداً ، وانما يتم ذلك من خلال الوحي التكويني الإلهي المستودع في البحر المنشأ لحالة المد والجزر ، اذاً أحد اهم المهام التي تصدىٰ لها المد والجزر البحري هو صنع الحواجز وانشاء السدود المحيطة بسواحل البحار لكي تتمكن مخلوقات اليابسة من العيش بهدو وهناء مضافاً الى أن حالة المد والجزر تحول دون تعفّن ونتن ماء البحار في حالة سكونه وركوده مع كون وجود الأملاح في مياه البحار يعد عاملاً اساسياً آخر في عدم السماح للبحر بتعفّن مياهه ، وبذلك سلمت الحياة علىٰ اليابسة من الزوال والعدم .

---

(٢) سورة النبأ ، الآية (٦) .

* الحركة المذهلة غير المحسوسة للكرة الأرضيّة:

جاء في كتاب دائرة المعارف من الحركة المحورية للأرض حول نفسها ، ان بعض المكتشفين يعتقدون بأن الأرض تتحرك بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية الواحدة ، أي ما يعادل الفاً وثمانمائة كيلومتراً في الدقيقة (وهي المسافة الممتدة من مدينة مشهد في اقصىٰ الشمال الشرقي من ايران الىٰ مدينة شيراز في الجنوب الغربي مروراً بمدينة طهران العاصمة ، حيث تقطع الارض في حركتها المحورية هذه تلك المسافة الشاسعة بدقيقة واحدة من الزمن!) ، وبذلك تكون المسافة التي تقطعها الارض في هذه الحركة حوالي خمسمائة ألف فرسخ في اليوم الواحد ـ وطبقاً لهذه الحركة المذهلة ، ووفقاً للمألوف فأن المخلوقات الأرضية يفترض بها والحال تلك التزلزل والفناء ، ولكن الواقع يحكي باللمس والاحساس ان اي مخلوق لم يشعر بهذه الحركة مطلقاً ، ومثل هذا الحال ، لربما وجد الكثيرون منا ما يشابهه (مع الفارق) في ركوب البواخر العملاقة وشاهد بنفسه كيف ان الباخرة تمخر عباب البحر في حركتها السريعة نسبياً دون أن يشعر المسافرون وهم علىٰ متنها بحركتها ، فهم ينعمون بالهدوء والسكينة ، ويتحركون علىٰ ظهرها وبين أقبيتها ويأكلون وينامون بشكل عادي للغاية (باستثناء الحالات التي يهيج فيها البحر وتنشأ فيها الزوابع البحرية عندما تتلاطم أمواجه بعنف) .

اذاً معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿**والارض وضعها للأنام**﴾ هو أن الله (عز وجل) جعل في الأرض من مستلزمات الراحة والاستقرار ما يمكن المخلوقات من العيش بهناء وهدوء علىٰ سطحها ، مع تزيين هذا الكوكب بالثمار والاشجار وغير ذلك من الاشياء التي ستأتي الآيات اللاحقة لتحدثنا به ، لكي يلفت المولى (جل جلاله) نظر عباده الى عظمة هذه الآيات الأرضية .

* الجبال أوتاد الارض ، وخزائن نفائس الله فيها:

وفي جملة تركيبات الأرض الديمغرافية وجود الجبال التي تعتبر الباعث الهام علىٰ ثبات الأرض وتماسك وحدتها ، فرسوخ الجبال الرواسي فيها بشكل متين جعلها وكأنها ملتحمة بالأرض من حيث أنها قد مدت عروقها الى داخل عمق القشرة الأرضية ، وفي اعماق البحار والمحيطات لكي تعطي لسطح الأرض وجوداً رصيناً متماسكاً يحول دون تمزق الأرض عند تفجر البراكين الناشئة عن الانفجارات الهائلة في باطن الأرض . وفوق ذلك تكمن أهمية الجبال في كونها خزائن لثروات الأرض ونفائسها ، فكما أن المرء يبحث عن اكثر المواضع استحكاماً ليودع فيها كنوزه وثرواته ، جعل الله تعالىٰ الجبال خزائن ثروات الأرض ومعادنها (كالذهب والفضة والنحاس والعقيق والفيروزج والمرمر وسائر المعادن والفلزات) ، كما يؤكد ذلك النص الوارد في دعاء الجوشن الكبير «يا من في الجبال خزائنه» ، مضافاً الى كل ما سبق فان الجبال تعد منازل آمنة ومساكن طبيعية محكمة لكثير من الحيوانات .

* سطح الأرض ، ليس بالرخو اللّين ولا بالصلد الشديد:

وقد جعل الله سطح الارض علىٰ نحو يمكن فيه إعمار الأرض وزراعتها والعيش عليها ، فلا هي بالرخوة اللينة التي تغور بواطئيها ، ولا هي بالصلبة الصلدة بحيث يتعذّر شقها وزراعتها أو بناء المساكن عليها ، وهنا ألفت نظركم الى هذه العبارة (تعرف الأشياء بأضدادها) أي ان انعدام وجود الليل يؤدي الى عدم معرفة نور النهار وضيائه ، ولولا المرض والسقم لم تعرف نعمة العافية والصحة (كما في الريح التي تضرب ظهر الانسان فتسلبه القدرة على الجلوس والقيام) ، وهكذا أيضاً في سطح الأرض فهو يشتمل علىٰ وجود الأضداد لو التفتنا اليها لعرفنا وأستيقنّا عظمة نعمة امكانية الحياة علىٰ وجه الأرض المألوف ، ففي الأرض توجد مناطق البحيرات الملحية ، والصحاري الرملية ، واراضي الرمال المتحركة (وتلك المناطق لا تصلح للحياة تماماً) وكذلك توجد

في الأرض مناطق الاهوار والمستنقعات ، والمناطق الجبلية البركانية المشتملة علىٰ البراكين النشطة ، ومناطق الغابات ، ومناطق الوديان السحيقة ، وغيرها من المناطق كما يذهب الى تأكيد ذلك قوله تعالىٰ ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات**﴾[٣] ، فلو نظرنا الى تلك المناطق ثم نظرنا ثانية الى سطح الارض المألوف من حيث استوائه وسهولته حفراً وشقاً واعماراً واستثماراً وزراعة لوجدنا كيف ان الله عز وجل جعل الأرض مهاداً للأنام يمكنهم الاقامة عليها والحياة فيها ، اذاً التوجه الى الاضداد يؤدي الى تيسير ادراك عظم النعم .

* وما لم يصلح في الارض للحياة ، يصلح للعبرة والموعظة:

ففي الارض مناطق تشبه الىٰ حد كبير (كورة الحداد) ، في شدة حرارتها كما في صحراء برهوت اذ ان فصولها الأربع صيف قائظ يشتعل ناراً ، حتىٰ أن الطيور لا تستطيع من اجتياز هذه المنطقة طيراناً ، وهناك مناطق أخرىٰ تشبه البرادات الضخمة من حيث درجة الحرارة المنخفضة وشدة البرودة بحيث لو مر بها حيوان ما لانشّلت حركته وتجمدت دماؤه ولنفق ميتاً ، كما في مناطق القطب الجنوبي من الأرض .

«نسأله تعالىٰ ان يجعلنا ممن عرف آلائه فشكر ، ونظر الى آياته فأعتبر» .

---

(٣) سورة الرعد ، الآية (٤) .

« ١٣ »

﴿والأرض وضعها للأنام* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام* والحب ذو العصف والريحان* فبأي آلاء ربّكما تكذّبان﴾[١] .

* فناء الأرض:

قلنا ان الله (عز وجل) جعل الارض مكاناً ملائماً لحياة المخلوقات من حيث امكانية العيش والراحة فليست هي بالصلبة القاسية التي يستحيل معها العمران والزراعة ، ولا هي بالرخوة اللينة التي يستحيل بها الثبات والاستقرار ، بل كانت الأرض بين بين تلائم طبيعة حياة المخلوقات . ولما كان «كل حادث فآن» ، فنستفيد من كلمة (وضع) الواردة في آية **﴿والأرض وضعها للأنام﴾** أن الأرض حادثة ومخلوقة ، وأن مصيرها الى الزوال والفناء كما تشير الى هذه الحقيقة سورة الفجر في قوله تعالىٰ **﴿كلّا اذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً﴾**[٢] ، وقد ذكر علماء الهيئة (الفلك) ان للارض أجل محدود اذا ما حل بها يحل حينذاك الموت والفناء . وقد أورد اولئك العلماء عدة احتمالات لكيفية وشكل الفناء للأرض نستعرض اهمها : ـ

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٠ ـ ١٣) .

(٢) سورة الفجر ، الآية (٢١) .

الانخفاض الحاد في درجة الحرارة ، أو إصطدامها بجرم آخر ، أو تلاشي جاذبية الشمس بالنسبة لأبدان الحيوانات عندما يدركها الموت ، فالحرارة الكامنة في باطن الأرض والتي تصهر المعادن في جوفها سيأتي عليها يوم تنتهي فاعليتها وقابليتها على الاذابة والصهر لبرودتها ، ولعل ذلك سيتزامن مع قيام الساعة وحصول الانفجارات الداخلية الرهيبة في باطن الأرض واشتعال البحار والمحيطات(٣) ، مما يبعث ذلك الى انجماد الارض وموتها(٤) .

٢ ـ الاحتمال الثاني : ـ اصطدام الارض بجرم سماوي آخر يهيّىء أسباب فنائها .

٣ ـ الاحتمال الثالث: ـ إنتقال الشمس الىٰ مرحلة الشيخوخة والهرم بحيث تصل الىٰ اليوم الذي تتلاشىٰ فيها حرارتها العالية ، وينعدم ضيائها ، مما يؤدي ذلك الىٰ تلاشي جاذبيتها ، فتتلاشىٰ الأرض وسائر اجرام المجموعة الشمسية لارتباطهن الوثيق بنظام المجموعة .

تلك الاحتمالات أوردها علماء الفلك الى جانب احتمالات أخر عزفنا عن التطرق إليها ، وما يهمّنا هو ما تطرق الى ذكره القرآن الكريم عن موضوع تبدّل الارض فيٰ قوله تعالىٰ ﴿**يوم تبدّل الارض غير الارض**﴾(٥)وهو ما اشار اليه مولىٰ الموحدين الامام علي (ع) في قوله (إنّ الله يبّدل هذه الأرض بأخرىٰ غيرها لم يعص الله فيها)(٦) . فكما أن بدن الانسان يفنىٰ ولا يبقىٰ ، فان محل استقراره ومكان نشأته وترعرعه الذي شغل فيه حيّزاً من وجوده وتعلّق به قلبه ، سيفنىٰ ويزول هو الآخر أيضاً .

---

(٣) ﴿**واذا البحار سجّرت**﴾سورة التكوير ، الآية (٦) .
(٤) لمزيد من المعلومات ، يمكن الرجوع الىٰ كتاب المعاد من مؤلفات سماحة السيد المؤلف (رض) .
(٥) سورة ابراهيم (ع) ، الآية (٤٨) .
(٦) بحار الأنوار/ المجلد الثالث .

* ما الدّنيا؟ وما لّذاتها؟!

يقول أحد علماء الأخلاق ، شاهدت في أحدىٰ المقابر عالماً يرقب القبور بعين الدهشة والحيرة وينقّل نظره بين تلك القبور ومحل يقوم فيه بعض الأفراد بتنظيف المرافق الصحيّة ونقل الفضلات والأوساخ والنجاسات الى مزبلة علىٰ مقربة منها ، فتقدمت اليه وسألته: بماذا تفكر؟ قال لي: أفكر في الدنيا ونعمها ، فتلك القبور قد ضمّت أبدان من قد تنعّموا بنعم الدنيا ثم صاروا الى الرقاد تحت التراب ، وهذه هي نعمهم التي خلفّوها وراءهم قد إستحالت الى نفايات ونجاسات وألبسة بالية ممزّقة!!

وذلك ما تؤكده الروايات الشريفة بالفعل: (الدنيا جيفة ، وطلاّبها الكلاب ، وعمّارها هدّامها) ، وهنالك ملك ينادي في كل يوم (يا بني آدم لِدوا للموت ، وأجمعوا للزوال ، وأبنوا للخراب) . ونؤكد هنا لكي لا يلتبس الأمر علىٰ البعض فيفهموا من ذلك كراهية بناء الدور مثلاً ، كلا ، إنّما الكراهية والنهي جاءت في من يعمر دنياه ، ظنّاً منه بالخلود فيها فيغفل عن العمل لآخرته فيكون قد أخربها .

* متىٰ يشرع ركب الموتىٰ بالرحيل؟

جاء في كشكول الشيخ البهائي (قدس سره) ، أن أحد وزراء هارون الرشيد رأىٰ بهلولاً في إحدىٰ المقابر فقال له: كيف تهجر يا بهلول المدينة وأهلها وتقيم في المقابر؟ فأجابه بهلول: لقد قدمت علىٰ قوم اذا حدثتهم لا يؤذونني ، وان حدثوني لم يغتابوا ولم يكذبوا ولم يرموا من أحدٍ ببهتان . فردّ عليه الوزير قائلاً: أويحدّثوك؟! قال بهلول: بلىٰ ، ولقد سألتهم: ايها الركب الذي قد حطّ رحاله ، حتىٰ مَ تقيمون ، ومتىٰ ترحلون؟ فأجابوني: اننا ها هنا قد حططنا رحالنا وننتظر لحوقكم بنا لنرحل سوية!! .

بلىٰ والله ﴿قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يومٍ

معلوم﴾[٧]فمرحىٰ لمن أعدّ لرحيله وسفره الطويل كثير الزاد ، «اللّهم إجعلنا ممن قد أعدّ الزاد لرحيله وإن تأخرت قوافلنا عن اللحوق بمواعيد نبتغيها فان موعدها معك ، اللّهم فأخرج حب الدنيا من قلوبنا ، واجعل افئدتنا معلقة بالآخرة» .

* من نعم الله فاكهة الأرض:

﴿فيها فاكهة﴾ ثم يعقّب المولى (تعالىٰ) ذكر نعمة خلق الأرض وجعلها صالحة للعيش بذكر جانب من نعمه المنبثقة عن رحمته الرحمانية لأهل الارض كيما يزدادوا بصيرة وليعتبر بها أولوا الالباب . واول تلك النعم هي (الفواكه) ، وقد تناولت هذه السورة ذكرها لكي نتدبّر كيفية صيرورتها من حيث أنواعها وألوانها وصورها ، مع أن اشجارها قد سقيت من ماء واحد ونبتت في تربة واحدة كما في قوله (ع وجل) ﴿يسقىٰ بماء واحد﴾[٨] ، بل أننا نجد لكل ثمرة مذاقاً خاصاً يختلف عما سواه في باقي الثمار ، ففيها ما طعمها حلو ، وما طعمها حامض ، أو ما طعمها مرّ المذاق ، أو ما تشتمل علىٰ ما بين الطعمين من المذاق ، بل وفي الثمار ما يأكل لُبّها دون قشرها كما في الرمّان ، ومنها ما يأكل كلّها ظاهرها وباطنها كما في التمر والتفاح ، نعم لقد خلق الله تعالىٰ كل تلك الضروب من الفواكه ﴿لتعلموا أن الله علىٰ كل شيء قدير﴾[٩] .

* بين حموضة الحصرم وحلاوة العنب:

والآن تعالوا الى شجرة العنب ، هذه الفاكهة اللطيفة ، فثمرتها تبدأ بالحصرم حامض المذاق ثم تتدرج في زيادة الحلاوة حتىٰ تصل الى مرحلة النضج فتصير عنباً لذيذ الطعم حلو المذاق ، فمن أين جاءت هذه الطعوم؟ ، الطعم الحامض أولاً يظهر ثم يختفي ، فكيف اختفىٰ هذا الطعم؟ وكيف

---

(٧) سورة الواقعة ، الآية (٥٠) .
(٨) سورة الرعد ، الآية (٤) .
(٩) سورة الطلاق ، الآية (١٢) .

استحال الى طعم حلو؟ ألا يستدعي هذا الأمر أن يقدم ذواقوا العنب الشكر لصانع العنب المبدع؟

وعن نزول الفاكهة الحديثة النضج في أول أوانها ، يروى عن النبي (ص) انه كان يقبلّها ثم يضعها على عينه ويقول: (اللهم فكما أريتنا اوله في عافية ، ارنا آخره في عافية) ، وواقع الحال يؤكد ان عدم مصاحبة العافية لهذه النعم يُعدم لذّتها للآكل ويسلبه هناها . لذلك كان الأجدر بالمرء المؤمن عندما يأكل فاكهة ما (كالرمان أو العنب مثلاً) أن يأكلها حبة حبة مستحضراً قلبه بذكر الله (عز وجل) وبكل سكينة لكي يشعر بلذة هذه النعمة الالهية وبالخصوص في ثمرة الرمان ، فقد ورد عن الامام الصادق (ع) قوله: ان الامام أمير المؤمنين (ع) كان يفترش شيئاً من القماش عندما يتناول الرمان لكي لا تتناثر حباتها ، ثم يعود الى ما انفرط منها حبة حبة فلا يبقي عليها[١٠] . ولقد جاء في الروايات ان الرمان ينير القلب اربعين يوماً لمن تناولها في صبيحة الجمعة[١١] ، ومن اكل اثنتين تنوّر قلبه الى ثمانين يوم وهكذا .

وبديهي ان حضور قلب الآكل في تناول الرمان له اكبر الاثر في تنوّر قلبه ، اما في الكافر او المنافق فهما لم يتركا لنفسيهما قلباً كيما يشع النور في داخله . وعن التفاح ورد في الأثر انه والسفرجل من ثمار الجنة (اي ان اصل هذه الفاكهة من الجنة وفي الجنة ، أما ما هو موجود منها في دار الدنيا ما هو الاّ انموذج لما في الجنة) وأنها لا ضرر فيهما ، سيما في ثمرة السفرجل والكّمثرىٰ .

* الغسل ثم البسملة ثم الأكل:

ولقد جاءت الوصايا بضرورة التزام غسل الفواكه عامة قبل تناولها ، وان لا يدع المرء قول بسم الله الرحمن الرحيم عليها عند الاكل ، ولقد وردت بعض الروايات والأخبار التي تؤكّد ان من تناول بعض الفواكه علىٰ حب

(١٠ و١١) سفينة البحار (ج١ ، ص ٥٢٥) .

رسول الله (ص) لأنه كان يشتهيها لم يصله ضررها ان اشتملت عليه كما في هذه الرواية (من أكل التمر على شهوة رسول الله (ص) لم يضره)[١٢]ولقد كان الامام امير المؤمنين (ع) يحب التمر هو أيضاً ، ولقد جاء ذكر الباري تعالىٰ لفاكهة التمر بعد ذكر اطلاق الفاكهة تعبيراً عن شأنها الكبير .

* التمر ، خبز وحساء وفاكهة ودواء:

﴿والنخل ذات الاكمام﴾ والنخل هو شجرة التمر وهو من فواكه الارض ، وصفة (ذو الاكمام) هي جمع لكم وهو الغلاف أو الغطاء ، لأن التمر قبل أوان نضجه يبقىٰ محفوظاً تحت ستائر معيّنة تدعىٰ (الاكمام) ، فأنظروا الى يد القدرة الالهية كيف تجعل نواة تمر زُرعت فأستحالت الى شجرة نخل عظيمة!! ، ثم لو جئنا الى نفس الشجرة لوجدنا ان جذوعها وسعفها ذو نفع وفائدة جمة كمصدر من مصادر الطاقة الحرارية ، وثمر هذه الشجرة الحلو المذاق يعوّض عن الخبز وعن الحساء لما فيه من مواد غذائية تنعدم وفرتها فيما سواه من الثمار ، فالتمر مفيد في رفع رطوبة البدن وقطع البلغم ، ولقد جاء في الشرع المقدس استحباب تناول سبع تمرات قبل النوم لقتل الديدان المعوّية وقطع البلغم كما في هذه الرواية (ومن أكل سبع تمرات من (العجوة)[١٣]قتلن الديدان في بطنه) وفي رواية اخرىٰ (يذهبن بالبلغم)[١٤] .

---

(١٢) سفينة البحار ، (ج١ ، ص ١٢٥) .
(١٣) العجوة: نوع من أفضل أنواع النخل .
(١٤) سفينة البحار (ج ١ ، ص ١٢٥) .



﴿والأرض وضعها للأنام* فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام﴾[1] .

* خصائص النخل الحيوانيّة:

لقد جاء ذكر النخل في هذه السورة المباركة بعد ذكر الفاكهة ، وهو ذكر خاص بعد عام ، إذ أن النخل من جملة الفواكه التي خلقها الله (عز وجل) ، له اكمام وهي الأغلفة المغطيّة لثمرة (التمر) .

وانمّا جاء ذكر النخل تخصيصاً لاشتمال هذه الفاكهة علىٰ خصائص تتجلّىٰ فيها القدرة الالهيّة اكثر مما هو في سواها من الثمار . فمن خصائص النخل انه اقرب انواع النبت الى الحياة الحيوانية ، فقد ورد عن الامام أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال (استوصوا بعمتكم النخلة خيراً ، فأنّها خلقت من طينة آدم ، ألا ترون انه ليس من الشجرة تلقح غيرها)[3]وهذه الرواية تشير الىٰ قرب حياة النخل من الصفة الحيوانية (وأن كان هذا القرب محدوداً) ، فعندما يذبح

---

(١) سورة الرحمن ، الايات (١٠ ـ ١١) .
(٢) بحار الانوار (١٤٢) باب التمر .

الحيوان ويتم فصل رأسه من بدنه يموت ، وفي النخـل أيضاً لـو اصيب رأسها بضرر ليبست .

* تلقيح النخل ، والحب بين ذكره وانثاه:

ومن خصائص النخل الأخرىٰ ، أن الانثىٰ يتم تلقيحها من الذكر الذي هو من جنسها ، والتلقيح ضروري لأجل تحقيق التوالد والتناسل ، ولأجل ان يعطي النخل ثمرة يستلزم التلقيح كما هو الحال في الحيوانات ، والمتخصصـون في هـذا المجال مـطلعون علىٰ هـذه الحقيقة حيث يتم التلقيـح بواسـطة العبوات الدائرية التي ينتجها ذكر النخل من ذات جنس الأنثىٰ .

وهناك خصوصية أخرىٰ عجيبة يتميز به النخل وهي العـلاقة والحب بين الذكر والأنثىٰ وهي عين مثيلتها في الحيوانات ، اذ ان الله (عز وجل) جعل في هذه الشجرة قدرة خفيّة علىٰ التقارب بين الزوجين من هذا النبات ، فقـد نقل بعض الثقات انه قد حصل في أحد بساتين النخيل ان كانت نخلة انثىٰ تقع علىٰ مسافة عشرة أقدام من ذكرها ، وما أن مرّت ستة شهور حتىٰ اقتربت النخلتان من بعضهما البعض بعد خطّت الأرض بحيث أصبحت المسافـة بين جذعيهمـا لا تعدو الشبر الواحد!! ، ولعلّهما يتعانقان بأن ترمي كل نخلة برأسها علىٰ الأخرىٰ ليحتضنا فيما بينهما ، ويشبكان سعفهما سوية لكي نعلم **﴿ان الله علىٰ كل شيء قدير﴾** .

* دور الحبوب في ترميم خلايا بدن الأنسان:

﴿والحبّ ذو العصف والريحان﴾ هذه الآية معطوفة على الآيـات التي سبقتها بحيث تكون في واقعها (فيها الحب ذو العصف والريحان) ، فعندما ذكر الله تعـالىٰ الأرض ، وتطرّق الى ذكـر الفواكـه ثم خص بالـذكر النخـل ، جاء ليخص الحبوب بالـذكر ، بـاعتبار أن الحبـوب تشتمل علىٰ الـوفرة في المـواد الغذائية التي يتغذىٰ عليها الانسـان والحيوان ، فهي طعام لذيذ ومغّذٍ .

وبما أن البدن من حيث تركيبته مادي ، فهو يتضرر في خلايـاه المكونـة

لانسجة البدن عندما تصدر عن ذلك البدن حركة أو جهد ليؤمّن بواسطتها الطاقة الحرارية اللازمة للقيام بالفعاليات المختلفة ، وبذلك كانت خلايا البدن في تعويض دائم لأجل مواصلة تجديد القوىٰ الجسمانية ، فمثل البدن كمثل المصباح والموقد الذين يحتاجان الى النفط او الزيت او الكهرباء لأجل ان يستطيعا من مواصلة عملهما وتأدية دورهما ، لذلك كانت أبدان الانسان والحيوان تتلاشىٰ وتموت في حال تعطّل وصول المواد الغذائية لها لفترة محدودة من الزمن ، وكلّنا مطلّع علىٰ حال البدن عندما يبتلىٰ بالأمراض والاوجاع كيف يكون مخيفاً ضعيفاً ، لأن المزاج عند المرض يخرج عن الأعتدال فلا يميل إذّاك الى تناول الطعام ، او أن لا تتحقق عملية هضم الطعام بصورة صحيحة أو بشكل طبيعي ، فعندئذ لا تحصل التغذية السليمة فيهزل البدن ويضعف ولما كانت خلايا أنسجة البدن تتفسّح وتتحلّل وتموت ، كان البدن في أمّس الحاجة وبشكل متواصل الى تعويض تلك الخلايا والانسجة ، ولا يتم هذا التعويض الا من خلال تناول الحبوب واللحوم والفواكه وتأتي الأولوية في الأهمية للحبوب باعتبارها تضم في تركيبها مختلف أنواع الفيتامينات التي يقل وجودها في غيرها من المحاصيل النباتيّة ، فالرز والقمح والشعير والذرة فيها من المواد الغذائية ما يقل نظيرها في سواها من النباتات ، ولقد أولت الروايات الواردة عن أهل البيت (ع) لهذه المحاصيل أهمية كبيرة كما سنرىٰ عما قليل : ـ

* الرز ، شفاء لا داء معه:

روي عن الامام الصادق (ع) في اهمية الرز أنه قال: (كل شيء يحتمل معه الداء والدواء ، ما خلا الرز ، فأنه شفاء لا داء فيه)(٣) ، و(صادف أن تشرّف رجل من أهل العراق بالحضور عند الامام الصادق (ع) ، فنقل هذه الرواية علىٰ تفصيلها الآتي الذي نجد فيه الكفاية في التدليل علىٰ موضوعنا ، يقول: كانوا قد طبخوا الرز في دار الامام (ع) ، فدعاني الامام لتناول الطعام ، قلت له: لقد

(٣) بحار الانوار (م ١٤) باب الأرز .

تناولت طعامي يا مولاي ، فقال الامام (ع): ان افضل هدية كان يقدمها لي اهل العراق ليلاً هي الرز)[٤] ، وأنظروا الى جمال بيان وتعبير من قال ان الرز يقال له في الفارسية (بِرِنجْ) وهي لفظة مخففة لكلمة (بيرنج) التي تعني (لا ضرر فيه) .

* الشعير ، غذاء فيّاض بالبركة ، وهو طعام الأنبياء (ع):

والشعير هو الصنف الآخر من الحبوب الذي أولته روايات اهل البيت (ع) أهمية خاصة ، فقد جاء عن الإمام الرضا (ع) قوله (فضل خبز الشعير علىٰ البُر[٥] ، كفضلنا علىٰ الناس ، وما من نبي الاّ وقد دعا لأكل الشعير وبارك عليه ، وما دخل جوفاً الاّ واخرج كل داء فيه ، وهو قوت الانبياء وطعام الأبرار ، أبىٰ الله أن يجعل قوت الانبياء الاّ شعيراً)[٦] .

وورد في كتب الطب القديمة أن الشعير يوجب انتفاخ البطن ويمكن تلافي ذلك بأكل التمر ، وهو (الشعير) طعام نوراني ينير قلب المؤمن .

وللعدس أيضاً خواص جسمية وروحية اشتمل علىٰ ذكرها الروايات ، فهو يؤدي الى ترقيق القلب ويغزر الدمعة ، فقد روي ان نبياً شكىٰ الى رب العالمين جفاف عينه وقلة دمعه ، فأُمر بأكل العدس[٧] ، وعن النبي يحيىٰ (ع) يروىٰ أنه كان يكثر من أكل العدس ، وكان بكاء يحيىٰ مضرباً للأمثال من حيث كثرته وغزارة دمعه .

واللوبياء هي الأخرىٰ من الحبوب الممدوحة ، وقد ذكرها المرحوم المامقاني في آدابه وسننه . وجميل جداً أن يتناول المرء المؤمن الاطعمة المستحبة التي مدحها أهل البيت (ع) باعتباره تابعاً لمحمد وآله (ص) فيأكلها رغبة في طاعتهم وموالاتهم . وقد ورد عن الامام الصادق (ع): (من اكل

---

(٤) المصدر السابق .
(٥) البُر: القمح أو الحنطة .
(٦) سفينة البحار (ج١ ، ص ٣٧٥) .
(٧) بحار الانوار ، المجلد الرابع عشر .

سفرجلة ، أنطق الله الحكمة علىٰ لسانه أربعين يوماً)[٨] ، وقد ذكرنا فيما سبق ان هذه الفوائد لا تعمّ الاّ المؤمن الصالح الذي يتناول طعامه بقصد التبرّك واتباعاً لسنن اهل البيت (ع) ، ولاجل الاستفادة من نعمة الله ورحمته لما لهذه النعم من بركة ظاهرة وباطنة .

* تجنّب تناول الثمار غير الناضجة:

وقد شدّد اهل البيت (ع) علىٰ قاعدة عامة مفادها النهي كراهية عن أكل الفواكه والحبوب غير الناضجة ، والشاهد علىٰ ذلك ما ذكره الامام (ع) من قوله تعالىٰ ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر**﴾[٩] ، لأن الثمرة غير الناضجة عديمة النفع ان لم تكن في الأغلب تشتمل علىٰ الضرر .

وعن الباذنجان يقول الامام (ع): اذا اشتّد الحر ونضج التمر فلا ضير فيه[٣] ، أي عندما يأتي أوان نضجه ، ومع كل ذلك ينبغي مراعاة القاعدة الصحية الالهية في قوله تعالىٰ ﴿**كلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾[١١] ، لأن أحد اضرار الاسراف في تناول الأطعمة هو حصول قسوة القلب ، حتىٰ وان كان الاسراف هذا في الاكثار من تناول العدس الذي يؤدي تناول قليله الى رقة القلب، لأن الإكثار من تناول الأطعمة يؤدي إلى امتلاء المعدة وتلكؤها في عملية الهضم ، فيحصل الهضم الناقص وتبقىٰ بعض المواد الغذائية غير مهضومة فتسند في باطن الانسان وتتسبب في خروج الأبخرة الفاسدة التي تتصاعد نحو الدماغ فتؤدي الى إفساد إدراك المرء وتعطّله .

---

(٨) سفينة البحار (ج١ ، ص ٦٢٩) .
() سورة الانعام ، الآية (١٤١) .
(١٠) بحار الانوار ، المجلد الرابع عشر .
(١١) سورة الاعراف ، الآية (٣١) .

* رواية لطيفة لضمان السلامة:

يروى عن امير المؤمنين (ع) أنه قال لأبنه الامام الحسن (ع) (لا تجلس علىٰ الطعام الاّ وأنت جائع ، ولا تقم عن الطعام الاّ وأنت تشتهيه ، وجوّد المضغ ، واذا نمت فأعرض نفسك علىٰ الخلاء ، فاذا استعملت هذا استغنيت عن الطب)(١٢) ومسألة أكل الطعام علىٰ الجوع أنما اكدّ عليها الامام (ع) باعتبار وجود الكراهية في اكل الطعام دون وجود الشهوة له ، اما عن معنىٰ القيام عن الطعام في حالة الشهية له ، فهو يعني ترك تناول الطعام قبل الشبع بلقيمات مثلاً ، ولعل البعض يعتقد بغير ذلك ، اذ يقال ان بطن الجائع يتسع لاربعين لقمة ، وعن تجويد المضغ فهو تناول الطعام بشكل يحصل معه المضغ الكافي حيث يختلط به اللعاب بالصورة التي ييسر للمعدة عملية الهضم بشكلها الصحيح ، وتجويد المضغ يستوجب تجنب الشراهة والسرعة في الأكل ، وكثيراً ما يحصل لمن يتناول طعامه دون حصول حالة المضغ الكافي ، الكثير من الاضرار والأدواء الناشئة عن حصول الخلل في برنامج عملية الهضم في المعدة ، ناهيك عن عدم حصول المرء علىٰ الفائدة المطلوبة من موضوع الأكل ذاته ، لذا أستحبت كثرة المضغ وتصغير اللقمة .

* سوء الاستفادة يعود بالأضرار:

ومن الأمور الأخرىٰ التي تعد في كفران النعم هو ما يتناوله الانسان من ألوان الأطعمة ، ثم يدعي بعد ذلك انه قد اصابه الضرر من تلك الاطعمة ، يقول الامام الصادق (ع) «الكفر بالنعم هو أن يقول الرجل اكلت كذا وكذا فضرّني»(١٣) ، نعم لأن الضرر الناشيء إنّما كان بسبب تناول الطعام دون ان يشتهيه ، أو بسبب الخلط في تناول عدة اكلات ، أو بسبب الافراط في تناول الاطعمة ، وليس بسبب لون الطعام المتناول ، فمن يتصور ان الرقي او البطيخ

(١٢) بحار الانوار (م ١٤) باب جوامع آداب الاكل .
(١٣) سفينة البحار (ج ٢ ، ص ٥٩٩) .

او العسل او اللبن ضار بذاته؟! اذاً يجب ان نعرف ان بعض الاكلات تستوجب تناول معها ما يحول دون حصول الضرر لبدن الانسان ، فمن يتناول اللبن عليه ان يطعم معه الرقي (خصوصاً فيمن طوىٰ مرحلة الشباب وبالصورة التي يكون سبيلهم في تناول الطعام يترّفع عما يفعله الصبيان والاطفال حينما تمتد أياديهم الى كل ما يرونه أمامهم ، لاننا ندرك ان الله تعالىٰ قد أحسن في صنعه وابداعه ، فهو لم يخلق الضرر والسوء ، وانما منشأ الضرر والسوء هو عدم وجود الاستخدم الصحيح للاشياء ، وُ السوء والضرر منشأه انعدام الاعتدال ، والاعتدال نابع من العدل ، وعندما يقال لنا اعدلوا فمعنىٰ ذلك ان نتجنّب التفريط بالعدل بوضع كل شيء في موضعه المناسب ، اذاً يجب علىٰ المزكوم ان يتجنّب تناول العسل حميّة .

* كثرة النوم منشأها الافراط في تناول الأطعمة:

وفي موضوع الافراط في تناول الطعام ، (جاء رجل الىٰ الامام الصادق (ع) وشكىٰ له كثرة نومه قائلاً: يا بن رسول الله (ص) اني لكثير النوم ، فأوصاه الامام (ع) قائلاً: أقلل من طعامك) ، نعم لأن تناول لقمة اضافية تجعل المرء مضطراً الى الاكثار من عب الماء ، وهذا يؤدي الى كثرة النوم ، لأن كثرة عب الماء تؤدي الى زيادة رطوبة الأبدان ، وهي رغم ذلك غير ممدوحة لتأكد حصول الضرر من جرّائها ، وحال المكثر من شرب الماء كحال اغراق الشجر بالماء سقياً الذي يعود عليها بالموت المحتّم . لذلك كان الافراط في تناول الطعام مستدعياً لكثرة النوم (وخصوصاً في اللّيل) فيحرم الانسان نفسه من نيل الأوطار في تهجد الأسحار ، فيفوته قطار السحر . ويسبقه ركب طلاب المغفرة ، ويبقىٰ المسكين غارقاً في سبات نومه الثقيل محروماً من بركات التهجد رغم نداء الملك واقرانه بصوت عالٍ (الا هل من سائل ، الا هل من تائب ، الا هل من مستغفر) .

ولقد جاء عن كيفية شرب الماء انه يستحب شربه مصّاً وعلىٰ دفعات ثلاث يقول بعد كل دفعة (الحمد لله) ، ولو عزز هذا القول بذكر عطش الامام الحسين

(ع) في عقيب الدفعة الثالثة لكتب الله تعالىٰ له بذلك القول مائـة الف حسنة (خصوصاً لمن يشرب بارد الشراب في قائظ الأيام وهو ظمآن) .

« ١٥ »

﴿والحب ذو العصف والريحان* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١] .

* سبعمائة حبة في حبة واحدة:

ان الله عز وجل اودع الأرض انواع الحبوب التي تشكل بمجموعها مادة غذائية مهمة للانسان والحيوان علىٰ حد سواء (كالحنطة والشعير والرز والعدس والحمص واللوبياء والذرة والماش) ، ولكل نوع من انواع هذه الحبوب خصائص معينة يصطلح عليها اليوم (بتركيبات الفيتامينات) التي تعود علىٰ الأبدان بعظيم النفع والفائدة ، بل أن فقدانها (الفيتامينات) يكون باعثاً أساسياً لابتلاء البدن بمختلف الامراض والعلل . وعن معنىٰ عبارة «ذو العصف» فأن العصف هو التبن أو الاوراق والسيقان الرقيقة المتبقية من السنابل بعد استخلاص الحبوب منها ، كما في قوله تعالىٰ **﴿كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء﴾**[٢]والمضاعفة الالهية هنا تحصل بفعل البركة الربانية ومددها ، ولعل البركة تنعدم نتيجة ارتكاب الناس لألوان

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٢ ـ ١٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٦١) .

المعاصي ومنها منع الزكاة فيؤدي ذلك الىٰ انخفاض مقدار العطاء الالهي .

* شيوع الفساد في المجتمع يفسد الطبيعة:

فقد ورد في رواية منقولة عن أهل البيت (ع) (لو لم يعص الله في أرضه لما بقيت من شجرة دون ثمر ، ولما أثمرت من شجرة ثمراً مرّاً أو محفوفاً بالأشواك) وهذه حقيقة يؤكدها قوله تعالىٰ **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾**[3] ، اذاً مبعث المرارة والسوء هو فساد الانسانية فيترتب علىٰ ذلك حصول الأثر القهري علىٰ الطبيعة المبصرة للنبوة والشاهدة للامامة ، المخبرة عنهما (رغم عدم ادراكنا لذلك بواسطة حواسنا) وهو أمر لا ينكر علىٰ أية حال كما يعززه قوله عز وجل **﴿ولو ان اهل القرىٰ آمنوا وأتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض* ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[4] ، **اذاً حصيلة البذرة الواحدة هو اضعاف ما يبذر الانسان من سنابل وحبوب ، له الحب الخالص ولحيواناته العصف غذاءً وزاداً ، ولعل في الحب نفسه غذاء للحيوانات كما تشير هذه الآية لذلك ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾**[5] .

وتأسيساً علىٰ ما سبق يكون معنىٰ قوله تعالىٰ **﴿والحب ذو العصف﴾** هو ان الله تعالىٰ قد جعل الحب ذو العصف مما تنبت الأرض حباً خالصاً وتبناً يعتاش عليهما الانسان والحيوان .

* الريحان ، الزرع طيب الرائحة:

«والريحان» ـ للريحان معنىٰ عام ، وهو ما يطلق علىٰ كل نبتة لها عطر ، سواء كان ذلك العطر منبعثاً عن اغصانها و اوراقها أو عن ازاهيرها وأورادها ، اذاً يكون الريحان اسماً لكافة الزروع ومختلف النباتات ذت الروائح الطيبة ، وفوق كل ذلك نجد ان الازاهير والاوراد التي خلقها الله تعالىٰ مما لا نحصي لها عدداً

---

(٣) سورة الروم ، الآية (٤١) .

(٤) سورة الاعراف ، الآية (٩٦) .

(٥) سورة النازعات ، الآية (٣٣) .

تتباين في الوان عطورها ، ولعل الورد الأحمر هو اكثر تلك الاوراد إنتشاراً ، اذ نجد رواية تصفه بأنه من اوراد الجنان ، بل وتذهب الى اكثر من ذلك فتعّد عطره انموذجاً لعطر محمد (ص) ، وان اصل شجرته في الجنان في المقام المحمود لمحمد وآله (ص) .

* الورد الأحمر ، عطره محمديّ:

فقد نقل كتاب بحار الانوار عن الامام الصادق (ع) قولـه (من وقعت في يده وردة ، ثم شمّها ووضعها علىٰ عينه وصلىٰ علىٰ محمد وآله ، غفـر الله له ذنوبه ولـو كانت عـدد الرمـال ، وزاد في حسناتـه بذلـك المقدار حتىٰ يلقيهـا أرضاً) .

* قلم القدرة يخط علىٰ الورد:

ولما كان ذلك الحديث الشريف قد جرّنا الى هذا المقام ، فلا نرىٰ ضيراً من أن ننقل لكم هذه الرواية التي ذكـرها صـاحب بحار الانـوار لتستضيء بها بصائر قلوبنا .

(يقول عبد الله بن سنان ، استأذن رجل علىٰ الامام (ع) ، فأذن له الامام وسأله: من أين؟ فأجابه الرجل: من بلاد الصين ، فسـأله الامـام (ع): أطَرَق اسمنا أسماعكم في تلك البـلاد؟ (في الحقيقة ان الاسـلام وصل الى اقـاصي الارض وادانيها ومنها بلاد الصين ، ولكن الحكام الـطواغيت من آل أمية وبني العباس كانوا يحولون دون وصول اسمـاء اهل البيت (ع) الى اسمـاع الناس ، وعليه فللمرء ان يتخيّل كيف كان وضع المسلمين أبّان عصر الامام (ع)!؟) فقال الرجل: بلىٰ يا بن رسول الله (ص) ، فنحن من اهـل ولايتكم ، ولدينـا شجرة ورد تورد أوراداً قد نقشت علىٰ تلك الاوراق يد القدرة الالهية عبارة (لا اله الا الله محمد (ص) رسول الله) عندما يطلع عليها الصباح ، ثم لا تلبث ان تكتسي تلك الاوراق عصراً بعبارة (لا اله الاّ الله علي (ع) خليفة رسـول الله (ص)) .
ولعل هناك الكثير الكثير من مثال هذه النماذج والظواهر والحوادث التي عملت

فيها يد القدرة الالهية جاءت علىٰ غير المألوف لدىٰ الناس ، وقد شاهدها الكثيرون وسمع بها آخرون مما لا يستبعد العقل البشري حصولها[٦] .

اذاً فمعنىٰ (الريحان) هو ما يصدق اطلاقه علىٰ كافة العطور والروائح الطيبة التي اودعها الباري عز وجل في النباتات والزروع ، وهو من جملة آيات الله التي لا تحصىٰ ، إذ خلق الله الريحان للانسان كيما يشمّه فيتعرف علىٰ القدرة الأزليّة ويدرك بنور العقل خالق الورود والعطور فيؤمن به ، ويثني عليه حامداً .

* الحسنان (ع) ريحانتا رسول الله (ص):

وكلمة الريحان الواردة في هذه السورة المباركة تذكّرنا بأحد ألقاب الحسنين (ع) واحدىٰ كنىٰ الامام امير المؤمنين (ع) كما تصرح بذلك هذه الرواية ، تقول الرواية (ان الامام علي (ع) دخل يوماً علىٰ رسول الله (ص) فسلّم عليه ، عندها رد عليه الرسول (ص) قائلاً: وعليك السلام يا والد ريحانتي) . ونحن نعلم انَّ النبي (ص) لم يقل ما قاله إعتباطاً (حاشا لرسول الله) ، بل لأن الحسنان يفوحان بعطر الجنة ، اذ ان النبي (ص) عندما حانت ساعة رحيله عن الدنيا الفانية ، كان الحسنان قد جلسا علىٰ صدره الشريف في أوان احتضاره ولما اراد الامام علي (ع) ان ينزلهما عنه ، قال له الرسول (ص): دعهما لي لأشمّهما وأتزوّد من ريحهما)[٧] ، اذاً أليس من حق عشاق الحسين (ع) أن يكونوا ممن لا يبغوا عن الحسين وعن الحور العين في الجنة حولاً؟ ، بل طوبىٰ لهم ، وطوبىٰ لمن يشم في ساعة حضور الموت ريح الحسين (ع) ، ثم تفيض روحه علىٰ ذكره وقد أعبقت بعطره الشريف .

---

(٦) هناك نماذج لمثل هذه الظواهر التي اختطتها يد القدرة الالهية ومن الحوادث غير المألوفة. نقلها السيد المؤلف (رض) في كتابه (القصص العجيبة) يمكن الرجوع اليها لمن طلب الاستزادة .

(٧) بحار الانوار ، المجلد السادس .

واني لارجو في نفسي الأخير حين الموت
ان يصبح تراب بدني الحقير موطئاً لقدميك

« ١٦ »

﴿والحب ذو العصف والريحان* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾[١] .

* إستحباب التطيّب بماء الورد:

وخلاصة معنىٰ هذه الآية الكريمة هو ، أن الله تعالىٰ جعل الأرض مصدراً للحبوب بمختلف انواعها وضروبها ، هذا الحب (ذو العصف) الذي تتيبس اوراقه ، فيخلص حباً غذاءً للانسان ويستحيل العصف الى طعام للحيوان ، وقد جعل الله تعالىٰ الأرض مصدراً للريحان ايضاً ، من كل نبات طيب الرائحة ، يدخل علىٰ النفس الارتياح ويعمّها بالهناء. وقد جاء الشرع المقدس باستحباب التعطّر، خصوصاً بعطر ماء الورد الذي يتم استخراجه بواسطة عملية التقطير المعروفة من الورود، ويتأكد الاستحباب في تعطير الرأس والوجه بشكل خاص في اليوم الأول من شهر رمضان المبارك، وعند الخروج من المنزل، ولعل أحد علل استحباب التعطر بماء الورد هو انتفاء الفقر والبلاء والمرض عن المتعطر، بل دفع المرض العضال عن بدن الانسان.

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٢ ـ ١٣) .

ولو قايسنا ما نجده اليوم من عطور خلابة مع ما هو موجود في عالم الغيب لألفيناها من أردأ عطور عالم الوجود ، حتىٰ ان عطور الدنيا جميعاً ما هي الاّ قطرة واحدة من بحار وعطور عالم الغيب ، بل هي نسمة من نسمات ريح الجنة العبقة الشذّية ، هذه الريح التي يشمها الرجل المؤمن من علىٰ مسيرة خمسمائة عام ، بل وفي احدىٰ الروايات المنقولة عن الامام الصادق (ع) من علىٰ مسيرة الفي عام ، وبالتأكيد ان اختلاف المسافة في الروايتين انما حصل باعتبار اختلاف منازل ودرجات الأفراد المؤمنين من حيث درجة الايمان ، ففيهم من يشم ريح الجنة من مسافة خمسمائة عام وفيهم من يشمها من مسافة الفي عام .

* عرق جبين النبي (ص) عطر فوّاح:

بل ان الروح المحمدية (ص) المطهرة في ارتباطهما ببدنها لم تكن تظهر واقعية التجلّي المحمدي باكثر من جزء من اجزاء المليون من التجلّي الكامل الذي سيتحقق في عالمي البرزخ والقيامة ، لأن الدنيا صغيرة جداً ازاء عظمة تجلّي الروح المحمدية ، ورغم ذلك كان عطر محمد (ص) أطيب وافضل وأعبق كل العطور والروائح الطيبة في هذه الدنيا بأسرها ، اذ يروىٰ ان في ليلة زفاف السيدة الزهراء فاطمة (س) حضرت زوجات النبي (ص) وقد حملن معهن عطوراً تفوح منها روائح طيبة ، وجاءت (أم سلمة) زوجة النبي (ص) بقارورة عطر مغلقة فغطّها أريجه وشذاه علىٰ جميع العطور قاطبة فجلب انتباه جميع من حضر آنذاك ، فسألوها : من اين لك هذا العطر؟ فأجابتهم : إنه عرق جبين النبي (ص) قد جمعته في هذه القارورة يوم كان النبي (ص) نائماً في حجرتي في نهار يوم قائظ . وبقي شذىٰ هذا العطر المحمدي تفوح به أزقة المدينة لحين من الزمن فيشمه كل رائح وغادي . ولا يفوتني هنا ان اعلمكم بالمحرومين من شم عطر محمد (ص) انهم اولئك الذين يسمعون ذكر اسمه الشريف ثم لا يصلّون عليه شحاً وبخلاً .

* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟!

وبعد ان تذكر السورة نتفاً من النعم والآلاء الظاهرية والمعنوية تتوجه وتقول **﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان﴾**؟ خطاباً موجهاً للجن والأنس يتكرر واحد وثلاثين مرة في هذه السورة الكريمة .

فبعد ان تذكر السورة نعمة خلق الارض في قوله تعالىٰ **﴿والارض وضعها للأنام﴾** تصوّر كيف أن الباري تعالىٰ مهد الارض لعمارها من الجن والانس والعقلاء وهم الأنام ، يأتي السؤال الالهي التقريري في نص قوله **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** ثم تأتي الآيات تترىٰ **﴿يا معشر الجن والانس. . .﴾** و**﴿سنفرغ لكم ايها الثقلان﴾** لتوضح المقصود من قوله تعالىٰ **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** وهو خطاب موجه للجن والانس اذ هما الثقلان كما ستأتي الى ذلك في حينه ، فالجن مكلفون كما أن الناس مكلفون ، وهم يخضعون لثواب الاعمال والاقوال والنيات وعقابها كما عند الانسان أيضاً ، وفيهم الكافرون والمشركون والمسلمون وفيهم أيضاً المحسنون والمسيئون كما نألف ذلك في بني البشر تماماً .

* التكذيب ، كفران النعم:

والآلاء هي النعم ، ومعنىٰ **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** هو بأي نعمة من نعم ربكما يا معشر الجن والانس تكذبان ، والتكذيب هو الكفران والجحود هنا في هذه الآية ، فيكون معنىٰ (تكذبان) هو تكفران وتجحدان ولا تؤمنان ، اذ انه من البديهي عدم وجود من يكذب وجود الشمس والقمر والارض والنبات والحبوب اذاً تعبير (تكذّبان) الوارد هنا هو تعبير أدبي لا بد وأن يحتمل وجهاً ما ، وهذا الوجه هو وضوح ورود كلمة التكذيب هنا بديلاً عن كلمة الكفران . فكل موجود يشهد بلسان حاله ان صانعه عالم قادر ، وكل حبة قمح او رز أو عدس ، وكل غصن ريحان ، وكل زهرة ووردة ، كل ذلك يشهد بحكمة الخالق العظيم ، ويأتي الانسان البائس الكافر ليكذب شهادات جميع تلك

الموجودات ، ويفوق ذلك جهلاً في انكار حتىٰ شهادات اعضائه وجوارحه .

ومع ان كافة الموجودات تشهد لله تعالىٰ بالوحدانية والعلم والقدرة والحكمة ، تبقىٰ الأهمية الكبرىٰ في وجود هذه الشهادات تكمن في قبول وتصديق الجن والانس بها .

فأنت ايها الانسان ، عندما تقع عيناك علىٰ وردة ، تجدها تخاطبك بلسان حالها قائلة لك اني لي صانعاً ومبدعاً قد أفاض عليّ بالنزر اليسير من معدن عطوره الفواحة ، وهو ذات الصانع المبدع الذي خصّك بالقدرة علىٰ الشم التي أودعت في أنفك .

اذاً من يكفر بهذه النعم وينكرها ويكذّب بها سوىٰ المرء الكافر؟ لأنه لا يقبل شهادة الورد هذه ، بل ولا يصدق بحاسة الشم التي لديه ، وعلىٰ ذلك كان ملكوت جميع الموجودات عدواً للكافرين . اذاً معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ هو فبأي شهادة من شهادات الموجودات لا تصدقان؟!

* الأستفهام التقريري من الكفّار والجاحدين:

وأما عن (أيّ) الواردة في هذه الآية ، فهي أداة استفهام تفيد الاستفهام التقريري هنا ، والمقصود من الاستفهام التقريري هو ما يريده المتكلّم من إقرار يصرّح به المخاطب بشأن موضوع ما يحصل علىٰ ما اراد إقراراً من المخاطب .

وهذه الآية الكريمة هي في الواقع استفهام الهي تقريري يريد به الباري عز وجل ان يحصل به علىٰ إقرار المنكرين والجاحدين ، فقوله تعالىٰ ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ تعني هل ترون (أيها الجاحدون) ان خلق الأرض واعمارها بالكائنات والزروع والفواكه والحبوب والرياحين موطناً مناسباً للرفض والتكذيب؟! لأن هذا التكذيب ليس في محله ، والأجدر بهم ان يرددوا بألسنتهم القاليات (لا اله الا الله وحده لا شريك له) وهذا هو الأقرار المطلوب ، لأنه إقرار له شأن عظيم ينبثق عن الادراك والحس والعلم والأيمان ، ولأن الأقرار

التكويني لجميع الموجودات (ومنها الكافر والمنافق) إنما يحصل دون الحاجة كوجود الحس والادراك .

* حال المؤمن عند تلاوة القرآن:

وكما ذكرنا في بداية تعرضنا بالشرح لهذه السورة الكريمة ، الرواية المنقولة عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الانصاري عندما حدثهم رسول الله (ص) بصدد هذه السورة قائلاً (ع): ان اخوانكم الجن أحسن إصغاءً لها منكم ، اذ كلّما تلوت قوله عز وجل **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** ردّوا قائلين (لا بشيء من آلاء ربنا نكذب) ، فقولوا انتم أيضاً مثل مقالتهم .

وأمر النبي (ص) هذا في واقع الحال هو اشارة الى موضوعنا لمن يدقق النظر فيه ، لأن المؤمن عندما يروم قراءة القرآن يجب عليه ان يدرك ان محدثه هو صاحب القرآن تعالىٰ ، ولو وصل الى قوله عز وجل **﴿يا ايها الذين آمنوا﴾** مثلاً لسارع بالقول لبيك ، وعندما يصل الى آية رحمة يسأل الله من رحمته ، وهكذا فيما لو وصل الى آية عذاب لسأل ربه ان يقيه النار والعذاب ، لأن القرآن كلام الله تعالىٰ اذاً علينا ان نقول عندما نتلوا أو نسمع قوله تعالىٰ **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** ونحن معنيون بهذا الخطاب الإلهي ، (لا بشيء من الائك ربي اكذّب) لأنني قد صدّقت بشهادات مخلوقاتك في وحدانيتك وقدرتك وعلمك وحكمتك ، ولأنني أؤمن بشهادة كل شعرة وعرق وعظم وشحم في بدني يشهد لك بالوحدانية . يقول الامام الحسين (ع) في دعاء عرفة «وأنا أشهد يا الهي بحقيقة ايمان و. . . . . ولحمي ودمي وشعري وبشري وعصبي وقصبي وعظامي ومخي وعروقي وجميع جوارحي و. . . . . ان لو حاولت واجتهدت و. . أن أؤدي شكر واحدة من انعمك ما استطعت ذلك الاّ بمّنك الموجب عليّ به شكرك أبداً» .

* سهم الشهوات يفقأ عين البصائر:

فالويل والثبور لذلك المرء الذي يصم أذنيه ، ويغمض عينيه عن استماع ورؤية هذه الحقيقة الباهرة ، ويصر مكابراً معانداً علىٰ انكارها وعدم التصديق والأيمان بها .

وكما نعلم ان ما من أمر الاّ وتدلل عليه مجموعة دلائل وتشهد عليه حملة شواهد فتجعله امراً واقعاً ، ولو تأملنا هذا الكون الرحب ، الواسع بآفاقه ، لوجدناه يشهد لله عز وجل بالوحدانية والعلم والقدرة ، وهذا مما لا تستطيع ادراكه جميع العيون ، إذ أن العيون والبصائر التي فقأتها سهام الشهوات والأهواء والأوهام الفاسدة لا تستطيع بعد ذلك من رؤية الصور الالهية للاشياء مع شديد الاسف ، اذاً هم **﴿صم بكم عمي﴾**[٢] ، وقد يستّمر العمىٰ الى ما بعد الدنيا **﴿ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة اعمىٰ واضل سبيلاً﴾**[٣] ، لذا وجب علىٰ المؤمنين أن يعربوا عن آيات شكرهم وثنائهم لله عز وجل علىٰ نعمة الهداية ، اذ لولا هداية الله لحل بنا الضلال الذي حل بسوانا ، يقول تعالىٰ **﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾**[٤] .

* الشكر ، سبيل التمتع بالنعم:

والمسألة الأخرىٰ في هذه الآية المباركة هي ما تعلمنا وترشدنا إليه في إنتهاج سبيل الفيض الرباني الذي نغور في سبره من خلال ما نقدمه من شكر وحمد وثناء للمولىٰ (جل جلاله) ، وهذا يعني ان حقيقة الأنتفاع والتلذذ بالنعمة إنما يتم من خلال تقديم الشكر والحمد للمنعم . فلو كذب الانسان بالنعمة يكون قد كفرها ، ومن يكفرها يكون قد اضاع النعمة من يديه ، وعلىٰ العكس من ذلك ، لو اراد المرء ان تحصل له البركة والزيادة والديمومة في النعمة الالهية

---

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٨) .

(٣) سورة الاسراء ، الآية (٧٢) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (٤٣) .

للزمه ان يشكر الله علىٰ ما أنعم ، واولىٰ مراحل الشكر هي رؤية النعمة ، وهذا ما اكدته الحكمة المنقولة عن الاقوال الثلاث في وصايا الامام الصادق (ع) التي يجدر بنا استحضارها دائماً والعمل وفقها ، **فالقول الاول هو:** (اذا أنعم الله عليك بشيء وأحببت بقاءه ، فأكثر من الحمد والشكر ، لأن الله يقول **﴿لئن شكرتم لازيدنكم﴾**[٥] . وقد ورد في دعاء ابي حمزة الثمالي هذا النص الذي ينطق بالشكر من خلال الاعتراف بجزيل النعم (سيدي انا الصغير الذي ربّيته ، والجائع الذي أشبعته ، والعطشان الذي أرويته) . **(والقول الثاني هو: (واذا إستبطأت الرزق ، فاكثر من الاستغفار ، فأن ربكم يقول ﴿استغفروا ربكم انه كان غفّاراً* يرسل السماء عليكم مدراراً* ويمددكم بأموال وبنين * ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾**[٥] .

وقد ورد الاستحباب في الاكثار من الذكر الآتي بين الطلوعين (سبحان الله العظيم وبحمده ، استغفر الله واسأله من فضله) حتىٰ تطلع الشمس ، وهو ذكر نافع للغاية ، فقد جاء رجل الىٰ الامام موسىٰ بن جعفر الكاظم (ع) وشكىٰ له الدين وعسر الحال ، فأشار عليه الامام (ع) بهذا الدعاء بعد الانتهاء عن صلاة الفجر (ان يذكره مائة مرة كما في رواية) . **والقول الثالث هو:** (واذا أحزنك أمر ، فأكثر من قول «لا حول ولا قوة الاّ بالله العلي العظيم» فأنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة)[٧] ، ومعنىٰ لا حول ولا قوة تعني ان ما من قوة أو قدرة سوىٰ قدرة الله العلي العظيم وقوته ، وعليه لا يكون التمسك الحقيقي الاّ بحول الله وحده وقوته ونبذ ما سواه تعالىٰ في الاتكال عليه والتمسك بحبله ، فهو العون الوحيد لمن استعان به .

---

(٥) سورة إبراهيم الآية (٧) .
(٦) سورة نوح ، الآيات (١٠ ، ١١ ، ١٢) .
(٧) المجالس السنية ، (ص ٣١٢) .

* محمد (ص) وعلي (ع) نعمتان عظيمان:

ونقل صاحب تفسير البرهان في معرض تفسيره لقوله تعالىٰ **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** نقلاً عن الامام الصادق (ع) ، ان مصداق هذه الآية في آلاء الرب هما محمد (ص) وعلي (ع) ، فالمولىٰ تعالىٰ يقول فبأي نعمة من نعم ربكما تكذبان؟ أبنعمة وجود خاتم الانبياء (ص) محمد ، أم بوليه الاكبر والنبأ العظيم وآيته الكبرىٰ وحجته العظمىٰ وعينه الباصرة وأذنه السامعة ويده المنفقة علي (ع)؟ وبأيهمّا تجحدان؟ . وهنا يفترض بنا ان نقول (لا بشيء من الائك رب اكذب) ، بل نحن نحمدك علىٰ أن جعلتنا من أمة محمد (ص) ولم تجعلنا من سائر الامم ، ولك الحمد ان جعلتنا من المتمسكين بولاية علي بن ابي طالب (ع) ، ولكن انظروا الى اولئك القوم الذين كذّبوا وجحدوا اشرف اولاد آدم (ع) يوم غدروا به في عرصة كربلاء فحق عليهم بذلك الشقاء والويل والعذاب الأليم .

أترجو أمة قتلت حسيناً   شفاعة جده يوم الحسابِ!!



﴿فبأي آلاء ربكما تكذّبان* خلق الأنسان من صلصال كالفخّار﴾ .

* فبأيّ شهادات الخلائق تجحدان؟!

فيا معشر الجن والأنس ، بأي نعمة من نعمنا تكذبان؟ وبأي شهادة من شهادات مخلوقاتنا لا تصدقان؟ أبشهادة السماوات التي دلت علىٰ عظمة خالقهن؟ ، أم بشهادة الشمس والقمر في نظام حركتهما الدقيق المؤكد علىٰ حكمة مبدعهما؟ ، أم بشهادة العدل والميزان الذي عمّ جميع مفردات هذا الوجود العميق فشهد بذلك علىٰ قدرة الله وعدله؟ ، ام بشهادة وجودكم ، وبيان منطقكم اللذان وهبكم الله اياهما؟!! (لا بشيء من الائك رب نكذّب بل ﴿ربنا آمنّا فأكتبنا مع الشاهدين﴾[٢] .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٣ ـ ١٤) .
(٢) آل عمران ، الآية (٥٣) .

* التكرار في القرآن يحقق أموراً مهمة:

اما الجانب الآخر الذي يفترض ان نشمله بالبحث والشرح فهو سبب تكرار هذه الآية الكريمة ، وهل أن هذا التكرار تعددي أم لا؟ .. ونقول انه مما لا شك فيه أن التكرار التعددي الذي يفتقر الى القصد والغاية لا يعدو أن يكون اكثر من لغوٍ فحسب ، وفوق ذلك ، فأن الكلام الفصيح والبليغ يجب أن يتحرّىٰ عدم حصول التكرار فيه قدر المستطاع ، بأستثناء الحالات التي يكون من ورائها بغية مهمة ومعقولة ، إذّاك يكون مقتضىٰ البلاغة حصول التكرار ، وعليه يعد التكرار في هذه الصورة تكراراً لفظياً لا تعدّدياً ، فمثلاً في قصة آدم وزوجه ، وقصة موسىٰ وفرعون نجد تكراراً لبعض الاحداث في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، ولكن وبشيء من التأني ودقة الملاحظة نجد أن كل موضع من القرآن قد أخذ في استعراض موضوع معين استندت اليه حالة التكرار الذي لا ينفك في مراعاة ما سبق وما لحق .

ففي قصة آدم وحواء ومحلهن في الجنة وخروجهما منها كما يذكر ذلك القرآن ، نجد ان التكرار قد حصل في مواضع لأجل (ذم الحرص) مثلاً عندما أدّىٰ الحرص الى اخراجهما من الجنة ، في حين ان آدم (ع) كان يطلب بالحرص البقاء في الجنة ، وعندما يكرر القرآن هذه الحادثة في موضع آخر نجده يكرر ذلك ليس بقصد ذم الحرص وأنما بقصد (ذم التكبّر) الذي يعد أول معصية ارتكبت عندما عصىٰ ابليس ربه استكباراً ، يقول تعالى **﴿الاّ ابليس ، أبىٰ وأستكبر وكان من الكافرين﴾**(٣) ، وعلىٰ هذا الاساس ترتب موضوع طرده واخراجه الأبدي من الجنة ، لذلك نجد أن المولىٰ عز وجل يوصينا بقوله تعالىٰ **﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة﴾**(٤)في موضع آخر كما نلاحظ .

---

(٣) سورة البقرة ، الآية (٣٤) .

(٤) سورة الاعراف ، الآية (٢٧) .

* الالهام الالهي في تعليم دفن الموتىٰ:

أو أن يكون الهدف المتوخّىٰ في التكرار هو إلفات نظر القاريء أو السامع (كما في قصة آدم وحواء) الىٰ ان الاعمال التي يختارها الانسان للتكسب والمعيشة أو للحصول من خلالها علىٰ النفع أو دفع الضرر هو إنّما تتحصل وفقاً لما يلهمناه الله عز وجل ، وحتىٰ موضوع دفن الأموات تحت التراب ، هو في الحقيقة الهام الهي للانسان كما في قصة آدم في موضوع (هابيل وقابيل) ، فبعد ان قتل قابيل هابيل ، حمل جثته وراح يولول صارخاً ، ويلاً لي ، كيف سأخفي جثة أخي؟ وبأي شيء سأغطّيه؟ حينئذ بعث الله غرابين (ليعلمانه) فتنازعا وقتل احدهما الآخر ، بعد ذلك احتفر الغراب حفرة لأخيه وواراه التراب ، فتعلّم قابيل من الغراب ما يمكنّه من دفن واخفاء جثة أخيه هابيل حيث نقرأ في قوله تعالىٰ ﴿قال يا ويلتا ، أعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي﴾(٥) ، اذاً من كل ما ذكرنا من هذه الشواهد نخلص الى أن حصول التكرار في الموضوع الواحد في عدة مواطن من القرآن المجيد إنما هو في واقعه ليس تكراراً ، بل هو كلام مضغوط لواقعة ما تروم الآية من خلاله التدليل علىٰ النقطة أو النقاط المطلوبة ، فتعمد الى استحضار ذهن القاريء أو السامع الى ما يسبق التدليل وما يعقبه وببيان يتلائم واختلاف البغية الالهية في الطرح بين حادثة وأخرىٰ .

* التكرار ، يؤكّد الحجة ويحقق الأقرار:

قلنا ان اداة الاستفهام (أي) الواردة في الآية موضوع بحثنا انما جاءت في صورتها التقريرية ، وعليه يتضمّن هذا الأمر علم المعاني ، فعندما يريد المتحدث الفصيح البليغ أن يحصل علىٰ اقرار المخاطب أو المستمع يلزمه أن يكرر العبارات المتشابهة ليوصل بواسطتها تأكيده وتشديده علىٰ الموضوع الاساس الذي حصل من أجله التكرار ، فاللغة العربية (وكذا في الفارسية أيضاً)

---

(٥) سورة المائدة ، الاية (٣١) .

تحتوي علىٰ الكثير من النماذج من هذا القبيل ، فلو أراد الوالد أن يؤدب ولده المسيء ، لأنطلق في موضوع التأديب الىٰ استخدام الحوار الاستفهامي خصوصاً مع الشاب الذي يتخطىٰ مراحل الطفولة والصبا ، فيخدعه طيش الشباب بعدم الالتفات الى نصح والديه ومحاولة الاعتماد علىٰ نفسه في صنع القرار وكثيراً ما يفشل ، فيتوجه اليه والده بالخطاب قائلاً: لم فعلت ذاك؟ لم اسأت تربيتي فيك؟ ألم تكن وليداً قد لففناك بالقماط ونتعاهدك بالحنان والرأفة؟ الم اكن اشقىٰ يومي كلّه من أجل ان اطعمك؟ اتنكر ذاك؟! اتنكر عندما كنت طفلاً ضعيفاً وامسك بيديك واحملك علىٰ صدري لئلا يعترضك عارض؟! ألم اكن اشتري لك الملابس واكسوك من أجودها؟ أتنكر ذاك؟! وهكذا يذكر الوالد ولده بأفضاله ونعمه عليه بصور متعددة ثم يعقب كل قول بقوله اتنكر ذاك؟! وهذا التكرار الذي نراه في هذا المثال انما جاء ليؤكد الحديث علىٰ اصل الموضوع ولكي يستحصل الوالد من ولده علىٰ اقراره . ولو كان المخاطب ينبض قلبه ويجري الدم في عروقه لذاب من فرط حيائه ، ولطأطأ رأسه خجلاً وإستحياءً من ذكر افضال والده عليه ، ولأعترف وأقر بكل شيء قيل له ، ولقال بكل يقين (لا انكر من ذلك شيئاً يا والدي) .

اذاً سياق الأيات الكريمة في هذه السورة كما ذكرنا تتناول نعم الله وآلائه وتحصي شيئاً منها مما تفضل به الله عز وجل علىٰ الجن والانس ولا تلبث السورة أن تذكر الانسان والجن في عقيب كل آية بقوله تعالىٰ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ كيّما يقر صاحب الفؤاد الحي لمنعمه عز وجل بالنعم المغدقة عليه ولا يجد بدّاً من الاقرار بها وعدم إنكارها .

* آلاء عديدة ، وتذكير متجدد:

اذاً ، ما هو الباعث علىٰ تكرار هذه الآية الكريمة واحد وثلاثين مرّة في سورة الرحمن؟

والجواب هو: ان هناك عدة أسباب ذكرها العلماء ، وقد اخترنا منها أهمها وأفضلها ، منها إن الله عز وجل ذكر في بداية هذه السورة (آيات الآفاق)

ثماني مرات ثم أعقبهن بذكر هذه الآية ، بعد ذلك ذكر الباري تعالىٰ جهنم في سبع آيات (بعدد أبوابها) واعقب كل آية بآية الاقرار ، ثم ذكر ثمان آيات عن الجنة (بعدد أبوابها) ثم استفهم تقريراً في نهاية كل آية بآية الاقرار ، لذلك نجد أن التكرار في آية الاقرار جاء كلازمة تأكيدية علىٰ وجوب عدم كفران النعم التي قد تعدد ذكر ألوانها وضروبها ، فكان التكرار صورة من أروع صور الفن البلاغي في القرآن كما سنرىٰ ذلك لاحقاً .

* خلق الأنسان من صلصال:

قلنا ان هذه السورة تتحدث وتخاطب الثقلين (الجن والانس) ، فهي بعد ان تورد شيئاً من نعم الله التي لا تحصىٰ وتشهد الثقلين علىٰ ذلك ، تأتي لتتحدث عن نعمة النشأة وكيفية خلق الانسان ، فتقول ﴿**خلق الانسان من صلصال كالفخّار**﴾ والصلصال يحتمل في معناه وجهين هما: **اولاً**: الطين المخلوط بالرمل ، **ثانياً**: الطين الجاف الذي استحال صلداً كما في الاواني المفخورة ، وقد وضحت كلمة (كالفخار) هذا المفهوم للصلصال . وعليه يتوضح لنا أن خلق الانسان كان من طين يابس كالفخّار .

* لماذا التعددية في مبدأ النشأة الآدمية؟

ولقد أورد القرآن الكريم عدة مراحل لخلق الانسان ونشأته في مواطن متعددة منه ، فمرة يعبّر عن مبدأ النشأة بالتراب كما في قوله تعالىٰ ﴿**اكفرت بالذي خلقك من تراب**﴾ و﴿**منها خلقناكم**﴾(٦) ، ومرة يعبّر عنها بالطين كما في قوله عز وجل ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾(٧) ، ومرة أخرىٰ يعبر عنها بالطين المخلوط باللّجن ، وهنا جاء التعبير بالطين المفخور .

ولكي نتجنّب الالتباس بالموضوع هذا ، نستعرض سوية مضمون

---

(٦) سورة طه ، الآية (٥٥) .

(٧) سورة الاعراف ، الآية (١٢) .

الحديث الشريف الذي نقله السيد ابن طاووس ، وهو حديث يتولّىٰ التعريف ببداية خلق الانسان علىٰ نحو اجمالي كما سنرى : ـ

* التراب ، عنصر أساس في تركيبة البدن:

عندما شاء الله تعالىٰ أن يخلق خلقاً ويسكنه في أرضه ، ويحمّله التكليف بأداء فرائضه ، جاء الأمر الىٰ جبرئيل (ع) بأن يهبط الىٰ الأرض ويأتي بحفنة من ترابها ، فما أن هبط جبرئيل الىٰ الأرض ليفعل ما كلفّ به حتىٰ أقسمت عليه الأرض بعزة الله وجلاله أن لا يقدم علىٰ أخذ شيء من ترابها خوفاً من أن يخلق الله مخلوقاً من مادّتها ثم يعصي الله عز وجل عليها ، فرجع جبرئيل (وبالطبع أن الذي أقسم علىٰ جبرئيل هو ملكوت الأرض ، لا التراب الأصم هذا كما أشرنا الى ذلك من قبل) ، فأمر الله ميكائيل (بعد أن نقل التماس الأرض وقسمها عليه) بالذهاب والنزول الى الأرض والأتيان بحفنة من ترابها ، ولما هبط ميكائيل اهتزت الأرض وأقسمت عليه أن يدعها وشأنها ، وهكذا أوعز الله تعالىٰ الىٰ عزرائيل للتصدي بتنفيذ هذه المهمّة وان لا يلتفت الى توسلات الأرض وقسمها عليه ، عندئذ باشر عزرائيل مهمته واقترب من الأرض ورفع منها حفنة تراب دون أن يعرها أذناً صاغية وهي تلتمسه وتتوسل اليه وتقسم عليه ، ولقد حمل عزرائيل أول ما حمل تراب آدم (ع) ، ولذلك كان هذا الملك هو الموكّل بقبض روح الأنسان . واستناداً الى تلك الرواية فأن حفنة التراب كانت قد قبضت من الأرض الممتدة بين الطائف ومكة المكرمة وطبقاً لما اشار اليه الامام أمير المؤمنين (ع) في قوله المنقول في نهج البلاغة «ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها ، وعذبها وسبخها ، تربة سنّها بالماء حتىٰ خلصت»(٨) ، ولقد تعاهدها الباري تعالىٰ أربعين يوماً وهي علىٰ هيئة التراب ، وهنا ندرك بوضوح معنىٰ أن أصل الانسان من التراب .

---

(٨) نهج البلاغة/ الخطبة الأولىٰ .

* المراحل اللّاحقة في نشأة خلق الانسان الترابية:

بعد تلك المرحلة ، جاءت المرحلة التالية بصدور الامر الالهي بصب الماء علىٰ ذلك التراب لاربعين يوم لأجل أن يختمر التراب فيصبح طيناً **﴿وخلقته من طين﴾** ، بعد ذلك تُرك الطين لأربعين يوم أخرىٰ كيما تتغير صورته فيصبح حمأ (وهو الطين الأسود المتغير اللّون) مسنون (المصبوب في حالة السيولة والميعان) ، ثم تمر اربعين يوماً أخرىٰ ليصير صلصالاً (وهو الطين المتيبس) ، وهنا نرىٰ من خلال سلسلة المراحل المذكورة آنفاً والتي يعرضها القرآن الكريم في موضوع النشأة الانسانية أنها (النشأة) تتباين بتباين المراحل المتوالية للخلق والأنشاء . ولقد كانت الملائكة تمر علىٰ التراب وهي في حيرة ودهشة متسائل ماذا يريد الله عز وجل أن يخلق من هذا التراب؟

وبعد ان تطوىٰ كل تلك المراحل الابتدائية في عملية خلق الانسان ، تأتي المراحل المتقدمّة ، فينظّم الباريء تعالىٰ الهيكل العظمي لبدن الانسان ثم يغطّيه بالعروق والعضلات واللحم والبشرة الجلدية وغير ذلك من أنسجة وأجهزة ، لتنهي مراحل الصنع الالهي للبدن البشري ، ثم ينفخ الله تعالىٰ في ذلك البدن من روحه ليصبح إنساناً **﴿فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾**[٩] .

اذاً ندرك من خلال كل ما سبق وضوح معنىٰ كلمة (صلصال) في ذلك السياق ، وهذا بالطبع يختص بأبينا آدم (ع) أبو البشر ، أما ما يتعلق بخلق سائر الناس: -

* أصل النشأة ترابية لجميع الناس:

فهم أيضاً شأنهم هكذا وحتىٰ قيام الساعة ، ونتسائل: ماذا كنّا نحن؟ ونحن لا نرىٰ أنفسنا الاّ أبداناً من اللحم والعظم والجلود وما سواها ، ونتسائل: ماذا كنّا في أرحام أمهاتنا؟ ألم نكن نطفاً وقرت في تلك الأرحام واستقرت فيها

---

(٩) سورة ص ، الآية (٧٢) .

الى حين؟ وللأجابة علىٰ هذ التساؤل نقول أولاً ، كيف تشكلت هذه النطفة؟

والجواب علىٰ ذلك هو ان النطفة قد تشكلت وتكونت من تركيبات شاركت فيها مختلف اجزاء واجهزة بدن والدنا ، ثم إنتقلت من صلبه الىٰ أوعية المني التي دفقتها هي الأخرىٰ كما نجده في قوله عز وجل ﴿**يخرج من بين الصلب والترائب**﴾[١٠] ، ولقد كونّت اجزاء بدن الوالد هذه النطفة بواسطة الأطعمة التي تم التغذّي بها ، وما هذه الأطعمة الاّ القمح وسائر النباتات المألوفة في طعامنا وغذائنا وباقي الأشياء التي قد نشأت عن التراب إن نباتاً أو حيواناً ، وعليه يكون اصل نشأتنا جميعاً هو التراب الذي أنبثقنا منه .

لذلك كان من اللازم علينا عندما نصف اقدامنا في الصلاة لله عز وجل أن نستحضر في ضمائرنا أننا لسنا اكثر من حفنة تراب رفعها الباري تعالىٰ :

يا فاطراً للخلق الذي منك ظهر　　　هذا التراب الضعيف منك إقتدر

فنحن من اصل ترابي نشأنا ، ثم نعود اليه تارة أخرىٰ ، نعود الى هذا التراب عندما ننتقل الى المثوىٰ الأبدي في المقابر ، هذه البيوت التي سندخلها إن عاجلاً أو آجلاً ، فطوبىٰ لمن زارها في حياته وأتعظ بها .

ولعله من المناسب في هذا المقام أن نتطرق الى الموعظة البالغة التي اهداها لنا سيدنا أمير المؤمنين (ع) عندما يقول (ما لأبن آدم والفخر؟ أولّه نطفة ، وآخره جيفة) نعم لم الفخر يا بن آدم ، لماذا تكثر من ترديد أنا ، أنا؟ أنا فعلت الافاعيل تلك ، وانا الذي صنعت الصنائع هذه . فتعالوا لننتزع الفخر والكبر والعجب من نفوسنا ، ونرفض ان نكون تبعاً ليزيد الذي كان يخاطب رأس الحسين الشريف (ع) وهو يقول متمثلاً بأبيات ابن الزبعرىٰ:

ليت اشياخي ببدر شهدوا　　　جزع الخزرج من وقع الأسل
لاهلّوا واستهلّوا فرحاً　　　ثم قالوا يا يزيد لا تشل

---

(١٠) سورة الطارق ، الآية (٧) .

قد قتلنا القوم من ساداتهم وعدلناه ببدر فأعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف ان لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل
قد اخذنا من عليٍّ ثارنا وقتلنا الفارس الليث البطل



﴿خلق الانسان من صلصال كالفخّار* وخلق الجانّ من مارج من نار* فبأي آلاء ربكما تكذّبان﴾(١)

* الفخّار ، الشي العظيم الفخر:

﴿خلق الانسان من صلصال كالفخار﴾ قلنا ان معنىٰ هذه الآية هو ، ان الله عز وجل خلق الانسان من الطين اليابس ذي الهيئة الفخارية ، وكثيراً ما يقال للاشياء المفخورة (فخاراً) لأن صناعتها كانت من اصل ترابي يفوق سائر انواع التراب فضلاً وجودة ، ولأنها أيضاً تحقق الاستفادة الافضل قياساً بالأواني غير الفخارية .

* الخلق الترابي ، والتواضع الفطري:

يقول السيد ابن طاووس ، ان من الالطاف الالهية التي منّ بها الله علىٰ الانسان أن خلقه من تراب (ويقصد بذلك اصل نشأته) لأن في طبع التراب التواضع الفطري ، علىٰ العكس من النار التي تتصاعد ألسنتها وترتفع .

فيا أيها الانسان الذي خلقك الله من تراب عليك ان لا تخرج عن حد

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٤ ـ ١٦) .

تواضعك الذي جبلت وفطرت عليه ، ولا تنسىٰ حقيقتك الترابية التي نشأت عنها فلقد ﴿خلق الانسان من صلصال﴾ وهذه هي احدىٰ النعم الالهية التي تعين الانسان علىٰ تحقيق العبودية لله بأختيازه ، وتجعله خاضعاً له (عز وجل) .

* الجن ، ما أحتجب من الخلق عن الأنظار :

﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ والجان هو اسم جنس من مادة (جنن) وتعني ستر ، وعليه يكون الجن مخلوقاً مستوراً ومحتجباً عن أعين الناس ، لأن العين البشرية تستطيع رؤية الأجسام المادية الكثيفة ، في حين أنها لا تستطيع رؤية الأجسام النورانية والنارية اللطيفة ، وهذا هو السبب الحائل دون استطاعة رؤية الملائكة والجن .

وللجن انواع واقسام ، فمنهم الشياطين ، وهذا النوع من الجن لا يصدر عنها الاّ الشر والسوء والضرر ، وهم من ذرية ابليس اللعين الشيطان الاكبر ، وهذه الطائفة قد ابتعدت عن رحمة الله تعالىٰ بالقدر الذي لا يمكن أن يصدر عنهم الاّ الشرور والغوايات ، تماماً كحال احدهم الاكبر ابليس الرجيم ، الذي رجحه الله تعالىٰ فأبلس من رحمته .

والنوع الآخر من الجن ، هم اولئك الذين لا تختلف أحوالهم عن أحوالنا نحن البشر ، من حيث امتلاك الاستعدادات اللازمة للهداية والرقي والتكامل ، هذه العوامل التي تعتبر عوامل اساسية ومؤثرة في تحقيق اداء التكاليف والاوامر والطاعات التي تؤدي الى حصول المرء من خلالها علىٰ المنازل والدرجات الرفيعة في الدارين ، دار الدنيا ، ودار الثواب والكرامة ، ولقد سئل الامام الصادق (ع) عن محل مؤمني الجن في الجنة فقال (لهم محل خاص في وسط الجنة) .

* قدرة الجن واضراره محدودتان :

وكما نعرف ان النبي (ص) بعث الىٰ الجن فضلاً عن بعثته الى الأنس ، كما هو الحال في سائر الرسل (ع) ، وعالم الجن كعالم البشر ، فيهم المحسن

والمسيء والمسلم والكافر والمشرك ، وفيهم الشيعي والسني ، وفيهم الصالح والفاسق .

اما من حيث القدرات فيجب الالتفات الىٰ ان الجن لا يمتلكون القدرات المطلقة التي يستطيعون بواسطتها من إلحاق الاضرار بالناس ، فلربما يصل ضررهم الىٰ بعض الناس لوجود إذن لهم في ذلك بأعتبارهم يستحقون نيل تلك الاضرار والايذاءات .

* تعاهدوا أنفسكم بذكر اسم الله وبالقرآن:

ومن جملة الوصايا والتعاليم الواردة في حفظ الأنفس ، ونيل الأمان من شرور مردة الجن وفسّاقها ، هو ذكر الله علىٰ أية حال ، وقول بسم الله في كل حركة يتحركها الانسان ، خصوصاً عند الهم بالخروج أو الدخول الىٰ الدار ، وعند إشعال النار أو رمي جذوتها ، وعند الدخول الىٰ الاسواق والحمامّات التي تعد من مراكز تواجد الشياطين ، وعليه كان ذكر الله مدعىً لحفظ الأنفس من الشياطين ودفع شرورهم .

ولتلاوة آية الكرسي أعظم الاثر في دفع شرور الجن . مع الالتفات الىٰ ان مؤمني الجن لا يصدر عنهم الاذىٰ بالمرّة (وبالذات نحو الشيعة) ، ولكنهم قد يوصلوا بعض الضرر الى الاشرار ، وتأكيداً لحديثنا هذا نستعرض سوية هذه الحكاية الجميلة المشتملة علىٰ جملة من الفوائد : ـ

* مؤمن الجن يزور مدّاح أهل البيت (ع):

نقل العلامة المجلسي بسند متصل عن دعبل الخزاعي (رض) شاعر أهل البيت (ع) هذه الحكاية ، يقول دعبل : تشرفت في يوم ما بالحضور لدىٰ مولاي الامام الرضا (ع) في مدينة خراسان ، ثم ودعته في رعاية الله وحفظه وأقفلت راجعاً ، وفي طريقي مررت بمدينة قم فأستأجرت حجرة هناك ، ولما حلّ المساء قمت وأغلقت علىٰ نفسي باب الحجرة وجلست افكر بكتابة قصيدة شعرية أمتدح بها أهل البيت (ع) ، فجأة هالني ظهور رجل يرتدي حلّة بيضاء ،

قد شخص إزائي وبادرني بالتحية والسلام ، ففرق منه قلبي ، فلما رآني على تلك الحالة بادرني بالقول: هوّن عليك ولا تخف فأنا أخ لك في الدين من إخوانك الجن وقد جئت طمعاً في زيارتك لأنك شاعر أهل البيت (ع) ، فلما استأنست به ، شرع يحدّثني عن أحوالهم ثم اخبرني قائلاً: لقد كنت فيما سبق من أتباع فرق الخوارج والنواصب ، وكنت اكنّ العداء لأهل البيت (ع) والمناصبة ، وفي يوم من الأيام صادف أن مررت (مع رفاق لي بالمعتقد ذاك) بالعراق ، فلاحت لنا على البعد قافلة من البشر كانوا يقصدون كربلاء ، ولمّا كنّا جميعاً نعادي أهل البيت (ع) ، عقدنا فيما بيننا العزم على ايذاء اولئك النفر ، وما أن هممنا بالتعرّض لهم حتى رأينا ملائكة السماء قد برزت لنا من فوق رؤوسنا بالحراب ، وأحاطت ملائكة الأرض برجال القافلة من كل جانب حينذاك حصل لي اليقين ان اولئك النفر من الآدميين الذين حضرت الملائكة لنصرتهم ، هم ممن لهم الشأن عند الله عز وجل ، وأدركت ان لصاحب القبر (ع) في كربلاء كرامة عظيمة عند الله تعالى وأن الحسين (ع) من ذوي الشأن الرفيع عنده ، فتداركت حالي بالمسارعة الى الاستغفار في ذلك المكان الشريف ثم انتقلت الى زيارة الامام الحسين (ع) مع جملة زواره ، وبعد ذلك شاهدت القافلة تلك قد عرجت بالمسير نحو مكة المكرمة فصحبتهم ولما عادوا الى المدينة المنورة عدت معهم ، وفي يوم من الأيام رأيت رجال القافلة قد أحاطوا رجلاً فتقدمت معهم إليه وإذا به هو الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) فعرفته ثم أقبلت عليه قائلاً: اني نادم يا سيدي على ما مضى من فعالي ، فرد علي الامام (ع) قائلاً: قد قبل الله توبتك ، فسألته: أن منّ عليّ بحديث ، قال الامام: سمعت عن آبائي واجدادي (الى ان أرجع الحديث الى الرسول محمد (ص)) انه قال: الجنة حرام على الانبياء حتى اطأها بقدمي ، وعلى الاوصياء حتى يطأها علي (ع) ، وعلى الامم السالفة حتى تطأها أمتّي ، وحرام على امتي ان تطأ الجنة حتى تحبك يا علي .

«اللّهم إجعلنا من أوليائه ، وأخرجنا من هذه الدنيا على ولايته» .

« ١٩ »

﴿خلق الأنسان من صلصال كالفخار* وخلق الجانّ من مارج من نار* فبأي آلاء ربكّما تكذّبان﴾[١] .

* نار الشهوة ونار الغضب أعدّتا لحفظ البشر :

وعن كلمة (كالفخّار) الواردة في الآية المباركة ، فقد أبدع المفسر المصري (الطنطاوي) في قوله ، الفخّار هو الطين الذي أنضجته النار ، ولما كان الطين الذي لم تنضجه النار يجعله بعيداً عن تماسك أجزائه بشكل جيد بحيث يتمكّن من الدوام والأستمرار ، لذلك كانت النار هي الباعث علىٰ ايجاد الهيئة الدائمة المتماسكة لتشكل الطين اللازب .

وطينة الانسان هكذا شأنها أيضاً ، فهي قد عولجت بنارين ، نار الشهوة ونار الغضب لكي تحصل علىٰ الشرائط الميسرّة لأدامة الحياة المادية ومواصلتها ، فلولا نار الشهوة للطعام لما سعىٰ المرء نحو طلب الطعام ، ولضعف بدنه ووهن عظمه ، ولأدركه الفناء والتلف ، ولولا نار الشهوة الجنسيّة لما سعىٰ الانسان نحو الزواج ولأنقطع النسل وأنعدمت الذراري . ولولا حرارة المعدة لما تيسر للطعام امكانية الهضم والتحلل لأن مصنع البدن الانساني بحاجة ماسة الىٰ (قدر الضغط) الذي زودّه الله تعالىٰ به . وبفضل نار الغضب

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٤ ـ ١٦) .

تحصل الغيرة لدىٰ الانسان التي تدفعه نحو حفظ الأعراض والأموال من أن تنالها أيادي الغير بسوء ، فهي لا تدع المرء يرضخ الىٰ وطأة الظلم ، وتحول بينه وبين أن يباشر بظلم الآخرين أيضاً .

* بري ، أجمل نساء الجن :

﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾[٢] لقد تطرقنا في حديثنا عن الجن الىٰ وجود فرق وطوائف متعددة منه ، وهم ليسوا (من حيث الشكل والصورة) علىٰ هيئة واحدة ، فبعضهم في غاية الحسن والجمال ، ولعلهم يتفوقون علىٰ البشر من هذه الناحية كما يقال عن (بري) المرأة الجنيّة الساحرة الجمال ، والبعض الآخر في منتهىٰ الدمامة وقبح المنظر ، وهم علىٰ أية حال يناظرون البشر من حيث اشكالهم وصورهم .

وفي الجن طوائف لا تتزاوج ولا تتناسل ، وانما يتكاثرون بالبيض والتفريخ ، وتتفاوت أعمار الجن من طائفة لأخرىٰ ، ومن فرد لآخر ، ولقد أشارت أحد الروايات المنقولة عن الامام الصادق (ع) أن بعض طوائف الجن لا يدركهم الموت حتىٰ تقوم الساعة ، والبعض يدركهم الموت بزمن متفاوت .

* تفاوت أعمار الجن بين الطول والقصر :

(فقد جاء رجل من الجن يدعىٰ حسام بن قيس الىٰ رسول الله (ص) ، فسأله النبي (ص) عن عمره فأجاب ، لقد كنت يافعاً يوم قتل قابيل هابيل ، ولقد تبت الى الله في زمن النبي نوح (ع) وعلىٰ يده ، وركبت السفينة معه ، ثم جئت ابراهيم (ع) يوم ألقوه في النار ولقد حضرت عند موسىٰ (ع) وعيسىٰ (ع) كما حضرت اليوم عندكم)[٣] .

وهذا إنمّا هو غيض من فيض طول أعمار الجن الذي حدثتنا به الروايات .

---

(٢) سورة الرحمن ، الآية (١٤ ـ ١٦) .
(٣) مدينة المعجزات ، البحراني .

* معاني المارج المتعددة: -

﴿من مارج﴾ والمارج هو خالص النار الذي لا دخان فيه ، ويقول البعض ان معنىٰ المارج هو المختلط ، ويقصد بالمختلط ، اختلاط النار بأشياء أخر ، كالهواء ، كما يختلط التراب بالماء في نشأة الانسان (وهو ما يعبّر عنه بالطين الذي ورد بالنص في القرآن الكريم) ، وعلىٰ هذا الاساس يكون معنىٰ الآية ، ان الجان قد خلقه الله تعالىٰ من خليط النار والهواء . وقال آخرون ان معنىٰ المارج هو المضطرب ، كما أن للنار لهب مضطرب ، ولعل الناظر الىٰ النار في أول وهلة يظن أنها بسيطة التركيب ، والحال أنها تشتمل على اجزاء مركبة قد اختلطت مع بعضها البعض .

* تركيبة النار ، في إخبار القرآن بالمغيّبات:

لقد أثبتت الاكتشافات الحديثة ، أن النور ليس كما إعتقد القدماء من أنه شعاع بسيط ، فلقد تأكّد أن نور الشمس مثلاً ، يحمل في تركيبته سبعة ألوان أساسية وبضعة ألوان ثانوية ، فمن نظر اليه بشكل مجرّد لا يجده الاّ نوراً بسيطاً ، بينما هو مركب وقابل للتجزئة والتحليل .

وهكذا الحال أيضاً في النار ، فقد اعتبر القدماء النار بسيطة ، وعدّوها أحد عناصر الحياة والخلق الأربعة (الماء ، التراب ، الهواء ، النار) ، ولكن المتأخرون أثبتوا بالبراهين أن النار مركبة وليست بسيطة ، ولقد عدّ المفسر المصري الطنطاوي موضوعاً (كالفخار ، مارج) معجزتين قرآنيتين ، لأن المارج هو النار المختلطة المضطربة ، والمادة المركبّة الملتهبة ، وقد أخبر القرآن الكريم بها إخباراً غيبيّاً ، ولم يدرك ذلك الاّ في الآونة الأخيرة .

* الجن أقوىٰ من الانسان ، وألطف منه:

﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ أي أن الله تعالىٰ خلق الجان من النار المركبّة والمختلطة مع الهواء ، (أو مع اجزائها المركبة معها بالفعل) ، ومن ذلك ندرك أن الجن مخلوق لطيف وعجيب ، إذ تبلغ لطافته وشفافيته حداً تؤهله

لأمتلاك قوة خارقة لا يمكن بأي شكل من الأشكال قياسها مع قوة الانسان ، فبعضهم (كالعفريت الذي ذكره القرآن في قصة سليمان (ع) وحادثة الأتيان بعرش بلقيس ، إذ أعرب لسليمان عن قدرته قائلاً ﴿**أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين**﴾[٤]له من القدرة ما يستطيع أن يطوي المسافات الشاسعة بوقت قصير ويحمل الأحمال الثقال .

ومن حيث خزين المعلومات التي يمتلكها الجن فهو تفوق ما يمتلكه الانسان الىٰ حد ما ، فالكهانة التي معروفة في سالف الزمان ، (ولعلها لا زالت الىٰ يومنا هذا في بعض آفاق الأرض) هي رياضة شيطانية تقوم علىٰ اساس التعامل مع الجن الذي يقوم بدوره بتقديم بعض المعلومات الجزئية الىٰ الانسان الكاهن . وتبلغ لطافة الجن حداً يستطيع بها أن يتوغل في أعماق الانسان ، فكم من غافل عن الله تعالىٰ قد أصبح ألعوبة سهلة في يد الشيطان (خاصة النساء اللواتي يقعن في حبائله وأشراكه بسبب عواطفهن الجياشة أو ورقتهن الفائقة) .

* نور المؤمن تطغىٰ علىٰ نار الجن :

لأن الغافل عن ذكر الله عز وجل يكون قد أقترب من الشيطان ، ومن يكثر من تناول الأطعمة والاغراق في النوم يصبح فريسة سهلة لغواية الشيطان ، فالصيام بفوائده الجمّة وعوائده الوفيرة فيه من الخصائص ما يمكن دفع الشياطين عن الصائم ، ولو أقترب الشيطان من الانسان المؤمن ، وتذكّر المؤمن ربّه لشعّ منه نور الايمان فلا يجد الشيطان بدّاً من الهرب والفرار منه ، باعتبار غلبة نور الايمان علىٰ نار الجن ، والحال ان نار الجن والشياطين ليست بأشد من نار جهنم التي صرحت بها الآيات والأخبار ، اذ عندما يمر المرء المؤمن علىٰ الصراط تبتعد عنه النار وتتنحىٰ قائلة : (يا مؤمن جزني فقد أطفأ نورك لهبي)[٥] .

---

(٤) سورة القصص ، الآية (٣٩) .

(٥) لئاليء الأخبار .

* المطلوب المعرفة القلبية لا الشهادة العلمية :

فالنور الذي يشع من قلب المؤمن (بفضل ما يحمله من ايمان) يجعله روحانياً الىٰ حد يستطيع به أن يطفيء نار جهنم بفضل ما يمتلأ به القلب من الايمان لا ما يملأ البطن ويغرق النفس في الشهوات ، لأن المعيار هي الروحانية لدىٰ الانسان وقوة الآصرة الارتباطية مع الله عز وجل ، لا كما يتخيّل البعض من رفعة بعض الافراد بسبب ما يحملونه مثلاً من شهادات جامعية عالية ومثقفاً بأحدث الثقافات العصرية ، لأن المرء الذي تأخذ الدنيا منه جل اهتمامه سوف يكون أنيساً رائعاً للشيطان كما تحدثنا بذلك هذه الرواية : ـ

* وسوسة الخنّاس في صدر العاقل :

جاء في كتاب مجمع البيان في تفسير سورة الناس في معنىٰ قوله تعالىٰ **﴿من شر الوسواس الخناس﴾** أن الخنّاس يصغي الىٰ قلب الانسان فان وجده غافلاً ، عشعش في صدره ثم لم يفرّط في الاكثار من الوسوسة إليه حتىٰ يضطره الىٰ عبادة الهوىٰ ، ولكن لو تذكرّ الانسان ونشط عن غفلته لفر منه الوسواس ولأضحىٰ طريداً لا محل له في صدره .

وقد أكّد الشرع المقدس علىٰ ضرورة الاستعاذة بالله من وساوس الشياطين كما في قوله تعالىٰ **﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾**(٦) ، ولقد قلنا آنفاً أن مؤمني الجن لا يؤذون أحداً ، بل أنهم يحبّون مؤمني الانس ويسعدون بلقائهم ، بل وأنهم يحضرون الىٰ مجالس الوعظ وتفسير القرآن مع مؤمني الأنس ، ويقدّمون العون والمساعدة لمؤمني الأنس في مواطن الشدّة والضرّاء .

---

(٦) سورة المؤمنون ، الآية (٩٧) .

* مجيء الجن لنصرة الحسين (ع):

فبعد أن وصل الحسين (ع) عرصة كربلاء ، قام ابن زياد (لـع) بأغـلاق كافة المنافذ والطرق المزوية الىٰ كربلاء لكي لا يستطيع من أحد الوصول لنجدة الحسين (ع) ، في تلك الأثناء كان هناك خمسة من شيعة الحسين (ع) يطوون الطريق ليلاً ، ويكمنون في الحفائر نهاراً ، والىٰ أن وصلوا إحدىٰ القرىٰ الواقعة علىٰ الطريق الموصلة بين الكوفة وكربلاء فاختبأوا في أحد الأكواخ واذا برجلين يظهران فجأة أحدهما شاب يافع والآخر شيخ طاعن في السن وهما يـرتديـان ملابس بيض، وقـالا السلام عليكم لا تخـافوا نحن من مؤمنى الجن وقـد جئنا مثلكم لنصـرة الامام الحسين (ع) ولما اطمئنوا بهما ، قال أحدهمـا : اني ارىٰ ان اذهب الىٰ كربلاء لاستطلع الأخبار ثم أعود اليكم فما تقولون؟ قالوا له : أصبت الرأي فسر علىٰ بركة الله وقعدوا ينتظرون ، فلم يمض زمان طويل حتىٰ عاد الرجل الجني ولكنه لم يتجلّ أمامهم بصورته بل خـاطبهم بصوتـه قائـلاً وهو يعـزّيهم بعظيم المصائب: والله لم آتيكم من عرصة كربلاء الاّ بعدما رأيت جسد الحسين (ع) ملقيّاً علىٰ صعيد أرضها[٧] .

---

(٧) مجالس الشيخ الشوشتري .

«٢٥»

﴿فبأي آلاء ربّكما تكـذّبان* رب المشـرقين ورب المغربين* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾[١] .

* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

وبعد ان ذكر الله تعالىٰ بنعمة خلق الانسان من التراب ، وخلق الجن من النار ، خاطب الجن والأنس أن بأيّ نعمة من نعمي أنتما لا تؤمنان وتجحدان؟ اتجحد يا بن آدم نعمة خلقك من حفنة تراب وجبلناك منها فجعلناك متواضعـاً فطرياً بفضل نشأتك الترابية فتيسر لك الهوّي الى الأرض وتمريغ وجهك بترابها لتعبد ربك وتتخلىٰ عن كبرك وعتوّك فتتواضع بعد ذلك للناس ، وبعد كل هذا كيف يمكنك ان تكفر بالتراب الذي انشأنا منه هيكلك العجيب وصنـع بدنـك المهيب؟

ولقد قلنا فيما مضىٰ أن أحد وجوه تكذبـان يعني تكفران ، لأن الانسـان الكافر هو من يجحد ويكذب بشهادات جميع الكائنات بأن له الوحدانية ، بـل ويجحد ويكذب بشهادة هذا التراب الذي قد صار هيكـلاً وبدنـاً وحواسـاً وهو

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٦ ـ ١٨) .

ينطق بلسان حاله شاهداً وحلالاً علىٰ وحدانية الله وعلمه وقدرته (تعالىٰ وتبارك) .

* الجن ونعمة النار:

وما صحّ علىٰ الانسان ، يصح علىٰ الجن بالضرورة ، فهل تكفرون بنعمة النار اللطيفة التي خلقناكم منها ومنّنا من خلالها عليكم بالقوة والقدرة الفائقتين؟ .

ولقد جحد الكثير من الجن بنعم ربهم كما جحد بها اخوانهم الأنس ، لأن بعضهم يقتفي آثار بعض ، فتراهم يستخدمون هذه القدرة والقوة التي وهبهم الله إياها في موارد الشر والاذىٰ دون سبل الخير والأحسان ، والآن ألا ترون أن ذلك هو عين كفران النعم وتكذيبها؟

* علاقة آيات السورة الأول مع بعضها:

﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾ ، كلمة ـ رب ـ في هذه الآية خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، وعليه يكون المعنىٰ ـ الذي هو رب المشرقين ورب المغربين ـ ويكون المعنىٰ للآيات حسب السياق هو (الرب الذي خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار وهو رب المشرقين ورب المغربين) . ومن يدقق النظر في هذه الآية يجدها تفسير الآية التي سبقتها ، ففي البداية قلنا ان السورة استعرضت في فاتحتها وعلىٰ نحو اجمالي خلق الانسان دون ذكر كيفية هذا الخلق ، بعد ذلك جاءت الآية التي مررنا بها قبل قليل لتوضح كيفية خلق الانسان في قوله تعالىٰ ﴿**خلق الانسان من صلصال كالفخار**﴾ ، وعن الشمس والقمر ، جاءت الآيات الاول لتحدثنا عن نظام حركتهما في قوله تعالىٰ ﴿**والشمس والقمر بحسبان**﴾ ثم جاءت هذه الآية ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾ لتؤكد أن الحركة المنتظمة في المدار المعين ، والسرعة الدقيقة للشمس هي التي أدت الىٰ ظهور المشرقين والمغربين علىٰ ما سنتناوله من توضيح لاحقاً .

* نقطة طلوع وأفول الشمس والقمر :

فـ (المشرقين) تثنية لكلمة المشرق ومعناها أن هناك نقطتين لشروق الشمس ، وأما كلمة (المغربين) فهي الأخرىٰ تحتمل هذا المعنىٰ أيضاً ، ومعناها هو وجود نقطتين للغروب والأختفاء عن الأنظار ، وجدير ذكره أن هناك العديد من الأحتمالات حول مصاديق (المشرقين والمغربين) نورد منها : ـ

الاحتمال الأول: وهو أن يكون المراد بالمشرقين والمغربين ، مشرق ومغرب الشمس والقمر ، وهذا الاحتمال وإن كان لا يمتلك الوضوح الكافي إلّا أنه أليق بهذا المقام ، لأن الآيات السابقة تحدثت عن حركة الشمس والقمر ونظامهما ، ثم جاءت هذه الآية لتؤكّد إنبثاق المشرق والمغرب عن الحركة المنتظمة لهما ، مما استدعىٰ ذلك اعتماد هذا الاحتمال واعتباره الأنسب في معناه .

* حركة الارض من الشمال الىٰ الجنوب وبالعكس:

ومما لا شك فيه ان حصول الليل والنهار ، والشروق والغروب هو من آثار حركة الأرض حول محورها ، ولكن وكما نعرف أن للأرض حركة اخرىٰ هي الحركة الموضعية مع وجود الحركة المحورّية ، وتتمثل هذه الحركة بأنتقال الأرض من الشمال الىٰ الجنوب ، ومن الجنوب الىٰ الشمال في مدارها حول الشمس ، ويستغفرق الانتقال الواحد ستة أشهر ، ولعل ان حركة الأرض الموضعية هذه هي أقرب شبهاً بحركة المهد وهو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿**ألم نجعل الأرض مهادا**﴾[٢]من حيث الذهاب والأياب نحو نقطة وسيطة نعبّر عنها (بالأعتدال الربيعي) ، حيث يتساوىٰ في تلك النقطة طول الليل مع طول النهار ، ثم يأخذ النهار بالطول والليل بالقصر بحلول فصل الصيف نتيجة حركة الأرض الموضعية نحو الجنوب ولمدة ثلاثة أشهر ، لتعود بالتساوي عند نقطة وسيطة أخرىٰ تدعىٰ نقطة (الأعتدال الخريفي) ، ثم تنتقل الأرض في حركتها

---

(٢) سورة النبأ ، الاية (٦) .

نحو الشمال ولفترة ثلاثة أشهر أيضاً ليطول الليل ويقصر النهار وكأنما قد تقمّص الليل لباس النهار وتقمّص النهار لباس الليل ، وهو ما يعبر عنه القرآن بتعبير دقيق كما نقرأ قوله عز وجل ﴿**يولج الليل في النهار* ويولج النهار في الليل**﴾[٢]وهكذا تستمر الحركة دواليك .

* عدد المشارق والمغارب بعدد أيام السنة:

واستناداً الىٰ ذلك فان الشمس تظهر يومياً من نقطة معينة ثم تختفي في نقلة محددة بحيث يختلف مكان الظهور ومكان الاختفاء في كل يوم عمّا سبقه ، ومنشأ ذلك هو الحركة الموضعية (الانتقالية) للأرض في مدارها ، رغم ان هذه الحركة غير محسوسة لدينا ، ولكننا ندرك حقيقة هذا الأمر من خلال الفاصلة الكبيرة في شروق الشمس بين نقطة شروقها الصيفي ونقطة شروقها الشتوي ، وتستغرق عملية إنتقال نقطة الشروق هذه فترة ستة أشهر ، أي ما يقرب من مائة وثمانين يوماً ، وهكذا الحال بالنسبة لنقطة الغروب ، واستناداً الىٰ ذلك فأن للشمس مائة وثمانون مشرق ، وما يماثل هذا العدد من نقاط المغرب ، وهو ما تذهب الىٰ تأكيده الايه الكريمة ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**﴾[٤] ، فأنظر الىٰ هذه القدرة الجبارة التي حركت أرضنا العظيمة وفق حسابات منتظمة ودقيقة في مدار محدد فظهرت بذلك ظواهر تعدد المشارق والمغارب علىٰ هذا النحو المألوف ، وتأمّل..

* المشرقان والمغربان ، في بدأ حركة الأرض وأنتهائها:

الاحتمال الثاني: ويمكن أيضاً أن يكون المقصود بالمشرقين والمغربين ، هو وجود المشرق الأول الناشيء عن بدأ حركة الأرض الموضعية في أوّل فصل الصيف ، وحصول المشرق الثاني من إنتهاء الحركة الموضعية في أوّل فصل الشتاء ، وهذا يصدق أيضاً علىٰ المقصود من المغربين .

---

(٣) سورة لقمان ، الآية (٢٩) .
(٤) سورة المعارج ، الآية (٣٠) .

فمن خلال الاحساس بارتفاع قرص الشمس الىٰ أقصىٰ ما تصل إليه ، وانخفاضها الىٰ أدنىٰ ما تصل اليه عند النظر اليها وهي في كبد السماء في فصلي الصيف والشتاء يشاهد الرائي وجود خطيّن لسير الشمس متباينين . واستناداً الىٰ ذلك يكون المقصود من المشرقين ، هو مشرق رقم (١) علىٰ الافق ، ومشرق رقم (١٨٠) على نفس ذلك الأفق ، وأما عن المغربين فهما ، المغرب رقم (١) علىٰ الافق ، والمغرب رقم (١٨٠) المقابل لنقطة المشرق (١٨٠) .

* المشرق والمغرب الجهوّيان:

ومع ذلك فنحن نجد في آية أخرىٰ أن الباري (عز وجل) يشير الىٰ وجود مشرق واحد ومغرب واحد في قوله ﴿**رب المشرق والمغرب**﴾[٥] ، ويبدو ان المقصود من ذلك هو تقسيم الأفق الىٰ أربعة جهات هي (الشمال والشرق والجنوب والغرب) وعليه يكون معنىٰ الآية هذه هو تأكيد الله (عز وجل) علىٰ جهتي الشرق والغرب المشتملتين علىٰ نقاط المشارق والمغارب المتعددة .

إذاً نخلص الىٰ عدم وجود أي تناقض بينما أوردته الآيات المتعددة من حيث الأفراد أو التثنية أو الجمع ، لأن كل معنىٰ من تلك المعاني يشير الىٰ جهات ونقاط معينة وجميعها يشتمل علىٰ الصحة والدقة ، فالآية التي تناولت تعدد المشارق والمغارب إنما انطلقت في ذكر التعددية باعتبار تعدد أيام السنة الواحدة ، والآية التي أشارت الىٰ التثنية في ذكر المشرق والمغرب علىٰ انهما (مشرقان ومغربان) انما نبّهت الىٰ ابتداء وانتهاء حركة سير الشمس الحسيّة ووجود الفصول ، بينما الآية التي افردت ذكر المشرق والمغرب قد جاءت لتؤكد علىٰ الجهوّية في تقسيم الأفق الىٰ أربعة جهات .

---

(٥) سورة الشعراء ، الآية (٢٨) .

* تعدّد المشارق والمغارب ، لتعدّد الشموس والأجرام:

ولعل المقصود بكثرة المشارق والمغارب ، هو المشارق والمغارب الخاصة بالأفلاك السماوية الأخرىٰ سوىٰ كوكبنا (الارض) لتعدّد شموسهن ونجومهن ، لأننا نعرف ان لكل كوكب مشرق ومغرب ، وهذا الأمر لا يختص بكوكبنا لوحده ، فمجرتنا (درب التبانّة) تشتمل علىٰ ملايين الشموس ، وما شمسنا هذه الاّ واحدة منها ، وكما أن أرضنا تتحرك حول الشمس بمدار محدد فتلك الكواكب تتحرك هي الأخرىٰ بشكل منتظم حول شموسها وفق ما دبّره الله تعالىٰ لها من انظمة ومدارات محسوبة ، فأظهر (عز وجل) بذلك عنواناً من عناوين قدرته اللامحدودة في تعدّد مشارق ومغارب تلك الافلاك جميعاً .

* تأمّل السماء يبعث علىٰ كثرة الحيرة والخشية:

ولو طالعنا دعاء جوشن الكبير وتأمّلنا عبارة «يا من في السماء عظمته» لوجدناه يشير الىٰ أحد أسماء الله الحسنىٰ ، فهذا النص يؤكد في معناه علىٰ تجلّي عظمة الله في بديع صنعه للسماء العظيمة ، ولو أراد أحدنا أن يتأمل في عظمة الله (عز وجل) لوجد السبيل الىٰ ذلك مشرعة ، فيرمق السماء ببصره ثم لا يجد بدّاً حينها من الاحساس بالحيرة والدهشة العظيمتين .

يقول رسول الله (ص) كما في الرواية (ربِّ زدني فيك تحيّراً) باعتبار ان زيادة درجة حيرة العبد في عظمة ربه تؤمّن له كثرة الخوف والخشية من بارئه فيسارع الىٰ القول (اللّهم انت كما اثنيت علىٰ نفسك ، ولا أحصي ثناءً عليك) لأنه سيجد نفسه اصغر من ان يثني علىٰ ربه ، بل وكيف نثني عليه بما أهله ونحن لمّا نعرفه حق معرفته؟!!

* أبشهادة الشمس تلك ، تكذّبان؟

﴿**فبأي آلاء ربكمّا تكذبّان**﴾ أي فبأي نعمة من نعم ربكما تجحدان؟ ، أبنعمة المشرقين والمغربين؟ أم بشهادة الشمس علىٰ وحدانية الله وعلمه وحكمته وقدرته؟! أتكذبّان بنعمة المشرقين والمغربين الناشئين عن ارتفاع

الشمس وانخفاضها (حسب الحس لا حسب الواقع) ، أم بحركة الارض الموضعية من الشمال الىٰ الجنوب ومن الجنوب الىٰ الشمال ، هذه النعمة الالهية العظيمة التي تكمن عظمتها في ما يلي ذكره : ـ

* الفصول الأربعة ونشؤُها عن المشرق والمغرب :

فلو أفترضنا ان الشمس تبقىٰ ثابتة في نقطة المشرق الصيفي مثلاً ، فهذا يعني بقاء الصيف سرمدياً وانعدام الفصول الثلاثة الأخرىٰ مما سيؤدي الحال هذا بالنتيجة الىٰ إنعدام الحياة وتلف الكائنات ، لأن تواصل وديمومة الصيف سوف يبقي الزروع (مثلاً) عاجزة عن إنتاج ثمارها ومحاصيلها ، ولأستحالت النباتات كلّها الىٰ علف يابس ، ولأنقطعت الأمطار الربيعية والشتوية ولحفّت الأرض وقحلت وأجدبت ، ولغارت المياه ، وتصاعدت درجات الحرارة حتىٰ يصل الضرر الىٰ الانسان والحيوان وسائر الكائنات الحيّة ولحقها الموت ولأحرقت الشمس كل شيء ، وعندها فليتأمل المتأمل شكل الحياة من بعد .

ولو أفترضنا علىٰ العكس من ذلك ديمومة فصل الشتاء من خلال بقاء الشمس في نقطة المشرق الشتوي ، لأصبحت الارض قطعة موحلة من كثرة الأمطار ، ولتجمدت التربة الرطبة من فرط البرودة ، ولأندثرت الثمار والمحاصيل الصيفية ، ولأستحالت الحياة علىٰ أرض برادّة اذاً نحن نلحظ دورة عجلة الحياة لا تدور الاّ بدوران الفلك ، وببركة تعدد المشارق والمغارب الناشئة عن حركة الأرض نحو الشمال أو باتجاه الجنوب مع وجود حركتها المحورية .

* وجود التدرج في الحرارة والبرودة ، نعمة أخرىٰ :

ولعله من الجدير بالاهتمام هو موضوع الفساد الناشيء عن الأنتقال المفاجيء من حالة البرودة الىٰ حالة السخونة الشديدتين وبالعكس ، لأن ذلك لو حصل للفظت الكثير من الاحياء انفاسها ولتيبست اكثر الزروع واغلب الاشجار ، ونحن نرىٰ أحياناً كم يعاني المرء عند حصول الانخفاض الشديد في

درجات الحرارة في فصل الشتاء فلا يلبث أن يصاب بالأنفلونزا أو الرشح والزكام ، فكيف لو فاجئه الشتاء القارس بعيد الصيف القائظ مباشرة؟

ولكن الله تعالىٰ جعل بلطفه برزخاً بين الصيف والشتاء هو الخريف ، وآخر بين الشتاء والصيف هو الربيع بحيث ان حرارة الصيف تتدرج بالانخفاض حتىٰ تدخل في برودة الشتاء ثم تتصاعد الحرارة تدريجياً حتىٰ تدخل في حرارة الصيف .

ولمّا كان ذكر النعمة لوحده يعد نعمة كاملة ، فتأمل عظمة نعمة المشارق والمغارب ايها الانسان ، هذه النعمة التي ينبغي علينا جميعاً أن ندركها ثم نعترف بها ، خصوصاً ونحن نسبح الله بحمده ونذكره عند الطلوع وعند الغروب .

* تشابه دورة حركة الشمس ودورة الحياة:

شبّه بعض العلماء دورة حركة الشمس تشبيهاً رائعاً عندما قرنوه بدورة حياة الانسان ، يقولون ، عندما تريد الشمس أن تشرق ، تعلن عن شروقها بطلوع الفجر الذي يقارن أيام الحمل في بطن الأم عند الانسان ، وعندما تشرق الشمس يولد الانسان ، ثم تأخذ الشمس بالأرتفاع في عرض السماء ضحىً فيمر الانسان بمرحلة الطفولة والصبا ، وعندما تتوسط الشمس كبد السماء يكون الانسان قد وصل الى مرحلة الشباب والنضج وتكامل العقل والقوىٰ ، ولما تأخذ الشمس بالانحدار نحو الأفول عصراً يمر الانسان بمرحلة الكهولة وفقدان نضارة الشباب وعنفوان الرجولة والقوة ، وعندما يأن العصر وتنخفض شدة حرارة أشعة الشمس ويصفّر لونها ويبهت ، يمر الانسان بمرحلة الشيخوخة والفتور والضعف ، وعندما تصل الشمس الى الغروب ويختفي قرصها ولا يبقىٰ منها الّا الأثر من النور الباهت يكون الانسان قد وصل وشارف علىٰ لفظ أنفاسه الأخيرة في نهاية مطاف العمر ، وعندما يجن اللّيل يكون الانسان قد فارق الحياة . وحركة الشمس هذه يمكن ان نعبّر عنها بتعبير آخر باعتبار حركتها الموضعية الانتقالية بوجود الفصول الأربعة ، ففصل الربيع هو فصل الطفولة والتفتح

والصبا ، وفصل الصيف هو فصل الشباب والفتوة واليفاعة ، وفصل الخريف هو فصل الكهولة والشيخوخة والعجز ، ثم فصل الشتاء وهو فصل الاحتضار وبرودة البدن والموت .

هـي الآهـات تـتـرىٰ أن نـزول والـدهـر بـاق
والـورد يـورق في ربيـع قـد اتـىٰ حلو الـميـاسـم
وتـلفّـنـا حـقـب الـسـنـيـن وكـأنّـهـا ربـصت بـنـا
هـا قـد رجعنـا جفنـه من تـربـة فـوق النـيـاسم

جعلنا الله تعالىٰ من التفت الىٰ حاله فاستيقظ من رقدة الغافلين من قبل أن يحل الموت بساحتنا. فيا أيها الناس الذين قد توهج نور الشيب في وجوههم ورؤوسهم ، وشارفت شموس أعمارهم علىٰ الوصول الىٰ حافة الافق الغربي ، وبهت شعاع السنين الذهبية ، هلّموا لتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، فأن الفرصة توشك علىٰ الفوت والانقضاء .

« ٢١ »

﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان* فبأي الاء ربكما تكذبان* يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي الاء ربكما تكذبان﴾[١] .

* الماء العذب الفرات ، والماء المالح الأُجاج ، لا يختلطان:

ومن الآيات الالهية الباهرة ، والشواهد الربانية الكبرىٰ ، الدالة علىٰ قدرته المطلقة ، هي نعمه وآلائه المتمثلة بوجود البحار المالحة والأنهار العذبة التي تشكل بمجموعها ثلاثة ارباع سطح الأرض الوسيعة . وترتبط البحار فيما بينها ، وتتصل الأنهار مع بعضها الآخر دون ان يحصل طغياناً من أحدهما على الآخر بصورة يسلبه فيه طعمه ، فلا المياه المالحة تكتسح الحلوة فتصيّرها مالحة ، ولا المياهُ العذبة تغلب المالحة فتحيلها عذبة المذاق . والآية ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ تشتمل علىٰ عدة معانٍ محتملة نذكر منها : ـ

١ ـ **الاحتمال الأول**: وهنا يكون معنىٰ الآية الكريمة هو أن الله تعالىٰ جعل البحرين (العذب والمالح) يلتصقان ، واستدلالنا علىٰ أن المقصود من

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٩ ـ ٢٣) .

كلمة (البحرين) هما البحر المالح والبحر العذب يعود الىٰ قوله تعالىٰ ﴿**وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً**﴾[٢] . أما معنىٰ قوله ﴿**بينهما برزخ لا يبغيان**﴾ فهو أنه سبحانه قد جعل بين البحرين حائلاً ومانعاً وحاجزاً بيد قدرته يحول دون أن يطغىٰ أحد البحرين علىٰ الآخر فيسلبه صفته .

٢ ـ **الاحتمال الثاني**: أن تكون كلمة (البحرين) التي صرحت بها الآية قد قُصد بها بحري الروم وفارس ، إذ أن هذين البحرين يتصلان مع أحدهما الآخر دون أن يحصل الطغيان من أحدهما علىٰ الثاني فيغلبه . ومهما يكن الاحتمال فان المعنىٰ يقصد به عدم حصول الطغيان من احد البحار علىٰ ما سواه ، والشواهد المؤكدة علىٰ هذه الحقيقة كثيرة ، نذكر منها علىٰ سبيل المثال ، نهري دجلة والفرات ونهر الكارون ، فهذه الانهار الثلاث العذبة تصب في الخليج الفارسي ، ورغم ان مستوىٰ سطح هذه الأنهار لا يختلف عن مستوىٰ سطح البحر ، لكننا نجد أن مياههن حلوة عذبة ، وقد اتصلت بالبحر المالح ولكن دون ان يطغىٰ الماء المالح عليهن فيجعلهن مالحات ، ولم يتفق العكس أيضاً ، والأعجب من ذلك أن حصول المد والجزر البحري وانخفاض منسوب المياه وزيادتها تبعاً لتلك الظاهرة البحرية لم يجعل لطغيان الماء المالح علىٰ العذب ، أو العذب علىٰ المالح سبيلاً .

* ولا تبغي البحار علىٰ اليابسات فتغرقهن :

وقد يصل عمق بعض البحار المحيطات الىٰ ستة آلاف قامة بحرية ، مع أنه (علىٰ ما يقال) أن مياه البحار والمحيطات تتأرجح في حركة دائمة ، ولعلّها يؤدي أحياناً الى بروز امواجٍ عاتية هائلة تضاهي في عظمتها الجبال الشامخات التي تؤدي الى تحريك رمال القاع فيتلّون ماء سطح البحر بلون رماله من شدة هيجان واضطراب البحر المخيف ، وقد وصف البحارة وملاحوا السفن حالة

---

(٢) سورة الفرقان ، الآية (٥٣) .

هيجان البحر بحالة الجنون عندما تصطبغ امواج البحر بلون رمال القاع .

ولما كانت البحار والمحيطات تغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض ، فان هيجان هذه البحار والمحيطات مع وجود قيعانها السحيقة ، فكان مما لا بدّ فيه ان تكتسح المياهُ سطح الأرض اليابس ، ولكن هذا الأمر لم يحصل لوجود يد القدرة الالهية التي حالت وتحول دون ذلك . وعلىٰ هذا الاساس قال بعض المفسرين ان المقصود من كلمة ﴿**لا يبغيان**﴾ لا تعني انهما لا يطغيان علىٰ أنفسهما ، وانما عنت ان البحار الحلوة والمالحة ، أو بحري الروم وفارس لا يبغيان علىٰ سطح الارض فيغرقه . ومن كل ما سبق نخلص الىٰ أن هناك تفسير كلمة (لا يبغيان) له صورتان ، **الأولىٰ**: وهو أن لا يبغي احدهما علىٰ الآخر فيكتسحه ، **والثاني**: انهما لا يبغيان سوية علىٰ سطح الارض فيغرقانه . ولعل ما يؤيد المعنىٰ الثاني في حقيقته هو مشاهداتنا الكثيرة لظاهرة المد والجزر عندما تتقدم امواج البحر لترتطم بسواحل البحار ثم تعود ثانية علىٰ أدراجها من حيث أتت ، أو مشاهداتنا لحصول حوادث السيول المدمّرة للأراضي والبنايات ، فلو حصل ان طغت البحار على السواحل والمدن والأراضي لادركنا معنىٰ الطوفان والغرق الذي سينجم عن ذلك ، ولعلّ ما نشهده أو نسمع به من تنفيس بعض البحار أو الانهار عن غضبها وثورتها باغراق محدود لبعض الشواطيء والسواحل (كما يحصل في سواحل شبه القارة الهندية) هو آية آلهية تذكر الناس بعظم العافية بعد البلاء الذي لا يلبث أن يزول وقد اكتسح شيئاً من الاراضي والأبنية . وأزهق عدداً من النفوس ، وعلىٰ النقيض من ذلك نجد أن الكثير من الجزر التي تتوسط البحار والمحيطات (كما في أندونيسيا التي تتشكل من اكثر من الف جزيرة كبيرة وصغيرة معمورة) لم يطغ عليهن البحر ، علىٰ حد علمنا .

* الحائل بين الماء المالح والعذب:

إذاً الحالة التي نألفها في حياتنا في البحار والمحيطات وكبار الأنهار هي حالة انعدام البغي والطغيان والغلبة علىٰ بعضها الآخر ، أو علىٰ يابس الأرض ،

فنجد الانهار العذبة تمتد جرياناً لعدة فراسخ دون أن يطال عـذوبة مـائها طعم التبدل والتغير ، ثم يأخذ طعم الماء في ذات هذه الأنهـار بالملوحـة في مكان معين من النهر ليمتد جرياناً الىٰ مسافات أخر ، أما المنطقة التي يحصل التباين فيها بين طعم الماء (ملوحة وعذوبة) نجدها تشتمل علىٰ وجود الطعمين ، ولعل هذا هو الحائل الذي يسميه القـرآن الكريم بـالبرزخ الـذي تتجسد فيـه القدرة الالهية الحائلة بين البحرين ضغياناً ، ولذلك سميت الفترة الفاصلة بين عالمي الدنيا والآخرة (برزخاً) وهي الفترة الممتدة من ساعة الموت وحتىٰ البعث .

* العيون العذبة تتوسط البحار المالحة:

وعادة ما تكون مياه البحـار مالحـة ، ويكمن السبب في ذلك لكي يبقي الباري تعالىٰ علىٰ امكانية حياة الكائنات ودون حصول حالة التعفن الناشئة عن اجساد الحيوانات الميتة بعد تفسّخها ، وعن كيفية ظهور الملوحة في طعم مياه البحار ذكر المختصون عدة عوامل اساسية في ذلك أحدها وجود الجبال الملحية في قعر المحيطات والبحار التي تعطي لمياه البحار هذا الطعم المالح . ورغم ان ماء البحار والمحيطات مالح فان في بعض الجبال الموجودة في قيعان تلك البحار تنبثق عيون وينابيع عذبة تتشكـل في وسط البحار المـالحة ، وكثيـراً ما يرتادها الغواصون عندما يضربهم العـطش ، ليطفئـوا من مائهـا نيران العـطش المستعرة .

ولقد سمعت ان البريطانيين قد اكتشفوا عيون ماء عذبة في سواحل البحر المحيط بالبحري ، وقد أسسوا لها شبكات من الأنابيب لأسالة مياهها العذبة الى الاراضي البحرينية(٣) .

---

(٣) تزامن تفسير المؤلف (رض) لهذه السورة الكريمة مع وجود العهد الاستعماري البريطاني للبحرين قبل اكثر من ٢٥ عاماً ، ولذلـك أشار سمـاحته الى هـذا الأمر . لـذا اقتضىٰ التنويه .

❊ البحار نعمة ، فلا تكفرانها:

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبّان﴾ أي فبأي من نعم ربكما تجحدان ايها الثقلان ، فهذان البحران (العذب الفرات والمالح الأجاج) اللذان انعم الله تعالىٰ بهما عليكما قد جعلهما لا يطغىٰ احدهما على الآخر ، ولا يبغيان على الأرض فيغرقانها ، ألا تجدانهما يشهدان بحكمة الله وقدرته المطلقة؟ ، إذاً لم تعميان عن رؤية هذا البرزخ الذي إختطّته يد القدرة الإلهية فحالت دون أن يبغي احدهما على الآخر؟! فيا حسرة علىٰ العباد الذين يرون كل هذه الألطاف والعنايات الربانية ، ويشاهدون جميع أشكال الآلاء والنعم والافضال الالهية التي فاقت حد الوصف والحصر ، ثم تزداد غفلتهم ويكثر عَمَهَهُم دون أن تزداد معرفتهم بالله أو أن يستحكم الأيمان في قلوبهم .

❊ «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»:

ثم يخرج المولىٰ (عز وجل) من هذين البحرين ، الدر الصغار والكبار آية عظيمة من كثير آياته ، وكما نعرف أن الدرّ بشكليه اللؤلؤ أو المرجان إنمّا يتم إستخراجه من باطن البحار المالحة كما هو المعهود في ذلك ، بينما نرىٰ قوله تعالىٰ ﴿يخرج منهما﴾ تعني ان عملية استخراج اللؤلؤ والمرجان إنما تحصل من كلا البحرين (المالح والعذب) ، ولتوضيح ذلك نذكر أهم الوجوه المقبولة في بيان هذا الأمر:

ان المشهور بين الغواصين أن الاماكن التي يكثر فيها صيد اللؤلؤ ، هي تلك التي يتصل فيها الماء العذب بالماء المالح ، وقد ثبت مؤخراً بواسطة الاكتشافات الحديثة ان اللؤلؤ والمرجان لا يقتصر وجودهما علىٰ المياه المالحة ، فقد ذكر الطنطاوي المفسر في تفسيره ما مفاده ، أنه قد تم بالفعل استخراج الدر من المياه الحلوة الواقعة في سواحل اميركا والصين ، وعلىٰ هذا يكون معنىٰ الآية أن الله تعالىٰ يخرج اللؤلؤ والمرجان من المياه المالحة (كما هو معروف) ومن المياه العذبة أيضاً كما دلت علىٰ ذلك الاكتشافات والتحقيقات العلمية الحديثة .

* بحر النبوة وبحر الولاية:

وعن باطن وتأويل قوله تعالىٰ ﴿**مرج البحرين يلتقيان* بينهما بـرزخ لا يبغيان* فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان* فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ فقد ذكر العلماء والمفسرون والمحدثون من الخاصة ، وبعض مفسري العامة أيضاً ، مصاديق لهذه الآيات المباركة ، فقد رُوي عن الامام الصادق (ع) في قوله تعالىٰ ﴿**مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان**﴾ أنه قال: علي وفاطمة بحران عميقان لا يبغي احدهما علىٰ صاحبه ، وقوله ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ قال (ع): الحسن والحسين (ع)[٤] . وقد ذكر صاحب مجمع البيان ان (البحرين) علي وفاطمة (ع) ، و﴿**بينهما برزخ**﴾ محمد (ص) و﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ الحسن والحسين (ع) .

اذاً يكون معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ من حيث التأويل هو إلتقاء مجري النبوة والامامة ، يجري العصمة والولاية ، إلتقاؤهما في زواج الامام أمير المؤمنين (ع) من فاطمة الزهراء (ع) ، ولمّا إلتقىٰ بحر النبوة ببحر الامامة ، بحر الولاية الالهية مع بحر الطهارة النبوية ، بحر الوفاء ببحر الحياء ، بحر السخاء ببحر الطهارة وإتصّلا ، كان ﴿**بينهما برزخ**﴾ أي محمد (ص) لأنه هو واسطة الاتصال بين هذين البحرين ، ﴿**لا يبغيان**﴾ ولا يبغي أحد هذين البحرين علىٰ الآخر ، ولا يتمرّد عليه ، فعلي وفاطمة روحان في جسد واحد . لقاء علي مع فاطمة كان (كما يعرف ذلك الكثيرون) حديثاً تناقلته الألسن في كل مكان ، ففاطمة حينها لم تطلب لنفسها شيئاً من علي (ع) فيعجز عن الأتيان به وإذّاك تلوح علىٰ وجهه الشريف قسمات الخجل والاستحياء ، لذلك تحملت وصبرت في دار علي (ع) الىٰ أن طلبت منه أن يأتيها بحلي ، ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ فاذا ينبثق عنهما الدر ، الحسن والحسين (ع) .

---

(٤) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٠) .

يقول الشاعر الايراني وصال الشيرازي في تصوير هذه اللّوحة الرائعة:

كسنم گر غوص بحرين نبوت باولايت را
نه مرجان چون حسن يابم، نه لؤلؤچون حسين جود

ولو أني سبرت الغور في بحر النبوة والولاية
لما ألفيت مرجاناً كالحسن، ولا درّاً كحسينٍ

« ٢٣ »

﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان * فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربّكما تكذّبان﴾[1] .

* الماء العذب يحفظ الحياة ، والماء المالح يحفظ البيئة :

ذكرنا أن معنىٰ كلمة ﴿لا يبغيان﴾ هو أن لا يتعدىٰ أو يطغىٰ احد البحرين علىٰ الآخر ، أو أن لا يطغىٰ ماء البحرين علىٰ اليابسة من الأرض . وهناك إحتمال ان يكون معنىٰ ﴿لا يبغيان﴾ هو لا يطلبان ، من بغا يبغي بغية وهو الطلب ، فيكون معنىٰ الآية علىٰ هذا الاحتمال ، أن البحرين لا يطلبان الاّ ما قدّرّ الله لهما ضمن الحدود المحددة لهما ، فلا العذب يطلب المالح ، ولا المالح يطلب العذب وبذلك لا يحصل عندهما الطغيان . ﴿فبأي آلاء ربكما تكذّبان﴾ أي ، فبأي نعمة من نعم ربكما ايها الثقلان تجحدان؟! أبالبحر العذب أم المالح؟ فهذا الماء العذب الذي لولاه لما تواصلت الحياة علىٰ سطح هذا الكوكب ، وهذا الماء المالح الذي لولاه لتعفن الهواء بسبب وجود

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٩ ـ ٢٣) .

الفضلات والنفايات ، ولولاه لماتت حيوانات البحر من تعفن مياهه ولعمّت العفونة جو الأرض بأكمله ، ولفسدت حينئذ الحياة .

* اللؤلؤ والمرجان ، حصيلة تلاقح العذب بالمالح من البحار:

﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ ، الفرق بين اللؤلؤ والمرجان هو على ما قاله البعض ، ان صغار الدر تسمىٰ لؤلؤاً ، وكبارها تسمىٰ مرجاناً ، ولقد تحدثنا بعض الشيء عن تفسير هذه الآية ، ولكن يهمنا هنا ان نتناول بالبيان عملية انتاج اللؤلؤ والمرجان الناشئة عن تلقيح الماء المالح بالماء العذب ، وعندما يحصل التلقّيح يخرج الماء المالح الدر علىٰ هيئة لؤلؤ ومرجان ، وتتشابه عملية تلقيح مياه البحرين مع التلقيح في الانسان بين الذكر والانثىٰ ، أو الحيوان أو النبات ، فينشأ من التلقيح في الانسان الطفل ، وينشأ عن التلقيح في النخل التمر .

﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ، فأنظر الىٰ اللؤلؤ والمرجان كم فيه من المنافع للناس؟ فهناك من يعتاش علىٰ بركة صيده بالغوص بحثاً عنه ، وهناك من يعتاش علىٰ نقله الى الاسواق ، وهناك من يعتاش علىٰ بيعه حليةً وزينة .

* الأمطار ، تنشأ البحار العذبة من البحار المالحة:

ومن الوجوه الأخرىٰ في معنىٰ كلمة (البحرين) الواردة في هذه الآية هو ما روي عن الامام امير المؤمنين علي (ع) ، يقول الامام: المراد بالبحرين ، بحر الارض وبحر السماء ، فأحدهما مالح والآخر عذب ، (نعم أن السحاب المار من فوق رؤوسنا هو في حقيقته بحر متحرك ، قد رفعته في السماء يد القدرة الالهية ، وهو البحر العذب المرتفع فوق البحار المالحة ، فيستحيل مطراً بقدرة الله تعالىٰ ، ويلتقيان سوية ، والعجيب في الأمر ، ان البحر العلوي العذب قد نشأ بفضل البحر السفلي المالح فصار مطراً عذباً ، قد نشأ نتيجة تسخين اشعة الشمس لسطح مياه البحار ، فتبخر وصعد في السماء ، ثم عاد لينزل مطراً عذباً فراتاً) .

﴿**بينهما برزخ**﴾ اي بينهما حاجز نعبّر عنه بالسحاب ، و﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ ، يتناقل العامة من الناس ، ان الصدف أو القوقع (وهو حيوان بحري صغير معروف) الذي يعيش في قيعان البحار يصعد احياناً الى سطح الماء عند هطول الامطار فيفتح فمه ليبتلع قطرة من قطرات المطر ثم يعود علىٰ أدراجه الىٰ قاع البحر ، فتستحيل تلك القطرة الى لؤلؤة ، كما تشير الى ذلك ترجمة الأبيات الشعرية الفارسية التالية : ـ

قطرةٌ من مطرٍ قالت لنا … إنني أخجلُ من لقيا البحرْ
فهو في الوسعِ عظيمٌ بينما … صغري في وسعِهِ محضُ صغرْ
هكذا تأنفُ حبّاتُ السما … أن يكنْ في نفسِها فخرُ الكبرْ
فحباها الله أنْ أنزلها … في بطونِ الصَدَف أغلىٰ الدُررْ
فتواضعْ يرفعُ الله لكَ … ما بوحلِ الطينِ يُلصقه الكبرْ

وقد اثبتت التجارب ذلك الأمر ، اذ لوحظ أن السنين التي يقل فيها هطول الأمطار يقل فيها صيد اللؤلؤ ، ومن ذلك نستنتج أن اللؤلؤ والمرجان منشأه الماء العذب الذي ينزل من السماء علىٰ صورة المطر فيلقح الماء المالح الذي تعيش فيه الأصداف والقواقع المنتجة للئاليء والمرجانات .

* بحر العقل وبحر الهوىٰ :

ولمّا كان البحر واسعاً بهيئته ، غزيراً بمائه ، غنيّاً بمحتوياته ، قيل لكل شيء واسع وغزير وغني بحراً ، ومثل هذا نجده كثير الاستعمال في الاستعارات اللفظية ، والتشبيهات اللغوية ، فقد يقال لغزير العلم من العلماء (بحر علم) ، أو أن يقال للرجل الجواد (بحر جود) وما الىٰ ذلك من الاستعارات والتشبيهات* وما نريده الآن في هذا المقام أن نطرق المعنىٰ الباطني في تأويل آية ﴿**مرج البحرين**﴾ فالمعنىٰ الباطني يقول أن المراد بالبحرين هنا هما بحر العقل وبحر الهوىٰ ، فلقد أودع الله عز وجل بقدرته في الانسان بحراً عذباً سائغاً هو بحر «العقل» وجعله مصدراً للخيرات والبركات ودليلاً عليها ، وأودع أيضا الىٰ جانبه بحراً مالحاً أجاجاً هو بحر «هوىٰ النفس» وجعله منشأً لكل ألوان الشرور

والنكبات والشقاء ، وهذان البحران موجودان لدىٰ جميع الناس ، وهما بحران وسيعان جداً ، ثم أنشأ الباري تعالىٰ بينهما برزخاً وحائلاً يحـول دون أن يبغي أحدهما علىٰ الآخر ، فليس بمقدور بحر نور العقل أن يعدم ظلمة الهوىٰ ، ولا بمقدور بحر ظلمة الهوىٰ أن يجنّ علىٰ بحر العقل بظلمته فيغلبه ، لأن من غلب عليه بحر العقل أصبح ملكاً أو شبيهاً بالملائكـة ، ومن غلب عليه بحـر الهوىٰ صـار حيوانـاً أو كاد أن يصيـر ، ولكن ارادة الله عز وجـل سبقت في ان يكون الانسان حاملاً في كيانه هذين البحرين المتلاطمين دون ان يبغي أحدهما علىٰ الآخر ، وعليه كان الوجود الانساني مشتمـلاً علىٰ نزعتين متضـادتين جعل الله (جل جلاله) الانسان في وسط هاتين القوتين ثم حفّه بلطفه ورعايته .

* التضادّ في القوتين يؤدي إلىٰ رقي الانسان معنوياً :

وببركة نور العقل ومرارة الهوىٰ تنشأ جوهرتان ثمينتان عنهما هما التوفيق والعصمة مصداق قوله (عـز وجل) ﴿**يخـرج منهما اللؤلؤ والمـرجان**﴾ ، فمن الطاف الله تعالىٰ علىٰ الانســان أن يمّن عليه بـالتوفيق للخيـرات ، بينما نجـد المـلائكة أو الحيـوانات لم تحصـل لهما هـذه المنّة لكـونهما لا يشتمـلان في كيانهما علىٰ وجـود قوىً متضـادة ، لأن الملائكـة تنعدم لـديهم جبنة الشـرور والهدىٰ ، وتفتقد الحيوانات جنبة الرقي المعنوي ، بينما الانسان ضم في كيانه هـاتين الجنبتين ، فعقله يبغي الغلبة علىٰ هـواه ، وهـواه يـطلب السيـادة علىٰ عقله ، فهذا يحبّذ له مباشرة العمل الفلاني ، وذاك يحذّره عن فعله وارتكابه ، ويستمر الصراع بين نور العقل وظلمـة هوىٰ النفس ، ثم ينبثق التـوفيق الالهي للانسان عن ذلك الصراع بعد انتصار العقل في نهاية المطاف عندما يعمل المرء المؤمن وفق ارشاداته ونصائحه ، ولو عرف المؤمن قـدر التوفيق الالهي وقيمتـه لأرتقىٰ سلّم السمو والرفعة الذي قد وقف الانبياء والائمة (ع) علىٰ اعلىٰ درجاته وهو ما نصطلح عليه بالعصمة فيكون المرء من اتباع المعصومين وينال المنازل الشريفة والدرجات العالية القريبة من منـازل المعصومين ودرجـاتهم فيكون في حاله هذا قد حصّن نفسه من إرتكاب المعاصي .

وهذا هو أحد وجوه المعنىٰ الباطني لقوله تعالىٰ **﴿مرج البحرين يلتقيان بيهما برزخ لا يبغيان﴾** وهما كما قلنا بحرا العقل والهوىٰ فـ **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾** المتمثّل بالتوفيق والعصمة .

* الدنيا والآخرة ، الملك والملكوت:

والوجه اللطيف الآخر في المعاني الباطنية لآية **﴿مرج البحرين﴾** هو أن مصداق البحرين هما الدنيا والآخرة ، فلقد أوصل الله (سبحانه وتعالىٰ) بين هذين البحرين في عالم الامكان ، عالمي الملك والملكوت ، عالمي الظاهر والباطن ، ثم جعل بينهما برزخاً كيما يكون المرء في عالم الدنيا في معزل عن الآخرة ، لا هو يراها ولا يمكنه الوصول اليها ، وعندما يصير الانسان الى مرحلة الموت يصبح في محل تستحيل عليه العودة الى دار الدنيا[٢] ، فالدنيا إذاً لا تبغي علىٰ الآخرة فتطفىٰ عليها ، ولا الآخرة تبغي علىٰ الدنيا فتكتسحها ، ولكن الاتصال بين هذين البحرين يظهر لؤلؤ العقائد الصالحة ومرجان الأعمال الزاكية ، فلولا بركة الحياة في دار الدنيا لما حصل المؤمن علىٰ انوار العقيدة اللؤلؤية ، وأي لؤلؤ هذا؟ انه نور الايمان الذي لا تقيّمه الكنوز ، فقد ورد في الروية أن المؤمن في القيامة يشع من جبينه نور عقيدته الحقة فيغطي هذا النور كلّ ما أمتد اليه بصره ، ويشع من جنبه الأيمن أيضاً نور هو نور اعماله الصالحة .

---

(٢) من ضروريات مذهب أهل البيت (ع) موضوع الرجعة ، ونعني رجوع بعض الأفراد الىٰ عالم الدنيا (ممن لحقتهم الموت) قبل قيام الساعة ، وواضح ان هذا الأمر لا يختلف أو يتنافىٰ مع ما ذكرنا أو مع قوله تعالىٰ **﴿رب ارجعون لعلّي اعمل صالحاً فيما تركت كلّا . . .﴾** باعتبار ان الرجعة تشمل البعض دون الكل ، ولاجل ازالة موارد الشبهة والالتباس المحتملة نرجع الراغب الىٰ كتاب ٨٢ شوال لسماحة السيد المؤلف (رض) .

« ٢٣ »

﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان* فبأي آلاء ربكما تكذّبان﴾[١] .

الدُرَرُ الكبارُ والصغارُ تنشأُ عن قطر المطر:

لقد قلنا آنفاً ان الله تعالىٰ أجرىٰ بقدرته البحرين ، العذب الفرات والملح الأجاج ثم جمع بينهما وجعل في موضع الجمع برزخاً حال دون أن يبغي احدهما علىٰ الآخر فيعدمه ، وقلنا أن الماء العذب ضروري في رفع حاجة العطش واطفاء شعلة الظمأ ، بينما تكمن ضرورة الماء المالح في مهمة الحيلولة دون تعفن الهواء والمساعدة في الأبقاء علىٰ الحياة بشكلها المألوف . أمّا عن اللؤلؤ والمرجان ، فقد ذكرنا أنهما من اشكال (الدُر) ومنشأهما حبات المطر التي تقتنصها التواقع والاصداف البحريّة ، وما اللؤلؤ الا كبار الدُر الناشيء عن ابتلاع الصدف لكبار حبات المطر ، والمرجان هو صغار الدُر الحاصل عن إبتلاع التواقع لصغار حبات المطر .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (١٩ ـ ٢٣) .

* تجلّي نور الأعمال الصالحة في قبر المؤمن:

ثم استعرضنا عدة وجوه تأويلية للآيات موضوع البحث ، وقلنا ان أحد تلك الوجوه يتمثل في مجري الدنيا والآخرة ، ويحجز بينهما حاجز البرزخ ، وقلنا ان التلاقح الحاصل بين البحرين المذكورين يؤدي الى ظهور نور العقائد ، ونور الأعمال الصالحة الخاصة بالمرء المؤمن ، ومن المناسب هنا أن نستعرض سوية هذه الرواية التي حمل مضمونها مصداق ما ذكرناه آنفاً ، ذكرت الرواية أن المرء المؤمن عندما يرحل الى قبره وقد خلّف وراءه عالم الدنيا ، يأتي إليه الأهل والأصحاب فينزلونه القبر ثم يوارونه الثرىٰ . وعندما يصير الى قبره يبصر خمسة أنوار تملأ عليه القبر ضياءً ، الأول من فوقه والثاني من تحت أرجله والثالث عن يمينه والرابع عن شماله والخامس من أمامه وهو يتلألأ كأنه صادر عن كوكب درّي ، فيتساءل ما هذه الانوار؟! فيأتيه الجواب ، أمّا النور الذي من فوقك فهو نور الصلاة ، واما النور الذي عن يمينك ، والنور الذي عن شمالك فهما نوري الصوم والحج ، واما النور الذي من تحتك فهو نور الزكاة ، واما النور الذي يسطع أمامك فيغلب بشدة تشعشعه بقية الأنوار ، فهو نور ولاية محمد وآل محمد (ع) .

* بحر الخوف وبحر الرجاء في الوجود الانساني:

ومن جملة الوجوه التأويلية لقوله تعالىٰ ﴿**مرج البحرين. . .**﴾ ان الخوف والرجاء هما من مصاديق البحرين المذكورين ، وقد أجراهما الباري (عز وجل) في كيان الانسان ، وهما في واقعهما بحران عظيمان يشتملان علىٰ الحالات المختلفة والمتناقضة في الوجود الانساني والتي تتوزع علىٰ كفتي ميزان ، بحر الخوف المالح الأجاج المعزز بالنار والهول والقبض ، وبحر الرجاء العذب الفرات المعزز بالبرودة والأنس والبسط ، هذان البحران اللذان انفطر عليهما الانسان ، فبالخوف الذي يعتمر القلوب يصبح الكيان الانساني ضعيفاً محترقاً ، وبالرجاء الذي يرد الافئدة تُثلج الصدور ، فيحول بحر الرجاء أن يذيب بحر الخوف تلك القلوب والافئدة ، لذلك كان وجود هاذين البحرين في قلوب

المؤمنين ضرورياً ولازماً ثم جعل المولىٰ عز وجل برزخاً بين البحرين لكي لا يغلب احدهما الآخر فيهوىٰ الانسان إلىٰ مكان سحيق ، لأن غلبة الخوف علىٰ الرجاء تجعل المرء آيساً لا أمل عنده فيخلق لنفسه جهنماً يُسجن فيها ثم لا يعود بمقدوره أن يخرج منها ، وهو ما نعبّر عنه باليأس من رحمة الله تعالىٰ المؤدي الىٰ الكفر ، لأن الانسان والحال هذا سيهجر كل عمل صالح ويتوقف على فعل الخيرات . أمّا لو غلب الرجاء خوف الانسان لتولّد عنده الغرور بحيث نجده لا يبال بمعصية يرتكبها أو ذنب يقترفه لأن الخوف قد رحل من قلبه ، فيترك المرء في هذه الحال عمل المستحبّات ويدع الأنفاق وتقديم الصدقات ثم يؤدي به سوء الحال الىٰ سلوك سبيل خسران الدنيا والآخرة كما يحسرها في حالة غلبة الخوف علىٰ الرجاء تماماً .

* لقاء الخوف مع الرجاء يحصّل الاتيان بالطاعات وهجر المعاصي :

﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ ثم يخرج من بحري الخوف والرجاء لؤلؤ التقوىٰ وهجران المعاصي ومرجان الطاعة والعبادة ، باعتبار أن الخوف يمنع إرتكاب الذنوب حتىٰ وان كان الذنب بمقدار خردلة ، ويطرد الرجاء (المتمثل بالتعلّق بلطف الله تعالىٰ وإحسانه) عن قلب المرء كل أشكال اليأس والقنوط ، وحينها يندفع الانسان مسارعاً الىٰ فعل الخيرات وعمل الطاعات والاكثار من الباقيات الصالحات ، وعليه يصبح حد الاعتدال او ما يعبر عنه بالحد الوسط هو الحد المطلوب بين بحري الخوف والرجاء اللذان لا يبغي احدهما علىٰ الآخر ، فيتوسط المرء خوفه ورجاءه ويصبح تقياً ورعاً مسارعاً في الخيرات .

* دعي عبدنا :

فقد نقل السيد الجزائري (عليه الرحمة) قصة شاب غلبته شقوته فأبتلي بطيش الشباب وارتكاب الآثام والمعاصي وصادف ان وقع يوماً طريح فراش المرض ينازع الموت ، ولما أستيقن ان الموت غالبه توجه الىٰ امه يوصيها قائلاً : اذا رأيتني قد فارقت الحياة ، فشدي الوثاق بقدميّ ثم جري الحبل واسحبيني ونادييني يا عاصي ، يا أسود الوجه ! !

ولما رحل الشاب عن دار الدنيا وتذكرت الأم وصية أبنهـا ، لم يطاوعهـا فؤادها علىٰ تنفيذ ما اراده منها فلذة كبدها ، وبقيت تصارع نفسها بين الأستجابة وبين ترك فعل الوصية ، وأخيراً قررت ان تنفذ وصيته علىٰ كراهية منهـا لذلـك فشدت رجليه بحبل وقامت تريد أن تسحبه واذا بالنداء يأتيها«دعي عبدنا»!!

فطوبىٰ لذلك القلب الذي اعتمر بخوف الله ورجائه ، ولقد نقل صاحب تفسير منهج الصادقين نظير هذه القصة يقول فيها: عندما نزل الموت بساحة أحد الأشخاص وأيقن هذا الرجل من أنه قد بات علىٰ حافة نهاية العمر تأوه وهو يردد قائلاً: (يا من له الدنيا والآخرة ارحم من ليس له الدنيا والآخرة) ، فكان تأوهه ذاك ودعائه الحـزين مقدمـة وباعثـاً لأن يغمره الله (عـز وجل) بـرحمته ويشمله بمغفرته ويتجاوز عن خطاياه .

* نعمتا الخوف والرجاء ، وبابا الرحمة الالهيّة:

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ، فيا معشر الجن والأنس بأي نعمة أنتما لا تمنان؟! أبنعمة الخوف تكفران؟! أم بنعمة الرجاء تجحدان؟! وهاتان النعمتان اللتان اوقرهما الله (عز وجل) في قلوبكما فنلتما بفضلهما وبفضل البرزخ (الذي حال بينهما أن تطغى احداهما علىٰ الأخرىٰ) السعادة والتقوىٰ والاعمال والنوايا الصالحات .

نعم ان التوفيق والعصمة والخوف والرجاء وسائر الوجوه الباطنية في تأويل هذه الآية المباركة ما هي الا نعم ربانية تستلزم أن يقدّم العبد في مقابلها آيات الشكر والحمد لله رب العالمين الذين من بها عليه وعلىٰ سائر الناس المؤمنين ، لا أن يقابلها بالجحود والكفران والانكار ولقد تناولنا من قبل حول تأول هذه الآية الكريمة ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ أحد الوجوه الباطنية وقلنا انها تشير الىٰ الحسين (ع) ، كما أن سورة الحديد قد اشارت الى ذكرهما (ع) في قـوله تعـالىٰ ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ حيث ان المقصـود بكفلي الـرحمـة همـا الحسنـان (ع) ، والحقيقة ان الحسن والحسين (ع) بـابان واسعـان من ابـواب الرحمة الالهية ينبغي أن نقدم لله عز وجل عنهما أسمىٰ آيات الشكر والحمد ،

لا أن نكفر بهما ونجحدهما". ولكن أتدرون ما فعل الأشقياء البائسين عندما أبدلوا الشكر كفراً وحاربوا هاتين النعمتين وقتلوهما ، فقد دسّوا السمّ للحسن المجتبىٰ (ع) وفرثوا كبده ، ثم أيبسوا شفتي الحسين المصفّىٰ (ع) ظلماً ثم نحروه وأحتّزوا رأسه!!!



﴿وله الجوار المنشئات في البحر كـالاعلام*
فبـأي آلاء ربّكما تكذبّان﴾[1] .

* السفن الشامخات كالجبال تمخر عباب البحر :

ومن آياته الباهرات أن تشق السفن عباب البحر وتنساب متحركة فيه .

وكلمة (الجوار) هي في الاصل (الجواري) وقد حذفت اليـاء ثم كسرت الراء ، والراء المكسورة دليل واضح علىٰ حذف يـائها ، و(الجـوار) هي جمع جاري وجارية ، وهو كل شيء يتحرك علىٰ صفحة الماء ، ويـطلق هذا الاسم علىٰ السفن والبواخر ، وهو مرادف لكلمـة السفينة والفُلك بضم الفـاء ، وانما حصل هذا الاختلاف في التسمية لوجود خصـوصيات معينـة في الاسماء لسنـا الآن في صدد بحثها .

أمّا كلمة (المنشئات) فهي تقرأ علىٰ نحوين ، **الأول**: بفتح الهمزة علىٰ أنها اسم مفعول ، وهنا يكون المعنىٰ هـو المرفـوعات ، وهي تختص بـالسفن الشراعية التي ينصب علىٰ متنها لوح أو عمود خشبي يسمىٰ (الصاري) ثم تربط به قطع من الاقمشة والمنسوجات الخاصة وتسمىٰ (الأشرعة) فتقوم هذه الاشرعة

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٤ ـ ٢٥) .

بصد الريح فيفعل ضغط الريح عليها أثره عند فتحها ونشرها فتتحرك السفينة نتيجة لذلك . اما **الثاني**: فتقرأ بكسر الهمزة ، فيصبح معناها المبتدئات أو المعدّات للحركة والسير . و(كالأعلام) تعني كالجبال ، لأن الاعلام هي جمع علم وهو الجبل الشامخ ، وقد شبّه الله حركة السفن علىٰ صفحة الماء في البحار بهيئة الجبال الشامخات ، فكما أن الجبل الراسي علىٰ الارض يبدو للعيان من علىٰ مسافة بضعة فراسخ ، فكذلك حال السفن وهي في لجج البحار عندما تبدو صواريها شامخات وكأنهن جبالاً راسيات علىٰ الأرض ، وهذا التشبيه يسوقنا الىٰ معرفة الاسباب والدواعي لذكره ، واعتبار ان السفن آية من آيات الله تعالىٰ .

* العناصر الأربعة المكوّنة للطبيعة:

كلنا يعرفُ أن أركان عالم الطبيعة هي الاشياء الاربعة التي يصطلح عليها بالعناصر الأربعة ، وكافة التشكيلات والتركيبات الموجودة في هذا العالم انما تتشكل وتتركب من هذه العناصر وهي (الماء ، الهواء ، التراب ، النار) ، ولقد اكتشف العلم الحديث ما يزيد على ثمانين عنصر في تركيب الكائنات والموجودات ، ولكن تبقىٰ العناصر الأساسية في تركيبة سائر العناصر هي العناصر الأربعة التي ذكرناها ، وقد قام العلم الحديث بتحليلها وتجزئتها واستخراج العناصر البسيطة منها . وقد اشارت الآيات الأُول الواردة في هذه السورة الكريمة الىٰ موضوع خلق الانسان من التراب وهو العنصر الأول في عملية الخلق والابداع الالهي لأعجب واشرف الكائنات . ثم اعقبتها الآيات التالية بالإشارة الىٰ موضوع خلق الجن من النار ، ثم تلتها الآيات اللاحقة لتتحدث عن الماء العذب والأجاج واختلاطهما دون أن يفقدا خواصهما الذاتية وخروج اللؤلؤ والمرجان عنهما ، وبقي العنصر الرابع وهو الهواء ، وهو ما لمّحت اليه هذه الآية الكريمة في موضوع سوق السفن الشامخات كالجبال لتشق عباب البحار .

ولعل نعمة الهواء ليست بالخافية علىٰ الانسان من حيث أهميتها

وضرورتها ، فقدرة الانسان والحيوان البري إنما تعتمد بالاساس في مواصلة الحياة علىٰ تنفس الهواء ، وحتىٰ النباتات هي الاخرىٰ في أمسّ الحاجة للهواء . ولكن ما يهمنا ذكره هنا هو ما اوردته الآية المباركة عن دور الرياح في حركة السفن الشراعية وأهميتها . وهذا يتطلب بدوره أن نقدّم للموضوع المقدمة الآتية :

* غرق الأجسام التي تكون كثافتها اكثر من كثافة الماء :

لقد أثبتت التجارب أنّ أي جسم له حجم أخف من حجم الماء لا يغطس في ذلك الماء ، ولو كان الحجم أثقل لغطس . بمعنىٰ آخر أن الاجسام ووفقاً لحجمها (مع أخذ حجم الماء بنظر الاعتبار) لو قلّت عن حجم الماء لأستقرت علىٰوجه الماء ، والعكس من ذلك يؤدي الىٰ غوص الجسم في الماء ، ولو أخذنا علىٰ سبيل المثال الأبرة ووضعناها علىٰ صفحة الماء لغطست بينما نجد أن البواخر العملاقة التي تزن آلاف الأطنان تستوي علىٰ صفحة الماء ولا تغطس فيه ، وتعود العلة في ذلك الىٰ ان حجم الأبرة قياساً بحجم الماء تعد ثقيلة ، لذلك تغوص في الماء ، بينما نجد الباخرة العملاقة تطفو علىٰ سطح الماء لأن سطحها منفرج ويتخلله الهواء إضافة الىٰ سعة حجمها فيقل حينئذ وزن الماء المزاح عنها مما يؤدي ذلك الىٰ خفّة حجم الباخرة قياساً بحجم الماء الطافية علىٰ سطحه ، ولما جعل الله عز وجل الهواء أخف وزناً من الماء في الحجوم المتساوية ، كانت العبرة في مسألة اختلاف الأوزان مرهونة بالحجوم في الأجسام رغم أن مسألة الثقل أو الخفة هي مسائل نسبية تحصل بالقياس الىٰ الأجسام الأخرىٰ كما هو معروف .

ولو لاحظنا الأسماك الكبيرة التي تعيش في مياه المحيطات والبحار ، نجدها تنتقل بسرعات كبيرة من قيعان تلك المياه الىٰ سطوحها بفعل الخاصيّة المودعة فيها والمتمثلة بوجود الاكياس الهوائية في بطنها وقرب الغلاصم ، فهي تجمّع الهواء في هذه الأكياس عندما تروم الصعود الىٰ منطقة السطح فيؤدي

وجـود الهواء الىٰ زيـادة حجومهـا والتخفيف من أوزانها قيـاسـاً بـأوزان الميـاه المزاحة .

ولو أرادت الغوص الىٰ الأعماق لفرغّت تلك الاكياس من الهواء وغاصت **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾** . من ذلك ندرك بوضوح أن حالـة طفو السفن لا تتحقق لولا وجود الهواء . وفضلاً علىٰ ذلك فأن حـركة السفن في شق عبـاب المحيطات والبحار لا تحصل هي الأخرىٰ لولا وجود الهواء والرياح (وقد تمّ في غضـون القرن الحـالي صنع البـواخر والسفن المتحـركة بـوسيلة المحـركـات البخارية أو الكهربائية أو بالوقود النفطي) فيتم توجيه الأشرعة بأتجاه معين يمكّن السفن من الحركة بالأتجاه المطلوب وبسرعات تتناسب وسرعة الرياح .

* اللّجوء الىٰ الله تعالىٰ بطلب النجاة في البحر :

ومما لا شك فيه ان السفن الشراعية محفوفة بالمخاطر الكبيـرة المتعددة الناشئة عن هيجان البحر وأضطراب أمواجه وحصول العواصف البحريـة وشدة تلاطم أمواجه العظيمة ، فهي معرضة الىٰ الغرق علىٰ الدوام ، وعليه كان ركاب السفن يلجأون الىٰ الله عز وجل ويدعونه بكل اخلاص واقبال عليه ان يكتب لهم النجـاة والسلامـة من هياج البحـر ، ولكن يبقىٰ هذا الاقبـال واللجـوء الى الله للأسف مؤقتاً ، فهم ما أن يصلوا جانب البر سالمين حتىٰ ينسـون الله تعالىٰ ، كما يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالىٰ **﴿فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ـ لأنهم أضحوا لقمة سائغة لامواج البحر العنيفة الهيجان ﴿فلمّا نجـاهم الىٰ البرّ اذا هم يشركون﴾**[٢] وحالنا نحن أيضاً ليس بأفضل من حـال اولئك ، فنحن عندما تعتـرينا اوقـات الشدة والضيق نلجـأ حينذاك الىٰ الله تعـالىٰ ، ثم نعاهده علىٰ ان نخلص له الدين وندع ارتكاب الآثـام والذنـوب ، ونفعل كـذا وكذا إن هو أنجانا مما نحن فيه ، ولما تكتب لنا النجاة وينقلنا المولىٰ عز وجل الىٰ بر أمانه ، لا نلبث أن نعود تارة أخرىٰ الىٰ تلويث نفوسنا ، وتحطيم كياناتنا

---

(٢) سورة العنكبوت ، الآية (٦٥) .

فننسىٰ كل عهد بيننا وبينه ، لذلك كان البلاء والمصيبة هدية وتحفة إلهية يقدمها الله تعالىٰ للعبد المؤمن كما تؤكد ذلك هذه الرواية ، يقول الامام موسىٰ بن جعفر الكاظم (ع) (ان الله تعالىٰ يتحف عبده المؤمن بالبلاء كما تتهادون فيما بينكم بالهدايا والتحف) ، بلىٰ لأن البلاء يتصور في صور الشقاء والعناء والمصيبة ، ولكنه في جوهره وحقيقته هو لطف ، لأن البلاء هذا سيكون مدعىً للعبد المؤمن علىٰ حضور المساجد والتضرع الىٰ الله واللجوء اليه ، فيكون حينها لجوء العبد الىٰ ربه وتضرعه وتوسله ثميناً وقيّماً .

« ٢٥ »

﴿وله الجوار المنشئات في البحر كـالأعلام* فبأي آلاء ربّكما تكذّبان﴾[١] .

* ولله مُلك الفُلك:

لقد ذكرنا في شرح هذه الآية الكـريمة ، أن ملك الفلك لله عـز وجل ، فهي تجري في البحر وكأنها الجبال الشم في نشر أشـرعتها ، حتىٰ أن الـرائي ليـراهـا من علىٰ البعـد الشـاسـع . ويعـد الفلك آيـة من آيـات الله (تعـالىٰ) الباهرات ، لأن حكمته البالغة جعلت هذا الجسم الثقيل الهائل يستقر علىٰ وجه الماء دون أن يغطس وينفذ الىٰ أعماق البحر السحيقة ، رغم أن الأبرة الصغيرة لا تلبث ان تغطس بمجرد أن يتم وضعها علىٰ صفحة الماء ، وهذا في حد ذاته سر عجيب من الاسرار الالهية المودعـة في عالم الـطبيعة ليـطلّع الانسان علىٰ عظيم قدرة الله وجليل شأنه وبالغ حكمته .

والنقطة المهمة في هذه الآية التي ينبغي الالتفات اليها هـو وسم الفُلك بـأنها من ملك الله (تعـالى) كمـا يصـرح بـذلـك قـولـه تعـالىٰ ﴿ولـه الجـوار

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٤ ـ ٢٥) .

المنشئات﴾ مع أننا ندرك إن لكل سفينة صاحباً تحمل أسمه او اسم شركته مثلاً .

* من الخطأ أن يرىٰ الانسان نفسه مالكاً للأشياء:

ومن الأخطاء والمغالطات الانسانية هو أن يرىٰ الانسان نفسه مالكاً لبعض الموجودات في العالم ، في حين أنه يدرك بل ويؤمن بأن الأرض وما عليها ، والسماء وما فيها ملك مطلق لله (عز وجل) كما يصرح بذلك قوله عز وجل **﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾**[٢] ، أو ما اشارت اليه هذه الآية **﴿قل اللهم مالك الملك* تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾**[٣] . وهذا يدلل علىٰ جهل الانسان وقلة معرفته بكل وضوح ، فهل نسي الانسان أنه لا يساوي اكثر من حفنة من التراب مما علىٰ هذه الأرض الفسيحة؟ وأنه شيء يقف في عرض سائر الأشياء والموجودات؟ فهو لا يمتاز عن كل الاشياء الاّ بأن الشارع المقدس (جل جلاله) قد استخلف هذا الانسان في أرضه وجعله مالكاً مملكةٍ إعتبارية لأجل أن يقوم بحفظ النظام ورعايته في هذا العالم ، ولذلك عندما نقول أن هذا البيت هو بيت زيدٍ وتلك الارض هي أرض عمر وتلك السفينة هي سفينة زينب وهذه الطائرة هي طائرة الشركة الفلانية ، فأنّما نقول ذلك باعتبار ان الملكية هي ملكية اعتبارية وليست حقيقية ، لذلك كان لزاماً علىٰ الانسان ان يلتفت الىٰ هذه الحقيقة ويؤمن بأن الملك لله (تعالىٰ) جميعاً ، وهذا هو ما صرحت به الآية الكريمة موضع بحثنا من أن ملكية السفن لله (عز وجل) بأعتباره هو المالك الحقيقي لجميع الاشياء والموجودات ، في حين أن المالك الاعتباري للشيء أو الاشياء تنقص عنده الاشياء وتزداد وتفنىٰ أو تحصل (كأن يشتري السفينة التي لم تكن لديه من قبل ، ثم يحصل من ورائها علىٰ أرباح معينة ، أو تصاب بعارض فتترتب عليه بعض الاضرار أو الخسائر مثلاً) ، لكن المالك الحقيقي يبقىٰ هو صاحب كل شيء وان حصل انتقال للاشياء من

---

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٨٢) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٢٦) .

شخص لآخر ، أو ابتلي الشيء بنقص أو زيادة فتأمّل .

* وأجزاء السفينة هي ملك لله أيضاً:

والكل يعرف أن السفينة تتشكل من عدة أجزاء مكونة لهيكلها العام وتركيباتها الجزئية الأخرىٰ ، فهيكل السفينة يتركب من الواح السطح وعمود الصاري الخشبية ، والماسكات الحديدية ، وعادة ما يكون سطح السفينة من مادة الخشب الذي يتم استخراجه من الأشجار الكبيرة ، وهنا نتساءل من اين جاءت تلك الأشجار؟ لقد جاءت تلك الأشجار من ابداع ذلك الاله الذي وهب الطبيعة الحب والنوى وعلم الانسان فنون الزرع والغرس ، ثم شمل هذه النباتات بعين رعايته حتى صارت أشجاراً ، ثم علّم الانسان اساليب الاستفادة منها في تنظيم شؤون حياته اليومية بما يعود عليه بالنفع والخير . اذاً هل يبقىٰ من شكٍ أن خشب هياكل السفن هو من عند الله وحده؟! وحتى قطع الحديد والمسامير المعدنية التي يتم بواسطتها احكام تماسك بدن السفينة وهيكلها هو من عند الله تعالىٰ وحده ، فهذا الحديد الذي اودعه الباري في قلوب الجبال طيلة هذه السنين المتقادمة من عمر الحياة في هذا العالم قد عرف الانسان عليه وجعله مدداً له في نيل المنافع (ولا شك ان اكتشاف المعادن والثروات قد حصل بفعل التأثيرات والحوادث الطبيعية من حيث كونها عوامل مطر أو سيول أو تعريّة التربة أو تأثير أشعة الشمس وغيرها وفي ظل ظروف مناسبة قد بدت للانسان وتعرف عليها واستغلّها لتأمين منافعه) ، وعليه فان الخشب والحديد وسائر المكونّات الأخرىٰ في تركيبة السفن هي من عند الله وحده .

* تعلّم الأنسان صناعة السفن:

ولربمّا قيل: صحيح ان العلة المادية للسفن (أخشاب ، حديد ، مكونات أخر) هي من عند لله ، ولكن يبقىٰ الدور المهم في ابداع صنع السفينة هو للأنسان لأنه هو الذي قطع الأخشاب والحديد وفق حجوم وقياسات محددة ، ثم صمم هيكل السفينة طبقاً لحسابات وابعاد دقيقة ، وهو الذي صنع المحركات

التوربينية والكهربائية والبخارية للسفن وفق المواصفات التي أجرىٰ عليها الاختبارات ونجح في صناعات السفن ، إذاً يبقىٰ الدور المهم في مالكية السفن وصناعتها هو للانسان .

وللجواب علىٰ ذلك نقول ، ان هذه اليد التي تمسك المطرقة وتطرق المسامير الحديدية ، وتقوم بنشر الخشب بالمنشار ، والقدم التي تقطع المسافة علىٰ ظهر السفينة جيئة ورواحاً إنما هما من بديع صنع الله (عز وجل) ، وحتىٰ هذا العقل الانساني المبدع (عند المؤمن والكافر) من حيث قدراته واستعداداته ودرجات الذكاء وفهمه لادراك خصائص الأشياء وطرق واساليب الاستفادة منها انما هو من عند الله (عز وجل) وحده لا شريك له ، ونحن نرىٰ البعض الذين قد سلب الله منهم احد تلك النعم (اليد ، الرجل ، العقل) لنعلّم أن صاحبها ليس لها بمالك وانما مالكها وصاحبها الحقيقي هو الله عز وجل الذي وهبها بلطفه ورحمته للانسان و(لا حول ولا قوة الّا بالله العلي العظيم) .

وقد يحصل أن يكتشف أو يخترع الأنسان بعض الاشياء المشتملة علىٰ خواص بعض الأجسام كالكهرباء ، فهذا الاكتشاف في واقعه لم يتأتىٰ للانسان الّا بالهام الهي ، فكم من علماء وباحثين أمضوا سنين متمادية قد بذلوا قصارىٰ الجهود في محاولات اكتشاف واختراع آلات واجهزة ، أو تحسين وتطوير ما هو موجود منها فعلاً ولكنهم لم يوفقوا الىٰ اكتشاف الكهرباء أو الطاقة الذرية ، ولكن العالم الفلاني فوجىء باكتشاف موضوع معين لم يكن يطلبه بالذات في بحوثه وتجاربه ولكنه حصل عليه بطريق الصدفة عرضاً ، ونظير مثل هذه الحوادث كثيرة . ولنعد الآن الى موضوع السفينة ولنر ماهية تلك القوة أو القدرة التي تدفعها فتجعلها متحركة علىٰ سطح الماء؟ إنه الكهرباء أو البخار أو الفحم الحجري أو غير ذلك من الوان الطاقة التي كونّها وذخرها واظهرها الله عز وجل .

فلو تصورنا ان ذاكرة الانسان سلبت منه ، فهل يا ترىٰ سيستطيع بعد ذلك أن يفعل شيئاً؟ بالتأكيد كلّا ، وعليه يجب علىٰ الانسان أن يغنم الفرصة ويسارع

الىٰ تقديم الشكر والثناء والحمد لله تعالىٰ لأنه أهل ذلك ، ولأنه مصدر الخيرات جميعاً ومرجع جميع آلاء الاحسان وميسر جميع سبل اداء الصالحات والخيرات ، وعندما نقول باختصاص الشكر والثناء بالله وحده لا يعني ان نجحد دور الآخرين الذين جعلهم الله سبباً ووسيلة في نقل فيوضات الرحمة الالهية الينا ، بل ما نقوله هو انهم ليسوا مبدأ أو مصدر الخيرات والبركات والافضال ، فالطبيب المعالج لمرضاه عندما يكتب وصفة الدواء لمريضه بقصد علاجه فيتماثل المريض للشفاء لا ينبغي حينئذ ان يقول هذا المريض ان الطبيب الفلاني هو الذي انقذني واحياني!! لأننا علىٰ يقين من ان ذات هذا الطبيب قد بعث بالكثيرين الىٰ المقابر!!!

* لا تعارض بين المالكية الحقيقية والمالكية الشرعية للأشياء:

وهنا يتضح لنا ان المالك الحقيقي للسفن هو الله (عز وجل) بجميع اجزائها ومكوناتها العامة والتفصيلية وبدنها وصانعها الانسان ، فكل تلك الاشياء (وبضمنها الانسان) هي من عند الله (تعالىٰ) واليه يعودون ، بل ان ما في الارض وما عليها وما فوقها وما تحتها هي ملك لله وحده ، وهي ما يصطلح عليها بالمالكية الحقيقة .

والمالكية الالهية الحقيقية لا تتعارض مع المالكية الاعتبارية أو التوكيلية أو الشرعية للافراد ، فعنوان المالكية المكتسب لدىٰ الانسان إنما حصل من خلال السبب الشرعي من قبيل البيع والشراء والميراث والهبة وغير ذلك من الأسباب التي يقوم علىٰ أساسها النظام الاجتماعي للحياة اذ لولاها لما تيسر للانسان من نقل الاشياء وتنظيم وتسيير شؤون حياته اليومية ، فقد تنسب مالكية شيء ما اليوم الى شخص معين ، وفي الغد تنسب الىٰ شخص آخر لأنه اشتراه مثلاً أو حصل عليه بموجب الارث ، وتبقىٰ عملية الانتقال الى الشخص الجديد قادرة علىٰ حفظ حدود مالكيته للشيء باعتبارها شرعية محترمة ولا يجوز الاعتداء عليها بأي حال من الأحوال .

* ولله سفينة اهل البيت (ع) .

وفي المعنىٰ الباطن لقوله تعالى ﴿وله الجوار المنشئات في البحر كالاعلام﴾ يقال ان المقصود بذلك هن الجواري علىٰ ظلمات بحر الهوىٰ ، فسفينة النجاة النبوية هي التي تمخر عباب البحر الدنيوي المحفوف بالمخاطر المهلكة المتصلة بحب الدنيا وحب النفس والهوىٰ ، فمن ركب هذه السفينة يكون قد ضمن لنفسه الوصول الىٰ شاطيء النجاة حيث الجنان والرضوان ، ومن تخلّف عنها وعزف عن الركوب فيها فقد كتب علىٰ نفسه الغرق والهلكة في بحار الظلمات كما يتأكد هذا المعنىٰ في نص الحديث الشريف الآتي «مثل اهل بيتي كسفينة نوح ، من ركبها نجىٰ ، ومن تخلّف عنها غرق وهوىٰ» . وتعود ملكية هذه السفينة الىٰ الله عز وجل أيضاً ، فما محمد (ص) الّا كائن مقرب عند الله سبحانه وتعالىٰ ، وما علي والحسن والحسين (ع) الّا عباد لله قد جعلهم المولىٰ (تعالىٰ) وسائط ربانية ونعماً إلهية حقيقية تضمن النجاة للعالمين ، ومثلهم كمثل المصباح المادي في عالم المادة الدنيوي الحسي يهبنا الضياء والدفء والفوائد الجمة الاخرىٰ ، فهم مصباح عالم الروح والمعنىٰ ، ونورهم يهدي الناس الىٰ سبل الرشاد والفوز المعنوي ، وعلىٰ ذلك يكون سؤال الله التقريري الالهي ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ مدعىً لعدم صدور الجحود والتكذيب بنعمة سفينة النجاة النبوية هذه . ولنا في بركة هذا الحديث الشريف حسن ختام لمقالنا هذا : ـ

* شمس النبوة وقمر الولاية:

جاء في كتاب منهج الصادقين هذا الحديث الشريف المروي عن طرق العامة ، فقد روي عن سليمان بن الاعمش بواسطتين عن النبي الاكرم (ص) أنه قال (اذا فقدتم الشمس فعليكم بالقمر ، واذا فقدتم القمر فعليكم بالزهرة ، واذا فقدتم الزهرة فعليكم بالفرقدين) ونحن نعرف أن نور القمر ما هو الا انعكاس لضوء الشمس ، اما الزهرة فهي أحدىٰ الكواكب المنيرة التي لا نظير لها في شدة نورها بين سائر الكواكب السماوية ، أما الفرقدان فهما النجمان القطبيان

المتقابلان ، احدهما في قطب الشمال والثـاني في قطب الجنـوب ، وهما في شدة نورهما وتلألأهما يأتيان من بعد الزهرة .

فتساءل اصحاب النبي (ص) قائلين : وأي شيء هن يا رسول الله؟ عندئذ أجابهم النبي (ص) : انا الشمس ، وعلي القمر ، فأن تـوفاني الله اليـه فعليكم بلزوم علي (ع) ، وبعد علي (ع) عليكم بالزهراء وهي الزهرة ، ثم تمسكوا من بعد بالحسن والحسين (ع) فهما الفرقدان «عليهم جميعاً سلام الله تعالىٰ» .



﴿كـل من عليها فـان* ويبقىٰ وجه ربـك ذو الجلال والاكرام* فبأي آلاء ربكما تكذبّان﴾(١) .

* مآل جميع الكائنات الىٰ الفناء:

﴿كل من عليها فانٍ﴾ وتعني أن مصير كل إنسان علىٰ وجه البسيطة يؤول الىٰ الفناء ، **﴿ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والاكرام﴾** فبأي آلاء ربكما يا معشر الجن والانس تكذبّان؟

قلنا ان بداية السورة تناولت اسم الارض بالذكر في قوله تعالىٰ **﴿والأرض وضعها للأنام﴾** وعليه يتضح معنىٰ كلمة (عليها) الواردة في هذه الآية من أنهـا الأرض من خلال قرينتين هما: ـ

قرينة الحال ، وقرينة المقال ، وبذلك يكـون معنىٰ الآية (كـل من علىٰ الأرض فانٍ) ، و(من) هو اسم موصول بمعنىٰ الذي ويستخدم عـادة للعاقـل . وقد يستعمل احياناً لغير العاقل ولٰكن بصورة محدودة للغاية ، و(من) الواردة هنا تخص الانسان والجن باعتبارهما من العقلاء ، أي أن جميع الناس والجن ممن

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

يعيش على هذا الكوكب وفي هذا العالم محكومون بالفناء ولا يبقى سوى الله وحدهُ (جل جلاله) ، ولو أقبلنا أن (من) استخدمت هنا باعتبارها اسم موصول مطلق للعقلاء وغيرهم فيكون معنى الآية في هذه الحالة هو (ان كل ما على الأرض من ذي روح وغيره ، بشر أو جن أو حيوانات أو نباتات فمصيره الفناء ، بل وان الفناء يلحق ايضاً كل ذي عمر ومدّة ، فالأرض أيضاً لها أجل لا تعدوه وهي ستؤول في آخر حالها الى الفناء[٢]وهذه الحقيقة تدلل عليها كثير من الآيات ، كما في قوله تعالى ﴿**كل شيء هالك الاّ وجهه**﴾[٣] وفي هذه الآية إشارة واضحة الى فناء جميع الأشياء من سماوات وأرضين وعلويّات وسفليّات وكل موجود بالجواز ، لأن ما كان له بداية لا بدّ وان تكون له نهاية ، والنهاية هي الفناء ثم حلول عالم الآخرة وقيام الساعة عندما يحيى الله فيها أرباب النهى والعقول ثانية .

* كل نفس ذائقة الموت ، حتى ملك الموت:

جاء في كتاب البحار للعلامة المجلسي أن أحدهم قال: جئت الامام الصادق (ع) معزيّاً بوفاة ولده إسماعيل ، ولمّا جلست بادرني الامام (ع) قائلاً: (كل نفس ذائقة الموت إن في الأرض أو في السماء) .

وقد خاطب الامام الحسين (ع) في ليلة عاشوراء أخته العقيلة زينب (س) بمقالة لا تختلف كثيراً عما نقله الراوي من مقالة الامام الصادق (ع) إذ قال (ع): (إن اهل الارض يموتون ، واهل السماء لا يبقون) . نعم عندما يموت الجميع يأتي النداء الى ملك الموت ، من بقي؟ فيجيب قائلاً: إنهم حملة العرش واسرافيل وميكائيل وجبرائيل يا رب ، فيأتيه النداء: فليذوقوا الموت ، وبعد ان يأتيهم الموت ، يأتي النداء مرة أخرى: من بقي؟ فيجيب عزرائيل: بقيت أنا ، فيأتيه النداء: مت أنت ايضاً ، فيموت ملك الموت من

---

(٢) ﴿**كلّا إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً**﴾ سورة الفجر ، الآية (٢١) .
(٣) سورة القصص ، الآية (٨٨) .

ساعته ، حينئذ يقول الواحد الأحد الصّمد : أين اولئك الذين قالوا بزعمهم أن لهم الملك والسلطان؟ ﴿لمن الملك اليوم﴾[٤] فلا من مجيب غير الله «جل جلاله» ﴿لله الواحد القهّار﴾[٥] .

فطوبىٰ لمن آمن واستيقن أن الله «سبحانه وتعالىٰ» هو المالك الحقيقي المطلق لكل شيء ، وهو السلطان العزيز المقتدر وحده لا شريك له ولا عديل .

وعليه يصبح لكل ذي لب وحصيف ان مصير كل شيء هو الزوال والاضمحلال وأنّ الباقي بعد فناء كل شيء هو الله وحده ذو الجلال والاكرام هو من أوضح الواضحات وأتم البديهيّات والمسلّمات ،

لا يبقىٰ من العالمين الا الله وحده   وما خلاه «كل من عليها فان»

* الأدلة النقليّة والعقليّة علىٰ فناء الموجودات :

وأقام الحكماء الالهيون براهين عقلية متعددة تدلّل علىٰ حقيقة فناء الموجودات ، فقالوا إنّ كل مركّب لا بدّ له في النهاية من أن يصير الىٰ التحلّل ، وما اجتمع اليوم من أجزاء لا بدّ وأن يأتيها يوم تتفرق فيه وتتناثر ، وأحد تلك الاشياء المركبّة أبداننا .

إذا ما المرء قد صار شبيه الكأس تسبيكاً   لفتّته حصاة الموت كالرمل كما كانـ

وسيأتي اليوم الذي تنهار فيه الأبنية المحكمة والبنايات العالية ولو انها شيّدت من قطع الجبال الصلدة ومن الصخور الصمّاء ، ولقد أبصرتم كيف آل عرش جمشيد الملك واشباه هذا العرش الىٰ الخراب والدمار ، والله وحده هو العالم كيف كانت هيئة عرش جمشيد عندما كان في اول أيام انشائه ، وها هو اليوم وبعد بضعة الوف من السنين تشاهدونه علىٰ هيئة الأطلال والخرائب ، وحتىٰ الجبال فهي قد دخلت الآن في مرحلة الشيخوخة ، وهي تتحرك اليوم نحو

(٤ ـ ٥) سورة غافر ، الآية (١٦) .

مرحلة الزوال والفناء ، ولقد تحدث علم الفلك الحديث عن انتقال الاجرام السماوية الىٰ مرحلة البرودة والتوقف عن الحركة ، وهذا يعني ان مسيرة العالم الذي انشأه الله (عز وجل) تسير نحو حقيقة الزوال والفناء والتحلل بعد أن جمعه الله في هيئات مركبة ومتآلفة .

* إنعدام التركيبات المادية في الجنة:

ولو قدّر الله عز وجل لأحدنا أن يدخل الجنة ، فهو حينذاك سيخلد فيها لأنها دار البقاء ، ومن اسماء الجنة الأخرىٰ (دار السلام) لأن حقيقة ما فيها هو السلامة المطلقة التي لا تشوبها شائبة السوء أو الفناء والزوال ، لأنها دار البقاء لا دار الفناء وسبب غير مجهول ، لأن التركيبات الماديّة في عالم الطبيعة لا تجد لها سبيلاً الىٰ الجنة فتكون فيها .

وقد جاء في كتاب (شرح الاسماء) حديث شريف يناسب مقالنا هذا يقول (عندما يرد المؤمن الجنة تأتيه رسالة مكتوب فيها ـ من الحي الذي لا يموت ، الىٰ الحي الذي لا يموت ، فاني كنت اذا قلت للشيء كن فيكون ، فقد جعلتك اليوم كذلك ـ) . وهذا ما يؤكده القرآن المجيد في قوله تعالىٰ ﴿**وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾[٦]لأن حقيقة هي أنها تؤول الىٰ الموت والزوال والفناء كما تحدثنا هذه الرواية الواردة عن الأئمة (ع) : (إن لله ملكاً ينادي في كل يوم ، لِدوا للموت ، وأبنوا للخراب) فالدنيا ملؤها الانفصال والفراق والتباعد ولذلك لم تكن مؤهلة لتعلّق القلوب بها ، ومثلها كمثل فقاعات الماء التي تظهر وتطفو علىٰ سطحه فهي لا قيمة ولا اهمية لها ، ويبقىٰ الوجود الحقيقي ممثلاً بالآخرة وعالم المعاني .

* إنّما جئنا الىٰ الدنيا لكي نعمّر الآخرة:

فالدنيا هي مزرعة الآخرة ومقدّمتها ، وقد حللنا فيها ضيوفاً لكي نعد العدد ونهيأ أسباب السفر والرحيل والاقامة في عالم الآخرة لأنها دار البقاء والحياة

---

(٦) سورة العنكبوت ، الآية (٦٤) .

الأبدية ، وعليه يجدر بنا ان لا نضيعٍ الغايات والأهداف فنسعىٰ الىٰ تعمير دنيانا الفانية ونخرب آخرتنا الباقية .

هـذه الـدنـيـا شبيـهُ الـميـتـة قـد أحـاطتهـا النسـور ألف الفِ
تـارة تـنـهُش مـن مـخـلب ذا وذا يـبقـرهـا بـمـنـقـارٍ كـسيـفِ

ولكن لو جعل المرء عُشر همته التي يهتم بها لدنياه مختصةً بالآخرة لأفلح وأنجح .

* لم تخدعك الدنيا ، ولكنك ولعت بها:

ومن درر كـلام وأقـوال سيـدنـا الامـام أميـر المؤمنين علي (ع) التي نستحضرها هي قوله (ما خدعتك الدنيا ولكنك مغرم بها) ثم يعقب الامام (ع) بقوله (فهل خدعك قبر أبيك مع ما فيه من العبرة والموعظة)؟! .

ونحن نقول ان لم ترد لنفسك العظة والعبرة فهذا شأنك ، ولكن هل ترىٰ ان أطلال الدنيا وخرائبها هي التي خدعتك؟ أم أن المنازل المعطلة التي فارقها اصحابها ورحلوا عنها هي التي غررت بك؟ أم أن الجنائز التي تمرّ بك كل يوم وترفع لك اعلانات الموت القادم ، ولوحات الدعوة الى الحضور والمشاركة في مراسم قراءة الفـاتحة علىٰ ارواح الامـوات هي التي مكرت بـك؟ أم انك انت الذي خدعت نفسك وغررت بهـا وانت تمر علىٰ جميـع تلك المظاهـر الملئىٰ بالعبر والمواعظ والانذار والاخطار ولكنك لا تعرها شيئاً من اهتمامك؟!

لـقـد أسمعت لـو نـاديـت حيّـاً ولـكـن لا حـيـاة لـمـن تـنـادي

لقد مررت قبل حين بامرأة مسنّة قد أحنىٰ الدهر ظهرها واضحىٰ وقوفهـا يقارن الركوع ، فسألتني قائلة: ادع الله تعالىٰ أن يعجل بموتي!! فتسائلت قائلاً مع نفسي (هل أن هذه الخاطرة قد خطرت في بال هذه الامرأة حينما كانت شابة وتمنّت مثل هذه الأمنية؟!) بلىٰ ، لقد سـاقها الـدهر الىٰ حـال فقدت فيـه من عوّلت عليه أن يأخذ بيدها ويقودها ان صار بها الحال الىٰ ما آلت اليه . فيا ايها

الناس خذوا حذركم واعلموا أن الشباب لا يبقىٰ وأنّ كل شيء قد عدا مسرعاً نحو الزوال والفناء .

* شؤون الدنيا لا تثبت علىٰ حال واحد:

ان دار الدنيا بحق ، دار شقاء ولكنها أيضاً دار عبرة ، فهي دار تتغير وتتبدّل ولا تثبت علىٰ حال واحد ، فالرجل الذي كان بالأمس موضع غبطة واشارات الآخرين ، قد تحول اليوم الىٰ معدم وقد خسر كل شيء وتدهورت احواله وفقد منصبه وسقط عن رأسه تاج الملك!![7]

وينقل الشيخ عباس القمي (رحمه الله) في كتابه الكنىٰ والالقاب ، أن صلاة الجمعة كانت تقام في كل يوم جمعة في مسجد بغداد الجامع ، (يقول الراوي) ، فشاهدت في أحد الجمع رجلاً ضريراً يمسك بأحدىٰ يديه عصاً ويسأل الناس عطاءهم وهو يقول (ارحموا من كان بالأمس حاكماً عليكم) فسألت من ذا؟ فقالوا لي انه الخليفة العباسي الذي هجم الترك علىٰ ملكه وامسكوا به ثم فقؤوا عينيه وسلبوه ملكه وجردوه من كل شيء!!

(٧) هذه القضايا التي يذكرها السيد المؤلف (رحمه الله) كان قد تحدث بها قبل اكثر من ثلاثين عاماً ، وبعد مرور كل هذه السنين شهدنا سوية انهيار نظام الشاه (محمد رضا بهلوي) الدموي الذي استخدم اكثر الاساليب دموية ووحشية من اجل سلب ثروات الامة ثم آل به الحال الىٰ حال لم ينفعه فيه ماله او سلطانه ﴿**ما اغنىٰ عنه ماله وما كسب**﴾ .



﴿كـل من عليها فـانٍ* ويبقى وجه ربّـك ذو الجلال والاكرام* فبأيّ آلاء ربّكما تكذبّان﴾[1]

* الفناء الذاتي والفناء الوصفي:

﴿كل من عليها فان* ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والاكـرام* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قلنا أن ما علىٰ الارض من موجودات سيكون مصيرها الفناء ، ولكن ينبغي أن نتعرف علىٰ المقصود من كلمة الفناء ، هل هو الفناء الوصفي ، أم هو الفناء الذاتي؟ وبعبارة أخرىٰ هل هو تشتت اجزاء الشيء وتناثرها؟ أم هو انعدام العالم بأسره في هذه الدنيا ثم عودته ثانية في يوم القيامة؟

والموضوع الآخر الذي يهمنّا بحثه أيضاً هو ، هل أن مسألة الفناء تختص بعالم المادة والجسم (كـالارض والافلاك)؟ أم انهـا تشمل الأرواح والمـلائكة أيضاً؟

وسنحاول هنا أن نتناول بالشرح هذين الموضوعين وبشيء من الاختصار المفيد: ـ

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

* تشتت الأجزاء وانعدام الصورة والهيئة:

بخصوص موضوع نوع الفناء من حيث الكلية أو الصورية (التي لا تحيق الفناء بأساس الأشياء والاجزاء) لو اعتمدنا العقل وحده لما تيسّر لنا الخروج بقناعات ثابتة باعتبار محدودية عقل الانسان إزاء هذا الموضوع الكلّي ، ويبقىٰ الحل الوحيد هو فيما نقله الوحي الالهي في القرآن المجيد إذ عبّر عنه القرآن بتعابير الهلاك والفناء والصعقة ، وهو ما يحقق القدر المسلّم به من تفرق وتشتت الأجزاء ، وانعدام الصور والهيئات المركبة وهو ما يصطلح عليه بالفناء .

وفي موضع آخر من القرآن يصف المولىٰ تعالىٰ جميع الأجسام بأنها معرضة للهلاك ، وفي موضع آخر من القرآن يعبّر الله (عز وجل) عن هذه الحقيقة بنفخة الصور التي تهلك من في الأرض ومن في السماء جميعاً مع وجود استثناء محدد كما في قوله تعالىٰ ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض**﴾(٢) ، أو أن يصف الأرض بأستحالتها الىٰ قطع صغار متناثرة كما في قوله ﴿**كلّا اذا دكّت الارض دكاً دكاً**﴾(٣) ، أو أن يعبر عن الفناء بقوله تعالىٰ ﴿**ويسئلونك عن الجبال* فقل ينسفها ربي نسفاً* فيذرها قاعاً صفصفاً* لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً**﴾(٤) ، اذاً من ذا الذي زلزل الأرض وما عليها وتركها دون الرواسي الشامخات صعيداً جرزاً ملساء لا طيّة فيها ولا ربوة فلم تعد كما كانت في أمسها؟

* طي السماوات ، كطي السجّل للكتب:

وعن السماوات يتحدث القرآن الكَريم فيقول ﴿**اذا السماء انشقّت**﴾(٥)وقوله تعالىٰ ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب* كما بدأنا**

(٢) سورة الزمر ، الآية (٦٨) .

(٣) سورة الفجر ، الآية (٢١) .

(٤) سورة طه ، الآية (١٠٥ ـ ١٠٧) .

(٥) سورة الأنشقاق ، الآية (١) .

اول خلق نعيده﴾[٦]ولعل المقصود من قوله تعالىٰ (كما بدأنا اول خلق نعيده) هو ان نعيدها الىٰ هيئتها الاولىٰ عندما لم تكن شيئاً موجوداً ، ثم خلق الله تعالىٰ مادتها الأولىٰ ، ومن ذلك نستنتج أن السماء تعدم تماماً كما كانت قبل يومها الأول: وهذا هو الاحتمال الأول . اما الاحتمال الثاني ان تعدم فتصبح كما كانت في يومها الأول ، وهذا يعني ان اجزاءها الاولية تبقىٰ موجودة ، وان الذي يفنىٰ هو صورتها وهيئتها دون المادة الاساسية . والاحتمالان المذكوران آنفاً واردان ولا يمكن الحكم والقطع بأحدهما دون الآخر ، ولكن المسلّم به ان هيئة السماء الحالية وتركيباتها الجزئية هي التي تفنىٰ وهذا مما لا شك فيه قطعاً ويذهب العلامة المجلسي وكثير من المحدثين الىٰ عدم القطع في هذا الموضوع والتوقف عند الاحتمالين بخصوص الفناء الذاتي أو الفناء الوصفي للسماوات والأرض وسائر الموجودات الأخرىٰ ، أي أنهم يتوقفون في القطع عند الاجابة علىٰ تساؤل هل أنها ستعدم تماماً ثم يعاد خلقها من جديد• أم أنها تفنىٰ من حيث الصورة والهيئة ثم يصار الىٰ جمعها من جديد؟ ومهما يكن الاحتمال فنحن لا نجد نصاً يقطع الأمر في هذا الشأن بحيث لا يبقىٰ هنالك أي مجال للترجيح ، والسبب يعود الىٰ أن ذات الآيات الكريمة التي استعرضناها سوية تحتمل هي الأخرىٰ هذين الوجهين من الاحتمال ويبقىٰ لزاماً علينا ان نعتقد بفناء الدنيا وما فيها ، وهذا المقدار من الاعتقاد فيه كفاية الغاية .

* وهل تفنىٰ الأرواح والملائكة هي الأخرىٰ؟

وعن موضوع فناء الأرواح والملائكة ، هل أنها مشمولة بالفناء أم لا؟ يفترض القول ان ما يتعلق بالأرواح بالخصوص لا نجد له دليلاً قاطعاً يؤكّد فنائها ، ولكن الظاهر يبدو أنها تبقىٰ ولا تفنىٰ ، ثم تتعلق في يوم القيامة بالأبدان ، وهذا يخالف ما يذهب اليه البعض من فنائها ثم اعادة خلقها من جديد بنفخها في الأبدان .

---

(٦) سورة الأنبياء ، الآية (١٠٤) .

اما عن الملائكة فهناك بعض الروايات والآيات التي يستفاد منها في شمول الملائكة بالفناء هي الأخرىٰ ، كما في قوله تعالى ﴿**فصعق من في السماوات**﴾ ، ولكن تلك الآيات والروايات لا تستوجب القطع المؤكد في فناء الملائكة بنحو يشتمل علىٰ اليقين من أن الملائكة يموتون ، نعم هذا ممكن من حيث الاحتمال ، كما أن هذا الاحتمال وارد بشأن الأرواح . ولكن يجب في هذا الحال استثناء ارواح المعصومين الاربعة عشر (ع) ، لأنهم وجه الله عز وجل بدون شك أو ريب ، وهذا ما تؤكده هذه الآية (موضوع البحث) ، وقد أشار الىٰ ذلك المولىٰ عز وجل في موضع آخر من القرآن كما في قوله تعالىٰ ﴿**كل شيء هالك الّا وجهه**﴾[٧] .

* المعاني المتعددة للوجه :

﴿**ويبقىٰ وجه ربّك**﴾ ، من معاني الوجه :

١ ـ ذات الشيء وعينه ، وهو معنىً يحتمل أبعاد الكناية ، لأن المعنىٰ الأصلي للوجه هو مقدم الرأس المحدود ما بين الاذنين عرضاً ، وما بين قصاص الشعر وطرف الذقن طولاً ، ولما كان وجه الانسان مثلاً في الرأس موقعاً صح إطلاق كلمة الوجه علىٰ جميع الذات .

اذاً من خلال المعنىٰ الاول لكلمة وجه يكون معنىٰ الآية هو ـ وتبقىٰ ذات ربّك ذو الجلال والاكرام ـ وان ما سواه تعالىٰ فمصيره الموت والفناء .

٢ ـ المعنىٰ الوصفي ، وهو ما يتوجّه إليه . اي ان كل واسطة تلفت النظر الىٰ أصل الشيء تسمىٰ وجهاً ، والامثلة علىٰ ذلك تستدعي الوهم والضلال ، ولكننا نضطر الىٰ سوق الأمثلة للوصول الى الوضوح في هذا الأمر .

فلو رام أحدنا أن ينظر الىٰ قرص الشمس في يوم تكون فيه السماء صافية لما استطاع ان ينظر اليها مباشرة لأنه لا يتمالك ان يغمض عينيه لشدة توهّجها ،

---

(٧) سورة القصص ، الآية (٨٨) .

ولكن لو نظر الىٰ صفحة الماء الساكن لتمكن من مشاهدة صور قرص الشمس دون ان يضطر الىٰ اغماض عينيه ، وهذا ما نسمّيه بالنظر الى الشيء من خلال الواسطة ، فقد أصبحت صفحة الماء وجهاً لقرص الشمس . وعليه يكون معنىٰ الوجه هو ما يتوجه الى الشيء من خلاله فيتم التعرّف عليه ، (مع الالتفات الىٰ ان حصول دعاوىٰ الحلول والاتحاد الباطلة مفسدة وتؤدي بالانسان الىٰ الكفر) .

ولأجل تقريب فهم هذا الموضوع الى الاذهان نقول (مع اعترافنا من أن هذا الموضوع سامٍ ولا ترقىٰ اليه الأمثلة):

* رؤية الله «سبحانه وتعالىٰ» في مرآة أهل البيت (ع):

ان العقول تبقىٰ عاجزة ودون القدرة والاستطاعة علىٰ فهم وادراك حقيقة عظمة الله (تعالىٰ) وأسمائه وصفاته ، ولكننا نجد أنفسنا مضطرين لأجل استحصال الايمان واليقين بالله (جل جلاله) ان نتمسك بالانوار القدسية للمعصومين الأربعة عشر (ع) كما تشير الىٰ هذه الحقيقة الناصعة ، عبارة وردت في الزيارة الجامعة تقول (من أراد الله بدأبكم) ، وما اكدّوه اهل البيت (ع) في قولهم (بنا عُرف الله ، وبنا عُبد الله) ، والنص الوارد أيضاً في دعاء الندبة الذي يشير الىٰ هذه الحقيقة كذلك (اين وجه الله الذي يتوجّه إليه الأولياء) .

وقد ورد عن الامام علي بن الحسين السجاد (ع) في تفسير قوله تعالىٰ ﴿**ويبقىٰ وجه ربّك**﴾ ، أنه قال: نحن الوجه الذي يؤتىٰ الله منه)[8] .

اذاً مما لا شك فيه أن أهل بيت العصمة والطهارة لهم وجهة إلهية ، لان من أراد ان يوّحد الله ويؤمن به وجبت عليه معرفتهم ، ولأن من أحبهم أحبّه الله ، ولأنهم أبواب الله الذين اكدّت علىٰ حقيقتهم آية «وأتوا البيوت من أبوابها) . واشارت الىٰ ذلك العبارة الواردة في دعاء ندبة والتي تقول (اين باب الله الذي منه يؤتىٰ) ، وقد أفرد صاحب كتاب بحار الأنوار باباً لموضوع وجه الله إشتمل علىٰ روايات عديدة بهذا الصدد .

---

(٨) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٢) بتصرف .

* بقاء الله وأهل البيت وخواص الشيعة:

واستناداً الى المعنىٰ الثاني لكلمة (وجه) وهو ما يتوجه اليه ، فانه مما لا شك فيه أن المقصود بوجه الله هم محمد وآله (ص) ، وعلىٰ هذا الاساس يكون معنىٰ الآية الكريمة (كل ما علىٰ الارض فانٍ * ويبقىٰ محمد وآله (ع)) .

والنقطة المهمة والجديرة بالذكر هنا ، هو أن خواص الشيعة الذي قد نهجوا منهج أهل البيت بحذافيره ، كما يتأكد ذلك في نص الرواية الآتية (شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا ، وعجنوا بماء ولايتنا) ، لهم ايضاً هم الآخرون وجهة إلهية ، فهم باقون عندما يحل الفناء ، وتوجد شواهد كثيرة تدلل علىٰ حقيقة هذا الأمر ، مع الأخذ بنظر الاعتبار ان عدد اولئك قليل جداً جداً ، فهم قد يعدون على الاصابع لقلتهم ، ولذلك نرىٰ تحرق المسلمين شوقاً وبكاءاً على أن يجعلهم الله من خواص الشيعة الموالية لعلي (ع) ، بل وكان بعض علماء وفضلاء الشيعة لا يرون في أنفسهم أنهم مؤهلون لحمل لقب شيعة اهل البيت عندما يسمهم الناس بذلك .

* الله ذو الجلال والاكرام:

الجلال ، هو العظمة والاستقلال المطلق ، وحقيقة الجلال والعظمة أنها مختصة بالله وحده وكل ما سوىٰ الله تعالىٰ حقير ووضيع في ذاته .

أما الاكرام ، فيعني الانعام ، ولمّا كان الله (عز وجل) صاحب الافضال العامة والجود والكرم علىٰ خلقه ، وان ما عند الناس من جود وكرم هو في حقيقته من عطاء الله (تعالىٰ) ، كان اختصاص هذين الاسمين محصورين بالله عز وجل .

وقد ورد في تفسير المنهج ، وسائر التفاسير الأخرىٰ أن رسول الله (ص) أوصىٰ قائلاً: اكثروا من غنيمة هذين الاسمين وتعاهدوهما .

وورد في حديث آخر عن رسول الله (ص) انه حينما دخل المسجد ورأى رجلاً يصلي ويقول في صلاته (يا ذا الجلال والاكرام) قال (ص) ان دعائه مستجاب بفضل ذكره بهذين الاسمين الشريفين «يا ذا الجلال والاكرام» .

« ٢٨ »

﴿كـل من عليها فـان* ويبقىٰ وجه ربـك ذو الجلال والاكرام* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] .

«لا بشيء من آلائك رب اكذب»

* إستخدام (من) موعظة للانسان:

هذه الآية الكريمة تشتمل علىٰ معنىً يقول ان كل إنسان بـل وكل شيء مما تحتضنه الأرض سيكـون مصيره الفنـاء ، ولا يبقىٰ قائمـاً سوىٰ وجـه الرب العظيم المنعم ، وقلنا في ما سبق ان (من) هي اسم موصول وقد اوردتـه الآية المباركة هنا علىٰ أنه اسم مـوصول مشتـرك رغم انه مختص بـالعقلاء ، ولكن جاءت الاستفادة منه علىٰ أنه للعقلاء وغيرهم من باب التغليب ، وهو بـالطبـع يختلف عن (ما) الموصولية المختصة بغير العاقل ، ولكنهـا مع ذلـك تستخدم أحياناً للعقلاء أيضاً عندما تستدعي ضرورة التغليب لغير العاقل علىٰ العاقل .

اذاً وجب علينا الالتفات الىٰ سبب استخدام الآية لـلاسم (من) بدلاً من الاسم (ما) رغم أن استخدام (ما) سيؤكد حقيقة فناء كل شيء علىٰ الأرض من

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٦ ـ ٢٨)

بشر وجن وحيوانات ونباتات وجمادات؟ ولعل أحد أهم الوجوه المحتملة في كشف ذلك السبب هو أن استخدام (من) الموصوليّة قد حصل لكي تحصل الموعظة للانسان والذكرىٰ بفناء الدنيا ، فتكون صيغة الآية هي صيغة تذكيريّة نصحيّة وواعظة كأنها تقول للانسان (وأنت أيضاً سيشملك الفناء كما سيشمل غيرك ، ولن يبقىٰ الاّ وجه ربك ذو الجلال والاكرام .

* الآية تخاطب المستمع في عبارة (وجه ربّك):

﴿**ويبقىٰ وجه ربّك**﴾ صيغة الخطاب في هذا المقطع من الآية الكريمة له احتمالان هما:

١ ـ الاحتمال المفيد من أن خطاب الآية موجه للنبي الكريم (ص) ، وعليه يكون معنىٰ الآية ـ ويبقىٰ وجه ربك يا محمد (ص) . . .

ولقد ذكرنا أن كلمة (وجه) لعلّه أريد بها المعنىٰ الوصفي للوجه (وجه الله (عز وجل)) ، وهو اشارة الىٰ ذلك الوجود المقدس الذي من أطاعهُ فقد أطاع الله ، ومن عصاه فكأنّما عصىٰ الله[٢] ، ومصداق الوجه هو محمد(ص) وآله (ع) .

اما عن عبارة «ذو الجلال والاكرام» فهي تعني أن الله (سبحانه) هو صاحب العظمة والجلال المطلقين ، وهو صاحب الانعام والفضل التامين:

* علاقة الأسمين الحسنيين بالآية السابقة:

فمن عظمة الله وجلاله ، أن يفنىٰ العالم فلا يبقىٰ قائماً سواه (عز وجل) ، لأن حقيقة الجلال تنطوي في ما لو حصل تجلي الجلال الالهي جلاءً تاماً نلحق لفناء والزوال بكل الموجودات والمخلوقات ، وعندما يظهر اكرام الله (عز وجل) بشكل كامل تتدفق دماء الحياة في جميع الكائنات والموجودات فتصير الىٰ نعمة الوجود بعد الفناء ، وهو وجود أبدي خالد ، ومصداق هذه الحقيقة نجده

---

(٢) (من اطاعكم فقد اطاع الله ، ومن عصاكم فقد عصى الله) الزيارة الجامعة الكبيرة .

شاخصاً أمامنا في خلود اهل الحق والصواب عندما يساقون الىٰ الجنة ، وهنا يبرز الاكرام الالهي بأوضح وأوسع صوره وأشكاله .

وعليه نستخلص مما سبق ان اسم (ذو الجلال) الشريف يتعلق بما سبقه من نص الآية ﴿**كلّ من عليها فآن**﴾ ، بينما نجد أن اسم (ذو الاكرام) يتعلق بنص الآية ﴿**ويبقىٰ وجه ربك**﴾ . وبعبارة أخرىٰ ، يكون في ظهور جلال الله (عز وجل) فناء الاشياء ، وفي ظهور الاكرام بقاؤها . وتعّد اعادة العالم الفاني الىٰ ساحة الوجود ثانية أوضح وأروع صور الاكرام الالهي حينما يدخل المولىٰ (جل جلاله) عباده الصالحين في جنات عدن التي وعدوا بها .

* جنة الجلال ، أسمىٰ الجنان :

ونقل صاحب كتاب منهج الصادقين عن رسول الله (ص) رواية مفادها أن الجلال وهو أحد اسماء الله الحسنىٰ ، هو اسم لجنة خاصة (غير الجنان الثمان التي وعد بها المؤمنون) وهذه الجنة تسمو فوق جميع تلك الجنان رفعةً ، وهي محيطة بالعرش ، مع أن المروي عن العرش أنه يقع فوق الجنان ويسمو عليها ، وهذا يؤكّد رفعة منزلة هذه الجنة وجلالها حيث أنها احاطت بالعرش ، ويشير جانب آخر في الرواية الىٰ طول المسافة الشاسعة بين جنة الجلال وسائر الجنان الأخرىٰ ، فهي تصل الىٰ مسيرة سبعمائة عام! ! ﴿**فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان**﴾ أيها الثقلان؟ ! !

* وهل أن فناء الدنيا نعمة؟ !

ولعل سؤال يراود أذهان البعض ويبتغي لنفسه الاجابة الشافية ، والسؤال هو (كيف يعّد فناء الدنيا نعمة؟ حيث يقول الباري بعد ذكر مسألة الفناء ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ولكي تتضح حقيقة وجه النعمة في فناء عالم الدنيا ، ينبغي أن نلتفت الىٰ أن التذكير بهذه النعمة هو نعمة بحد ذاته .

في البداية يفترض بنا ان نعرف ان الله تعالىٰ وضع اساس هذا العالم مبنياً علىٰ تحقق الفناء ، كما قد ثبت لدينا من قبل ان جميع المركّبات الموجودة في

عالمنا مصيرها التفكك والتحلل ، وقلنا أن عالم الطبيعة هو عالم أضداد ، اي انه عالم لا يمكن العثور فيه علىٰ الخير المحض ، ففي الورد كثير من الأشواك ، وهذا العالم يقوم علىٰ اساس ضروريات ولوازم لا تنفك عنه بأية حال من الأحوال ، ففي مقابل السلامة تقف الأمراض ، وبازاء الثراء ينتصب الفقر ، وأمام الحياء تنبري الصفاقة ، ومع الشباب تتلازم الشيخوخة ، وهكذا في عالم مليء بالأضداد حتىٰ ننتهي الىٰ تتويج تلك الحالات والصور الى وقوف الحياة في مقابل الموت .

وباستعراض سريع لامثلة الأضداد نجد أن الانسان لا يجد له مكاناً مفعماً بالسعادة والسرور والراحة بشكل مطلق في عالم الدنيا ، وعليه كان فناء الدنيا منقذاً كبيراً للانسان المكبّل بأغلال الدنيا والمسجون في غياهب زنزاناتها المعمورة بالآلام والمحن وضروب الشقاء والعناء ، خصوصاً عندما يقف المرء علىٰ أعتاب مرحلة الشيخوخة حيث خوار القوىٰ وانهيار القدرات وسهولة إصابته بالأمراض والادواء والتعود علىٰ مقعد العجز فلا يجد حينئذ لنفسه منقذاً مخلصاً سوىٰ الموت ، والموت وحدهُ .

* وفي التكرار ضجر وسأم:

وعلاوة علىٰ ذلك ، فان عالم الدنيا مشحون بالمكرّرات ، وكما هو معروف ان التكرار يبعث علىٰ حصول الضجر والملل لدىٰ الانسان ، ففصول السنة الأربعة تأتي متعاقبة ثم تعود في السنة التالية متعاقبة أيضاً وفي السنة الثالثة هكذا والرابعة و. . . ، والليل والنهار يتعاقبان فيما بينهما ، ولا يأتي التعاقب بشيء جديد خلاف للعادة ، بل ولو تفحصنا ودققنا النظر في عموميات الصور والمظاهر والحالات في عالم الدنيا لوجدناها مكررة معادة لا جديد فيها .

اما عن حظ الانسان من دنياه فهو الآخر لا يزيد علىٰ الآلام والنكبات وضروب العناء ، فهو يسعىٰ الىٰ الطلب والوصول للسعادة والراحة والهناء فيها ، ولكن هيهات هيهات أن يدرك ما طلب أو أن يكسب ما رغب فيه لكثرة ما في

الدنيا من نكد وشقاء ونصيب ، فكثيراً ما يتجرع الانسان الغصص والشَرَق في سائغات طعامه وشرابه ، حتىٰ أنه لا يجد في لذة الدنيا طعماً سوىٰ المرارة ، وقد أجاد المعصومون في وصف الدنيا بأنها سجن المؤمن[٣] ، لأن الانسان في دار الدنيا تزداد معاناته مع إزدياد رفاهيته ، ولو حقق لنفسه الوصول الىٰ المناصب والثروات لحصل معها بشكل مؤكّد علىٰ كثرة التشّوش والقلق .

ولقد مررتُ بهانيءٍ في ذي الحياة   قَدْ نَعُمَ بـآلهَنا بعدَ الزوال!!

نعم ، لأن الدنيا لم تعمر الاّ بالأتراح والأحزان والشقاء .

* التلازم بين لذّات الدنيا وفضلاتها:

ولكن لو ورد الانسان الجنة لكان وروده هو أول هنائه وسعادته ، لأن ما فيها لا يقّل عن وجود السعادة والخير التامّين ، فهو فيها في نعيم مقيم وسعادة دائمة لا يرىٰ بعدهما أيّ عناء أو شقاء ، بل أن بدنه لا يتسخ ولا يتعرّق ، وما من فضلات أو نجاسات هناك ، فهو حينذاك نظيف طاهر بتمام معنىٰ الكلمتين .

وقد عبّر الامام علي (ع) عن لذات الدنيا وحظوظها بتعبير رائع حين يقول (وافضل طعامها العسل ، وهو بصاق النحل . وأبهىٰ ألبستها الحرير ، وهو براز القز . وأوج لذاتها المواقعة ، وهو ولوج المبال في المبال . وأسمىٰ مراكبها الخيل ، وفيها تكمن الهلكة) .

وجاء في كتاب ارشاد القلوب ان الرسول (ص) كان يمشي يوماً مع أصحابه فوصلوا الىٰ مزبلة قد اشتملت على الخرق البالية والعظام النخرة المتناثرة والقمامة والنفايات والفضلات ، فالتفت النبي (ص) الىٰ أصحابه وقال لهم (حسب مضمون الرواية): (انظروا الىٰ هذه الخرق البالية فهي ما آلت اليه ألبسة الدنيا الزاهية ، والىٰ هذه الأوساخ والفضلات فهي ما تخلّف عن أطعمتها اللذيذة ، والىٰ هذه العظام النخرة فهي آخر نعيم الدنيا!!) .

---

(٣) (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) .

بلىٰ والله ، لو كتب الله للدنيا الدوام والبقاء لكانت بلاءً عظيماً ينزل بمطرقته علىٰ رؤوس العالمين ، ولأضحت علىٰ اقل تقدير مبعثاً للضجر والسأم يقلق حياة الناس أجمعين ، ولكن وبفضل زوال الدنيا ، ونفاد أمدها ، فأنها أصبحت سلوىً وحسن عزاء لمن حلّت بساحته النوازل والمصائب ، لأن الدنيا لن تدوم وأن ما فيها لن يبقىٰ علىٰ حاله ، فكان انقضاء الدنيا وتغيّر أحوالها وتبدّل أوضاعها نعم المتنفس للانسان وأكبر عزاء له في الخلاص .

وما النعيمُ الاّ الهجرُ لمنزلٍ عُمِّرَ بالفناءِ   عندها تكونُ الحياةُ غنىً بصحبةِ الأحيا

* فكيف بنا لو خُلّدنا فيها؟

وكلنا يعلم ان الدنيا زائلة وسيؤول مصيرها الىٰ الفناء ، ولكننا نجد بعضنا يتكالب عليها ويتنازع ما لها وسلطانها ويشيع في الأرض الفتن والفساد ، مع أننا نعرف أن الموت اذا ما جاء لا يطرق الأبواب ولا يستأذن أحداً ، وهو آت في ساعة ما دون ريب في ذلك ، فكيف بنا لو عمّرنا ألف سنة؟ أو خلدنا في الدنيا؟ ايمكن أن نتصور كيف سيكون الحال؟! اذاً فراق الدنيا ووداع عالم الفناء نعمة جليلة بذاته ، رغم أنه يعد الانسان لدخول عالم الخلد والبقاء ، عالم الآخرة .

ولقد قلنا أيضاً أن التذكير والتبصير بفناء الدنيا هو نعمة أخرىٰ ، وهذا هو ما تناولته هذه الآية المباركة من الأخبار عن فناء عالم الدنيا المادي ، وهو نعمة كبيرة بذاته ، وسنأتي الآن الىٰ استعراض الوجوه المؤكدة علىٰ هذه الحقيقة : ـ

* إربأ بنفسك ، فكل من عليها فانٍ:

الوجه الأول: ان التذكير بفناء الدنيا يعد نعمة لأن المستمع سوف يقدّر حينها قيمة عمره الثمين ، فيتوجه الىٰ إفناء سني عمره في لزوم الطاعات وبذل العبادات ، لأن دأب العقلاء الذين تيقنّوا من لزوم الفناء للعالم وسرعة الرحيل عنه أن ينشغلوا بالتفكير والسعي نحو إعداد مستلزمات السفر البعيد الىٰ الآخرة لأنهم علىٰ موعد مسبق معها في وقت قريب ، فنراهم يبذلون قصارىٰ الجهود من أجل اعداد ما ينفع للمنزل العامر ، بل ونراهم لا يحبّذون التفريط بساعة

واحدة أو دونها بما لا يعودِ عليهم بالنفع والخير لآخرتهم ، وهذا هو ديدن اهل القلوب الحيّة والنابضة الذين قد ضاقَ عليهم الوقت وسني العمر .

الوجه الثاني: وهو أن التذكير بفناء الدنيا يؤدي الى نزع الثقة والاعتماد علىٰ لذات الدنيا ونعيمها باعتبار عدم ديمومة هذه النعم واللذات ، وهذه الحال ستؤدي بالضرورة الىٰ أن يقلع الغني وصحيح البدن عن الغرور بماله: وبنفسه وينزع لباس الكبر والخيلاء والعجب وينظر الى الآخرين على أنهم اقران له ليس إلّا ، وهكذا الحال في المعدم والمريض والضعيف فهم سيطوون من اليأس كشحاً ولا يدعون للحزن أو المهانة سبيلاً الى عنفوان إيمانهم ، ونراهم لا يتزلزلون أو يذهلون لفقدهم بالموت عزيزاً وحبيباً عندهم لأنهم سيدركون أن **﴿كل من عليها فانٍ﴾** فلا هي الآلام تبقىٰ ، ولا المحن تدوم ، ولا هو الهناء يقيم ولا النعيم يطول في دار قد رصدها الفناء والزوال والاندثار ، وحينها عندما يأتون لك معزين بفقدك أمك أو أبيك ترد عليهم بكل سكينة ، انه الموت الذي كتب علينا جميعاً فلن يفارق منّا أحداً .

ولعّل تذكير الحسين (ع) في ليلة عاشوراء لأخته العقيلة زينب أفضل مصداق لما نقول حيث عنىٰ بقوله (لقد رحل عن هذه الدنيا من هو أفضل مني ، فقد خلّفها وراءه جدي وأبي وأمي وأخي ، كما في نص قوله (ع) «جدي خير مني ، وأبي خير مني ، وامي خير مني ، واخي خير مني ، ولكل مسلم برسول الله اسوة» .

« ٢٩ »

﴿كل من عليها فـان* ويبقى وجه ربـك ذو الجلال والاكرام* فبأيِ آلاء ربكمّا تكذبان﴾[١] .

* عموم الفناء وشموليته نعمة:

الوجه الثالث: ولقد ذكرنا آنفاً أن فناء الدنيا بذاته يعد نعمة لأن الدنيا هي في واقعهـا سجن للمؤمن لأنهـا لا تشتمـل الاّ علىٰ تكـرار الصـور والحـالات والظواهر مع أنها في حقيقتها لا تمثل اكثـر من حجاب ، لا يلبث الانسـان أن يخـرقه بـالمـوت في الأوان المنـاسب فينـطلق الى الفضـاء الأرحب في عـالم الحضور والشهادة ، عالم المعاني .

يقول المحقق الطبرسي في كتابه تفسير مجمع البيان ، أن شمـول الفناء للجميع هو نعمة اضافية لأنها تشمـل كل شيء فـلا يستثني بذلـك أحداً مـا ، وتتبين عظمة هذه النعمة فيمـا لو أفتـرضنا ان البقـاء يختص بطائفـة معينة دون سواها وعندها سيعم الهم والغم والأسىٰ الآخرين لأن بقاء ذلك الجزء من الخلق هو نوع من انواع التمييز والتبعيض ، بينما يكون شمول الفناء للجميع بأن تذوق

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

كل نفس الموت دون استثناء (الأنبياء والصالحين ، الأمم والاقوام ، الافراد ، الكبار ، الصغار) مبعثاً للارتياح وعدم الشعور بالقلق وزوال الهم عن القلوب كما يؤكد ذلك قوله تعالىٰ ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ .

* تزامن موت الخصماء والغرماء:

ولعلّه من العجيب والمدهش ان يتزامن موت المتخاصمين أو المتنازعين ممن يشب بينهم الصراع أو العراك أو القتال فيتمنىٰ الواحد منهم موت غريمه ، ويكون هذا التزامن غالباً في فترة زمنية واحدة أو بفاصلة زمانية يسيرة (كما أثبتت ذلك التجارب) ، ولقد كتب أحد معارفي كتاباً ضمنّه مذكراته ، وكان من جملة ما كتبه هو الموضوع الآنف الذكر ، يقول في كتابه: أن مشير الملك وقوام الملك (وهما رجلان من الحاشية الملكية كانا في مدينة شيراز) كانا كثيرا النزاع والخصام فيما بينهما ، وقد أدت بهم الحال الى أن تنشب فيما بينهما الحروب والمعارك ، ولما مات قوام الملك ، لحقه مشير الملك بالموت بعد ستة أشهر من موت غريمه ليس اكثر!!

وأنا أيضاً كان لي أخوين قد اندلعت فيما بينهما نيران الخصام والنزاع والمساجلة ، حتىٰ بات كل منهما يترقب موت الآخر ويتمناه تشفيّاً ، ولم يلبث أن ماتا سوية في يوم واحد قبل سنتين أو ثلاث!! وما أريد أن أوصله لكم من خلال ذكري لهذه الأمور انما هو أن الله (عز وجل) لم يجعل للموت سبيلاً الىٰ أحد دون الآخر ، ولم يميز بين خلقه في هذه الحقيقة الواقعة كما أنه لم يميز بينهم في سائر الأمور ، في رحمته وعطائه ولطفه ، وعليه كان الموت الشامل للجميع نعمة بذاته ، كما يذهب الىٰ تأكيد هذه الحقيقة لسان العرب عندما تضرب المثل بنعمة عموم البلاء حيث تقول (اذا عمّت البلية طابت) هذا فيما لو اتفقنا علىٰ ان الموت يدخل في جملة البلايا والنوازل فرضاً .

* الالتزام بالتعاليم الصحية والوقائية لا يطيل العمر:

ان رعاية الامور الصحية والوقائية في الحقيقة لا تطيل العمر كما يدعي البعض وإنّما تبقي على العمر ، أو بعبارة ثانية تحول دون تناقص الأعمار ،

فكثير هم من نراهم يلتزمون برعاية الوصايا الصحية والوقائية ولكنهم لا يجتازون حدود الثمانين من العمر ، بيْنما نجد سكّان الأرياف والقرىٰ يطعنون السن ويعبرون سدود الثمانين مع أنهم لم يشموا رائحة التعاليم الصحية أو الوصايا الوقائية طيلة سني عمرهم المديدة ، وهذا يعني أن التقديرات الالهية لا يمكن درؤها برعاية مثل هذه الأمور فيطلب الانسان طول العمر الذي لم يقدر له ، مع ضرورة التنبّه الىٰ ان ما نذهب اليه هنا في رأينا لا نقول فيه بانكار اهمية الصحة والوقاية في بناء الانسان السليم ودفع المخاطر والآفات عن بدنه وتركيبة حياته الاجتماعية ، فقد جاء الشرع المقدس بالكثير من التعاليم والآداب والسنن التي أكدّت وشدّدت على التوجه للرعاية الصحية والعمل بها والاهتمام بأشاعتها في المجتمع الأنساني ، ولكنني أردت في عرضي هذا أن أؤكد علىٰ ان للموت توقيت معين يحل بالانسان ان عاجلاً أو آجلاً ، ولا يمكن دفعه بالوسائل مهما كانت وعليه تكون الدنيا غير مؤهلة (تحت كل الظروف والشرائط) للبقاء ، وهذا أيضاً ينعكس بدوره علىٰ سائر المخلوقات الموجودة في هذا العالم فهي أيضاً تصير الىٰ الزوال والفناء ، وعليه ينبغي علىٰ الانسان أن لا يدع في قلبه مجالاً للهموم والأحزان لأن هذا المصير هو مصير عام لا يستثني أحداً .

* العزاء والموعظة:

الوجه الرابع: وهو أن التذكير بفناء الدنيا هو بذاته عزاء لأهل البلاء والشقاء ، وموعظة لاهل الدعة والراحة ، لأن الناس في واقعهم ينقسمون الى القسمين المذكورين ، فعندما ينزل الموت بساحة اهل الدلال والدعة يكون لهم واعظاً بعدم الاغترار أو التكبّر ، لأنه سيقول لهم ان رجال المال والاعمال والسياسة والدولة كانوا كثيرون مثلكم ولكن الموت دخل عليهم فرحّلهم الى حيث لا تجدونهم الآن ، فاياكم ان تتكبروا علىٰ فقرائكم ومحروميكم ، فهل بلغت بكم الأسباب ما بلغت بقارون؟ وها هو ذا أيضاً قد وقع فريسة الموت الذي يلاحقنا جميعاً .

وعندما يحل الموت بساحة اهل البلاء والشقاء يكون حينئذ لهم أحسن

العزاء ، لأن كل شيء قد كتب عليه الفناء والزوال ، فكما خسر الاثرياء اموالهم ، وضاعت من الملّاك أملاكهم فقد خسر آخرون أرواحهم قبل أن يخسروا أموالهم واملاكهم ، بل وقد خسر البعض أموالهم قبل أرواحهم ، وفي هذا الأمر كثير عزاء وسلوى لأهل البلاء والشقاء كما نرىٰ .

* التحرر من ربقة الشرك .

﴿**الوجه الخامس**: والوجه الآخر في نعمة التذكير بالفناء ، هو أن الانسان فيما لو استيقن هذه الحقيقة كما يعلمها ، ووقرت في قلبه ، عندها سيتحرر من جميع ألوان الشرك وانواعه ، سواء منها الجلي الظاهر أو الخفي الكامن ، حتىٰ أنه يجد في يقينه بحلول الموت بساحات الجميع ، الدواء الناجع لعلاج أمراض الشرك العضال .

فلو التفت عابد الأصنام ، أو عابد النجوم ، أو عابد الشمس ، أو عابد البقر الى أن هذه الاشياء التي يعبدها هي فانية وزائلة ولا سبيل لها للبقاء والخلود كما هو حال سائر الاشياء الأخرىٰ لتيقن ضلالة عقيدته في اشياء أفنىٰ عليها العمر عبادة وسعياً ، فهو كمن يركض خلف السراب ليلحق به أو يمسك به ، فهي زائلة كزواله هو الآخر ، ولا يبقىٰ في هذا الوجود الكبير الهائل الّا الله وحده خالق البقاء والفناء ، واهب الحياة ومسترجعها ، المحيي المميت . ترىٰ هل سنراه بعد ذلك سيعدو خلف الفاني ويدع الله (تعالىٰ) الباقي وحده؟

وما يصدق علىٰ الشرك الجلي ، يصدق هو الآخر علىٰ الشرك الخفي ، لأن الانسان الذي عمَّر قلبه بحب الدنيا وزينتها الخداعة ، وأموالها ونسائها ، انما هو في واقع أمره قد عبد الاموال والنساء والشهوات ، كما يذهب الىٰ تأكيد هذه الحقيقة وصف النبي الكريم (ص) لأحوال أهل آخر الزمان عندما يقول (ص) (دينهم دنانيرهم) فيتساءل سلمان المحمدي (رحمه الله) قائلاً: وهم يومذاك علىٰ دين الاسلام يا رسول الله؟ أم انهم مشركون؟ فيرد عليه النبي (ع): بل هم مشركون ، قد اتخذوا من دنانيرهم ودراهمهم اصناماً) . فنرىٰ هؤلاء النفر يخضعون للمال ويخشعون ، وليس لهم من هم سوىٰ المال لأنه يزعمون

انه مفتاح سعاداتهم ونعيمهم ، مع ان المال هو الآخر تسري عليه ارادة الله تعالىٰ بالفناء كسائر الاشياء ، فهم لو عرفوا حقيقة زوال الاموال وفنائها واستيقنتها أنفسهم لخلعوا مسارعين عن رقابهم ربقة الشرك هذا .

* التملّق لأصحاب النفوذ والسلطة:

ومن مراتب الشرك ، أن يخضع الانسان لنظيره ممن حصل علىٰ النفوذ أو الرئاسة ، بحيث يصدق عليه القول أنه قد اتخذه لنفسه إلهاً أو ربّاً من حيث لا يشعر ، بحيث أن لو ادركه الموت وهو علىٰ حالته هذه لمات كافراً بالله (عز وجل) ، لأنه قد مات وهو في حال لا يرىٰ من مؤثر سوىٰ ذلك المرء الذي يهابه ويخضع لارادته ، ولكنه لو مات وهو مؤمن بالله (عز وجل) مدّلاً عليه ثم لم يتوان عن خضوعه لذلك المرء المتنفّذ لمات مشركاً .

فيا أيها الانسان المتملّق الى من هو قد تسوّد عليك إعلم أنّ ﴿**كل من عليها فان**﴾ ، فسيّدك ورئيسك قد كتب عليه الفناء وكما كتب عليك وعلىٰ من هو سواك ، وهو ضعيف كضعفك ولا يجد لنفسه ما يدفع به الموت ، فانظروا الى من ينبغي له التملق والثناء؟ أليس هو ربنا الكريم وحده[٢]؟!

* أهذه العظام النخرة للملوك أم للصعاليك؟!

ورد في كتاب لئاليء الأخبار أن سبب يقظة الاسكندر عن سبات غفلته هو ما جرىٰ له عندما مر يوماً بمقبرة فأبصر رجلاً عليه هيئة الصالحين قد عكف جانباً منها وهو يقلّب العظام النخرة ، فتقدم منه الاسكندر وقال له: اني اراك تفعل فعل المجانين مع أنني لا أرىٰ علىٰ سيماك هيئة المجانين؟ مالك تقلب بالعظام؟ ، فرد الرجل عليه قائلاً: أنا هنا منذ عشرين عاماً أقلّب العظام والجماجم لعلّي أعرف الملوك من الصعاليك ، أو أميّز بين الاغنياء والفقراء ، ولكنّي ما زلت لا أحير فرقاً بين اكوام العظام هذه!!

فأطرق الاسكندر مليّاً يفكّر في قول الرجل ، وحدث نفسه ان هذا لم يكن

---

(٢) «ولا كففت عن تملّقك» دعاء ابي حمزة .

يرد بقوله هذا الاّ ان يعظني فأستيقظ عن نومة غفلتي ، لأني ادري ان لا فرق بيني وبين الآخرين ، لأن الملك والسلطان هو الآخر زائل .

* الاسكندر والقبور المحاذية للمنازل:

ونقل المجلسي أيضاً في كتابه حياة القلوب ، ان الأسكندر دخل في بعض أسفاره مدينة لم ينشأ أهلها لهم مقبرة يوارون فيها أمواتهم ، ولكن دورهم ومنازلهم كانت تشتمل علىٰ قبر أو عدة قبور قد رصفت عند مدخلها ، فسأل أهلها: الا توجد عندكم مقبرة توارون فيها امواتكم الثرىٰ؟ فأجابوه قائلين: نعم ، ولكننا اعتدنا ان لا نحمل نعوش امواتنا بعيداً ، بل ندفن امواتنا عند اعتاب منازلنا لكي لا ينسىٰ أهل الميت أنهم علىٰ موعد باللحوق به ان عاجلاً ام آجلاً فيكون ذلك مبعثاً لنا علىٰ عدم ارتكاب الخيانة!! نعم لو وقر معنىٰ هذه الآية في القلوب لارتاح الانسان ، وأمن الآخرون شروره .

* السعي وراء الرزق:

وهنا ينبغي ان الفت انتباهكم الى ضرورة عدم فهم ما قلناه أننا نحث النـاس علىٰ القعود عن السعي وراء الكسب الحلال ، والكدّ علىٰ النفس والعيال ، بل العكس من ذلك هو المطلوب ، لأنه يفترض بالانسان ان يسعىٰ ويكد ويكسب من اجل تأمين قوته وقوت عياله ولكن علىٰ نحو يدرك فيه أن سعيه ذاك انما هو سعي مؤقت وزائل وليس له دوام وبقاء لكي يتجنب تعلق القلب بذلك السعي أو بناتجه المالي أو بمظاهر السلطة والجاه الناشئة عن العمل ، لأن ذلك من شأنه ان يلحق المرء العجب والرياء والخيلاء وحب الدنيا ، فتمام تلك الامور زائلة كزوال الانسان نفسه ، لذلك كان الاولىٰ بالانسان ان يعلق قلبه بربه الباقي بعد فناء كل شيء . ولقد اوردت رسالة الامام الحسين (ع) الىٰ أخيه محمد بن الحنفية عبارة رائعة يذكرّه فيها بقوله (ع) (كأن الدنيا لم تكن ، وأن الآخرة لم تزل) ، وقد ذكّر الامام الحسين (ع) في ليلة ويوم العاشر من المحرم بفناء الدنيا وبقاء الآخرة كيما يقوي من عزائمهم حينما قال (ع) (فهل بقي لما وعدنا الله من نعيم إلاّ أن نمضي علىٰ الموت ونعبر الىٰ الآخرة؟!) .

« ٣٥ »

﴿يسأله من في السماوات والأرض* كل يوم هو في شأن* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١] .

* سؤال الخلائق الله في قضاء حوائجهم:

﴿يسئله من في السماوات والأرض﴾ هذه الآية تعرب عن غنىٰ الله (سبحانه وتعالىٰ) عن العالمين ، وحاجة الموجودات جميعاً الى الله (عز وجل) ذاتاً وصفة وفعلاً .

فالأشياء في ذاتها ، وأصل وجودها ، ومواصلتها البقاء تحتاج الىٰ الله (تعالىٰ) ، كذلك تحتاج الاشياء والموجودات الىٰ الله وعونه ومدده في صفاتها وخصوصياتها الوجودية ، وأفعالها ، وحركاتها . وهذه الآية تؤكد ان الموجودات السماوية والارضية تسأل الله (عز وجل) كل يوم وهو تعالىٰ في شأن من الشؤون الالهيّة .

وهنا يبرز السؤال الآتي وهو علىٰ شقينِ ، ويفترض كل شق منه الاجابة الشافية ، **والشق الاول** هو ، ان هذه الآية المباركة تذكر بشكل عام ان جميع

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٩ ـ ٣٠) .

من في السماوات والارض (من ملائكة وجن وبشر وغيرهم) يسألون الله تعالىٰ ، ونحن نعلم أن في الارض من الجن والأنس من هو كافر بالله ولا شأن له به (كأن يكون لا يعتقد بالباري عز وجل) فهو بذلك لا يطلب من الله شيئاً ولا يسأله اجابة حاجة ما ، ولو افترضنا أن الآية تختص بأهل الايمان لوحدهم لتعذّر علينا قبول ذلك باعتبار الخطاب العام للآية الذي يـأكد علىٰ شمـول المؤمنين والكافـرين جميعاً .

اما **الشق الثاني** من السؤال فهو ، ان الكثير من المؤمنين يسألون الله (عز وجل) ، ولكنهم لم يحصلوا علىٰ اجابـات منه في كثيـر من الحالات علىٰ مـا يبدو ، لماذا؟

* السؤال بلسان الحال ، وبلسان المقال:

فبالنسبة فيما يتعلق بالشق الاول من السؤال والمتضمن تعميم سؤال أهل السمـاوات الأرض لله (عز وجـل) فنقـول ، ان العلمـاء ذكـروا أن الاسئلة في الحقيقة علىٰ نحوين:

الأول: هو السؤال والطلب بلسان الحال والتكوين .

والثاني: هو السؤال والـطلب بلسان المقـال واللفظ ، ولكي يتجلىٰ لنا بوضوح المقصود من تينك النحوين من السؤال ، نسوق المثال الآتي:

نفترض ان عابر سبيل قد أحرقته الشمس اللافحة وهو يسيـر في رمضاء من الأرض في ساعة هجير ، وقد أضرّ به العطش ، فتعطلّ لسانه عن النطق لما حل من حاله السيء هذا وعندها نجد هذا الرجل ينطق بلسان حاله لمن يراه وهو علىٰ تلك الحالة أنه يريد ماءً ، بل ان من يراه لا يلبث ان يجدّ مسرعاً من اجل أن يأتيه بالماء لأنه يقول بهيئته المتداعية أنه ظمآن رغم انه لم يطلب الماء بلسانه ، وهذا ما نعبر عنه بالنطق والسؤال بلسان الحال ، وقد يحدث ان يطلب بلسانه أيضاً شربة ماء علاوة علىٰ ما يفصح به حاله .

وهكذا الحال في جميع الكائنات والموجـودات ، فهي تسأل الله تعـالىٰ

بلسان حالها تكويناً ، سواء كانت مؤمنة بالله (عز وجل) أم كافرة ، جناً أو إنساً ام ملائكة أم مخلوقات اخرىٰ من غير العقلاء (كالنباتات والحيوانات والجمادات) لأجل أن يعطيها الله ما سألت ويؤمّن لها حاجاتها ، وفي مقابل ذلك ، يقدم الله (تعالىٰ) إجاباته علىٰ تلك المسائل والحاجات التي طلبتها الكائنات بلسان الحال والاستعداد التكويني دون إبطاء أو رفض لها .

* السؤال التكويني للبذور والنوىٰ:

فبذرة القمح مثلاً ، طالما كانت لم تبذر في التربة بعد ، فهي لا سؤال عندها ، ولكن لمجرد أن يبذرها الانسان في الأرض المعدّة لها من حيث الخصب والأرواء ، تكون إذّاك قد تعبّأت واستعدت للأنبات ، فهي حينئذٍ تسأل الله بلسان حالها أن ينبتها وينضجها ويثمرها ، وهذا النوع من السؤال يسمىٰ أيضاً بالسؤال التكويني أو الاقتضائي أو الاستعدادي وهو ما نعبّر عنه بالسؤال بلسان الحال الذي لا يشتمل علىٰ مانع معين يحول دون تحقق الاجابة الالهية ، فتنفلق البذرة الى نصفين ، نصف ينحدر في أعماق التربة فتكون منه الجذور ، ونصف آخر ينطلق نحو الأعلىٰ فتتشقق عنه الأرض ويلامس الهواء فتشكل منه السيقان والأوراق ، ثم لا تلبث هذه النبتة حتىٰ تثمر وتعطي أُكلها حباً كثيراً . ولو التفتنا الىٰ نواة التمر ، فهي طالما كانت بعيدة عن البذر في الأرض فهي الأخرىٰ لا تسأل الله شيئاً ، ولكن وعند توفر الشرط اللازمة للانبات ، وانتفاء الموانع والحوائل الداعية الى عدم حصول الانبات ، تتقدم تلك النواة الى الله (عز وجل) بسؤالها التكويني (سؤال الحال) كيما ينبتها ويخرج شجرتها ويثمرها ، فاذا بنا نلحظ تلك النواة الصلبة الممتنعة عن السحق والتهشم ، تنفلق بقدرة الله الباهرة الى نصفين ينبثق عنهما الجذور والساق والسعفان ، ثم لا تلبث حتىٰ تثمر فتقدم للطاعمين آلاف التمرات الطيبات ثماراً .

* للنطفة والجنين في مراحل خلقه أسئلة تكوينية:

وعندما نأتي الىٰ الانسان أو الحيوان ، نجد أن نطفتهما أو بويضتهما لا تعربان عن سؤال ما دامتا لم تنفصلا عن ابدان الآباء والامهات ، ولكن عند

انحـدار النطفـة من صلب الأب واستقرارهـا في رحم الأم السالم من العيـوب والنقائص ، تقدم النطفة حينئذ طلبها فتسأل الله (تعالىٰ) بلسان حالها أن ينّقلها في مراحل الكمال الخلقي (الانساني أو الحيـواني حسب نوع النـطفة) ، وان يجعلها متحركة سميعة بصيرة ذات شعور و. . . الخ ، وهذه الاسئلة والطلبات ما هي الاّ اسئلة تكـوينية تصـدر عن الجميع دون استثنـاء ، سواء كـان في هـذا الجميع مؤمن أو كافر ، مع الأخذ بعين الاعتبار تدرج المسائل والطلبات بتدرج مراحل الخلق الأولية ، فتأتي الاجابات الالهيـة متدرجـة أيضاً تبعـاً لما ينفعهـا ووفقاً لما طلبته ، فالنطفة تنتقـل الى صورة العلقـة بعد مضي أربعين يـوماً في داخل رحم الأم ، ثم تتحول العلقة الى صورة المضغة بعد مضي أربعين يـوماً أخرىٰ ، ثم يخلق الله العظام ويكسوها لحماً ، ثم ينفخ فيها من روحه فتصبح كائناً في مرحلة متقدمة من مراحـل الخلق إذاً النطفـة ، طالمـا هي نطفـة ، لا تطلب من الله تعالىٰ أن ينفخ فيها الروح ، ولكنها تطلب هذا الأمر عندما تتكامل هيئة الخلقة كما قلنا فيما سبق أن الاجابة علىٰ السؤال تتم حينما تتهيأ العوامل والظروف بالشرائط اللازمة ، وترتفع الموانع والحوائل المعترضة دون شك .

* حتمية اجابة السؤال التكويني :

وحرّي بنا ان نلتفت الىٰ أن سؤال الحال التكويني لا يقبل الرد والرفض وعدم الاجابة اطلاقاً ، ولكن بشرط توفر الشرائط والمقتضيات اللازمة ، وانتفاء وارتفاع الموانع الحائلة فاذا بالاجابة تنساب أنسياباً بشكل دقيق ومنتظم .

فمن جملة الاسئلة والطلبات الاستعدادية (التكوينية) التي ينطق بها لسان الحال ويوافقه بها لسان المقال أحياناً ، ان يتقدم المرء بـطلب المقدار الـلازم والضروري في طي سنين العمر وصولاً الى التكامل الأفضل له ، فتقول روحه بلسان الحال (اللهم حتىٰ مَ أبقىٰ في سجن البدن المادي هذا؟ ، الهي فأسألك لحوقاً بوطني الذي ما أنفككت اطلبه ، ووصـولاً الى رفقة اوليـائك) ، بـل ان اجزاء البدن المادي هي الأخرىٰ تقدم لله طلباتها الاستعدادية قائلة بلسان حالها (اللهم فمنّ علينـا بالخـلاص والانعتاق من ربقـة هـذا العـالم المليء بـالأحن

والشقاء والعناء) . بل ويتعدىٰ البدن والروح بسؤال الله تعالىٰ بلسان الحال أن يقدّم الموت لها ، أن تطلب ارواح الأجيال التي لم تنزل الى ميدان عالم الدنيا بعد أن يعجّل لها بموت (فلان) لأن دوره المطلوب قد نفد ، ليخلي الدور لها .

يـا مـاشيـاً علىٰ الأرض هيّـا قـد أزف الـرحيـل
ففـي الأصـلاب والأرحـام مـن يبـغي الـنـزول

* الميرزا الشيرازي (قدس سره) في مرض الموت:

وينقل عن كرامات حجة الاسلام الميرزا محمد حسن الشيرازي (أعلىٰ الله مقامه) أنه عندما كان مقيماً في سامراء مرض مرض الموت ، فعوده جمع العلماء وجلسوا عند رأسه وحينها بادره أحدهم بالقول: يا سماحة الميرزا ، نحن علىٰ يقين من أن الله تعالىٰ سيمنّ عليك بالعافية وتقوم من مرضك هذا ، لأن عدداً من العلماء والفضلاء من اهل كربلاء واهل النجف قد إعتكفوا عن ضريحي الامامين أمير المؤمنين (ع) والحسين (ع) وقد توسلّوا الىٰ الله بهما أن ينجح طلبتهم في أن يمن عليك بالشفاء والعافية ، ولا بد ان يستجيب الله عز وجل تلك الدعوات . فلم يزد الميرزا في رده علىٰ المتحدّث باكثر من هذه العبارة (يا من لا تردّ حكمته الوسائل)! نعم ان الوسائل والاسباب كثيرة ، وهي معدّة ، ولكن لو لم تقتض حكمة الله (عز وجل) ان يحصل الرد ، لأن الحكمة الالهية تراعي المقتضيات والموانع التكوينية كما قلنا ، وعليه لا تتحقق الاجابة الّا بما يأتي وفق السؤال التكويني الاقتضائي ، وما رد الميرزا بذاك القول الّا تعبيراً عن حكاية روحه التي قالت بلسان الحال (بلىٰ لقد اجتمع الكثيرون وسألوا الله ان لا يتوفاني ، ولكنني سألت الله وتوسلت اليه قائلة ـ الىٰ متى يا مولاي ابقىٰ رهينة هذا القفص الجسماني ـ) نعم لقد كانت روح الميرزا اللطيفة تسأل بارئها الانعتاق والحرية من عالم الطبع المادي كيما تنتقل الىٰ عالم العلويات ، فكم من قائل بلسان الحال والمقال عندما يؤول الىٰ هذه الحال (ليتني لم اكن ، وليتني كنت نسياً منسيّاً) .

* الدعاء اللساني ، والاجابة:

اما عن النوع الثاني من السؤال ، وهو ما نعبّر عنه بالسؤال بلسان المقال اللفظي ، نحو أن يقول قائل (اللهم هبني مالاً ، أو هبني ايماناً ، أو هبني عزةً ، أو عجل بموتي راحة لي ، ونحو ذلـك) ، وهذا النـوع من السؤال يختلف عن القسم الإول الذي يحتمل معه الاجابة المؤكّدة ، لأن اللسان عندما يتحرك فانما يتحرك وفق الميول والاهواء والرغبات ، او نتيجة العناء والشدة والهول ، فيطلب من الله (تعالىٰ) أن ينجح مسألته ويلبي حـاجته ، وكثيـراً ما يكـون هذا السؤال والطلب لا ينسجم مع الاستحقـاق أو النظام والميـزان ، بل قـد يكون مخـالفاً لاستحقاق الفرد ، أو معارضاً للنظام الالهي السائد ، لأننا كما نعرف أن الاجابة الالهية إنما تتحقق وفق رعاية الحكمة ، لا مجرد تلبية رغبة لقلقـة لسان مـا ، والحكمة الالهية تعني مراعاة الشـرائط والعوامـل والظروف التي تؤمّن حصـول المصلحـة العليا ، وتـواكب النظام الأكمـل في عالم الـدنيا ، فلو افتـرضنا ان الـطلب والسؤال اللساني ينسجم مـع المصلحة الشخصيـة للداعي والمصلحة العامة فحينئذ سوف لن تتخلف الاستجـابة ، ولكن افتـرضنا العكس من ذلـك بحيث يحصل من جرّاء الاستجـابة المحتملة ضـرر بأحـد المصلحتين لتوقفت الاستجابة عن الصدور ولعوضّ الباري تعالىٰ السائل بآلائه واحسانه بما يجعله نائلاً مفلحاً ، لا خائبـاً ولا محرومـاً من سني مواهب رب العـالمين لأن النظام الالهي هذا لا جنبة بخل فيه ولا منع ، فيقدم الباري (عز وجل) للسائل عوضاً عن اجابة حاجته بالمثل إن لم يكن العطاء بأفضل مما طلب .

* رواية جميلة عن أستجابة الدعوات:

وقد نقل أبـو الفتوح الـرازي في تفسيره أن مـوسىٰ (ع) سأل الله تعـالىٰ قائلاً: (إلهي أرني سـرّاً من أسرارك) فجـاءه الوحي وأبلغـه باتخـاذ طريقـه في السبيل الفلاني وقـاله لـه: اذا ما سـرت في هذا السبيـل فستصل الىٰ قـرية ، فأدخلها وستجد في وسط هذه القرية أربعة دور أوصافها كذا وكذا ، فعرّج علىٰ أصحابها واسألهم عن حاجاتهم عند الله (عز وجل) . فانطلق مـوسىٰ (ع) وفق

العلامات التي قدمّت له حتىٰ وصل الىٰ الدار الأولىٰ في تلك القرية ، فسأل صاحبها عن حاجته عند الله ، فقال له : أنا رجل مزارع وحاجتي الىٰ الله أن يمطرنا مطراً وفيراً يكفينا الىٰ حين ويلبي حاجتنا إليه ويغنينا عن تكلّف ماء الآبار ، ويبارك لنا في زرعنا كثرة وعطاءً . بعد ذلك عرّج موسىٰ الى الدار الثانية وسأل صاحبها ألديه حاجة عند الله (تعالىٰ)؟ فأجابه صاحب الدار : نعم ، فأنا رجل فخّار أصنع الاواني الفخارية ، وحاجتي الىٰ الله ان يحجب المطر عنّا لكي استطيع ان أصنع الاواني واتركها تحت حرارة الشمس كيما تجف ويتماسك طينها فأكثر البيع منها .

بعد ذلك انطلق موسىٰ (ع) الى الدار الثالثة وسأل صاحبها قائلاً : ألديك حاجة عند الله؟ فأجابه نعم ، فأنا صاحب بيدر قمح ، واسأل الله (عز وجل) أن يرسل ريحاً قويّة تعينني علىٰ عزل التبن من حبات القمح فيسهل بذلك عليّ عملي .

ثم انطلق موسىٰ (ع) إلى الدار الرابعة ، وسأل صاحبها ألك حاجة عند الله تريد قضاءها؟ فأجابه نعم ، فأنا صاحب بستان ، والريح القوية كثيراً ما تهبّ علىٰ بستاني فتنتزع الثمار منه ، وحاجتي الىٰ الله أن يمنع هبوب الرياح!

فغمرت موسىٰ الحيرة والدهشة من هذه الحاجات المتناقضة المتضادّة التي سأل أولئك النفر الأربعة الله عز وجل في قضائها ، فدعىٰ ربّه قائلاً : اللّهم أنت أعلم بحاجات عبادك ، فهبهم ما يصلح حالهم) .

إذاً لو أعطىٰ الله حاجة أحدهم (كما رأينا) فحينئذ ستؤدي الاجابة الىٰ الأضرار بمصالح الآخرين ، ولو حرّم أحدهم من قضاء حاجته لأضرّ الحال به وانتفع الآخرون وهكذا . وعليه فان الباري (عز وجل) يجيب المسائل ويقضي الحوائج المطلوبة بلسان المقال اللفظي فيما لو ترتب علىٰ الاجابة الأثر المفيد المنسجم مع المصلحة العامة والمتناغم مع النظام الكوني السائد الذي يقبله الجميع ، وإن لم يلتفتوا الىٰ ذلك غفلة أو جهلاً .

* الاجابة الفوريّة ، مع وقف التنفيذ:

وقد تستلتزم المصلحة في أحايين كثيرة التأخير في تنفيذ الطلب أو اجابة السؤال ، وبعبارة أخرىٰ ، قد يدعو المرء الله لأجل أن يقضي له حاجة ما ، فيستجيب الله له ، ولكن يتوقف التنفيذ وتحقيق الاجابة الىٰ إشعار آخر وزمن مناسب ، كما حصل لموسىٰ وهارون (ع) عندما سألا الله تعالىٰ ﴿**ربّنا إطمس علىٰ أموالهم...**﴾[٢] فجاءهما النداء الالهي ﴿**قال قد اجيبت دعوتكما**﴾[٣] ، ولكن زمان التحقق والتنفيذ حصل (كما تؤكده إحدىٰ الروايات) بعد مرور اربعين عاماً علىٰ استجابة الدعوة[٤] .

ويتأكد قولنا هذا فيما روي عن الامام الصادق (ع) بقوله بما مضمونه: قد يسأل الله في قضاء حاجة فتتحقق الاجابة بعد عشرين عاماً .

وقد يعوّض الله عبده السائل بدل اجابة مسألته بمثيل ما طلب أو أفضل منه ، حتىٰ لا يُردّ من عنده خائباً ، لكي لا يحصل الأضرار بمقتضيات المصلحة والنظام العام .

---

(٢) سورة يونس ، الآية (٨٨) .

(٣)(سورة يونس ، الآية (٨٩) .

(٤) أصول الكافي .



﴿يسأله من في السماوات والأرض* كل يوم هو في شأن* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] .

* آلة العوم لدىٰ الحيوانات البحريّة:

قلنا أن الله (تعالىٰ) هو الغني المطلق وما سواه محتاج له ، إبتداءً من الصادر الأول محمد (ص) ومروراً بعالم العقول والنفوس الكليّة والمجردّات ، وانتهاءً بالماديات . فجميع تلك الأشياء والموجودات مفتقرة ومحتاجة ، وهي تسعىٰ الىٰ تلبية احتياجاتها من خلال تقديم السؤال الىٰ الله الغني (تعالى) ، وسؤالها هو في موضع الاجابة والقبول الالهي ما دام هو في حال التكوين والاقتضاء كما ذكرنا من قبل ، فالحيوان البحري (علىٰ سبيل الفرض) يحتاج الىٰ وسيلة تمكنّه من العوم والسباحة ، وهذه الحاجة إنمّا يرفعها الحيوان ذاك الى بارئه (عز وجل) سؤالاً بلسان الحال والتكوين ، فيؤمّنها الله له بلطفه ، كما هو حال الحيوانات البريّة التي تحتاج لأجل تأمين غذائها الىٰ عامل السرعة في الجري والحركة مثلاً فيهبها الله ما تقضي به حاجتها ، أو تلك الحيوانات التي

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٢٩ ـ ٣٠) .

تعتاش علىٰ أكل الأعشاب والعلوف فهي تحتاج الىٰ وجود أسنان قواطع قوية ، أو الحيوانات المفترسة من آكلة اللحوم التي تحتاج الىٰ امتلاك أنياب حادة لتسهل عليهم عملية قطع الاعشاب للأولىٰ ، وتمزيق الفرائس في الثانية ، فيهبها الله تعالىٰ ما ترفع به حاجتها ، وهو مصداق قوله عز وجل ﴿**الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ**﴾[٢] بما يعطيه المولىٰ (تعالىٰ) للمخلوقات من وسائل تؤمن له الاستفادة المناسبة في معيشته .

* لو تعلّقت الاجابة بالمصالح ، إذاً لِمَ السؤال؟!

ونحن الآن بصدد السؤال بلسان المقال الذي ينفرد به الانسان ، وأهل الايمان بالخصوص ممن وحّد الله وعرفه ، فقد يحصل أن يتوجه مسلم ما الىٰ الله تعالى ويسأله (الهي هب لي مالاً) أو (هب لي شفاءً) ، وهنا تثار شبهة (واجهها اهل البيت (ع) من قبل) ومفاد الشبهة هو ، إن هذا النوع من السؤال وطلب الحاجات يفترض احتمالين :

الأول : أن تتطابق الحاجة في اجابتها مع المصلحة والنظام السائد .

والثاني : أن تتعارض الاجابة مع المصلحة والنظام ، ولما كانت الحاجات المطلوبة بلسان الحال تحصل على الاجابات المؤكّدة دون إشتراط مصاحبة الطلب التكويني بالدعاء اللفظي والسؤال بلسان المقال عندما تتطابق والمصلحة العامة فحينئذ يكون وجود الدعاء اللفظي مجرد لقلقة لسان ، بل لا يعدو ان يكون مجرد لغو أو هراء ! !

وقد جاءت الكثير من الروايات الرادّة علىٰ هذه الشبهة لأجل دفعها وتصحيح فهم الأذهان للموضوع علىٰ ما سنرىٰ في الرد علىٰ هذه الشبهة : ـ

---

(٢) سورة طه ، الآية (٥٠) .

* المقدّرات الحتميّة ، والمقدّرات الالزاميّة:

وللاجابة علىٰ تلك الشبهة ترجع الىٰ ما ذكره العلاّمة المجلسي في شرحه لأصول الكافي حيث قسّم الامور والمقدّرات الىٰ ثلاثة أقسام هي : ـ

١ ـ **المقدّرات والأمور حتميّة الوقوع** (كالغنىٰ والفقر ، الصحة والسقم ، طول العمر وقصره ، ونظير هذه الأمور) وتأتي حتميّة هذه الأمور لما تتطلبه المصلحة الالهية بضرورة وقوعها باعتبار ارتباطها (تلك الامور) بالقضاء والقدر الالهي الحتمي ، سواء طلبها الانسان ، أم لم يطلبها من ربه (عز وجل) .

٢ ـ **المقدّرات والأمور حتميّة الانتفاء** ، وهي الأمور التي تتطلب المصلحة الالهية عدم حصولها أو تركها ، سواء سأل العبد ربه بعدم وقوعها ، أو لم يسأل .

٣ ـ **المقدّرات والأمور الالزامية** ، ونقصد بالألزاميّة هو وقوف وقوعها أو عدم وقوعها علىٰ السؤال والطلب ، فلا تتحقق الاستجابة الالهية علىٰ الاسئلة والحاجات المطلوبة بدون وجود السؤال والطلب ، فلو سأل العبد ربه حاجة لحقق الله تعالىٰ مراده ، ولو لم يسأله لما تحققت الأجابة .

* الرزق من المقدّرات الحتمية لأهميته:

فالرزق (مثلاً) يتعلق بالقسم الأول من المقدّرات لضرورته ولكونه يشتمل علىٰ المصلحة الحتميّة علىٰ إمتداد العمر وبالمقدار اللازم لاقامة أود البدن وتحصينه من التلف ، وهو ما يعبّر عنه بحد الكفاف ، فالمولىٰ (عز وجل) يعطيه للانسان حتىٰ وان لم يطلبه لنفسه ، أو يسأل الله (عز وجل) بردّه ومنعه .

أمّا القسم الثاني ، فيرتبط تركه وعدم تحققه بالمصلحة الالهية الحتمية أيضاً ، حتىٰ وإن أصرّ العبد (فرضاً) وألحّ في طلبه قائلاً (اللّهم هب لي من لدنك ذريّة) ، فانّ الله (تعالىٰ) لن يعطيه ما أراد وسأل لأن في تحقق هذا الأمر (بالفرض) ضياع لدنيا هذا العبد أو آخرته .

والحال (مع الفارق) هو كمن يسأل الرجل الحصيف الكريم أن يجيبه الىٰ إعطائه جرعة من السم الزعاف لأنه يرىٰ فيه راحته ، فيمتنع الكريم عن تحقيق مراد ذلك المرء لأن فيه ضرره وأذاه . أو كالطفل الذي تقع عيناه علىٰ أفعىً زاهية اللّون فيتوسّل الىٰ أبيه أن يعطيها له ، فيمتنع الوالد المشفق علىٰ ولده عن اجابته الىٰ ما أراد .

وهنا تتضح لنا صورة الكرم والشفقة في عدم الاجابة الىٰ تأمين الحاجة الضارة أو المؤذية . وعليه وجب علينا التلفّح بوشاح الحياء والخجل من ربنا (تعالىٰ) علىٰ كثرة إصرارنا الجهول لأنه لم يجب سؤالنا ويرد حاجاتنا المرفوعة إليه لأننا نريد منه الاجابة إمعاناً في ضرر أنفسنا جهلاً وسفهاً ، وهو تعالىٰ لا يجيبنا الىٰ ما سألناه رأفة بنا رحمة ، وبعد كل ذلك نمتعض من تأخر الأجابة ونعرب عن عدم رضانا من التأخير!!

* عسىٰ أن تكون زيادة المال وبالاً :

ويصادف أحياناً أن يسأل البعض ربه قائلاً (الهي فكما أثريت الأثرياء ، وأغنيت اوغنياء ، فاغنني من فضلك ، ولو بمليون واحد فقط!) فلا يجيبه الىٰ ما أراد ، لأن الله تعالىٰ لو يجيبه فسيكون قد أجّج أوار النار في فؤاده ، لأن بعض النفوس تكمن سعادتها في الفقر وبساطة الحال ولكنهم لا يدركون حقيقة هذا الأمر ، لأنهم لو حصلوا علىٰ العطاء لقالوا في كل يوم جديد ﴿**هل من مزيد**﴾ دون أن يستشعروا ليومهم وهو يمر عليهم دون رجعة من طعم ، لذلك لا ينجح الله تعالىٰ طلبتهم رحمة منه ورأفة ، لأن في تحقق مرادهم ما يعارض مصلحتهم ، ولعلكم قد سمعتم بقصة (ثعلبة الأنصاري) أحد اصحاب رسول الله (ص) ، هذا الرجل كان من اكثر أصحاب النبي (ص) عبادة واجتهاداً ، حتىٰ أنه كان أول من يرد المسجد وآخر من يغادره . وكان ذو فاقة واملاق ، وفي بعض الأحيان كان رسول الله (ص) يدفع الىٰ ثعلبة هذا بضع تمرات ليسد بها رمقه .

وفي يوم طلب ثعلبة من النبي (ص) أن يدعو له بيسر الحال ، وكان النبي لا يجيبه الىٰ ذلك حتىٰ اكثر من الحاحه علىٰ النبي (ص) ، فدفع النبي إليه بضعة دراهم لينفق منها علىٰ نفسه ، فأخذها ثعلبة وخرج مسرعاً الىٰ السوق واشترىٰ له شاة بتلك الدراهم ، وصار يبيع من لبن الشاة وصوفها ويجمع الاموال الىٰ الأموال ، ثم اشترىٰ شاة أخرىٰ ، واستمر به الحال علىٰ تلك الصورة يجمع المال ويشتري الشياه حتىٰ صار عنده قطيعاً من الأغنام ، فتشاغل بقطيعه عن عبادته حتىٰ صار آخر من يرد المسجد وأول من يخرج منه ، ولما تيسرت حاله كثرت لديه القطعان وضاقت بها الأرض ، خرج بها الى ظاهر المدينة وصار لا يصل المسجد الآ في الجمعات ، وحتىٰ هذه الأخيرة لم يواظب عليها فتخلف عنها هي الأخرىٰ واشتغل برعاية امواله واغنامه ، فتفقده النبي (ص) في المسجد بين الحاضرين في يوم من الأيام فلم يجده ، فسأل أصحابه عنه ، فقالوا له: أنه مشغول بثروته التي حالت دون مجيئه الىٰ المدينة ، عندها قال النبي (ص): (الويل لثعلبة) يرددها ثلاثاً . ولما نزلت آية الزكاة ، بعث رسول الله (ص) رجلاً الىٰ ثعلبة ليأخذ منه زكاة ماله ، فأمتنع ثعلبة عن دفع الزكاة ، وعاد الرجل الىٰ النبي بيدين خاويتين ، فما لبثوا حتىٰ أنزل الله (تعالىٰ) في ثعلبة ثلاث آيات في سورة التوبة ينعته فيها بالكفر والنفاق وخلفه الوعد في قوله تعالىٰ ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون* فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الىٰ يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون**﴾[٣] .

ولمّا رحل النبي (ص) عن دار الفناء رجع ثعلبة الىٰ المدينة ، ولكن الناس اهملوه وتركوه وحيداً منبوذاً حتىٰ مات حتف أنفه . هذه الحقيقة تجسد ما ذهبنا اليه من أن بعض الحاجات قد تكون عاملاً لهلاك الانسان وتردّيه فيما لو تحققت إجابتها بعد الالحاح من العبد ، ولكن العبد الجاهل نراه يولّي بوجهه عن ربه ويعرض عنه لأن الله تعالىٰ لم يجبه في تحقيق طلبته ، ولكنه لو أدرك ان هناك

---

(٣) سورة التوبة ، الآيات (٧٧ ـ ٧٩) .

مصالح في عدم تحققها وأحد تلك المصالح مصلحته الـذاتية لسجـد لله شكراً لأن الله عز وجل أرفق به ولم يجبه الىٰ هلاكه . ومع ذلك فان الله تعالىٰ لا يرد عبده خائباً (بأي حال من الاحوال) لأنه كريم ورؤوف ، فهو حينئذ سيهبه عوضاً بمثل أو أكثر مما طلبه مما فيه الخير والصلاح كما قلنا من قبل .

* اللّهم هب لي ما فيه صلاحي:

أما القسم الثالث من المقدّرات ، فهو ما يتعلّق بالأمور المربوطة بالدعاء والسؤال ، من غير تلك المتعلّقة بالمصلحة الحتميّة في فعلها أو تركها .

فلو سأل الانسان ربّه لأجابه المولىٰ حينئذ تفضلاً منه وكرماً ، ولو لم يبادر بالسؤال في طلبها لما [illegible] (عزّ وجل) . ولمّا كانت الأمور مجهولة الحال علينا ولا ندري أهي من القسم الأول أم القسم الثاني أم الثالث ، وجب علينـا الدعاء والمسألة علىٰ كل حال ، فالدعـاء خير لا ضـرر فيه ، وخيـر ما فيـه أن تترتب عليه المنفعة المسلّمة ، وفيما لو كانت الحاجة المطلوبة من ضمن القسم الثالث فأن الله تعالىٰ سيمّن علىٰ عبده بالاجابة والاّ فأنـه سيتفضل عليـه بلطفه وكرمه بما يعوّضه عما سأل ، أو أن يذخره له الىٰ آخرته ، والدعاء في حد ذاته عبادة ، ولذلك وجب علىٰ المرء المسلم أن يجعل من سؤاله وطلّبته علىٰ هيئة الدعاء والتوسّل لا علىٰ هيئة الحكم والأمر كما يحصل لدىٰ بعض الافراد الذين يرون في أنفسهم القدرة (بظّنهم) علىٰ تشخيص المصلحة وكأنهم (والعياذ بالله) اعلم بذلك من الله (عز وجل) كأن يقولون في دعائهم مثلاً (اللّهم هب لنا الشيء الفلاني لأنه فيه الأثر الفلاني)!! في حين أن الدعاء في ذاته يحتمل صورة عجز الداعي وضعفه ومسكنته ، لذلك يجدر بالانسان الداعي ان يقول (اللهم ان كان الأمر الفلاني فيه خيري وصلاحي ، فهب لي منه ما فيه رضاك) كما يشيـر الىٰ هذا المعنىٰ النص الوارد في دعـاء تعقيبات صـلاة الظهـر (. . .ولا حاجـة من حوائج الـدنيا والآخـرة ، لك فيهـا رضىً ولي فيها صـلاح الاّ قضيتها) . وهنـا تتضح صورة الـدعاء وأسلوبـه ، فان تحققت الأجـابة بـه فأعلم أنـه كان دعـاءً

وسؤالاً ، وان لم تتحقق فهو لم يكن الاّ حكماً وأمراً ﴿تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً﴾ .

* بصائر القلوب تختار الآخرة:

يقول أبو بصير (وهو أحد أصحاب الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) ، ومن الرواة الثقاة ، وهو رجل ضرير العينين بصير القلب) سألت مولاي الامام الصادق (ع): إني لعلىٰ يقين من أنك تستطيع أن تفعل كل شيء ، فهلاّ مننت عليّ برد البصر عليّ عساني أرىٰ فيه بهائك؟ فتفضل الامام (ع) ومسح بيده الشريفة علىٰ عينيه ، فأرتد إليه بصره ، فتملكّت السعادة أبا بصير وعمّه السرور ، حينئذ خاطبه الامام (ع) بالقول (إن شئت أن تكون كسائر الناس حساباً وسؤالاً في الآخرة فأبق علىٰ حالتك هذه ، وان شئت ان تبعث من قبرك يوم القيامة ثم ترد الجنة دون حساب فتصير معنا ، وجب عليك الرجوع الىٰ حالك الأول) عندئذ قال ابو بصير: والله اني قد إخترت آخرتي علىٰ هذه الدنيا ، فعاد الى حاله الأول ضريراً .

وهذا هو ما نعبّر عنه بالدعاء المشتمل علىٰ الطلب والسؤال لا الحكم والأمر ، بل وأنه يحمل معه (عادة) صورة الرجاء ، وحالة العجز والانكسار والفاقة الىٰ الله ، فأن اجاب الله دعوته فيها ، وان لم يستجب له فلا اعتراض علىٰ مشيئته وارادته .

* إجابة الدعاء ، وعد إلهي حتمي:

ثم يجب علىٰ الداعي أن يدرك ان الله (عز وجل) أعلم بمصلحته منه ، لذلك كان الشرط الأول في الدعاء وطلب الحاجات هو أن يتناسبا والمصلحة العامة (كما قلنا) ، يعني ان يقول الداعي (علىٰ سبيل الفرض) (اللّهم هب لي ما فيه صلاحي) . بعد ذلك يجب علىٰ الداعي أن يستيقن الأجابة الالهية فيما لو كان دعاؤه سؤالاً وطلباً وليس حكماً وأمراً ، مع وجود الانسجام مع المصلحة ، والاّ فان الله (عز وجل) اكرم من أن يرد الدعاء ، فيعوّض الداعي بمثيل ما سأل

أو أفضل منه ، إن في الدنيا ، أو في الآخرة .

وعلىٰ ذلك كان الدعاء مفيداً لا ضرر فيه البتة ، وهو مستجاب بشكل قطعي ، لأن المجيب (تعالىٰ) قد آل علىٰ نفسه أن يضمن الأجابة لمن دعاه وسأله كما في قوله تعالىٰ ﴿**إدعوني استجب لكم**﴾(٤) ، ثم اكّد التزامه بالوفاء بوعده في قوله تعالىٰ ﴿**ولن يخلف الله وعده**﴾(٥) ، إن عاجلاً أو آجلاً .

* إبراهيم والعابد في لقاء بعد ثلاث سنين:

فقد ورد في كتاب حياة القلوب للمجلسي ، أن أحد العبّاد خرج من صومعته الى القفر فشاهد صبياً كأنّ وجهه فلقة قمر وهو يرعىٰ اغناماً ، فأنبهر العابد لبهاء الصبي وتوجّه اليه بالسؤال: من أنت؟ فأجابه الصبي: انا ابن خليل الرحمن (ع) وهذا القطيع قطيعه ، عندها إبتهل العابد الىٰ ربه رافعاً يديه بالدعاء وهو يقول: (اللهم أرني خليلك) ، ولما مضت ثلاث سنين صادف أن خرج العابد من صومعته لبعض شؤونه فالتقىٰ رجلاً عليه سيماء الصالحين فبادره الرجل: هل لي ان اكون ضيفك في هذه الليلة؟ فردّ عليه العابد: أنّىٰ يكون لك ذلك ومنزلي يقع في الجانب الآخر من البحيرة ولا يستطيع أحد أن يمر عليها مشياً بالاقدام سواي ، فقال له الرجل: إن من مكّنك من ذلك لقادر علىٰ أن يمكنني بمثله ، هنا خطر في بال العابد أن مُحاوره ليس رجلاً عادياً ولكنه لم يعرفه من يكون ، فصحبه ولما قربا من الماء وضعا اقدامهما علىٰ صفحة الماء وسارا حتىٰ عبراه ثم وصلا الىٰ منزل العابد في صومعته ، فجلسا سوية وشرع الرجل يحدث العابد عن القيامة وأهوالها وشدائدها ففزعت قلوبهما من ذكرالقيامة ، عندها قال الرجل للعابد: هلّم بنا ندعو الله أن يعيذنا من النار واهوال القيامة ، فلم يجبه العابد الى ما أراد وقال له: إدع وحدك ، فان دعائي لا يستجاب ، فبادره الرجل بالقول: كيف؟ قال: لقد مررت بصبي يرعىٰ أغناماً

---

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٨٦) .

(٥) سورة الحج ، الآية (٤٧) .

لابراهيم الخليل (ع) منذ ثلاث سنين وسألت الله (تعالىٰ) حينها أن يريني خليله فلم يجبني الله الى ما دعوته ، هنا تبسم الرجل وقال له: لقد قضىٰ الله حاجتك ، فلا تيأس أنا إبراهيم الخليل ، فما ان سمع العابد ذلك القول من ابراهيم (ع) حتىٰ رمىٰ عليه نفسه يحتضنه وهو باكٍ من شدة الشوق إليه ، قد أنهمرت الدموع علىٰ وجنتيه .

« ٣٢ »

﴿ يسئله من في السماوات والأرض* كل يوم هو في شأن* فبأي آلاء ربكما تكذبّان﴾ .

* ما يعبأ بكم ربيّ لولا دعاؤكم:

تقول الآية الكريمة الآنفة الذكر ، ان من في السماء والارض يسأل الله (تعالىٰ) بلسان الحال والتكوين ، أو بلسان المقال والتعبير ، فلو لم يأذن الله (تعالىٰ) بالسؤال والطلب ، فمن ذا الذي كان يتجرّأ أن يفصح عن حاجته ويعرض سؤاله في مقابل ارادة الله ومشيئته؟ ، ولكنه عز شأنه يقول **﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾**[١] أي أن قيمتكم أيها الناس تكمن في مسائلكم وحوائجكم المطلوبة . وهذا ما ذهب إليه الحديث الشريف الوارد في كتاب أصول الكافي (أحب العباد الىٰ الله (تعالىٰ) اكثرهم دعاءً له ، وابغضهم اليه من لا يدعوه بالمرّة .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية (٧٧) .

* أهل البيت (ع) اكثر الناس دعاءً:

فمن هو اكثر دعاءً ، وأعظم سؤالاً لله (تعالىٰ) من أهل بيت النبـوة (ع)؟ فهذا دعاء ابي حمزة الثمالي الذي علّمه إيـاه الامام علي زين العـابدين (ع) ، نجد فيه كيف أن الامام (ع) يدعو ربه لسـاعات ، ويكثـر من طلب الحاجـات وعرض المسائل ، بل وكم يظهر الامام السّجاد (ع) من مظاهر العجـز والفاقـة الىٰ الله (جل جلاله) في أدعيته المعروفة بالصحيفة السجاديّة ، ولو جلنا النظر في الصحيفة العلويّة (علىٰ مشرّفها السلام) لتجلّىٰ لنا بكل وضوح كيفية ابتهال الامام امير المؤمنين (ع) الىٰ ربه ، وكيف يعرض له مسائله ، ففي دعاء كميل يعرب الامام علي (ع) عن عجزه وفاقته وحاجته الىٰ الله حتىٰ يقول (إرحم من لا يملك الاّ الدعاء) التي يتوّج بها أمير المؤمنين حقيقة عجزه وتواضعه وفاقته الىٰ الله (عز وجل) .

اذاً طـالب الحاجـات من الله (تعالىٰ) لا يعـدم الاجابـة ، إن كانت وفق مقتضيات المصلحة ، والاّ فأنها لا تستجاب حين تعارضها مع تلك المصلحة ، ولكن الله تعالىٰ لا يرد عبده خائباً بل يعـطيه من أفضـاله وآلاء احسـانه مـا فيه العوض مثلاً أو اكثر منه .

وقد تتطلب المصلحة فوريـة الأجابـة علىٰ السؤال ، كما قـد تتطلب في بعض الأحيان والأبطاء والتأخير ، ويبقىٰ الشيء الثابت والمؤكّد أن لا خائب يُرد عن باب الله أبداً .

* الأرباح المضاعفة لمن سأل ربّه:

وجاء في كتاب الفـرج بعد الشّـدة ، أن إنقطع المـطر في بعض السنين ففسدت الزروع ، وكانت بلدة هناك يعتاش أهلها علىٰ ريع زراعة الأرض ، في تلك البلدة امرأة عجوز تعيل عائلة كبيـرة بزراعـة أرض صغيرة تقـع في خارج بلدتها فتعود عليهم بما يسد رمقهم ويقيم أودهم . ولمّا اجدبت الأرض بامتناع السمـاء عن المطر غلب الاسىٰ والحـزن قلوب أهل البلدة ، واغتمـوا كثيـراً ،

باستثناء تلك العجوز التي خرجت الى ظاهر البلدة ومدت أياديها الىٰ السماء وشرعت بالدعاء والابتهال الىٰ الله تعالى قائلة (يا ذا العرش المجيد ، يا فعّالاً لما يريد ، يا باسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، اللهم إن شئت امطرتنا ، وان لم تشأ لم يكن ، فأصلح حالنا يا أرحم الراحمين) فما أن أنهت دعاءها حتىٰ مرّ بها أحد الأشراف ، فوقع في قلبه أن يسألها عن حاجتها ، فسألها: كم كان الزرع يعود عليك بالنفع؟ فأجابته: مائتان وخمسون ديناراً . قال الرجل: فهل في ضعف هذا المقدار كفاية لك؟ فأجابته: نعم ، فأعطاها علىٰ الفور خمسمائة دينار ثم تركها وذهب لشأنه .

نعم إنها الاجابة الالهية النورية للدعاء المنسجم مع المصلحة التي لا تلبث حتىٰ تعقّب السؤال دون أي تأخير .

* الجوهرة التي يعشقها السلطان:

وفي كتاب عدة الداعي ، نقلت هذه القصة الشيّقة عن الخازن السلطاني ، تقول القصة (كانت هناك جوهرة ثمينة لا مثيل لها لدىٰ سلطاناً من السلاطين ، وكان من فرط تعلق السلطان بتلك الجوهرة أن وكّل بحفظها خازنه ووضعها في صندوق خاص ، وألزم الخازن بحفظها في داره خشية تلفها أو سرقتها أو فقدانها . وفي أحد الأيام غفل الخازن عن اغلاق باب الحجرة الخاصة بحفظ الجوهرة بعد أن جاء ليتفقدها . ثم غادر بيته وانصرف لبعض الشؤون فجاء صبي له ودخل الحجرة ثم تناول الجوهرة من صندوقها وطفق يلعب بها ويدّقها بالحجر حتىٰ تحطمت . ولما عاد الخازن الى بيته وقع بصره علىٰ الجوهرة السلطانية المحطمة تسمّر في مكانه وشخص بصره وتملكّه الرعب والخوف وأيقن بالموت الذي احاط به من كل جانب ، فخرج الى الزقاق لا ينوي علىٰ شيء وهو يولول كالمجنون ويصيح بلا هدىً ، حتىٰ استوقفه أحد اصحابه (من المؤمنين) وسأله: ما الذي دهاك؟ فأجابه والرعب قد تملكه: إنّي ميت لا محالة ، فسكّن روعه وسأله أن يعلمه بما حصل له فقال لصاحبه جميع ما حصل ولما انتهىٰ من كلامه ، رد عليه صاحبه المؤمن قائلاً: هوّن عليك ، لم

لا تنشد أشعار الامام علي (ع) في ظرفك العصيب هذا؟ أنشد هذا البيت وانتظر الفرج:

وكم لله من لطف خفي يدّق خفاه عن فهم الذكي

فشرع الخازن بترديد هذا البيت ، وإذا به يسمع أن السلطان قد وقع فريسة مرض القلب العضال ، وكان أن حضر الاطباء والحكماء عند السلطان ليداووه مما هو فيه ، فتشاوروا فيما بينهم علىٰ علاجه حتىٰ خلصوا الىٰ أن شفاءه مرهون بصنع مركّب من الدواء يشتمل علىٰ جملة مواد بضمنها جوهرة بالأوصاف الفلانية يُأخذ ربعها ويطحن ثم يضاف الى تلك المواد علىٰ هيئة الخليط ، وهنا سارع الحاشية باستدعاء الخازن وطلبوا منه أن يحطم تلك الجوهرة السلطانية ويأتيهم بربعها علىٰ جناح السرعة!! بلىٰ ، لو أخلص المرء بالدعاء وأصدره من صميم قلبه ، ثم لم تكن حاجته معترضةً للمصلحة الالهية لتحققت الاجابة الالهية علىٰ الفور ، ودون أدنىٰ شك أو ترديد .

* نعمة طلب الحاجة تكمن في تأخير الأجابة:

ان اقبال القلب علىٰ الله (عز وجل) له أبلغ الأثر وأعظم النوال في الاقتراب منه (تعالى) ، خصوصاً عندما يولي الانسان وجهه شطر البيت الحرام ثم يرفع كفيّه بالتضرّع والسؤال بقلب كسير ، حينئذ يغنم المرء القرب من الله (تعالى) ببركة السؤال وطلب الحاجات ، وهذه الحالة في الدعاء لها شأن رفيع ، إذ لو قضىٰ الله حاجة عبده بسرعة لما وقف الناس علىٰ دكّة الرب الجليل مراراً ، وعليه اقتضت حكمة الباري (عز وجل) ولطفه أن يجيب داعيه ويعطي مؤمله بوسائله ولكن بعد أن يمضي شيء من الوقت ، لكي يكثر العبد من تردده علىٰ باب مولاه ، ويلّح في عرض مسألته عليه ، ويكثر من التشكّي والبكاء لديه ليحصل له القرب من الله (عز وجل) . يقول المجلسي (رحمه الله) في كتابه مرآة العقول: يقول البعض ان من قال (يا الله) قضيت حاجته علىٰ الفور ، حتىٰ وان لم يدرك ذلك بنفسه ، لأنه بقوله ذاك قد حصّل القرب الربّاني الذي وهبه الله إياه لأنه سعىٰ الى العتبة الالهية المقدسة يجر وراءه اذيال حاجته ، فجرّ

(بتلك الحاجة دون أن يشعر) معه القرب من الله .

لذّة المناجاة ونسيان الحاجة:

ويروىٰ أن الامام الصادق (ع) قال: كانت لدي عند الله حاجة فرغبت في طلبها إليه فتوضأت وتعبّأت للقائه ، ثم جئته مصليّاً لاسأله حاجتي ، فدخلت في حظي من المناجاة معه وبث الأسرار والحوائج لكي أنال منه التفاتته الكريمة ، فتشاغلت بذلك عن حاجتي التي رمت ان اسأله اياها حتىٰ نسيتها .

نعم ، إن الله (تعالىٰ) عندما يريد ان لا يعطي لعبده حاجة ما يسأله اياها ، إنما يكون ذلك لعلمه (عز وجل) بالمصلحة ، فيجعل الله حاجة عبده المنسيّة ذخيرة له في آخرته كما تؤكد هذه الحقيقة الرواية الآتية : ـ (ان الله ليعتذر الىٰ عبده المؤمن في يوم القيامة عن عدم اعطاء عبده حاجته في دار الدنيا ، لأن الدنيا لا وزن لها ولا قيمة ، وليس كما يُظَن بأن الله لا يهتم بعباده ودعائهم ، فيعطيه اليوم (القيامة) من فضله ما يشاء) ، وفي جانب آخر من هذه الرواية تظهر صورة المرء المؤمن وهو يتمنّىٰ (في يوم القيامة) ان لم يحقق الله (تعالىٰ) له شيئاً من حاجاته ومسائله ، لما يشاهده من عظيم عطاء الله في الآخرة .

ويأتي هذا في سياق مقارنة الدنيا بالآخرة من حيث الوزن والاهمية والبقاء . فأين العطاء الباقي من العطاء الفاني؟!

* الافاقة عن الحلم المخيف:

فالدنيا أشبه ما تكون بمنزلة الحلم للنائم ، فكما أن النائم يرىٰ في منامه أحلاماً هانئة لا تلبث ان تتبدد بمجرد أن يفيق فيفقد كل هناء عاشه في زمن الحلم السعيد ، واحياناً يرىٰ النائم كابوساً مخيفاً يجعله يتصبب عرقاً ، فما أن يفيق عنه حتىٰ يسارع الىٰ رفع آيات الشكر الىٰ ربه علىٰ أنه لم يكن اكثر من حلم ، ولذلك يقول الامام علي (ع): (الناس نيام ، فاذا ماتوا إنتبهوا) ويعني بذلك أن الانسان في حلم ما دام هو في دار الدنيا ، فان كان حلمه كابوساً

مرعباً ، فانه يُسعد كثيراً عندما ينتبه من نومته ، وعليه يحمد المرء المؤمن ربه (عز وجل) عندما يموت لأنه بالموت المكتوب قد منّ عليه بالعتق من سجن المادة ، وبه أيقظه من كابوس الأحلام المهولة في عالم الدنيا .

* لا لليأس عند تأخّر الاجابة:

لقد قلنا أن الدعاء لا يرد ، حتىٰ وان تأخرت الاجابة ، لأن التأخير فيه ما تتطلّبه المصلحة العليا وتستدعيه الحكمة الالهية ، لذلك ينبغي على المؤمن أن لا يستولي عليه اليأس والقنوط ، بل عليه ان يدرك ان في هذا التأخير حكمة الهية ومصلحة استدعته ، بل ان ادرك ذلك لتوسل الىٰ الله (عز وجل) وألّح عليه أن يؤخر الاجابة . ففي كتاب اصول الكافي الشريف ، رواية يتحدث فيها الراوي عنه نفسه انه جاء الىٰ الامام الرضا (ع) وقال له: لقد سألت الله تعالىٰ ان يقضي حاجة لي عنده ، ولكنّها لم تقض وقد غامرني الشك فيما يقولون من ان الدعاء مستجاب بعد الصلاة ، بينما اولئك الذين هجروا اقامة الصلاة قد تهيّأ لكل منهم ما اراد من امور الدنيا ، ونحن ندعو في عقيب صلواتنا فلا تستجاب دعواتنا ، فرد الامام (ع) عليه قائلاً ما مضمونه: اياك ان تدع للشيطان سبيلاً الىٰ قلبك ، فيعشعش هذا الخيال في فؤادك ، ان جدي الباقر (ع) قال: المؤمن يدعو الله فيستجيب دعاءه ، ولكنّه يؤخر قضاء حاجته ، لأنه يحب أن يسمع ضجيجه اليه وأنينه وشكواه ليقربه منه .

إذاً الله (تعالى) لا يحرم احداً من الاجابة ، فهل هناك من هو أسوء من الشيطان؟ الشيطان سأل ربه (عز وجل) ان يمهله قائلاً ﴿**قال رب فانظرني الىٰ يوم يبعثون**﴾[٣] فجاءه الرد الالهي ﴿**قال إنك من المنظرين الىٰ يوم الوقت المعلوم**﴾[٣] .

---

(٢) سورة ص ، الآية (٨٠) .
(٣) سورة الحجر ، الآية (٣٧) .

« ٣٣ »

﴿يسئله من في السماوات والارض* كل يوم هو في شأن* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ .

* إطلاقات اليوم في اللّغة:

﴿كل يوم هو في شأن﴾ ، (كلّ) منصوب بالظرفية إستناداً الىٰ فعل مقدّر دلّت عليه عبارة (في شأن) وأحد وجوهه هو (يقلّبُ القلوب في كل يوم) .

ولكلمة (يوم) اطلاقات واستعمالات متعددة ، منها:

أولًا: المعنىٰ المصطلح والمعروف لليوم الممتد بين طلوع الشمس وغروبها ، وهو ما يقال له لغةً (النهار) ، وهو اليوم الشرعي والعرفي المقابل لكلمة (اللّيل) .

ثانياً: المقدار المحدد من الزمان الذي ينجز فيه عمل معين ، وهو ما يعنىٰ به الوقت ، سواء كان هذا الوقت يوماً واحداً أو شهراً أو ألف سنة ، أي أنه لا إعتبار في قصر الوقت أو طوله ، كأن يقال مثلاً (يوم الجمل) والمقصود به معركة الجمل التي استمرّت قرابة الستة أشهر ، أو (يوم صفّين) أي معركة صفّين التي دارت رحاها ثمانية عشر شهراً ، أو (يوم الحساب) ، وهو أحد

مواقف القيامة الذي يعدّه القرآن الكريم ألف سنة مما نعدّ في دنيانا ﴿**وإنّ يوماً عند ربّك كألفِ سنةٍ مما تعدّون**﴾[1] ، أو (يوم القيامة) وهو مجموع مواقف القيامة ويعد بخمسين الف سنة ﴿**في يومٍ كان مقداره خمسين الف سنة**﴾[1][1] ، أو حسبما عبّر بعض الأولياء عن الدنيا والآخرة ، بيوم الدنيا ويوم الآخرة ، ويقصد ما أمتدّ به عالم الدنيا (من الانشاء وحتىٰ الفناء) ، وجميع ما يمتد به عالم الآخرة .

* الفعاليّة الالهيّة الدائمة:

﴿**في شأن**﴾ ـ وكلمة شأن تطلق عادة علىٰ الأمر العظيم ، وتطلق أيضاً علىٰ الفعل والعمل ، فقد يقال ان لفلانٍ شأن وهذا يعني أنه مشغول بعمل ما ، وهو علىٰ أية حال ليس بعاطل . وعليه يكون المعنىٰ المناسب لعبارة ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ أن الله تعالىٰ مشغول بفعل أمر عظيم في كل يومٍ ، واليوم هنا هو الاطلاق الثاني وهو ما نقصد به الوقت المحدد لعمل ما ، وليس اليوم المعروف المقابل للّيل ، ومعنىٰ (كل يوم) هو علىٰ الدوام ، إذاً المعنىٰ النهائي للآية هو ـ ان الله مشغول علىٰ الدوام بفعل أمر عظيم ـ .

وهنا يتبادر الىٰ الذهن السؤال الآتي: ما هو شأن الله (عز وجل)؟ والجواب ، ان المقصود بالشأن الالهي هو الفعل الواحد من الافعال والشؤون المتعلّقة بعباده ، فهو يدير تلك الشؤون والأفعال ، وقد سُئل سيدنا خاتم الانبياء محمد (ص) عن معنىٰ هذه الآية الكريمة (كما ذكر ذلك صاحب تفسير نور الثقلين عن ابي الدرداء عن النبي (ص) فقال:[3] (من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين) .

---

(١) سورة الحج ، الآية (٤٧) .
(٢) سورة المعارج ، الآية (٤) .
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن/ للطبرسي .

* غفران الذنوب وفرج الكّروب:

وعليه فان أحد تلك الشؤون الالهية هو غفران الذنوب ، إذ أن الله (تعالىٰ) هو العالم وحده كم يغفر من الذنوب علىٰ مدار الاربعة وعشرين ساعة من اليوم ، وهو وحده المحصي بعدد المستغفرين ، وسائلي العفو ، وطالبي الصفح عن ذنوبهم وخطاياهم في كل لحظة ، خصوصاً اصحاب الليل ، وعشاق السحر كما في قوله تعالىٰ ﴿**وبالاسحار هم يستغفرون**﴾(٤) وقوله عز وجل ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾(٥) .

أما الشأن الآخر الذي أورده هذا الحديث النبوي الشريف فهو (فرج الكروب) ، فكم من المعضلات والمحن والآلام والاستغاثات والشدائد التي يتلوّىٰ منها العباد في كل آن يأتيهم لها الغوث الالهي والرفق الرباني فيزول عنهم ما بهم من آلامٍ ومعاناة .

* ويرفع قوماً ، ويضع آخرين:

ومن وجوه كلمة (شأن) التي وردت في الآية الكريمة ، والتي أشارا لها بوضوح الحديث النبوي الشريف (سالف الذكر) ، هو رفعة أقوام من البشر ، وضعة آخرين ، فكم من فقير يغنه الله من فضله فيرفعه ، وكم من حقير ووضيع يشرّفه الله بكرمه ، وكم من ذليل ومهانٍ يعزه الله بلطفه ، في كل لحظة وآن . وعلىٰ العكس من ذلك ، كم من شريف يهنه الله ، وكم من غني يملقه الله ، وكم من عزيز يذلّه الله ويهلكه .

يقول الامام علي (ع) (الحمد لله الذي لا يموت ، ولا تنقضي عجائبه ، لأنه كل يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن) .

---

(٤) سورة الداريات ، الآية (١٨) .

(٥) سورة آل عمران ، الآية (١٧) .

* يولج اللّيل في النهار ، ويولج النهار في اللّيل:

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف في هذه القصة اللطيفة ، المناسبة لموضوعنا ، (في أحد الأيام ، سأل ملك وزيره: ما معنىٰ شأن الله في قوله تعالىٰ ﴿كل يوم هو في شأن﴾؟ فأجابه الوزير: أمهلني يا سيدي يوماً افكّر في ذلك ثم أقدّم لك الجواب ، فأمهله الملك فغاص الوزير في بحر أفكاره ، واحاطت به الهموم والغموم وهو لا يحير جواباً لسؤال الملك ، وكان للوزير هذا ، غلام حكيم ولبيب ، فلمّا رأىٰ سيده علىٰ تلك الحال ، تقدّم منه وسأله: ما الذي دهاك يا سيدي فجعلك تغرق نفسك بالهموم هكذا؟ فرد عليه الوزير قائلاً: إليك عني ، فرد عليه الغلام: ولكنني أكاد أحترق لما ألمّ بك يا سيدي ، فقل لي ما الخبر فلعل الله يجعلني سبباً لخلاصك مما انت فيه ، فرمقه الوزير ثم قال له: انه سؤال الملك عن معنىٰ شأن الله وقد استمهلته يوماً لا رد له الجواب ، ولكنني لم أحر لما سأل جواباً ، عندئذ قال له الغلام: لا عليك يا سيدي ، أخبر الملك أنك تعرف غلاماً يعلم سر الآية وهو الذي سيخبرك بمعناها . فذهب الوزير الىٰ الملك وقد اصطحب معه الغلام ، ثم أخبر الملك بالغلام وسر الآية ، فسأله الملك عن المعنىٰ ، فأجابه: ان معنىٰ الشأن في هذه الآية الكريمة هو «يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي» ويشفي سقيماً ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولا حول ولا قوة الاّ بالله العليّ العظيم) .

نعم إن الله يولج الليل في النهار إذ ينقص النهار ويزيد في الليل ، ثم يولج النهار في الليل فينقضي الليل ويزيد النهار ، وهذا ما نعرفه جميعاً ، ففي كل عام نشهد النهار في الصيف يمتد الىٰ أربعة أربعة عشر ساعة ، ثم يتناقص الىٰ أن يصل الىٰ عشر ساعات في الشتاء ، وتمتد تبعاً لذلك ساعات اللّيل

---

(٦) اصول الكافي .

لتصير اربعة عشر ساعة في الشتاء ثم تتناقص ساعات الليل الشتوي لتصل الىٰ عشر ساعات في الصيف وهكذا دواليك .

* يخرج الحي من الميّت ، ويخرج الميت من الحي:

ومن شأنه تعالىٰ أيضاً ، ان ينشى الاحياء عن الاموات ، فهذا التراب الذي ننظره ما هو الاّ وجود ميت ، ولكن قدرة الله تعالى تحييه فتنشأ منه الأبدان الحية .

يا صانع الخلق الذي منه أنفطر هذا التراب الضعيف فيك أقتدر
وعلا كرسيُ علمك كل ذات يا قائماً بالذات دونَ الذوات

ثم لا تلبث الاحياء حتىٰ تموت ، ولا يعلم كم عدد الأحياء الذين يُنشأون عن الاموات في كل يوم الاّ الله (عز وجل) ، وكم من الاحياء الذين يدركهم الموت في كل يوم؟ أبشراً كانوا أم مخلوقات أخر .

والشأن الآخر هو (إعزاز الأذلاّء) ، و(إذلال الاعزاء) ، (ويفعل ما يشاء) .

فعندما سمع الملك هذه العبارات من لسان الغلام أنبهر بما قال ، وأعجبه علمه وحسن بيانه ، فجعله وزيراً له بدلاً عن وزيره السابق ، وهنا قال الغلام (وهذا ايضاً من شأن ربنا) يريد به عزل الوزير عن وزراته ، واحلاله محله ، فقد رفعه الله وفعل ما شاء وحكم ما أراد ، ولا حول ولا قوة الاّ بالله العلي العظيم) .

* من الأصلاب الى الأرحام:

وها قد مرّت علينا سوية نماذج وصور من شؤون الله (تعالىٰ) ، وهي جميعاً تمثل المصداق الحقيقي لكلمة (شأن) الواردة في الآية المباركة .

وقد أورد صاحب تفسير مجمع البيان أقوالاً لعدد من العلماء ضمّنها مصاديقاً ومداليلاً لكلمة شأن ، يقول العلامة الطبرسي : ان الله (تعالىٰ) يحرك في كل يوم ثلاثة قوافل ، واحدة من اصلاب الرجال الىٰ ارحام النساء فيقرّها هناك ، والثانية من ارحام النساء الىٰ وجه البسيطة في دار الدنيا ، والثالثة من

ظاهر الأرض الىٰ باطنها ، وهـذه القوافـل الثلاث لا يعلم عـدتها الا الله (عـز وجل) ، فهذه القوافل ذات الشأن الالهي تسير في كل يوم بـارادته (تعـالىٰ) ، وقوافل الموت لا تتأخر ، إن ليلاً أو نهاراً ﴿**فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾(٧) ، وحتىٰ لو توسل المرء بملك الموت أن يمهله يوماً واحداً فيؤخر عنه الموت المحيق به ، لرد عليه الملك هيهات فقد نفذت أيام عمرك ، فيتوسل اليه أن يؤخره لساعة واحدة ، فيرد الملك كلّا فان ساعات عمـرك هي الأخرىٰ قد نفذت . «اللّهم نسألك وندعوك أن تجعل اعمالنا في تلك السـاعة ملؤها التسليم والانقياد اليك وحدك لا شريك لك» .

* كشف الضرّ ، وجلب النفع :

والوجه الآخر للشأن في هذه الآية هو ما اورده أيضاً صاحب تفسير مجمع البيان حيث ذكر ان دفع الضر وجلب المنافع هو من الشؤون الالهية ، فهو تعالىٰ يـدفع الضـرر ويكشفه عن عبـاده ، ويمّن عليهم بالمنـافع ويغمـرهم بالفـوائد والعوائد . ﴿**وهو عليكم رقيباً**﴾ أي وفوق أنه قد تكفّل بشؤونكم فهو يراقبكم ويحفظكم ، اذاً تعالوا للنظر الىٰ أنفسنا ، فاذا فعلنـا ، وما الـذي سنفعله والله تعالىٰ هو الرقيب علينا؟؟

يقول الامام السجاد (ع) (فكيف اغفل عنـك وانت ذاكـري ورقيبي؟) ، والمراقبة الصحيحة وفقاً لما يقوله علم الاخلاق هو (تحققها بشكل متبادل) فلا يصح ان يقال ان هناك مراقبة دون تحققها في الطرفين ، فكما ان الله (عز وجل) رقيب عليّ ، فينبغي حينئـذ أن لا اغفـل عن ذكـره . يقـول الامـام اميـر المؤمنين (ع) (رحم الله امريءٍ ، خاف ذنبه وذكر ربّه) ، فيا أيها الانسان : تأمّل حـالك وأنـظر في أي شأن انت؟ أأنت في سكـر وثمالـة؟! إذا أنت في كفران واعتراض .

«اللّهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك» .

---

(٧) سورة الاعراف ، الآية (٣٤) .



﴿يسئله من في السماوات والأرض﴾ كل يوم هو في شأن﴾ فبأيِّ آلاءِ ربّكما تكذّبان﴾ .

* الخلق ، وتقسيم الرزق في الدنيا:

بعد أن ذكرنا جملة من الأقوال والآراء في معنىٰ كلمة (شأن) ، نعود فنقول ان كلمة اليوم الواردة في الآية حسبما ذكر ذلك صاحب مجمع البيان انمّا يراد بها عالم الدنيا بأسره ، لأن عوالم الوجود تنقسم الى يومين هما ، يوم الدنيا ، ويوم الآخرة ، وعلىٰ هذا الاساس يكون معنىٰ الآية الكريمة هو (الله (تعالىٰ) في كل يوم من الدنيا والآخرة هو في شأن) ، فشأن الله في يومنا هذا (وهو يوم الدنيا) هو عبارة عن الخلق والابداع والانشاء ، وتقدير الأرزاق لخلقه ، وتقسيمه عليهم ، والأمر والنهي لعباده ، وابتلائهم ، وما الىٰ ذلك من أمور أخرىٰ ، أمّا شأن الله (عز وجل) في غدنا في يوم الآخرة فهو الثواب والعقاب .

* الخلق والانشاء في ستة أيام ، والسبت يوم الراحة!!!

وفوق ذلك فان هذه الآية بذاتها هي رد مفحم لمزاعم اليهود الذين قالوا أن الله (عز وجل) خلق الخلق في يوم الأحد ثم اختتم الخلق والابداع في يوم

الجمعة ، فهي ستة أيام كاملة ، ثم كان يوم السبت يوم استراحة الله (سبحانه وتعالىٰ) ، ومعنىٰ كلمة السبت بالعربية هو التعطّل عن الفعل . ونحن نقول أن ما ذهبت إليه اليهود من عقيدة الاستراحة الالهية في يوم السبت لا يعدو أن يكون محض خطل وهراء ، لأن هذا الزعم مردود منذ البداية ، باعتبار أن منشأ الأيام صادر عن حركة الأرض ، فكيف تأتّىٰ لهم أن يزعموا انه كانت آنذاك أياماً هي الجمعة والسبت وغيرها ولما تخلق الارض بعد؟! بل وفي هذه الآية اكبر الرد المفحم علىٰ ما زعموا من باطل القول والاعتقاد ، ولقد لعن القرآن الكريم هذه العقيدة وأمثالها ، ولعن أصحابها حيث يقول **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء﴾**[1] .

فالزمان إذاً لا تنحصر فيه أفعال الله تعالىٰ ، بل أن شؤون الله (عز وجل) تجري في كل آن وزمان ، بل أن الزمان خَلْقٌ من خلق الله وعليه فان الله (تعالىٰ) لا يحدّه زمان ولا يقيّده أوان ، فشأن الله يجري في كل لحظة من عطاء ، وارزاق ، وكشف كربات ، واجابة دعوات ، وايصال الموجودات الىٰ كمالاتها المطلوبة .

* نظرات اللطف الالهي الىٰ لوح النور:

ونقل كتاب مجمع البيان رواية شيقة عن ابن عباس (رض) حول هذه الآية تفيد (إن مما خلق الله (عز وجل) ، لوحاً من درّة بيضاء ، مداده ياقوتة حمراء ، كتابه نور وقلمه نور ، ينظر الله (تعالىٰ) فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، بها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء[2] .

* إستضائة القلوب بنور الأمل بفضل آية الشأن:

فببركة هذه الرواية المروّية عن ابن عباس حول تفسير آية **﴿كل يوم هو في شأن﴾** ينبغي أن ينفجر نور الأمل في قلوب المؤمنين ، وأن يتنامىٰ الرجاء بما

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦٤) .
(٢) تفسير مجمع البيان/ الطبرسي .

عند الله (تعالىٰ) ، ولمّا كانت شدائد الدنيا كثيرة وصعوباتها متعددة ، وجب علىٰ الانسان أن يفوّض أمره الىٰ الله في كل شدّة ، ويقول (لعّل الله يشملني بنظرة واحدة من نظراته الثلاثمائة والستين فيأتيني الفرج وتشملني الرعاية واللطف الالهيين ، ويدركني الغوث من عنده (عز وجل) .

علىٰ العكس من الكافرين الذين قد أغرقوا انفسهم في بحور اليأس والقنوط من رحمة الله الواسعة[٣] وعليه كان من اللازم علىٰ المرء المؤمن أن ينتظر الفرج الالهي كما في نص الرواية الآتية (افضل العبادات هو انتظار الفرج) ، فلعل الفرج يأتيك عصراً ان لم يأتيك صباحاً ، ولعله يأتيك مساءاً أو صباحاً ان لم يأتيك في ضحاك أو ليلتك . فالتجارب كثيرة في هذا المضمار ، والاحاديث جمّة ، فكل منّا كانت له تجربة من هذا القبيل ، فكم من شدائد وأهوال ومصاعب مرت علينا وظننا بها أن لا حل لها ، ولكن الله تعالىٰ كشف كرباتها وحل معاضلها بلطفه ورحمته ﴿**وكم من بلاء دفعته**﴾ ، ولقد اشتمل كتاب (الفرج بعد الشدّة) بالكثير من الحكايات عن إدراك الغوث الرباني والفرج الالهي لمن ألمّت به الشدائد ، علىٰ حين غرّة ، فرجاً قريباً عاجلاً .

* فبأيّ إجابات ربكمّا لا تصدقّان؟!

﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ، قلنا ان تكرر مجيء هذه الآية انما يحصل للضرورة اللازمة بعد كل آية تسبقها ، وتشتمل علىٰ ذكر نعمة ما بين نعم الله (عز وجل) ، والتكرار هنا هو تكرار أكيدي وتأييدي علىٰ وجود النعمة ، فالآية السابقة تناولت موضوع سؤال من في السماء والارض لربهم (تعالىٰ) بأن يجيبهم لما سألوه ، والحال ان ابواب الاجابة الالهية مفتوحة للسائلين ، وعليه يأتي السؤال التقريري للجن والانس ، فبأيٍ من اجابات الله (جل وعلا) علىٰ مسائل عباده في قضاء حوائجهم لا تؤمنان؟! أهناك مخلوق أو موجود رُدّت مسألته وهي في واقعها تطابق استعداداته التكوينية؟ وهل هناك من سأل الله حاجة وهي

---

(٣) «كما يأس الكفار من اصحاب القبور» سورة الممتحنة ، الآية (١٣) .

منسجمة مع حكمتـه والمصلحة العليـا ، ثم ردّه الله خائبـاً؟ كلا والله ، ولكن الانسان نسيٌ .

* فبأي شأنٍ إذاً أنتما تكذّبان؟

ولما كان الله ولا زال ولن يفتأ أن يكون هو في شأن ، علىٰ الدوام ، فبأي شأن من شؤونه ، وبأي فعل من افعاله يمكنكم التكذيب والانكار؟ أبشأن احيائه الموتىٰ؟ أم بشأن اماتته الاحياء؟ بتقديره للرزق ، أم بتقسيمه علىٰ العباد؟ هؤلاء العباد الذين لم يكن احدهم اكثر من قبضة تراب نبضت فيهـا الحياة ، بـل لم يكن أحدهم اشرف من قطرة ماء مهين ، سمعت وأبصرت ونطقت ثم إشتـدت وتعلّمت؟

فيا معشر الجن والانس ألا تنظرن الى الذين يلتحقون في كل يوم منكم بقافلة الآخرة ، والىٰ الذين يقدمون الى هذا العـالم في قافلة الـدنيا؟ فكم من وضيع ينال الشرف ، وكم من شريف إنحدر الىٰ الضعة ، لأن المصلحة اقتضبت أن يكون كل ذلك ، فهل لا زلتما بعد هذا وذاك لا تؤمنان؟؟!!

* رد الامام السجاد (ع) علىٰ تهديد الحجاج الثقفي:

وجاء في المجلد الحادي عشر من كتاب بحـار الأنوار في أحـوال الامام السجاد (ع) ، أن ملك الروم بعث برسالـة تهديـد ووعيد الىٰ الخليفـة الأموي (عبد الملك بن مروان) ، وقد ضمّن مطلعها بكلمات قاسية وعبارات نابية ، ثم جاء فيها أنه فيها أنه توعّده بأن يرسل إليه مائة الف ومائة الف ومائة الف ، (أي ثلاثة عساكر يبلغ مجموع مقاتليها ثلاثة مائـة الـف رجل) فلم يحـر عبد الملك جواباً علىٰ رسالة التهديد الروميّة ، ولمّا كان عبد الملك يعلم أن الامام علي بن الحسين (ع) هو عالم العصر بلا منازع ، لذلـك وضع خـطة ماكـرة لاستطلاع اجابة الامام (ع) حول رسالة ملك الروم (فهو لم يكن يرغب ان يطلع الامام (ع) او غيره علىٰ حقيقة الرسالة) فبعث الىٰ عاملة علىٰ الحجاز (الحجاج بن يوسف الثقفي) لعنـة الله عليه وأوصـاه أن يكتب الىٰ الامام زين العـابدين (ع) رسـالة

تهديد (تتضمن نفس عبارات التهديد التي بعث بها ملك الروم) ثم يأخذ جواب الامام (ع) عليها ويبعث به إليه لكي يجعل من رد الامام (ع) رداً لملك الروم، فامتثل الحجاج لأمر عبد الملك وبعث برسالة تهديد ووعيد الىٰ الامام السجاد (ع)، ولم يمر طويلاً حتىٰ جاء رد الامام (ع) وفيه «بسم الله الرحمن الرحيم ان لله تعالىٰ في كل يوم ثلاثمائة نظرة، ما من نظرة الّا وبها يحيي ويميت ويعز ويذل، واني ارجوه أن يكفيك نظرة واحدة»(٤)، فبعث الحجاج بنص رد الامام (ع) الىٰ الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان)، وقام هذا الأخير بارسال رد الامام (ع) بعينه (دون أدنىٰ تغيير) الىٰ ملك الروم، ولمّا تلقّىٰ ملك الروم رسالة الخليفة واطلّع علىٰ ما ورد فيها، قال انه ليكذب، فهذا الكتاب وما فيه ليس من عنده، وأن حديثه لحديث أهل بيت محمد (ع)!

* قبل الموعد بساعة، المحكوم بالقتل يصبح خليفة:

ونقل عن هرثمة بن أعين وزير المأمون العباسي أنه قال: في خلافة موسىٰ الهادي العباسي، وعندما كان اخوه هارون ولياً للعهد، جاء في حراس القصر في ظهيرة يوم قائض من أيام الهجير ونادوني أن أجب الخليفة، فخفت علىٰ نفسي وقلت لعله يريد قتلي في هذه الساعة، فأوصيت أهلي بوصيتي، ثم ودعتهم وذهبت الىٰ قصر الخلافة، فلما صرت الىٰ الخليفة، صاح الخليفة بالغلمان أن اتركوا المكان وخلّوه، فلما بقيت والخليفة لوحدنا، التفت اليّ وقال: اسمع، لقد دعوتك لأجل أن تنجز عدة امور عظام، فبادرت بالقول من فرط هلعي وخوفي منه: لبيك يا مولاي فلك السمع والطاعة، وهنا شرع الخليفة بتعريف تلك الامور قائلاً: أمّا الأمر الأول، فأريد منك أن تقتل اخي هارون ولي العهد في ليلتنا هذه ولا تبرح حتىٰ تأتيني برأسه، فلقد جاءني السعاة والعيون بأخبار مؤكدة تقول أنه قد أزمع علىٰ قتلي، وهنا قلت له: الامان يا سيدي، قال: هات ما عندك، قلت: يا مولاي دع عنك ما نويت من قتل

---

(٤) بحار الانوار/ المجلّد الحادي عشر.

هارون فأنه من أرحامك ، فردّ عليّ مغضباً: إن تفعل والاّ عدمتك حياتك . ثم تابع قوله ، أمّا الأمر الثاني فهو أن تبادر الىٰ الذهاب الىٰ السجن بعد فراغك من قتل هارون ، فتبحث عن ولد علي وفاطمة (ع) فتعدمهم الحياة جميعاً ، والويل لك لو بقي منهم أحداً . وأمّا الأمر الثالث فهو أن تذهب الىٰ الكوفة بعد فراغك من قتل السادة العلويين والفاطميين ، وتنادي علىٰ رؤوس الناس ، من كان من اولاد العبّاس فليخرج عن المدينة ، ثم تعطي اوامرك باحراق الكوفة ، بعد ذلك تتفحص دورها فان بقي فيها دار سالم تخربها ، ومن عثرت عليه وبه رمق من الحياة فأذقه الحمام ، ولما أتم قوله صاح بي : والآن قم وأعدد نفسك لما أُمرت به .

يقول هرثمة ، ثم ولّىٰ عني موسىٰ الهادي وتركني ارتجف كالسعفة في الريح العاصف حتىٰ جنّ عليّ اللّيل وأنا افكر فيما أمرني به ، وقد غلبت عليّ الهواجس واذا بي اغطّ في نومة ، وفجأة حضرني من قال لي : أجب حرم الخليفة فقد دعوك لأمر عاجل ، فذهبت مسرعاً واذا بصوت الخيزران أم الخليفة يُناديني : أدخل يا هرثمة انه والله لأمر عظيم ، فلمّا دخلت اعلمتني الخيزران بموت موسىٰ الهادي! فعجبت من قولها وسألتها عما جرىٰ وامسك بيد الخليفة وأتحسسها فاذا هو جثة هامدة لا حراك فيها ، فأجابتني الخيزران محدثةً: لقد كنت أنصت الىٰ ما حدّثك به ولدي موسىٰ عندما استدعاك واختلىٰ بك ، وسمعت الأمر كلّه بقتل ولدي هارون وذرية علي وفاطمة وشيعتهم ، ولما ولّىٰ عنك ودخل الى مقصورته ذهبت إليه وجعلت أتلّطف به وأتوسّل إليه عسىٰ أن ينصرف عما عزم عليه ، فلم يلتفت اليّ ، فأمسكت ذوائبي البيض وسألته أن يعزف عما نوىٰ ، فازداد حنقاً وضربني علىٰ صدري ثم صاح بي (تنّح جانباً) ، فأصررت عليه ان لا يفعل ، وهنا شخر غيضاً وغضباً وأمتشق سيفه وأقبل نحوي وهو يصيح : ان لم تسكتي قتلتك انت الأخرىٰ ، فأحسست أن ما من معين ولا من مغيث الاّ الله وحده ، فتوجّهت إليه أبث شكواي وقد فاضت عيناي بالدموع ، ووقفت أصلي ركعتين ، ثم كشفت عن رأسي ونشرت شعري ، وشرعت بالنحيب والبكاء والانين والدعاء الىٰ الله (تعالىٰ) وشكوت إليه ولدي

موسىٰ حتىٰ خنقتني الآهات وأخرستني العبرات ، وفي هذه الاثناء جاءني من يقول هلّمي فقد اختنق موسى ، فقفزت من مكاني وذهبت إليه وانا اصرخ بهم: آتوني ماءً ، فلما جاؤوني بالماء أخذت أسقيه فاذا بالماء لا يدخل في جوفه ، ولم يمض طويلاً حتىٰ مات!!

هناك تقلّد هارون زمام الامور وجلس علىٰ كرسيّ الخلافة بكل عظمة وجلال بعد أن كان قاب قوسين أو أدنىٰ من الموت المحتوم ، ولكنه أمسىٰ الخليفة الحاكم قبل موعد قتله بساعة واحد ، بينما يموت الخليفة السابق ، (أو يقتل خنقاً كما في بعض المنقولات) الذي أمر بقتل ولي العهد والخليفة الجديد ، قبل أن يُنفّذ ما عقد العزم عليه . ولكن تُرىٰ هل إعتبر هارون بما آل إليه مصير أخيه؟! لقد فعل هارون فعالاً ، (وأي فعال) بآل علي (ع) ، ولم يلبث أن جاء ولده المأمون ليكمل المشوار ، فيفعل فعالاً منكرة بالامام الرضا (ع) والسادة العلويين .

« ٣٥ »

﴿سنفـرغ لكم أيّهـا الثقــلان* فبـأيّ آلاء ربّكمــا تكذبّان﴾(٥) .

* تهديد المخالفين بالحساب :

في أوائـل السـورة جـاء بيـان النعم والآلاء ، وآيـات القـدرة والحكمـة الالهية ، وبعد ذلك ذكّر الله (تعالىٰ) بأن كل ما في دار الدنيا مصيره الفناء ، ولا بقاء الاّ لوجه الله والدار الآخرة . وقد جاء الدور هنا لهذه الآيـة الكريمـة التي تهدد الكفار والفساق من الثقلين وتتوعدهم ، ثم الانتقال بعـد ذلك الىٰ بشـارة المؤمنين والمتقين ووعدهم .

وتعد هذه الآية أول رسائل التهديد الوارد في السورة ، **﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾** أي قريباً ما ستجزون علىٰ اعمالكم يا معشر الجن والانس . وكثيراً ما يستخدم في اللغة مثل هذا الاسلوب التهديدي ، فقد يسيء البعض تصرفه مع سيده أو رب عمله بما لا يرتضيه منه السيد ، فيبادر السيد الىٰ التهـديد قـائلاً : صبراً ، سأفرغ لكم واحاسبكم علىٰ مـا فعلتم . ويستخدم رب العـالمين ذات

(١) سورة الرحمن ، الآيات ( ) .

الاسلوب المتداول في التحاور لتهديد اهل المعاصي ووعيدهم ، فهو (تعالىٰ) يقـول ، لا تظنـوا أن لا حساب لمـا تفعلونه ، فلكـل شيء آن ليس بسابقـه ، ولكنكم اليوم في مهلة ، ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ ولكن سيأتي يوم يكون شين الله (عز وجل) فيه حسابكم .

* الفراغ في هذه الآية يعني القصد:

يقول المحقق الطبرسي في تفسير مجمع البيان ، ان للفراغ معنيان : ـ

الأول: يعني القصـد ، وعليه يكـون معنىٰ الآية ﴿**سنفـرغ لكم**﴾ هـو سنقصدكم دون إمهال لنجزيكم علىٰ أفعالكم أيها الثقلان .

والثـاني: يعني التعطّل عن الفعـل أو العمل ، وهـذا المعنىٰ لا يناسب موضوع الآية بالتأكيد ، فعندما نقول أن فلاناً لا فراغ لديه ، فنعني أنه مشغول بأمرٍ ما عطّله عن فعل أمور أخرىٰ ، وهذا المعنىٰ كما نرىٰ لا يمكن بأي حال أن نجد له انطباقاً على الذات الالهية المقدسة لأن ذلك كفر وخطأ فـاحش ، فهو تعالىٰ لا فراغ عنده ، ولا يلهيه شيء عن شيء ، بـل ان هذه الحقيقـة تصدق علىٰ الانسان وشؤونه ، فعندما يشتغل المرء بصنعة النجارة مثـلاً ، فهو حينئـذ مشغول بها ولا يمكنه أن يكون منشغـلاً بصنعة الخيـاطة في ذات الحـال ، اذاً الباري تعالىٰ لا يلهيه شيء عن شيء ويعجزه فعل عن فعل آخر ، كما يؤكد هذه الحقيقة نص الدعاء الآتي (يا من لا يغلّطه سؤال عن سؤال ، يا من لا يحجبه شيء عن شيء ، يـا من لا يبرمـه إلحاح الملّحين)[٢] ، وعلىٰ ذلـك لا يصـح اعتماد المعنىٰ الثاني في تفسير هذه الآية بتاتاً .

وبهذا الشأن سُئل الامام امير المؤمنين (ع): كيف يحاسب الله (تعـالىٰ) الخلائق من الاولين والآخرين في يوم القيامة؟ (ظنّاً منهم ان عالم الآخرة كعالم الدنا وان المحاسب هو الانسان!!) فأجاب الامام (ع): كما يرزقهم جميعاً ،

---

(٢) دعاء الجوشن الكبير .

يحاسبهم جميعاً . أي كما أن الله عز وجل يقدّر الرزق لعباده ، فلا يشغله ما قدره لعبد ما عن تقدير ما لسواه ، فكذلك حسابهم فهو لا يتعطّل عن البعض لانشغال الآخرين بالحساب .

ومع ذلك فنحن جميعاً نذكر الله (تعالىٰ) ونسأله مرددين «يا الله» ، ونحن نعرف ان الله (عز وجل) لا يشغله سمع عن سمع ، فهو سميع لدعوات الجميع ، ومجيب لحاجات الطالبين ، دون ان تختلط عليه الاصوات (لكل مسألة منك سمع حاضر وجواب عتيد)[٣]

* الحس المشترك وتعود الأفعال:

ولأجل أن ندرك هذه الحقيقة بشكل أفضل ، ونستيقن من أن الله (تعالىٰ) لا يشغله أمر عن أمر آخر ، فلنأتي الىٰ أنفسنا ونجيل النظر فيها ، خصوصاً في موضوع الحس المشترك الذي يسميه الطب اليوناني (البنطاسيا) ، ومحل الحس المشترك يقع في مقدم الدماغ (في الانسان والحيوان) ويتألف من خمسة جداول تصب فيه منطلقة من خمسة سبل هي (سبيل النظر في العينين ، سبيل السمع في الاذنين ، سبيل الذوق في اللسان ، سبيل الشم في الأنف ، وسبيل اللمس والحس في بشرة البدن) وهي ما تسمىٰ بالحواس الخمس ، وهذه الحواس تصب مجتمعة في محل الحس المشترك في مقدم الدماغ ، بحيث يشعر الانسان بهذه الحواس في آن واحد دون أن يتعطل الحس في واحدة عن الاحساس بالأخريات ، فعندما يتناول الانسان طعامه يشعر في آن واحد بلذّة الطعام وطعمه ، وشكل رائحته من خلال حاستي الذوق والشم ، ولو افترضنا وجود (شعرة) في الطعام لأحسّت حاسة اللمس في ذات الوقت بها دون ان يتعطل عمل باقي الحواس ، مع اشتغال حاسة النظر بالأبصار الىٰ الطعام واشتغال حاسة السمع بالاصغاء الىٰ أحاديث الأهل والأصحاب ، إذاً الحواس جميعاً تشتغل دون أن يتلكأ عمل أية واحدة منها مع اشتغال الأخريات ، تماماً

---

(٣) دعاء شهر رجب .

كالحوض الذي تصب فيه خمسة جداول وهـذا ما نعبّـر عنه بـالحس المشترك الذي يقع محله كما قلنا في مقدم الدماغ .

* تجرّد النفس يمكنّها من الآتيان بآلاف الأفعال في وقت واحد:

ولو انتقلنا الىٰ نقـطة أخرىٰ متقـدمة ، عنـد النفس الانسانيـة الناطقـة ، لوجدناها مشغولة بآلاف الأفعال في آن واحد ، دون أن يتعطّل عمل البعض عن البعض الآخـر ، فالمعـدة في دورها المـطلوب ، والقلب في شأنـه المعتـاد ، والكبد في عمله المحدد ، وهكذا بالنسبة لسائر الأجهزة والأعضاء ، بحيث أن مجموع الاعضاء والأجهزة والانسجة في بدن الانسان نجدها دائبـة في افعالهـا وادوارها لا يعطلّها شيء عن شيء ، فهي في حالها هذا وكـأنّها أنمـوذج بسيط لاسماء الله وصفاته التي يصفها دعاء الجوشن الكبير في عبارة «يا من لا يمنعه فعل عن فعل» ، وعلىٰ هذا الاساس فان الفراغ يكون من شأن ممكن الـوجود وهي المخلوقات ، وليس من شأن واجب الوجود وهو الله (سبحانه وتعالىٰ) .

وتـأسيساً على مـا سبق فان الشغـل والعمل والفعـل في مقـابـل الفـراغ والسبات والفترة ليس هو من شأن الله (عز وجل) ، لأن الله لا يشغله ولا يقعده شيء ، وما الدنيا والآخرة عنـده الاّ سيّان ، إذاً مـا معنىٰ هذه الآيـة؟ إنه ذات المعنىٰ الذي ذكرناه في بداية حديثنا عن الآية الكريمة ، فمعنى ﴿سنفرغ لكم﴾ لا تعني علىٰ الاطلاق أن سنتفرّغ لكم بعد الانتهاء من اعمـالنا ، بـل المعنىٰ الواقعي هو ـ سنقصدكم بحسابنا لنجزيكم علىٰ ما فعلتم ـ ، وهذا هو شأن الله (تعالىٰ) في القيامة المشتملة علىٰ مواقف الحساب والجزاء والثواب والعقاب يا معشر الجن والانس .

اذاً هذه الآية في حقيقتها هي آية وعيد وتهديد خاص بالمجرمين .

* سبب تسمية الجن والأنس بالثقلين:

وعن سبب تسمية الجن والأنس بالثقلين ، ذكر العلماء عدة وجوه لـذلك وسنستعرض أهمها:

الوجه الأول: الثقلان مثنىٰ لكلمة ثقل وهو الأمر العظيم ، إذ أن العرب إعتادت علىٰ تسمية كل شيء مهم (ثقيل من حيث الوزن والقيمة) ، وتقف كلمة ثقيل في مقابل كلمة خفيف ، وهو الشيء الذي لا وزن له ولا أهمية . وكما نعرف أن الموجودات كثيرة ، ومن جملتها الجمادات ، والحيوانات ، والنباتات ، ومخلوقات البر والبحر والسماء ، ولكن الثقيل منها والمهم هو عقلاء هذه الموجودات ، وهم الأنس والجن ، اما سائر المخلوقات الاخرىٰ فهي في الحقيقة مسخرة لخدمة هذين الثقلين ، ولذلك كانت حركات وسكنات وأقوال وأفعال ونوايا وعقائد الانس والجن موضع ملاحظة ورقابة ومحاسبة الهية ، ويترتب عليها الجزاء ، بعكس الحيوانات التي لم يضعها الباري (عز وجل) في موضع التكليف

* الكتاب والعترة ثقلان أيضاً:

ولما كان معنى (الثقلان) على اساس هذا الوجه هو الأمران العظيمان ، فقد نقل المسلمون (سنة وشيعة) ان النبي (ص) ارتقىٰ المنبر في أيام عمره الأخيرة ونادىٰ بالناس أن(أيها الناس ، أنه يوشك أن أدعىٰ فأجيب ، إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً حتىٰ يردا عليّ الحوض ، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما)[٤] . وقد ذكر عدد من علماء الحديث أن القدر المسلّم به (من دون ريب) في عترة النبي (ص) هم «علي وفاطمة والحسن والحسين وذرية الحسين (ع)» .

فتلك هي العترة الطاهرة للنبي (ص) علىٰ ما اتفق عليه المسلمون ، ونحن نرىٰ بأم أعيننا كيف خُلّف الرسول (ص) في عترته وذكرياته الجميلة!!

---

(٤) تفسير نور الثقلين ، (ج ٥ ، ص ١٩٢) عن تفسير علي بن ابراهيم القمي .



﴿سنفـرغ لكم أيّهـا الثقــلان﴾ فبـأيّ آلاء ربّكمـــا تكذبّان﴾ .

* الثقلان ، في ثقل التكليف:

من البديهي ، أن الدنيـا هي دار العمل ، والآخـرة دار الجزاء ، والآيـة المباركة ﴿**سنفرغ لكم أيها الثقلان**﴾ تعني ـ سنقصدكم أيّها الثقلان لنجزيكم علىٰ اعمالكم ـ . والحال أن دارنا هذه هي ليست دار جزاء ، بل هي دار عمل كما يشير الىٰ ذلك الحديث الشريف (اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل) .

وقد ذكرنا الوجه الأول في تسمية الأنس والجن بالثقلين ، وقلنا ان الثقل يعني الشيء العظيم .

الوجه الثاني: وهو المروي عن الامام كشاف الحقائق جعفـر بن محمد الصادق (ع) (إنّما سُميّ الأنس والجن ثقلان لأنهما حملا ثقل التكليف) ، إذاً حمل الانس والجن ثقيل ، وهو بالطبع يختلف عن الاحمال الثقيلة التي تحملها الدواب ، فثقل أحمالهم جاءت من ثقل ما كُلّفـوا به بـاعتبارهم من العقـلاء ،

لذلك وجب عليهما (الانس والجن) ان ينقلا الحمل الثقيل المكلّفين به الىٰ المحلّ المطلوب بكل أمانة ، وهذا (الحمل الأمانة) الذي اشفقت من حمله السماوات والارض والجبال كما في قوله تعالىٰ ﴿**إنّا عرضنا الأمانة علىٰ السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان* انه كان ظلوماً جهولاً**﴾[1] .

تأبىٰ السما حمل الأمانةِ مشفقة   بينما ذا المجنون يسعىٰ لها

إنه والله لحمل ثقيل ، لأن كلمة تكليف مشتقة من التكلّف وهو حمل الانسان علىٰ ما لا يرغب ، لذا كان لزاماً علىٰ الانسان أن يخاصم نفسه ويحاربها ، فكم من رجلٍ ما أن يقع نظره علىٰ امرأة حتىٰ يخسر نفسه ويفقد احساسه وشعوره؟ لذلك كان المطلوب من الرجل أن يكون علىٰ نحوٍ يمكنّه من أن لا يجد أدنىٰ فرق بين ان يصادف في طريقه جداراً قد صبغ بألوان زاهية أو أن يواجه امرأة قد تزينت بألوان برّاقة ، لأن المهم عندنا هو أن نوصل حمل التكليف الىٰ المنزل الأخير ، منزل الموت الذي تعد ساعته أفضل الساعات ، وأولىٰ علامات الفرج

* ثقل المعصية يقع علىٰ الأنس والجن:

الوجه الثالث: وقد ذكر بعض العلماء أن كلمة ثقل التي وسم بها الانس والجن في الآية الكريمة موضعٍ بحثنا إنما جاءت باعتبار ثقل المعصية والأثم ، فقد يتصور المرء الذنب خفيفاً من خلال ظاهره ، ولكنه لو يدرك ان هذا الحمل الخفيف من المعاصي والذنوب لو تجمّع مع سواه ، لجاء اليوم الذي تمثل فيه هذه الأحمال وكأنها الجبال العظيمة من المعاصي والآثام[3] . وعليه يكون معنىٰ ﴿**أيّها الثقلان**﴾ هو ـ أيّها الجمعان اللذان ثقلا من وطأة ثقل الذنوب والمعاصي .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٧٢) .

الوجه الرابع : بينما قال البعض أن سورة الزلزال أشارت الىٰ معنىٰ الثقل في قوله تعالىٰ ﴿**وأخرجت الأرض أثقالها**﴾ ، وأحد موارد الثقل هنا هو خروج الأبدان من باطن الأرض في يوم القيامة ، ولذلك قيل للبشر ثقل ، وقد استخدم التغليب في آية ﴿**سنفرغ لكم أيها الثقلان**﴾ علىٰ الجن فَعُدّ هو الآخر ثقلاً وتأسيساً علىٰ كل ما سبق ذكره من وجوه ومعاني كلمة (ثقلان) أصبح من الواضح لدينا أن التسمية جاءت باعتبار ثقل هذين الجنسين من الخليقة وعظمتهما قياساً بالمخلوقات الاخرىٰ غير العاقلة ، أو باعتبار ثقل التكليف الالهي نسبة مع الموجودات الاخرىٰ ، أو من حيث ثقل الذنوب والآثام المقترفة من هذين المخلوقين .

﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ـ فبأي نعمة الهية تجحدان؟ أبنعمة جزاء الأعمال لا تصدقان؟!

* هل يُعدّ التهديد والوعيد نعمة؟

ومن هذه الآية ، والآيات الكريمة السبع اللواحق ، تشرع السورة بتهديد المجرمين ، فهي تأخذ منحىٰ وصف الوان العذاب المعد لاهل المعاصي ، وصفة النار المهولة ، ولا تلبث السورة حتىٰ تعقّب كل آية منهن بآية ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ، ولعل البعض يثير في هذا المجال شبهة يدعي فيها أن من الصعوبة بمكان أن يتم اعتبار جهنم نعمة من النعم التي يذكّر الله (عز وجل) بها عباده من الجن والانس .

وسنذكر هنا عدة ردود مناسبة لهذه الشبهة ، في البداية نقول ان من الطبيعي ظهور قسمات الارتياح علىٰ محيّا الانسان عندما تأتيه بشارات السرور والأخبار السعيدة التي تنبئه بهلاك عدوّه أو اصابته بالنكبات والبلايا والشدائد ،

---

(٢) ﴿**وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً**﴾ . سورة الأسراء ، الآية (١٣) .

وعلىٰ العكس من ذلك يصاب الأنسان بالهموم والغموم وتعكير المزاج عندما يبصر عدوّه وقد رفل في أحوال حسنة قد كُللّت بالسعادة والسرور .

فالمسلم المؤمن ، عندما يرىٰ يزيداً والشمر قد غلّا واُلقي بهما في نار جهنّم تتعلج في صدره نشوات الافراح وتنفرج أساريره ، وهو مصداق قوله تعالىٰ ﴿**فاليوم ، الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، علىٰ الأرائك ينظرون**﴾[٣] ، وما ضحكهم الّا لأن العذاب قد أطبق علىٰ الكافرين ، هذا العذاب الذي حذّرهم منه المؤمنون في دار الدنيا ، فلم يزدهم ذلك الا سخرية واستهزاءً وعتوّاً ، نعم لقد ضحك الكفار علىٰ المؤمنين بنصحهم واشفاقهم عليهم ، فكانت عاقبتهم أن هم في العذاب قد سقطوا ولات حين ندم .

* سرور أهل البيت (ع) وقد حمل إليهم رأس إبن زياد:

وجاء في كتاب نفس المهموم ، والعديد من كتب التواريخ والأخبار ، أن الهاشميين لم توقد لهم نار للطبخ في منازلهم منذ فاجعة كربلاء ، وقد لبسوا السواد ، وطفقوا يقيمون مجالس العزاء والبكاء والنحيب مدة ثلاثة سنين ، حتىٰ جاء اليوم الذي أحضر فيه المختار بن ابي عبيدة الثقفي رأس اللعين ابن زياد ، ورماه في حضرة الامام السجاد (ع) ، اذّاك تبدلت احزان اهل البيت أفراحاً ، وخفف هذا الأمر شيئاً من لوعتهم وأساهم ، فسجد الامام زين العابدين (ع) لله شكراً ، وبدا ضاحكاً مستبشراً ونزع بنو هاشم ألبسة السواد ومسوح الحزن .

* النار تهدأ من غيظ قلوب المؤمنين:

فالانسان يصيبه الغم ويأخذ قلبه الكمد عندما يبصر عدوه ، وقد رفل بالنعم وهنيء بالسعادة وعلىٰ العكس ، يصيبه الفرح والسرور عندما يرىٰ عدوّه في العذاب محضراً ، وعلىٰ هذا الاساس كانت النار وأهوالها وصنوف عذابها مبعث سرور وفرح للمؤمنين ، لأن الله (تعالىٰ) جعلها مقراً ومقاماً لاعدائهم في

---

(٣) سورة المطففين ، الآية (٣٤) .

الله ﴿هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون﴾ ، فالحمد لله الذي جعل من جهنم سبباً تقر بها عيون المؤمنين ، فلو لم تكن النار ، لتسائل المؤمنون ، في أي مكان سيلقىٰ المجرمون يزيد والشمر وسائر اعداء الله واعداء نبيه واهل بيته (ع) جزاء أعمالهم؟

اذاً آية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ هي في حقيقتها بشارة للمؤمنين ، ووعيد للمشركين والمعاندين والمنافقين ، فهي تحذّر من مجيء يوم يحاسب الناس فيه علىٰ ما فعلوه ، ولا يُستثنىٰ منه شيئاً وإن كان مقدار خردلة أو هو دونها .

* الاهتمام بشأن المؤمن وأعماله:

وعن اهتمام المولىٰ (عز وجل) بشأن المؤمن وعمله ، قال السيد ابن طاووس عبارة رائعة هي: ان الحكمة الكامنة في تكليف الله (تعالىٰ) الكرام الكاتبين بتسجيل أقوال وأعمال العباد ، إنما هي محض إهتمام بشأن المؤمن والتثمين لاعماله ، وهذه الأعمال تعرض في كل يوم اثنين وخميس علىٰ امام الزمان (ع) ، فان أبصر فيها حسنة أسرّته وسأل الله (تعالىٰ) التوفيق لصاحبها ، وأن أبصر فيها سيئة سأل الله العفو والمغفرة لمقترفها .

وقد يبدو للمرء أن قطرة دمع واحدة لا قيمة لها ، ولكن نقول له ليستيقن ، ان لو انفجرت من عينه هذه القطرة خوفاً من الله (جل جلاله) ، أو حزناً وكمداً علىٰ ما أصاب الامام الحسين (ع) فحينئذ تكمن قيمتها الحقيقية في اطفائها لبحار من النار ، وهنا يسارع الملكان الكاتبان الىٰ درج هذه الذرفة من الدمع في صحيفة عمل المرء .

---

(٤) سورة يس الآية (٦٣) .



﴿سنفرغ لكم أيّها الثقلان* فبأي آلاء ربّكما تكذبّان﴾ .

(لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب)

* الحمد لله الذي لم يجعلني من أهل النار :

قلنا ان النار جعلها الله مثوىً ومأوىً للكفار والمعاندين ، وسيأتي اليوم الذي تمتلأ النار من اولئك الأشرار ، كما يذهب نص دعاء كميل الىٰ تأكيد هذا المعنىٰ في عبارة (أقسمت أن تملأها من الكافرين ، من الجنة والناس أجمعين ، وأن تخلّد فيها المعاندين) ، فالنار هنا ستكون سبباً من أسباب تسكين قلوب المؤمنين ، وباعثاً هاماً علىٰ تنفيس همومهم لأنها آوت أعدائهم الذين ما انفكّوا يعاندونهم .

ويروىٰ أن المؤمن عندما ينتهي به الأمر الىٰ الجنة ، ينتبه الىٰ احدىٰ النعم الالهية الغافل عنها عندما يعرض له مكانه في النار الذي كاد أن ينحدر إليه فيما لو لم يكن مؤمناً ، فيغلبه السرور ويسعد جذلاناً لما وفقه الله له من نجاة وانعتاق . وفي ذات الحين يعرض للكافر المخلّد في النار مكانه في الجنّة الذي كاد أن يسمو إليه فيما لو كان مؤمناً ، فتزداد حسرته ويشتد عذابه وبلائه .

إذا النار للمؤمن مبعث سرور وفرح من جانبين :

الأول: لأنها صارت مثوىً لاعداءه في الله ، والثاني لأن الله (عز وجل) انقذه منها .

* الفرق بين الذات والعرض:

اما الوجه الآخر في اعتبار الحساب والجزاء والنار نعماً الهية فلأنها مطلوبة ، والمطلوبيّة علىٰ نحوين:

اول: المطلوب بالذات ، أي أنه مطلوب للرغبة فيه مباشرة .

والثاني: المطلوب بالعرض ، وهو المطلوب بالواسطة والتبعيّة لتحقيق هدف معين ، ولتوضيح هذا الأمر نعمد الىٰ المثال الآتي :

لو أخذنا العسل (مثلاً) ، هذا النوع من الطعام مطلوب للأنسان الصحيح والمعافى بذاته لأنه طعام لذيذ ومفيد ، بينما الدواء المسرء نجده مطلوب عند الانسان السقيم والمريض ولكن بالعرض ، أي أن المريض يذهب الىٰ الطبيب ، ويتكلف المشقة للوصول اليه ، ثم ينفق أموالاً ، ثم يذهب للبحث عن هذا الدواء المر الذي وصفه له الطبيب علاجاً ، ثم يتحمل مرارة طعمه عندما يشربه ، فهو يطلبه لأجل الشفاء والعافية ولذلك قيل له مطلوب بالعرض ، لأنه لو لم يكن مطلوباً لهدف وغاية لما اتعب المرء نفسه في البحث عنه والحصول عليه وتجشّم الصعوبات .

* الجنة مطلوبة بالذات ، لا النار:

وقد خلق الله الجنة في بداية الأمر وجعلها مطلوبة بالذات ، ولكن ولكون الانسان ميّال بطبعه للكسل والخمول ، كان ذهابه الىٰ الجنة تفسيراً لما لطريق الجنة من صعوبات وشدائد تستدعي سعة الصدر وفائق الصبر ، والحال أنه كسول ومتقاعس ولا يعدو الاّ وراء الشهوات الآنية الحاضرة ، وفي هذه الحال (سيبقىٰ الانسان محروماً من الوصول الىٰ نعم الجنة ولذاتها) ، لذلك عمد المولىٰ (تعالىٰ) الىٰ خلق النار وجعل فيها ألوان العذاب والأهوال ثم حذّر منها

أهل الشهوات كيما يخافوا ، كما في قوله (تعالىٰ) ﴿**وذلك يخوّف الله به عباده* يا عباد فأتقونِ**﴾[1] فاذا ما تولّد الخوف لدىٰ الانسان دخل حينئذ في مدخل المتقين ، فنفض عن نفسه غبار الكسل ونزع ثوب الخمول وشمّر عن ساعديه في طلب الجنة ، لأنه أدرك أن ما من سبيل ثالث لمن حمل التكليف الإلهي ، فأما سبيل الجنة ، وأما سبيل النار ، اي اما السعادة الابدية ، واما الشقاء الأبدي ﴿**وماذا بعد الحق الآّ الضلال ، فأنّىٰ تصرفون**﴾[2] .

اذاً جهنم كالدواء المر للرجل المريض مطلوبة بالعرض لكي يصل الىٰ الجنة عندما يخاف الله فيبتعد عن الذنب والمعصية ، وعليه جاء السؤال الالهي في موضعهِ عندما يقول ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبّان**﴾؟ .

* **نعمة النار**: مما لا شك فيه ان الكثير من الاطفال والصبيان يعشقون اللعب ولا ينفكون عنه ، وكلنا شهدنا اصرارهم علىٰ مواصلة اللعب رغم الالحاح عليهم بضرورة التبكير بالذهاب الىٰ المدرسة (مثلاً) أو تأدية الفرائض البيتية المدرسية ، ورغم اصرار المرّبين علىٰ أن (العلم نور والجهل ديجور) ومطالبتهم بالتعلم واكتساب العلوم والمعارف التي تؤهلهم في المستقبل ان يكونوا من ذوي الشأن ، رغم كل ذلك يستمر الصبيان في التصامم والاهمال ومواصلة اللعب ، فلا يلبث الوالد أو الولي حتىٰ يضطر الىٰ رفع العصا والتلويح بالضرب المبرح بها ليعمد الصبي الى اداء فراضه وترك اللهو واللعب . وهنا لا يجد الصبي بدّاً من ترك اللعب والانصراف الىٰ دروسه ومدرسته ليتعلم مشفقاً علىٰ نفسه من ضربات العصا المؤلمة .

وأنتم معشر الأنس والجن إعلموا أن شؤون الله في هذه الدار عديدة ، ولكن سيأتيكم يوم لا يكون فيه شأن الله (عز وجل) الآّ الحساب ﴿**سنفرغ لكم أيّها الثقلان**﴾ وعندها لا يغادر الحساب منكم أحداً . فهلّموا إذاً الىٰ العمل

---

(١) سورة الزمر ، الآية (١٦) .

(٢) سورة يونس ، الآية (٣٢) .

الصالح والايفاء بالفرائض الالهية ، وأستيقنوا أن من لم يكتب له الله (عز وجل) بلوغ الجنّة فسينكب عن الصراط ويهوي الى سحيق جهنم كما تهوي أوراق الشجر في الخريف[٣] ، لأن لنار جهنم جاذبية تتمكن بواسطتها من جذب الأفراد والاشياء نحوها ، فهي كحجر المغناطيس عندما يجذب الى اقطابه برادة الحديد ، فالنار يجذب اليها اهل العذاب والشقاء ، وقد يبلغ من قوة جذب النار للعصاة ، أن تجرهم إليها من علىٰ بعد سبعين عاماً كما ذكرت ذلك احدىٰ الروايات[٤] .

* التحذير من الخطر الجسيم نعمة:

ويكمن الجانب الآخر في اعتبار النار والحساب نعمة عندما نقرأ قوله تعالىٰ ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ لأن هذه الآية انما مثلها كمثل الناقوس الذي يدّق ليحذر الناس من الخطر الجسيم ، فهل هناك أدنىٰ شك من أن عذاب النار هو بلاء وخطر جسيم؟ إذاً الأعلان عن هذا الخطر المقبل قبل وقوعه إنّما هو نعمة بالغة عظيمة . ويقيننا في ذلك ينبع من صحة مصدر الاعلان وصدقه ، فكما أننا عندما نسمع من خلال المذياع ان سيلاً عظيماً جارفاً أخذ يهدد مدينتنا وهو الآن متجه نحوها ، فنبادر بكل عجلة الى ترك كل شيء من أملاك ولا نفكّر الّا بانقاذ ارواحنا وممتلكاتنا خفيفة الحمل ونقلها الىٰ محل آمن هرباً من ذلك المصير المخيف . ألا يعد ذلك التحذير الاذاعي في ذاته نعمة تستحق الشكر؟ ثم لو فرضنا أن أحداً ما عرف بموضوع السيل العرم ذاك ولكنه تعمّد عدم أخبار الناس به ، ألا ترونه قد ارتكب ظلماً واثماً مبيناً؟ وهل ترونه سينجح في الغرار من تأنيب الناس وتعنيفهم؟ والحال أنه لو بلغ بذلك الحدث قبل حصوله وأنقذ حياة الآخرين لوضع نفسه موضع الشكر والامتنان . وهكذا الحال أيضاً فيمن يعلم أن في مسير القافلة الفلانية اخطار محدقة بها لما سيفعله قطاع طرق قد تربصوا بها غنيمة سهلة ، فيبلغ أولئك النفر بذلك الخطر ليحذروه ، فهو حينئذ

---

(٣) بحار الانوار (ج٣) .
(٤) بحار الانوار ، (ج٣) .

يكون قد أسدىٰ لهم خدمة عظيمة لا تثمّن .

* نعمة الاخبار القرآني عن الآخرة:

فيا أيها الناس ، كيف بكم لو كان المشفق عليكم من الأخطار ، والمحذّر الجاد لكم من الأهوال هو القرآن الكريم ، فهو يخبرنا عن مكامن الخطر التي تتبع مرحلة الموت إبتداءً من البرزخ ومروراً بمراحل القيامة من حشر وميزان وصراط ونار وجنة ، فهي والله نعم الهية تكمن في حرص القرآن علىٰ الاخبار بالواقع والامور الواقعات . ولقد صدق المثل الشائع عندما يقول (الصديق من قال لك اخبرتك ، والعدو من قال لك انما اردت ان اخبرك) لأن الصاحب والمحب يعلمك بالأخطار قبل أن يحيق بك فيلحقك الأذىٰ والضر منها ، أما العدو فهو لا يتورّع أن يدعك فريسة سائغة للأخطار والأهوال ، ثم لا يثنيه غدره عن المجيء إليك والقول لك انما اردت ان اخبرك ولكن!! أليس قول العدو هذا في ذاته شماتة وتشفٍ؟ أليس هو مصيبة اخرىٰ نزلت علىٰ رأس المفجوع ، فهو يدري بالخطر ، ولكنه لا يقول لك احذر حتىٰ يحيق بك وعندها يأتيك ليأسف ويزعم أنه اراد ذلك الخلاص ولكن!! وعليه فلنعلم علم اليقين أن ليس في هذا الوجود الهائل من هو اكثر حباً لنا من ربنا (عز وجل) ، فهو يحبنا اكثر من حبنا لانفسنا ، بل هو الذي وهبنا الحب وعلمنّا إياه ، وهو الذي رأف بنا وعلمنا الرأفة لنرأف بحالنا ، وهو الذي برحمته ملأ قلوب الآباء والأمهات بالشفقة ليشفقوا علىٰ فلذات اكبادهم خوف الأذىٰ والضرر .

* من أول المنازل وحتىٰ نهاية الصراط:

ولقد ضم القرآن المجيد بين دفتيّه قرابة ألف آية كريمة عن موضوع سفر الآخرة ، ابتداءً من اول منازلها في حالة النزع والتسليم للموت **﴿كلّا إذا بلغت التراقي﴾**[٥]ومروراً بحالة الاحتضار **﴿والتفّت الساق بالساق﴾**[٦]ثم فراق الدنيا

---

(٥) سورة القيامة ، الآية (٢٦) .

(٦) سورة القيامة ، لآية (٢٩) .

﴿**فكيف اذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم**﴾[٧]والتوسل بالعودة الى الدنيا لطلب الاصلاح ﴿**ربّ ارجعون لعلّي اعمل صالحاً فيما تركت**﴾[٨]ثم مرحلة النعيم أو العذاب البرزخي ﴿**ومن ورائهم برزخ الىٰ يوم يبعثون**﴾[٩]ثم القيامة ومنزل البعث والنشور ﴿**يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا**﴾[١٠]ثم منزل تطاير الكتب واستلام صحائف الاعمال ﴿**وامّا من اوتي كتابه بيمينه**[١١]ثم منزل الحساب ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**﴾[١٢]ثم حالة تلوّن الوجوه بين الاستبشار وبين الخوف ﴿**وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية**﴾[١٣]ثم منزل الصراط ﴿**وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون**﴾[١٤]ثم المصير الىٰ الجنة أو الىٰ النار . فلم يدع الله (تعالىٰ) شيئاً عن الدار الآخرة لم يشر إليه في كتابه الحكيم ، فهل بعد كل ذلك التحذير من الأخطار والأهوال ، التي يريد الله (تعالىٰ) بنا أن نخلص منها فلا نقع فريستها ، يمكننا ان نجحد هذه النعمة الباهرة؟ وهل يمكن لعاقل أن يجد هذه الاخبار الالهية عن وجود الأخطار الفادحة المقبلة بكل تلك التفاصيل والدقّة ، أقلّ شأواً وأدنىٰ صحة من اخبار المذياع عن السيل الجارف أو قطاع الطرق!!؟

﴿**سنفرغ لكم أيّها الثقلان**﴾ فيا معشر الانس والجن استعدوا ، فعن قريب نقصدكم لنحاسبكم علىٰ فعالكم ، ثم نجزيكم الجزاء الأوفىٰ ، فخذوا حذركم وتعباؤا انما نخبركم لكي لا يفاجئكم هول المطّلع ، فزنوا أقوالكم واعمالكم بدءً بساعتكم هذه .

---

(٧) سورة محمد (ص) ، الآية (٢٧) .
(٨) سورة المؤمنون ، الآية (١٠٢ ـ ١٠٣) .
(٩) سورة المؤمنون ، الآية (١٠٣) .
(١٠) سورة يس ، الآية (٥٢) .
(١١) سورة الانشقاق ، الآية (٧) .
(١٢) سورة الانبياء ، الآية (٤٧) .
(١٣) سورة الغاشية ، الآية (٩) .
(١٤) سورة المؤمنون ، الآية (٧٤) .

* إنظروا لما تقدموه لغدكم :

ثم يقول المولىٰ (تعالىٰ) في كتابه الكريم ﴿**يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد**﴾(١٥) ، فأي شيء ستقدمه لغدك ايها الانسان؟ ذلك الغد الخالد بعد الموت ، عندما تطالع بنفسك صحيفة عملك بعد ان يقول لك الله عز وجل ﴿**إقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾(١٦)وعندها تجد الصحيفة قد ضمّت كل شيء من افعالك واقوالك ونواياك فتذهل وتقول ﴿**ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الاّ احصاها**﴾(١٧)!

فهل ترىٰ أيها الحبيب أن الأبن الذي لا يلتفت الىٰ نصح أبيه المشفق الجاني انه قد أمن الهلكة ونجا بنفسه؟ انه الضرر الذي لا يحيق الاّ بمن يصم اذنيه عن قبول مواعظ الواعظين ونصائح الناصحين المشفقين .

* إغسلوا درن الذنوب بماء التوبة :

والآن وقد دق لنا الله عز وجل أجراس الخطر ، واكثر رسوله الكريم (ص) من تحذيراته واوصانا ان لا نحتقر شيئاً من الذنوب أو نستصغره كما دل علىٰ ذلك حديثه (ص) لابن مسعود (يا بن مسعود لا تستصغرنّ شيئاً من الذنوب ، لأنك لو قرأت صحيفة عملك في القيامة ووجدت فيها ذنباً قد أحصي عليك لبكيت بدل الدمع دماً وقيحاً) ، بلىٰ انه كذلك ، ولقد تضمنت رواية ما مفاده أن رجلاً عطّل في عرصة القيامة مائة عام لذنب اقترفه ، حتىٰ يستوفي حسابه ، وعلىٰ ذلك كان حريّ بالمؤمنين أن لا يغفلوا عن نعمة هذه الأخبار لكي تكون لهم القدرة علىٰ مغادرة دائرة الآثام والذنوب بحيث لو بدر منهم ذنباً لسارعوا الىٰ غسل درنه بماء التوبة والانابة الىٰ الله (عزّ وجل) للتخلص من سوء آثاره، فنحن لا نرىٰ لنا ملجأً حصيناً يعصمنا من الذنوب الاّ الله (تعالىٰ)، وهو أيضاً يأمرنا

---

(١٥) سورة الحشر ، الآية (١٨) .

(١٦) سورة الاسراء ، الآية (١٤) .

(١٧) سورة الكهف ، الآية (٤٩) .

بالاسراع إليه هرباً من الذنـوب قائـلاً ﴿**ففرّوا الىٰ الله**﴾[١٨] . اللهم منّ علينـا بالتوبة والانابة إليك . وأيقظنا من نومة الغافلين من قبل ان يـدركنا ولات حين مناص .

---

(١٨) سورة الذاريات ، الآية (٥٠) .



﴿يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فـأنفذوا ، لا تنفـذون إلاّ بسلطان ، فبـأيّ آلاء ربكما تكـذّبان﴾ لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب .

* من ذا الذي يمكنه الهرب من الله؟!

قلنا عن الآية السابقة **﴿سنفرغ لكم أيّها الثقلان﴾** انها تعني سنقصدكم قريباً يا معشر الأنس والجن لنصفّي حسابكم ولنجزي كل نفس منكم ما كسبت ولا نستثني منكم أحداً ، إن مؤمناً أو كافراً .

أمّـا في هذه الآيـة الكريمـة ، نجد أن المـولىٰ (عز وجـل) يؤكّـد عجـز الخلائق وضعفهم ، ويحصر القدرة والقوة بـه وحده ، لأجـل ان يتبيّن الانسان هـذه الحقيقة ، ويسلّم بـأن القوة لله جميعـاً ، ومـا دونـه لا يمتلك الاّ العجـز والضعف والفاقة .

وكلمة (معشر) مشتقة من (عشر) وهي الجماعة الكثيرة ، والخطاب فيها

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٣٣ ـ ٣٤) .

موجّه الىٰ الجمع الكثير من الأنس والجن ، وفيه يطلعهم الباري (تعالىٰ) علىٰ حقيقة عجزهم عندما يخبرهم أن لو استطاعوا أن يخرجوا أو يهربوا من اقطار السماوات والأرض ، فحينئذٍ فليهربوا من الله (تعالىٰ) وملائكته وقضائه وحكمه ، ومن أنواع البلاء الالهي الحتمي ، وليهربوا من الحساب والميزان والصراط والجزاء . وعبارة «ان استطعتم ان تنفذوا» دليل رائع علىٰ عجز وضعف الجميع ، وأن القدرة لله وحده .

* لا حول ولا قوّة الاّ بالله:

﴿**لا تنفذون الاّ بسلطان**﴾ ومعناها ـ لا تستطيعون الفرار الاّ بقدرة الله وقوته ، وعن كلمة (سلطان) وردت عدة معانٍ لها نذكر منها : ـ

١ ـ **القوة والقدرة** . وعليه يكون معنىٰ الآية ، أن ليس لأحدٍ القدرة على الفرار والهرب الاّ بحول الله وقوته ، والاّ فانه يبقىٰ عاجزاً وضعيفاً امام قوة الله وحوله .

٢ ـ وقال البعض إن تنوين «بسلطانٍ» هو تنوين ، معوّض عن المضاف اليه وهي ياء المتكلّم المحذوفة ، وأصلها (لا تنفذون الاّ بسلطاني) ، اي لا تستطيعون الهرب الاّ بقدرتي ، وقد أجاد مولانا الامام أمير المؤمنين (ع) التعبير في مناجاته الرائعة حيث يقول (مولاي مولاي ، انت القوي وانا الضعيف ، وهل يرحم الضعيف الاّ القوي .

مولاي مولاي ، أنت القادر وانا العاجز ، وهل يرحم العاجز الاّ القادر)[٢] ، فيا من إدّعىٰ انه من شيعة علي (ع) ، تُرىٰ هل نهلت من معين عرفان علي (ع) هذا؟ فذاك مولاك يعرب عن عجزه التام إزاء قدرة الله المطلقة . (اللهم اجعلنا ممن ينتفع من عرفان علي (ع) وحقيقة توحيده وايمانه) .

---

(٢) مناجات أمير المؤمنين (ع) ، كتاب مفاتيح الجنان .

نعم إن الواقع يؤكد عجز العبد عن فعل أي شيء لافتقاره الىٰ القدرة الذاتية[٣]فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . ولكن المرء تغرّه احياناً فترة شبابه ، فينسىٰ ضعفه وعجزه حينما كان وليداً يهدهده المهد ، وينسىٰ عجزه وضعفه حينما يصير شيخاً يترنّح علىٰ شفير اللّحدْ ، ومع ذلك فهو صريع التذكر لهذه الحقيقة ، فهو عندما يذكرها يبادر الىٰ الهرب الىٰ الله (عز وجل) «يا من إليه يهرب الخائفون»[٤][يا رب أن تردّني فأي فلاح عندي يرفعني اليك ، فلقد أقسمت عليك بربوبيتك ولطفك أن لا تولّ وجهك عني ، فانك ان تمنعني عن بابك وانا عبدك الضعيف الفقير إليك فلن أجد لي باباً اطرقها لغيرك ، سبحانك لا شريك لك ولا عديل][٥] ، اللّهم فأرحم من لا يجد لنفسه راحماً سواك .

* القناعة والرضا بتقدير الله (عز وجل):

ويقول بعض المفسرين عن هذه الآية أنها تتعلّق بعالم الدنيا ، وهناك من يقول أنها تتعلّق بعالم الآخرة ، وكلا الفريقين ذكر عدداً من الوجوه والأدلة المؤيّدة لما ذهب إليه .

والواقع ان القرآن الكريم يحتوي علىٰ مواضيع عامة وكليّة لها كثير من المصاديق الخارجية يذهب الىٰ الاستدلال بها المفسرون ، فمن يذهب الىٰ أن هذه الآية تتعلق بعالم الدنيا يقول ، ان الله (تعالىٰ) قال في كتابه العزيز ـ يا معشر الجن والانس الذين أُحيط بهم من كل جانب ، ليس لكم من سبيل للخلاص سوىٰ اللجوء الىٰ الساحة الالهية المقدسة ـ فلكل فرد هموم وغموم نشأت بفعل القضاء والقدر الالهيين المقدرين له ، وعليه فمن اين سيتأتىٰ له

---

(٣) ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر علىٰ شيء﴾ سورة النحل ، الآية (٧٥) .
(٤) دعاء الجوشن الكبير/ البند ٤٤ .
(٥) النص المذكور هو ترجمة لأبيات شعرية في هذا المعنىٰ مع شيء من التحوير تطلبه السياق .

تبديل التقدير الالهي وهو العاجز الضعيف[٦]؟! ونحن نرىٰ البعض وهو يعاني من ضيق ذات اليد إملاقاً وإنسحاقاً ، ولكن مصالحهم العليا تتطلب ان يقدر الله لهم هذا الانسحاق ، بينما نجد البعض الآخر قُدر لهم الثراء والغنىٰ ، والبعض الآخر في صحة وسلامة ، وغيرهم في سقم ومرض .

وعليه ينبغي علىٰ الانسان أن يسعد بتقدير الله وحكمه ، لأن ما قدّره الله له لا يعدو ان يكون محض خير وصلاح . (اللّهم ورضّني من العيش بما قسمت لي يا ارحم الراحمين)[٧] .

* وهل يفر أحد من الموت؟!

ومن الموارد التي ذكرها المفسرون حول هذه الآية هو الموت ، يقولون ان الخطاب موجه علىٰ هذا النحو ـ يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تهربوا من الموت فأهربوا ـ .

وها نحن قد حللنا في عصر قد تقدم فيه العلم الحديث والطب والجراحة ، وتطورت بشكل مذهل صناعة الاجهزة والوسائل الطبية والمختبريّة ، ورغم ذلك لم يستطع أحد منذ فجر التاريخ وحتىٰ يومنا هذا أن يحول دون وقوع الموت ﴿**كلّا اذا بلغت التراقي**﴾[٨] ، لنادىٰ الأحبة والاهل ﴿**وقيل من راقٍ**﴾[٩]ولكنهم لم يعلموا ان كل شيء قد انتهىٰ ، ويبقىٰ الشخص الوحيد الذي يدرك هذه الحقيقة هو من نزل بساحته الموت ﴿**وظنّ أنه الفراق**﴾[١٠]**حينذاك يفقد الآخرون الأمل في الابقاء عليه حيّاً** .

* رحلة وداع السلطان محمود مع جواهره وكنوزه:

وفيما أورده صاحب كتاب التواريخ ، قصة السلطان محمود الغرنوي الذي جمع من وسائل العيش الرغيد واسباب الذعة ما تدر ان يكون لأحد من

---

(٦) راجع البند ٦٨ من دعاء الجوشن الكبير .
(٧) دعاء ابي حمزة الثمالي / كتاب مفاتيح الجنان .
(٨ ، ٩ ، ١٠) سورة القيامة ، الآيات (٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) .

اقرانه ، فلقد كان هذا والهاً ومولعاً بشكل غريب بجمع واكتناز الجواهر ونفائس الاموال والحلي ، ولذلك كان يعاود الغارات والغزوات علىٰ بلاد الهند فيحطم اصنامهم ويغنم جواهرهم النفيسة ثم يملأ بها خزائنه ، حتىٰ فاضت تلك الخزائن بما ندر ونفس من المجوهرات والحلي ونفائس الأموال الباهرة . وعندما دنىٰ أجله وسقط طريح فراش الموت طلب الحكماء والاطباء ليشفونه مما فيه ، فأخبره الحكماء والأطباء ان لا رجاء في شفائه من مرضه هذا ، وانه قد بات علىٰ موعد مع فراق هذه الدار بعد ثلاثة ليالٍ ، فينصحون أن يمهد لسفر الطويل هذا فما كان منه الاّ ان نادىٰ الغلمان أن يأتوه بكنوزه ويضعونها أمامه ليلقي عليها نظرة أخيرة ، فلبّ الغلمان ما امرهم به وجاؤوه بصناديق المال والذخائر النفيسة والحلل والحلي والمصوغات والمجوهرات ثم اخذوا يقدمون كل صندوق أمامه ويفتحونه ثم يأتون بالآخر وهكذا ، وهو ينظر الىٰ كنوزه نظرات الوداع والرحيل الأبدي ويشهق بآهات الحسرة علىٰ وداعهن ويهمل الدموع الساخنات ثم ينتحب وينشج نشيج الوالهين الفاقدين علىٰ ما انفق عليه العمر حتىٰ جمعه وحازه!!

ألا ترونه ذا فعل عجيب؟ انه وبدلاً من أن يأمر اعوانه بانفاق هذه الكنوز في سبيل الله علىٰ الفقراء والمساكين وذوي العوز والفاقة ، نجده (كما يسجل التأريخ) يولول ويبكي في لحظات عمره الاخيرة حسرة علىٰ فراق المال ، وبدلاً من ان يتحرق بكاءً في طلب العفو والمغفرة من الله (تعالىٰ) علىٰ ما جنته يده الآثمتان ، يبكي بكل لوعة وحرقة في رحلة وداعه مع كنوزه رغم أنه يعلم يقيناً أن جوهرة واحدة من كنوزه لم يعد يمكنه الانتفاع بها ، ولو أنه افتدىٰ نفسه بكل ما ملك من اموال ، لن يصل الى مناه في مد عمره لساعة واحدة تجنبّاً للموت المدرك له . تُرىٰ من ذا الذي تنفعه العبرة وتنقذه الموعظة؟ انه بلا شك ذلك المرء السعيد الذي يرىٰ في أحوال الماضين لنفسه كل العبرة فيعتبر وفي اخبارهم كل العظة فيتعظ ، بينما نجد الشقي من لا يعتبر بغيره بل يعتبر الآخرون به .

اذا ما المرءُ قد صارَ شبيه الكأس تسبيكاً   لفتّته حصاة الموت كالرمل كما كانـا

يقول الامام علي (ع) (كفىٰ بالموت واعظاً) ولكن اين من يتعظ؟

ولقـد قال الامـام الحسين (ع) لاخته العقيلة زينب في ليلة العـاشـر من المحرم وهو يربط علىٰ قلبها عندما يذكر لها موت الأحبة والأهل ، اذ لم يتـرك الموت الفاضـل وينقّض علىٰ المفضول ، يقـول الامام (ع) (ان اهـل الارض يموتون ، واهل السماء لا يبقون ، . . . ، جدي خير مني (وقد مات) وابي خير مني (وقد مات) ، وأمي خير مني (وقد ماتت) و. . . .

« ٣٩ »

﴿يا معشر الجن والأنس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السماوات والارض فأنفذوا لا تنفذون الاّ بسلطان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] لا بشيء من آلائك رب اكذب .

* إستحالة الهرب من البلاء العام الشامل:

كلمة (اقطار) الواردة في الآية هي جمع (قطر) وهو الجانب أو الطرف ، ومعنىٰ الآية ـ يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تفرّوا من اطراف السماوات والارض ففروا ، لكنكم تدركون انكم عاجزون عن ذلك الاّ بوجود قدرة الله أو عونه أو مساعدته أو بحجة من الله وبرهان أو. . وعوداً علىٰ بدء نقول ، ان بعض مصاديق الآية تتعلق بالدنيا ، والبعض الآخر يتعلق بالآخرة وذكرنا أن احد الوجوه المتعلقة بدار الدنيا هو الفرار من القضاء والبلايا العامة ، وعندما يحل البلاء الشامل (كالاوبئة والطاعون والزلازل و. . .) لا يمكن الفرار حينئذ من أي طرف وجانب وقطر ، كما أن حلول الموت يعجز الهارب ويقع علىٰ الطالب ،

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات ( ) .

بل لا يمكن حتىٰ أن يصار الى تاخير وقوع الموت لحيازة الفرصة علىٰ الهرب .

* قوة الجن الفائقة علىٰ قوة الانسان:

والملاحظ لهذه الآية بشيء من الدقة يجدها قد قدمّت اسم الجن علىٰ اسم الانس ، ولعل الباعث علىٰ ذلك هو تفوّق الجن علىٰ الانس من حيث القوة باعتبار أن الآية الشريفة تستعرض قدرة وقوة هذين المخلوقين ازاء القضاء والقدر الالهيين ، لذلك كان الافتتاح باسم الجن أبلغ وأنسب .

ومن البديهي ، وكما اشرنا الىٰ هذا الموضوع من قبل ، أن قوة الجن المادية تفوق القوة البدنية الانسانية بمراتب عديدة ، رغم أن الانسان يتفوّق علىٰ الجن من حيث القوة الروحانية والعلمية والقدرة علىٰ اكتساب المعارف ، ويعود السبب في ذلك الىٰ طبيعة تكوين اجسام الجن ، فهي اكثر شفافيّة ولطافة من اجسام البشر لأن مادة خلقهم الأولىٰ هي النار ، بينما مادة خلق البشر الاولىٰ هي التراب ، علىٰ ما نوهنا الىٰ هذه الحقيقة في بداية شرحنا وتفسيرنا للسورة .

ولكن يبقىٰ الانسان متفوقاً علىٰ الجن من حيث إلمامه بعلوم القرآن والمعارف الالهية ، كما يتأكد ذلك في قوله (تعالىٰ) **﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**(٢)عندما قدم الباري (عز وجل) ذكر الانس علىٰ ذكر الجن ، ويشهد أيضاً علىٰ هذه الحقيقة قوله (عز من قائل) **﴿سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام الىٰ المسجد الاقصىٰ الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع العليم﴾**(٣) ، وعلىٰ أية حال فان موضوع الآية التي نحن بصددها تتعلق بالقدرة المادية ، لذلك جاء ذكر الجن سابقاً لذكر الأنس باعتبارهم اكثر قدرة واعظم قوّة . ومع ما للجن من قوة وقدرة فائقتين فهو الآخر عاجز عن الفرار والهرب من قضاء الله وقدره فتأمّل .

---

(٢) سورة الاسراء ، الآية (٩١)

(٣) سورة الاسراء ، الآية (١) .

* العلم بما وراء الطبيعة يتحصّل باذن الله ومدده:

والوجه الآخر الذي ذكره المفسرون كمصداق لهذه الآية هو العلم بما وراء الطبيعة ، حيث أن الآية تشير في خطابها معشر الجن والأنس قائلة ﴿**ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السماوات والأرض**﴾ ـ لتعلموا ما وراءهما ـ فانفذوا ، ﴿**لا تنفذون الاّ بسلطان**﴾ فهي قد اشترطت في الوصول الىٰ عالم الملكوت وما وراء الطبيعة أن يتحقق اجتياز أقطار السماوات والأرض من خلال وجود القدرة الالهية المعبّر عنها في الآية بالـ (سلطان) . وهنا نتسائل: من هو صاحب القدرة علىٰ اجتياز عالم الطبيعة والمادة الطالب الولوج الىٰ عالم الوجود الملكوتي عند المبدأ والمعاد لينتهي الىٰ الملكوتين السفلي والعلوي؟ إنه أمر باهر وقاهر ولا يمكن تحقيقه الاّ مع وجود العون والمدد الالهي ، كما حصل مع الحبيب محمد (ص) في ليلة المعراج عندما طوىٰ عالم الطبيعة المادي وعرج الىٰ ملكوت العوالم الأُخر[٤] .

* الملائكة تحكم طوق حصارها علىٰ عرصة المحشر:

ومن الوجوه الأخرىٰ في المصاديق المطابقة لهذه الآية هي (القيامة) ، ولعل هذا الوجه هو الأولىٰ باعتبار سياق الآيات ، واستناداً الىٰ ما جاءت به الروايات ، وان لم يكن يتنافىٰ ذلك مع إنطباق الوجوه الأخرىٰ التي سبقت الاشارة إليها ، وعليه يكون معنىٰ الآية ﴿**يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والأرض**﴾ فانفذوا من صحراء القيامة ـ ﴿**لا تنفذون الاّ بسلطان**﴾ وقد أورد صاحب تفسير البرهان في معرض تفسيره لهذه الآية حديثاً شريفاً روي عن الامام باقر العلوم (ع) ننقل لكم زبدته ، يقول (ع)

---

(٤) ﴿**سبحان الذي اسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام الىٰ المسجد الاقصىٰ الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا* انه هو السميع العليم**﴾ سورة الاسراء ، الآية (١) وللاستزادة يمكن الرجوع الى أثر السيد المؤلف (رض) الموسوم بالمعراج في شرح وتفسير سورة النجم .

(عندما يشأ الله (تعالىٰ) أن يجمع الناس للحساب في يوم الجزاء ، يأمر المنادي بالنداء: يا معشر الجن والانس اجتمعوا ، فيجتمعون في أقل من طرفة عين ، ثم يؤمر بأهل السماء الاولىٰ بالنزول واحاطة الخلائق ، ثم يؤمر بأهل السماء الثانية (وهم ضعف عدد اهل السماء الدنيا) بالنزول واحاطة اهل السماء الأولىٰ ، وهكذا يؤمر بأهل السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة بالنزول وإحاطة صفوف ملائكة السماوات التي سبقتهم (مع أن عدد اهل كل سماء يتزايد ضعف عدد اهل السماء من الطبقات التي تليها) فيحاط بالخلائق بصفوف الملائكة ، وهنا يأتي النداء الالهي **﴿يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فأنفذوا * لا تنفذون الاّ بسلطان﴾** .

* إنحصار السلطة برحمة الله (تعالى):

﴿لا تنفذون الاّ بسلطان﴾ اي لا تستطيعون الخروج والعبور الاّ بقدرة الله ولطفه ورحمته ، فيا ايها المساكين ، اعلموا انه لا سبيل لكم سوىٰ سبيل النجاة الالهي الذي لا بد لكم من الركون إليه والاحتماء به ، وهو السلطان الالهي الذي من حازه يكون قد خلّف وراءه الهموم والشقاء لأنه افضل سبل النجاة .
وقد ذكر العلامة الطباطبائي وغيره من العلماء أنّ في هذه الآية بيان لنعمتين:

الأولىٰ: وهي التذكير بعجز وضعف الجن والانس عندما تخبرهم الآية ان لا سبيل لهم للفرار والنجاة .

والثانية: هي التذكير بأن السلطان منحصر بقدرة ولطف ورحمة الله (عز وجل) ، فقد اعطانا الله في هذه الآية الدواء الناجع ، لداءٍ شخصه الباري في ذات الآية أيضاً .

وما شوقي للسيادة الاّ عبوديّة لك   وما رغبتي بالملك الاّ أن أخدمك

فسبيل النجاة من كل مسكنة نجده ميسوراً في بيوت الله تعالىٰ ، فليس من احد سوىٰ الله يأخذ بأيدينا وينتشلنا مما نحن فيه ويفرغ الهموم والاحزان عن

قلوبنا ، لذلك وجب علينا ان نحكم اطواق العبودية لله علىٰ رقابنا ، ونروض أنفسنا الصعبة علىٰ قبول العبّودية له وئخذهُ كما أمرنا بذلك (عز وجل) ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾[1] ، وعليه كانت تلك الآية نعمة من وجهيها ، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبّان**﴾ أبالتذكير بضعفكما وعجزكما؟ أم بالتذكير لكما بسبيل النجاة والخلاص الذي دلّكما عليه الله وجعله لكما في رحمته؟ ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ولقد كشفنا لكما الداء ثم ارشدنا كما علىٰ الدواء لتأخذوا حذركم ثم تعتبروا .

* الأمر التعجيزي وهو ما يبّرز حالة العجز لدىٰ المقابل:

ونكمل الآن بقية مضمون الحديث المروي عن الامام الباقر (ع) (وبعد ان تهبط ملائكة السماوات السبع وتتشكل صفوفها المحيطة بالخلائق في صحراء المحشر وقد احكم طوق الحصار عليهم هنا يأتي الامر التعجيزي (وهو الأمر الذي يعجز عن تنفيذه الطرف المقابل كأن يقال له ـ ان استطعت ان تنقل هذا الجبل الىٰ المكان الفلاني فانقله ـ وبداهة لا يستطيع تحقيق هذا الأمر لأنه خارج عن حدود قدرته واستطاعته) حينما يأمر الله ملكاً بالنداء ﴿**يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فأنفذوا**﴾ لا تنفذون الاّ بسلطان﴾؛ وقد احاط الملائكة بهم من كل جانب فهم لا يلوون علىٰ شيء ، حينذاك يعم الناس اليأس ويطرقوا برؤوسهم الىٰ الأرض . وهنا سكت الامام (ع) عن الحديث وشرع بالبكاء بصوت عالٍ ، يقول الراوي قلت لأصبر حتىّ ينتهي الامام من بكائه ، فلمّا سكت الامام (ع) ، قلت له: فأين حينئذ جدك رسول الله (ص) واين علي واين ذريته وشيعته؟ (يقصد بقوله ذاك هل هم أيضاً ممن احكم طوق الحصار عليهم؟

---

(٥) سورة آل عمران ، الآية (٢٠٠) .

* حسنة الولاية ، أمنٌ من فزع يومئذ:

إذّاك تبسم الامام (ع) وقال: ﴿**من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون**﴾[٦] ، انهم (ويقصد بهم النبي (ص) وعلي ع وذريته وشيعتهم) علىٰ قطعة من مسك أذفر نصبت عليها منابر من نور وقد ارتقىٰ كل منهم منبره ، أما محمد وعلي (صلوات الله عليهما) فهما يضيئان كالشمس والقمر ، والباقون كالنجوم يتألقون وقد أحاطوا بهما ، وهم في راحة وأمان﴾[٧] . وما عبّر عنه الامام (ع) بالحسنة عند استشهاده بالآية الكريمة تلك انما عنى بالحسنة الولاية لعلي بن ابي طالب (ع) التي تؤمن صاحبها يومئذ من فزع القيامة .

* حديث إبن عباس ساعة الموت:

وينقل المؤرخون عن ابن عباس (وهو ابن عم النبي (ص) ، كان من كبار المفسرين من الصحابة وقد اشتهر بعلمه وعمله حتىٰ قيل له (حبر الامة) أي عالمها) رفقته النبي (ص) والامام علي (ع) لسنين عديدة ، وسماعه لآلاف الاحاديث عن النبي (ص) دون واسطة أنه أيقن أن لا خلاص من اهوال القيامة وأخطارها الاّ بالولاية ، ويقال أنه عندما احس بالموت قد أدركه رفع كفيه بالدعاء قائلاً (اللّهم اني أتقرّب اليك بولاية الشيخ علي بن ابي طالب (ع) ويعني بذلك

---

(٦) سورة النمل/ الآية ٨٩ .

(٧) قال الامام الباقر (ع): ان الله اذا بدا له ان يبين خلقه ويجمعهم لما لا بد منه ، أمر منادياً ينادي ، فاجتمع الجن والانس في اسرع من طرفة عين ، ثم أذن لسماء الدنيا فتنزل وتكون من وراء الناس ، ثم أذن للسماء الثانية فتنزل وهي ضعف التي تليها ، فاذا رآها أهل السماء الدنيا قالوا جاء ربنا ، قالوا لا وهو آت يعني أمره ، ثم تنزل كل سماء وتكون كل واحدة منها من وراء الأخرىٰ وهي ضعف التي تليها ، ثم ينزل أمر الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر والىٰ ربكم ترجع الأمور ، ثم يأمر الله منادياً ينادي ﴿**يا معشر الجن والانس. . .**﴾ الآية ، تفسير علي بن ابراهيم القمي عن تفسير نور الثقلين (ج٥ ص ١٩٥) .

أنه لا يثق بعمل يجده مقبولاً عنده رب العالمين سوى لاية وليّه علي بن ابي طالب (ع) ، بلى والله انه لحق (ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً تائباً مستكمل الايمان)[8] .

(٨) عن تفسير الكشاف للزمخشري وتفسير الثعلبي وتفسير روح البيان للآلوسي .



﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] . (لا بشي من آلائك رب اكذّب) .

* الشعلة المضرمة هي الشواظ:

وتستعرض هذه الآية المباركة الجزء المتمم لبيان ضعف وعجز الجن والانس في مقابل قدرة الله المطلقة .

﴿يرسل عليكم شواظ﴾ تقرأ كلمة (شواظ) بضم الشين أو بكسرها ، والمشهور قراءتها بالضم ، وهي تعني الشعلة النارية المضرمة ذات اللون الازرق الخالص ، وتتميز بقدرتها الكبيرة علىٰ الاحراق ، ومن الطبيعي أن تكون قدرة الاحراق اكبر كلمّا كانت شعلة النار ألطف ، فنار الآخرة ألطف بدرجات متعددة عما هي عليه نار الدنيا وعليه كانت قدرتها علىٰ الاحراق اكبر بأضعاف كثيرة .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٣٥ ـ ٣٦) .

* المعاني المتعددة للنحاس:

وذكرت عدة معانٍ للنحاس نأتي الىٰ ذكر اهمها:

الأول: ويعني الدخان .

والثاني: ويعني الرصاص المذاب .

والثالث: ويعني معدن النحاس المنصهر ، وهناك معان أخرىٰ عزفنا عن ذكرها لبعدها عن واقع معنىٰ الآية ، وبناءً علىٰ ما سبق يكون معنىٰ الآية **﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس﴾** هو ـ يرسل عليكما يا معشر الجنة والناس نار من نيران جهنم ودخان ، أو رصاص مذاب ، أو نحاس مذاب ـ . ومن يتأمل في التصوير الرائع للآيتين الماضيتين يرىٰ فيه ان الملائكة قد احكمت حصارها علىٰ الخلائق وهي تحمل معها نيراناً قد اندلعت ألسنتها ، أنه مشهد مخيف ومهول حقاً ، فلو لم يكن التقدير الالهي بابقاء الناس والآخرين في موقف الحساب لألتهمتهم تلك النيران ، لأن نار الآخرة نار مدركة وذات شعور كما هي سائر اشياء الآخرة ، لأن الآخرة دار الحياة الحقيقية[٢] ، كما تصور هذه الآية المباركة تلك الحقيقة **﴿اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً﴾**[٣] . فلولا رحمة الله ورأفته لنفق وهلك كل من حملته أرض المحشر من شدة صرخات جهنم .

إذاً ألسنة نار جهنم تحول دون استطاعة أحدٍ من الهرب ، فيبقىٰ الجميع ملازمين لعرصة المحشر لا يلوون علىٰ شيء ، إن طوعاً أو كرهاً .

---

(٢) **﴿وان الدار الآخرة لهي الحيوان﴾** سورة العنكبوت ، الآية (٦٤) .

(٣) سورة الفرقان ، الآية (١٢) .

* أنهار القطر المذاب في النار:

ونقل ابو الفتوح الرازي في تفسيره رواية يتحدث مضمونها عن وجوه خمسة أنهار تجري بالنحاس المذاب في الآخرة ، كما هو الحال في انهار الجنة الأربع التي ورد ذكرها في قوله تعالىٰ ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، والنهار من لبن لم يتغيّر طعمه ، وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفّىٰ**﴾[٤] ، وتقول الرواية ان تلك الانهار موزّعة ، ثلاثة منها في النهار ونهران في اللّيل (ولعل المقصود هنا بالنهار والليل هو أن الثلاثة الاولىٰ هي آثار الاعمال القبيحة والمعاصي التي ارتكبها المجرمون في دنياهم نهاراً ، أمّا النهران المتبقيان فهما آثار الآثام والاعمال القبيحة المرتكبة في دنياهم ليلاً ، لأن عالم الآخرة لا يشتمل علىٰ ليل أو نهار) . وعلىٰ ذلك يكون المعنىٰ هو ان كلمة نحاس معطوفة علىٰ شواظ فيصير - يرسل عليكم ألسنة النيران والنحاس المذاب - .

* الكل ينادي وانفساه يومذاك:

﴿**فلا تنتصران**﴾ اي فلا يستطيع أحد منكما ان ينصر الآخر أو يغيثه ، اي لا الجن بمقدورهم اغاثة الانس ، ولا الانس بامكانهم نجدة الجن ، بل لا الآباء باستطاعتهم نصرة ابنائهم ، ولا الابناء في وسعهم اعانة آبائهم ، الكل مهتم لنفسه ، والجميع يرددون انشودة واحدة هي انشودة (وانفساه) ، وهو ما يتأكد في قوله (عز وجل) ﴿**يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه ، لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾[٥]فهم يومذاك في شأن يغنيهم حتىٰ عن المطالبة بحقوقهم الشخصية وظلاماتهم ، الجميع يصرخ وانفساه ، حتىٰ الانبياء (ع) يرددون (وانفساه) و(ربي نفسي) باستثناء واحد من جميع العالمين ، يتجرّد عن ذاته ويفكر بالآخرين وينادي (ربي أمتي) ، انه سيد الخلق وخاتم

---

(٤) سورة محمد (ص) ، الآية (١٥) .

(٥) سورة عبس ، الآيات (٣٤ - ٣٧) .

الانبياء والمرسلين سيدنا محمد (ص) ، بينما الآخرون مشغولون بالتفكير بأنفسهم في تلك الساعة العصيبة . وبعد هذا التصوير الدقيق لما سيجري في موقف المحشر من امور عظام يعقب ربنا تعالىٰ بقوله ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ .

* تلك الأخبار نعمة إلهّية:

ويجدر بنا ان نلتفت الىٰ الاخبار الالهية هذه التي تعلمنا بما سيحدث في المستقبل لنكون علىٰ بيّنة ونعد العدد لذلك ، وهذه الاخبار هي نعمة الهية عظيمة كما قلنا ، تستحق الشكر والثناء ، لان الاخبار حصل قبل أن يدركنا الموت وحينذاك تجيء مرحلة اللاعمل وتطوىٰ فيها صحائف الاعمال ، اذا ما يعلمنا به الباري عز وجل انما هو لأجل أن نتهيّأ ونتعبّأ من اجل استحصال براءة العتق من النار ، فلو صدق السامع بهذه الاخبار يكون قد تدرّع بما يمنع اصابته بنبال المعاصي المستهدفة للقلوب ، فيحترز من ارتكاب الذنوب ويسارع الىٰ طلب التوبة والمغفرة ويشرع بالندم بكاءً وأنيناً ليغسل بدمعه أدران المعاصي والقبائح التي اقترفها في ما مضىٰ من سني العمر ، بل وسيبقىٰ فرقاً وجلاً قد وقرت خشية الله في سويداء فؤاده ، فيذوب قلبه من شدة حرارة الرهبة من الله وعظم خشيته من أمره (عز وجل) ، وما لخوف هذا الاّ عبادة قلبية تستوجب حلول رحمة الله ولطفه عليه ، فيجزيه الله (تعالىٰ) عن خوفه هذا بوعد صادق في قوله ﴿**ويخافون يوماً كان شره مستطيراً**﴾(٦) . . . ﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم**﴾(٧) ، نعم إن شأ نزول هذه الآيات ومصداقها هم اهل البيت (ع) دون شك ، ولكن موردها عام يشمل جميع اهل الخوف من الله (عز وجل) ، فكلمّا ازدادت خشية المرء من الله وتلظّت نارها في فؤاده ، كلما كان مؤهلاً بشكل اكبر لنيل رحمة الله وحفظه ورعايته ، وعندما ينفض عن رأسه تراب القبر عند النشر والحشر يكون آمناً وتأتيه البشارة الالهية التي نقلتها رواية شريفة يقول مضمونها

---

(٦) سورة الدهر ، الآية (٨) .

(٧) سورة الدهر ، الآية (١٢) .

(ان للبكائين من خشيتي أسمىٰ وأعلىٰ المنازل والدرجات) .

* بشارة لمن خاف عذاب ربّه .

ونقل كتاب لئاليء الاخبار عن قول المنصور بن عمار أنه قال: في سفر لي الى احدىٰ البلدات ، اقتربت من مسجدها ، فوردته وتهيأت لاداء الصلاة ، فانتبهت الىٰ شاب يصلي بكل خشوع وخضوع ، فحدثني قلبي ان هذا الشاب لا يبدو عليه أنه من اهل الغفلة لأن (الاناء ينضح بما فيه) فأردت أن استأنس به ، فتركته حتىٰ فرغ من صلاته ثم قلت له: ايها الشاب ان علائم الايمان تسطع من محيّاك واني أريد الأنس معك بالحديث فقل لي هل مر عليك قوله تعالىٰ ﴿**كلّا أنها لظىٰ * نزاعة للشوىٰ * تدعو من أدبر وتولىٰ**﴾[٨]فرقّ قلبه وبكىٰ بكاء الثكلىٰ علىٰ وليدها ، ثم التفت الي وقال: وهل تحسن غيرها؟ فأجبته نعم ، هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾[٩]فما انتهيت من تلاوتها عليه حتىٰ صاح صيحة عظيمة وخرّ مغشياً عليه كأنه خشبة لا حراك فيه ، فتحسسته فاذا هو ميت ، فقمت أفتش عن أهله وذويه ، فلما وجدتهم اخبرتهم بما حدث فجاؤا وحملوا جنازته فسألتهم أن يأذنوا لي في تولي غسله ، فأذنوا لي بذلك فشرعت انزع عنه ملابسه فلما ترائىٰ لي صدره وجدت عليه عبارة قد نقشت بخط عريض ﴿**فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية**﴾[١٠]!

بلىٰ والله ، ان العين التي تدمع من خشية الله (عز وجل) لا بد وان يكون لها أجراً ، وأن القلب الذي يخفق فرقاً ورهبة من عذاب الله وسخطه لا بد وأن يهبه الله الأمن ، ثم يواصل ابن عمار حكايته ، فيقول ثم كفنّاه ودفناه وحثونا التراب علىٰ جسده ، وعندما عدنا ، ذهبت لأنام ، فلما نمت رأيت في منامي

---

(٨) سورة المعارج ، الآية (١٥ ـ ١٧) .

(٩) سورة التحريم ، الآية (٦) .

(١٠) سورة الحاقة ، الآيات (٢٣ ـ ٢٥) .

هذا الشاب وهو علىٰ هيئة الملوك ، فقلت له ما فعل بك ربك؟ قال: لقد وهبني الله منزلة تفوق منازل الشهداء وقال لي: ان الشهداء يقتلون لأجلي بسيوف الكافرين ، وانت قتلت بآية عذاب من آياتي لأجلي! فلقد نال ذلك الشاب تلك المنزلة الشريفة التي سمت علىٰ منازل الشهداء بفضل تأثره بآيات العذاب تلك ، وهذه حقيقة تؤكد ان هذه الآيات وان كانت في واقعها آيات عذاب الّا أنها في حقيقتها نعمة ، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ يا معشر الجنة والناس!

* زلزلة القيامة وبشارة الخائفين:

وكتب صاحب تفسير منهج الصادقين عن سبب نزول آية ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم* يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها* وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد**﴾[11] قائلاً: نزلت هذه الآية الكريمة ليلة كان المسلمون في طريقهم الى غزو بني المصطلق ، فبكىٰ المسلمون لدىٰ سماعهم هذه الآية ولم يطبق النوم علىٰ اجفانهم طيلة تلك الليلة حتى اطلع عليهم الصبح فوصلوا الى منطقة القتال ما بين باكٍ وصارخ ونادب ومولول بحيث لم يقو أحد منهم علىٰ نصب الخيام للتعسكر فيها ، ولم يشعلوا ناراً لأنهم اهتموا بأمر فائق علىٰ تلك الامور ، وهنا زف لهم رسول الله (ص) البشرىٰ رأفة بقلوبهم المحترقات قائلاً: لقد اخبرني جبريل ان ثلثي امتي في الجنة ، وان امتي لترد القيامة علىٰ مائة وعشرين فوجاً ، يدخل من كل فوج ثمانون الف نفر الجنة دون حساب . (وبالتأكيد ان هذه البشارة هي لمن يستعر قلبه ناراً من خشية الله وعذابه ، وعندما يذكر المرء هذه النعمة لا يجد بداً من ان يقول الحمد لله الذي جعلني من أمة محمد (ص)) ، عندها قام أحد أصحاب النبي (ص) واقفاً وسأله: ادعوا لي يا رسول الله (ص) ، ثم ما لبث أن قام رجل آخر وسأل النبي (ص) ما سأله الأول ، فلم يجبه النبي (ص) الىٰ ما اراد . وقد احتمل بعض العلماء أن يكون

---

(١١) سورة الحج ، الآية (١) .

الثاني من المنافقين ولذلك لم يعتنِ رسول الله (ص) بسؤاله . ومهما يكن الحال فان ما يهمنا من تلك الحكاية هو ان يعيش المرء موازناً بين حالتي الخوف والرجاء ، فكلمّا ارادت نار الخوف ان تشدّه اليها استعان علىٰ ذلك برحمة الرجاء .



﴿فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] (لا بشي من آلائك رب اكذب) .

* مقدّمات القيامة عظيمة عظم القيامة:

لا يوجد في الواقع خبر أهم وأصعب من خبر القيامة في جملة من هذه الأخبار الالهية ، باعتبار الآثار الكبيرة المترتبة عليه ، فالدنيا علىٰ سعتها الرحبة يصفها الله عز وجل باللعبة عندما يقول **﴿انما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾**[2] ، أمّا عن الآخرة فنجده تعالىٰ يسمها بالنبأ العظيم كما في قوله **﴿عمّ يتسائلون ، عن النبأ العظيم﴾**[3] ، وحتىٰ أن زلزلة الساعة يصفها المولىٰ (عز وجل) بالشيء العظيم في قوله **﴿إن زلزلة الساعة لشيء عظيم﴾**[4] .

إذاً القيامة وحسب الأوصاف القرآنية هي نبأ عظيم أو خبر عظيم ولكننا

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٣٧ ـ ٣٨) .
(٢) سورة محمد (ص) ، الآية (٣٦) .
(٣) سورة النبأ ، الآية (١) .
(٤) سورة الحج ، الآية (١) .

للأسف شغلنا أنفسنا عنها بأنباء وأخبار الدنيا .

ولما كانت القيامة أمر عظيم فان مقدماتها وآثارها هي الأخرىٰ عظيمة باعتبار عظمة القيامة ، فمن آثار القيامة تلاشي جميع الأجسام وفناءها ، أي أن الأجسام المركبة والمتصلة تستحيل عند القيامة الىٰ اشياء متحللة ومنفصلة ، ويصدق هذا الأثر العظيم علىٰ أجسام العالم العلوي والافلاك أيضاً ، فالكواكب والنجوم وسائر الاجرام السماوية تتركب من أجسام وأجزاء تتصل مع بعضها وتتحد ، وعندما تقوم الساعة تستحيل هي الأخرىٰ الى ذرات ونثار .

* تحطّم الأفلاك السماويّة:

فالشمس تتحطم ، والقمر ينفجر والكواكب والنجوم تتشقق ، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالانفطار والانشقاق للسماء وهو المفهوم الشامل لكل ما يعلو رأس الانسان .

أما عن كيفية حصول التلاشي والزوال لهذه الأجرام ، فالمتوقع هو ان يتم إنصهارها بحيث تتحول الىٰ ما يشبه صورة الزيت بفعل تأثير الحرارة الشديدة الناشئة عن قيام الساعة والتي يعود باعثها علىٰ الأرجح الىٰ الانفجارات الداخلية (الباطنية) في الشموس والكواكب والأجرام الأخرىٰ مما يؤدي ذلك الىٰ ذوبانها .

* صيرورة اللّون الأزرق الى الاحمرار:

والأمر المدهش هنا عند حلول القيامة هو تبدّل لون السماء ، فاللون الحالي المألوف هو الأزرق ، ولكن هذا اللون ينتقل الىٰ الاحمرار عند قيام الساعة ، بل ان هذا اللون هو الآخر لا يثبت علىٰ حاله الجديد ، فهو يتغير ويتبدل الىٰ ألوان أخرىٰ ، فكما أن زيت الزيتون عندما نسكبه علىٰ صفحة الماء يعطي ألواناً متعددة ، فان السماء كذلك تأخذ بالتقلّب في ألوانها . فالتفت عزيزي القاريء الىٰ معنىٰ هذه الآية بعدما استعرضناه في مقدمتنا هذه من لوازم الايضاح حول الانشقاق السماوي وتتابع الانفجارات الكونية وتبدل لون

السماء . ﴿فاذا إنشقت السماء﴾ أي بعد ان تنفصل الكواكب والنجوم عن أفلاكها ، ثم تأخذ بالانفجار (وفي هذا الشأن يؤكد علم الفلك الحديث ان لجميع الشموس والكواكب أعماراً ، وبمجرد أن تنتهي هذه الأعمار ، تموت تلك الكواكب والشموس وتتلاشىٰ) .

«فكانت وردة كالدهان» ولكلمة (وردة) معنيان هما :

١ ـ زهرة شجرة الورد المعروفة ، وغالباً ما تطلق هذه التسمية علىٰ نوع خاص من الأوراد هو الورد الأحمر ، حتىٰ ان اللون الوردي (المشتق عن كلمة ورد) يقال للاشياء ذات اللون الأحمر القاني ؛ ومعنىٰ نص الآية هذه هو ان هيئة السماء تستحيل الىٰ ما يشبه الوردة الحمراء بفعل الحرارة الشديدة الناشئة عن لهيب نار جهنم ، وهذا يؤدي بدوره الىٰ ذوبان الأجرام السماوية وقتما يرفع عن فوهة جهنم غطاؤها .

* حصان تتبدل ألوانه على مدار فصول السنة :

٢ ـ المعنىٰ الآخر هو ما أورده صاحب تفسير مجمع البيان وبعض المفسرين ، وهو اسم لنوع من الخيول العربية التي تشتهر بها مدينة وردة ، ومن خصائص هذا النوع من الخيول انه يتلّون بألوان متعددة تبعاً لفصول السنة ، ففي فصل يكون لونه أحمراً ، وفي فصل آخر يصير لونه أصفراً ، وفي فصل ثالث يكون لونه أزرقاً ، وهكذا ، وعليه تمت الاستفادة من هذاالتلون لدىٰ هذا النوع من الخيول وسمي الحصان بالوردة بالاستعارة اللفظية .

وهكذا الحال بالنسبة للون السماء ، ففي القيامة يتغير لونها من اللون الأزرق الىٰ الأحمر ، وعليه جاءت كلمة وردة كاستعارة لفظية تبعاً لاستعمالات اللغة العربية .

* التلوّن في دهن الزيت :

﴿كالدهان﴾ الدهان مشتق من الدهن وهو السمن ، ووجه تشبيه السماء في هذه الآية هو من حيث التشابه في الذوبان والانصهار ، فالسماء تنصهر حتىٰ

تصبح سائلة كالماء ، كما هو الحال بالجبال الرواسي التي تستحيل صلابتها القاسية الىٰ ذرات غبار وهباء منثور(٥) .

إذاً السماء تنصهر كما ينصهر الدهن . وهناك وجه آخر للتلوّن أو تعدد الألوان والصبغات ، فكما أن الزيت الذي يهرق علىٰ سطح الماء يعطي ألواناً متعددة ، فمظهر السماء عند القيامة يأخذ هذا النحو فهي تبدي حينئذ ألواناً متعددة .

فالىٰ كل بيت نقول ، هل فكّرت في يوم سيأتيك كهذا اليوم؟ وهل تخيّلت قيام الساعة إذ الجبال قد نسفت ، والسماء قد إنصهرت ، وهل تنبّأت بما سيحل علىٰ رؤوسنا يومذاك من أهوال وشدائد ومصائب؟؟ يقول مولانا الامام امير المؤمنين (ع) في دعاء كميل (وهذا ما لا تقوم به السماوات والأرض ، يا سيدي فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين)!!

* الأمن للقلوب الوجلة:

ويروىٰ عن سيدنا رسول الله محمد (ص) أنه دخل مرة المسجد وكان حينها شاب قد وقف صافاً قدميه يصلي ويردد في قنوته باكياً (الويل لي إذا السماء إنشقت) فتوقف النبي (ص) هنيهة ورمقه ببصره ثم قال له: لقد أبكيت الملائكة ببكائك .

بلىٰ ان هذه الحرقة واللوعة هي في حد ذاتها نعمة ، وعاقبتها ان تبدل صاحبها أمناً لأن زيادة الخوف والخشية تؤدي الىٰ زيادة الأمان والاطمئنان لأن الله (عز وجل) أدل من أن يبكي عيناً في الآخرة بكت في الدنيا من خوفه وخشيته ، فكيف يمكننا ان نتصور تلك القلوب التي لا تطيق سماع آيات العذاب سوف تبصر عياناً ذلك العذاب؟! نعم يبقىٰ العذاب ملائماً لتلك القلوب

---

(٥) ﴿ويسئلونك عن الجبال * فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ سورة طه ، الآية (١٠٥) .

المتحجرة الصلبة القاسية من كثرة ما ران عليها من الآثام والمعاصي ، وهذا ما يؤكده قوله (تعالىٰ) ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾[٦] ، بينما هذه الحقيقة لا تصدق علىٰ تلك القلوب التي تعبّأت واستعدت لمثل ذلك اليوم العصيب فتطهرت ، لأن القلب الزاكي الطاهر المتطهر سوف يعتمر بخشية الله (سبحانه وتعالىٰ) فيكتب الحصانة والمنعة من التدنس بدرن المعصية والاثم والذنب .

* مناجاة الامام الحسين (ع) والاجابة السماوية :

جاء في كتاب المناقب أن رجلاً قال للامام ابي عبد الله الحسين (ع): اني لأراك يا سيدي عظيم الخوف كثيره (اذ ان الامام الحسين (ع) كان في غاية رقة القلب) ، فرد عليه الامام قائلاً: وهل فاتك ان الأمن في القيامة لأهل الخوف؟! . وأوّل بشرىٰ تزفّها الملائكة للعبد المؤمن في ساعة قبض روحه ان تقول له ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾[٧] ، وهذا هو أوّل الوصال . وفي الخبر المشهور عن أنس أنه قال: صحبت الامام الحسين (ع) الىٰ مقبرة بني هاشم (وهي مقبرة ابي طالب ، وحالياً يقال لها المعلاّ ، وتقع في مكة المكرّمة) ولمّا جئنا قبر جدته خديجة قال لي: اتركني لوحدي ، يقول أنس فمشيت عنه ولكني لم أرحل بعيداً ، فجلست في ناحية استمع لما يقول ، فأنشأ يقول بقلب حزين (يا ذا المعالي عليك معتمدي . . . الىٰ آخر الأبيات ، وهو يناجي ربه (عز وجل) ويقول بما مضمونه يا رب يا من عليه معوّلي ، طوبىٰ لمن كنت أنت مولاه ، وطوبىٰ لمن خفق قلبه من فرط خشيتك فراح يبث إليك شكواه ، ويكشف لك عما بلاه . . .) يقول أنس ، وفجأة دوّىٰ صوت بين الأرض والسماء وهو يقول: لبيك لبيك أيها العزيز ، ان الملائكة لتعشق صوت أنينك) ، فصلّىٰ الله عليك يا أبا عبد الله الحسين (ع) .

---

(٦) سورة الزمر ، الآية (٢٢) .
(٧) سورة الاعراف ، الآية (٤٩) .

« ٤٢ »

﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾[1] .

* الحساب والسؤال لا يحصل عقيب البعث مباشرة:

وبعد ان تقوم الساعة ويبعث الله الخلائق من قبورهم فينفضون التراب عن رؤوسهم يقول المولىٰ تعالىٰ ﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان﴾ والهاء في ذنبه هي ضمير متصل يعود علىٰ الانس باعتبار التقدّم الرتبي ، وهو نائب الفاعل لـ (لا يسئل) ، وعليه يكون المعنى ـ حينذاك لا يُسئل الانسان عن ذنبه ولا الجان ـ .

* الحساب والسؤال في القيامة من بديهيات القرآن:

ولعله هنا يبرز اشكال يستوجب القيام بالاجابة عليه وحل معضله وغموضه ، وهذا الاشكال هو ان مسألة الحساب هي من مسلّمات القيامة وبديهياتها ، وفيها يتم تحصل الاستنطاقات وتقديم الاسئلة للخليقة العاقلة عما حملوه من عقائد وما فعلوه من اعمال وما نطقوه من اقوال ، بل ان النبيين

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات ( ) .

وحسبما صرح بذلك القرآن العظيم يخضعون للمسائلة والاستنطاق ، كما في هذا النص الذي يقسم علىٰ تأكيده وتحقيقه المولىٰ (عز وجل) **﴿فلنسئلنّ الذين أرسل اليهم ولنسئلنّ المرسلين﴾**(٢) ، فالأمم تسئل عما حملت به من تعاليم انبيائهم ، والانبياء يسئلون عن تبليغ رسالات وتعاليم الله (عز وجل) ، وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تعالىٰ **﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾**(٣) ، وفوق ذلك يسئل الخلق عن تركه سيد الكائنات (ص) (القرآن والعترة) كيف كان عمل المكلّفين بالتزام هذين الثقلين وكيفية عمل الخلق والولاية الالهية الموسومة بالنعيم في قوله تعالىٰ **﴿ثم لتسئلنّ يومئذ عن النعيم﴾**(٤)وفي الواقع فان النعيم هو القدر المسلّم به من نعمة الولاية كما هو واضح ، إضافة الىٰ تصريح القرآن العزيز في مواضع متعددة منه بحتمية سؤال المذنبين واستنطاقهم ، بحيث ان المرء يحاسب علىٰ كل نية ومعتقد وعمل وقول ، كبيراً كان أم صغيراً **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**(٤) .

* وهل يسئل المجرم عن ذنبه؟

ولكننا نجد في تصريح هذه الآية الكريمة موضوع البحث ان الانسان والجن لا يسئلان عن ذنوبهما كما نقرأ **﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان﴾** ، وفي قول آخر يقول عز وجل **﴿ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون﴾**(٦) .

ولكن ومن خلال سياق الآيات الكريمة التي عرضناها قبل هاتين الآيتين يبدو ان موضوع المسائلة والحساب والاستنطاق في القيامة هو من الامور القرآنية المسلّم بها ، فهل أنها تتعارض مع ما صرحت به هاتين الآيتين؟ ، في الواقع

(٢) سورة ألاعراف ، الآية (٦) .
(٣) سورة الصافات ، الآية (٢٤) .
(٤) سورة التكاثر ، الآية (٨) .
(٥) سورة الزلزال ، الآية (٧ ـ ٨) .
(٦) سورة القصص ، (٧٨) .

انها تبدو متعارضة لمن يرقبها لأولِ وهلة ، وعليه يفترض بنا ان نوضح معنىٰ الآيتين لندفع الخلط والالتباس المؤدي الى تصور وجود التعارض لدىٰ القاريء العزيز ، مع ضرورة تثبيت مبدئيّة استحالة وجود التناقض في القرآن الكريم ، ولعل افضل بيان توضيحي يزيل هذا الابهام والخلط هو ما صرح به سيدنا الامام علي (ع):

* سؤال الزنديق للامام علي (ع):

فقد نقل صاحب كتاب بحار الانوار هذه الرواية التي تقول ان زنديقاً جاء الىٰ الامام أمير المؤمنين (ع) وعرض عليه بعض الشبهات زاعماً فيها أنها تشتمل علىٰ تناقضات حملها القرآن الكريم بين دفتيّه ثم اضاف بقوله انه ولولا هذه التناقضات لآمن بالقرآن العظيم ، فسأله الامام (ع): وأين هي هذه التناقضات؟ حينئذ عرض الزنديق الآيات القرآنية التي زعم بقوله أنها تتناقض مع بعضها البعض (من حيث ظاهرها) فرد الامام علي (ع) باجابات وافية مفحمة ، وكان من جملة ما اشكله الزنديق علىٰ القرآن الكريم هو موضوع (المسائلة . الاستنطاق) في القيامة ، وحينها قال للامام (ع): هل ان السؤال والحساب في القيامة موجود أم لا؟ لأن بعض آيات القرآن تثبت وجوده وتؤكده ، بينما هناك آيات أخر تنفي ذلك ، فرد عليه الامام (ع) قائلاً: إنّ للقيامة مواقف ومواطن ، فهل تخيّلت أن القيامة مجلس واحد؟!

* مواقف القيامة خمسون موقفاً:

وما يناسب بحثنا هذا هو ما اشتمل عليه حديث شريف يروىٰ عن الامام الصادق (ع) نعرضه هنا ثم نعرّج بعد ذلك علىٰ بقية حديث الامام علي (ع) المنقول في كتاب البحار . يقول الامام الصادق (ع) حسب مضمون الرواية ، ان للقيامة خمسون موقفاً يمتد كل موقف علىٰ الكافرين ألف سنة[7] ، وعليه كان

---

(٧) ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾ سورة السجدة ، الآية (٥) .

مجموع يوم القيامة خمسين ألف سنة[٨] . ولا يوجد تعارض بين هاتين الآيتين ، لأن المراد بكلمة (يوم) في الأولىٰ هو يوم الموقف ، بينما في الثانية هو يوم القيامة المؤلّف من خمسين موقفاً ، وبالطبع فان حساب المؤمن (كما تؤكده الروايات) لا يستغرق جميع هذا الوقت ، بل ان فترة الحساب لا تعدو ان تكون كمقدار الزمان الفاصل بين أداء صلاتي الظهر والعصر ، وهذا بالتأكيد يختص بخواص الشيعة لأنهم خرجوا من الدنيا طاهرين لم يقترفوا إثماً ، أو أنهم اقترفوا بعض الذنوب ولكنهم طهروها بماء التوبة . وعليه نخلص الىٰ ان امتداد زمان القيامة علىٰ الأفراد يختلف من فرد الىٰ آخر تبعاً لكثرة الذنوب أو قلّتها ، ويصل زمان القيامة الىٰ حده القياسي (خمسون ألف سنة) لذلك الشقي الغريق في بحار ذنوبه لينتهي به المصير الىٰ الهوي في جهنم ، ولقد ذكرنا من قبل رواية عن النبي (ص) تفيد ان في القيامة من يؤخّر (يحبس) مائة عام لذنب اقترفه في دنياه .

* البعث من القبور في مشهد ملؤه الخوف والحيرة:

ونعود الآن الىٰ إتمام بقية الحديث المروي عن الامام امير المؤمنين (ع) ، يقول الامام : للقيامة مواقف ومواطن ، واول تلك المواقف هو البعث والنشور ، حيث تلتحق الأرواح بأبدانها فيخرج الناس من قبورهم شعث غبر ينفضون التراب عن رؤوسهم وقد ملؤوا رعباً وذهولاً في موقف لم يسبق لأيّ منهم أن حضره من قبل يحمل مشاهد مروّعة لم ير مثلها فيما سبق ، فيعم الخوف والرعب جميع الحضّار حينئذ ، وهذا الموقف هو بالتأكيد ليس موقف الحساب والسؤال ، لذلك يقول الرب الحميد **﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه أنس ولا جان﴾** ، لماذا؟!

---

(٨) **﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾** سورة المعارج ، الآية (٤) .

* لا يمكن الحساب في ظلّ موقفٍ يعمه الذهول والتحيّر:

ويقول المحقق الطبرسي في تفسير مجمع البيان في معرض تعليقه علىٰ هذه الآية المباركة ، إن الموقف حينذاك هو موقف تحيّر وذهول وهلعٍ ولا يملك من أحدٍ حينها عقله وحواسّه من فرط الخوف والرعب ، فكيف إذاً يتأتىٰ لهم الاجابة علىٰ الاسئلة والوقوف للحساب؟ الّا اللهم بعض خواص الشيعة الذين يصفهم الباري تعالىٰ في قوله ﴿**وهم من فزع يومئذ آمنون**﴾[9] ، بينما يكون سائر الناس في حالٍ يعلوهم الذهول وتعمهم الدهشة: كما نقرأ في قوله (عز وجل) . ﴿**خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة**﴾[10] ، اذ ان البعض تصل به درجة الذهول الىٰ حد تجمد فيه عيناه لمدة اربعين عاماً ، إذاً من يكن في هذا الحال كيف يعقل ان يوجه اليه سؤال؟!

ولعل الكثير منّا قد عايش مثل هذه الحالات والمواقف في حياته وان اختلفت من حيث الشدة وطول الفترة ، فعندما ترتجف الارض في زلزلة (لا سمح الله) لفترة دقيقتين أو ثلاث وتكون كمهد الطفل ، فحينئذ ندرك أي ذهول ودهشة تعترينا! بينما القيامة في نبأها العظيم تهتز الأرض تحت أقدام الخلائق جميعاً وتمور السماء من فوق رؤوسهم وتصم آذان الناس من فرط صيحات جهنم في تغيّضها وشهيقها وزفيرها كما يؤكد ذلك كتاب الله المجيد ، وعليه فلنتصور كيف سيكون حالنا يومذاك؟! إنه والله الذهول التام والحيرة المطبقة ﴿**وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد**﴾[1] ، ويبقىٰ من القول ان نذكّر ان درجة الخوف والذهول تتباين بين الافراد تبعاً لاعمالهم وسلوكهم في دار الدنيا .

---

(٩) سورة النمل ، الآية (٨٩) .

(١٠) سورة القلم ، الآية (٤٣) .

(١١) سورة الحج ، الآية (١) .

* تجلي الهيبة والعظمة الإلهية في القيامة:

وعلىٰ اساس ما سبق فان الموقف الأول في القيامة هو موقف تجلّي العظمة الالهية التي يجب علىٰ الجميع ادراكها ، رغم ان البعض قد أدرك من قبل هذه العظمة في دار الدنيا ، وهناك من هو غني عن ادراك تلك العظمة المقدسة لأنه قد ذاب في ذات الله (عز وجل) ، ولكن يبقىٰ الكثير الكثير من الحمقىٰ الذين لم يدركوا حقيقة عظمة الله الواحد القهّار ، لذلك يأتي هذا الموقف وفقاً لما تتطلبه دواعي الرحمة الالهية لكي يدرك الخلق شيئاً من عظمة الله وجلاله . وفي هذا الموقف أيضاً تنتزع القلوب من الصدور لفرط الهول والهلع حتىٰ تبلغ الحناجر كما نقرأ في قوله تعالىٰ ﴿**اذا القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين**﴾[١٢]وحينها تخرس الالسن ولا يسمع الكلام إلّا همساً ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلّا همساً**﴾[١٣] . ﴿**فيومئذ**﴾ أي في ذلك اليوم الذي تنشق فيه السماء ثم تصير وردة كالدهان فيغمر الخوف والوجل جميع الخلق وهم يبصرون تشتق السماء وتغير لونها الىٰ الاحمرار وذوبانها كالزيت ، فحينئذ ﴿**لا يسئل عن ذنبه أنس ولا جان**﴾ مع أن موقف الحساب لم يأت بعد ، وان صحائف الاعمال لم تتطاير بعد ، وان الميزان لم يحضر موعده بعد ولو جاءت تلك المواقف ﴿**فوربّك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾[١٤] .

* السؤال التوبيخي لا السؤال الاستفهامي:

وهنا وجه آخر ينقله المحقق الطبرسي عن عدم السؤال في الموقف الأول عن ذنوب الخلائق ولعله هو الأقرب الىٰ الواقع . ففي مرحلة الحساب في يوم القيامة لا يكون حينها أي سؤال استفهامي ، بل ان الاسئلة المطروحة هي الاسئلة التوبيخية ، لأن من يقدم علىٰ السؤال إنّما يتوّخىٰ الحصول على الاجابة

---

(١٢) سورة غافر ، الآية (١٨) .
(١٣) سورة طه ، الآية (١٠٨) .
(١٤) سورة الحجر ، الآية (٩٢) .

التي تكشف مجهولاً لدىٰ السائلِ ، فمثلاً عندما يُسئل المرء من أنت؟ وما عملك؟ وأين كنت؟ والىٰ أين ستذْهب؟ وبماذا تحدثت في المحفل الفلاني؟ وما الىٰ ذلك من تساؤلات فانمّا يراد بها التعرف علىٰ تلك المطالب المجهولة لدىٰ السائل فيحقق حينئذ السائل الالمام والاحاطة بما خفي عليه .

﴿**فيومئذ لا يسئل**﴾ ففي الموقف الأول لا تثار الاسئلة الاستفهامية التي تتوخىٰ الاستعلام والاستفهام عن هويّة المسؤول وأفعاله وتصرفاته لأن الله تعالىٰ عالم بخلقه عارف بشؤونهم ، وهكذا الحال بالنسبة لملائكته الكاتبين ، فهم علىٰ علم بحال المسؤول ، بل ان عموم الناس يعلمون ويعرفون المجرمين بسيماهم ، وحتىٰ الجوارح ، فهي الأخرىٰ تفصح عن كل ما فعله المرء بواسطتها (كما يتأكد هذا في الروايات) سواء كان ذلك العمل إثماً مشيناً أو عملاً صالحاً ، فللوضوء نور خاص ، وللغسل نور مميز وللولاية نور آخر بحيث ان الرائي يفهم حقائق تلك الأمور بواسطة نطق الجوارح .

* آثار الذنوب تصحب المذنبين في المحشر :

يقول المرحوم الملاّ فيض الكاشاني ، ان شارب الخمرة يأتي القيامة وهو يحمل وعاء الخمرة بيديه ، واللائط يصطحب الملوط معه ، والمقامر يأتي وهو يحمل آلة القمار بشكل تلتصق بيديه تلك الأمور فلا يستطيع منها إفلاتاً ، ولو كان المذنب صاحب طنبور(١٥)أو أية آلة لهو أخرىٰ ، فيأتي المحشر وهو يحملها معه ، ثم لا تلبث أن ترتفع في الهواء فتنزل علىٰ أم رأسه ضرباً مبرحاً بحيث أن الجميع يفهم حينها أن عمله كان قبيحاً . ثم يقبل الآخر وقد اكتوىٰ جبينه وظهره وخاصرتيه فيعلم الجميع أنه كان مانعاً للزكاة كما في قوله (عز وجل) ﴿**الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرّهم بعذاب أليم ، يوم يحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم**﴾(١٦) ، إذاً

---

(١٥)الطنبور ـ آلة غناء وطرب محرمة تشبه الىٰ حد كبير آلة العود الموسيقية .

(١٦) سورة التوبة ، الآية (٣٥) .

نستنتج من الوجه الثاني أن هذه الآية الكريمة لا تقصد السؤال الاستفهامي والاستعلامي لوضوح سلوك الأفراد .

وأنا الآن بدوري أتوجه الىٰ الاخوات والسيدات بالخصوص ممن لا ترغب في إهراق ماء وجهها ، كما اني في ذات الوقت أوجه كلامي الىٰ كل من رام العفّة ، ان هذا عمركم الذي سينقضي عاجلاً لا يمر عليكم الّا مرة واحدة ، فالله الله أن تنفقوه في ما يعود عليكم بالغد بالحياء واطراقات الخجل واهراق ماء الوجوه ، لأن ما خفي في يومنا هذا سيتجلىٰ علانية في غد الآخرة كما يقول ربنا عز وجل ﴿يوم تبلىٰ السرائر﴾[17] ، فهل وضعنا في حسباننا مثل ذلك اليوم؟

يقال أن رجلاً خرج يبحث لنفسه عن موضع يستر عليه ما تغرّه به نفسه ، ترىٰ هل سيجد مثل هذا الموضع؟!

* الشيعة لا يستجوبون:

وهنالك وجه آخر ورد عن الامام الرضا (ع) يفيد ان المقصود من قوله تعالىٰ ﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه أنس ولا جان﴾ منكم أي الشيعة الموالية لأهل البيت (ع) ، فشيعة اهل البيت (ع) يحشرون يوم القيامة علىٰ هيئة البشر (ذات صورهم البشرية) بينما يحشر الآخرون علىٰ هيئات وصور تطابق وتلائم حقيقة عقائدهم وطبيعة أعمالهم وسلوكهم ، تقول احدىٰ الروايات بهذا الخصوص (يحشر الناس علىٰ صور تحسن عندها القردة والخنازير) .

فالانسان الناهل من فيوضات امام الزمان (ع) يكون قد سمىٰ فعلاً الىٰ صورته الأنسانية التي أرادها الله تعالىٰ له فيحشر إنساناً .

وتأسيساً علىٰ ما سبق نقول ان آية ﴿لا يسئل عن ذنبه ـ منكم﴾ تعني أن حينئذ لا تسئلون أيها الشيعة عن ذنوبكم لانكم قد كفّرتموها بأتباعكم لأهل البيت (ع) ووردتم المحشر طاهرين .

---

(١٧) سورة الطارق ، الآية (٩) .

وتقول تتمة الرواية المنقولة عن الامام الرضا (ع) في معنىٰ قوله عز وجل «فيومئذ لا يسئل عن ذنبه، قال: مٰنكم، ويعني الشيعة، إنس ولا جان» (قال ومعنىٰ ذلك ان من توالىٰ (علياً) امير المؤمنين (ع) وتبّـرأ من أعدائـه وآمن بالله وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ثم دخل في الذنوب ولم يتب منها في الدنيا، عذّبه الله بها في البرزخ ثم يخرجه يوم القيامة وليس عليه ذنب يسئل عنه). وجاء في مجمع البيان أنه روي عن الامام الرضا (ع) انه قال: ﴿**فيومئذ لا يسئل** (منكم) **عن ذنبه أنس ولا جان**﴾ إن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عذب عليه في البزخ، ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسئل عنه)[١٨].

وبعد ذلك يعقّب الامام (ع) قائلاً: والله لا يُرىٰ منكم في النار اثنان، لا والله ولا واحد، ولكني أخوف ما أخاف عليكم البرزخ، وأما في القيامة فانكم تنالون شفاعتنا).

وعلىٰ ذلـك كان لـزاماً على الانسـان أن يسعىٰ من اجل ان يعتصم عن ارتكاب الذنب، ويصلح حاله، وأن يوثّق علاقته ويمتّنها مع أهل البيت (ع)، لأن حقيقة الرجاء تكمن في ولاية اهل بيت النبوة (ع).

---

(١٨) تفسير نور الثقلين، (ج ٥ ص ١٩٥).

« ٤٣ »

﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام﴾ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ (لا بشيء من آلائك رب اكذب)(١) .

* إرتفاع التناقض باختلاف المكان:

قلنا إن الأشكال المزعوم علىٰ هذه الآية في قوله تعالىٰ **﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه أنس ولا جان﴾** وما أوردته الآية الأخرىٰ التي يقول نصّها **﴿ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون﴾**(٢) يفيد ان ليس في القيامة سؤال وجواب ، في حين ان هناك العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد العكس من ذلك وتشير الىٰ بديهية السؤال والجواب في القيامة ، وقد يبدو هذا الأمر لأول وهلة مشتمل علىٰ التناقض ، وقد عرضنا فيما سبق ثلاثة ردود علىٰ هذا الاشكال وسنواصل الآن تتمة بحثنا هذا ببيان آخر يزيل الشبهة ويرفع الاشكال بشكل قاطع .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٣٩ ـ ٤٢) .
(٢) سورة القصص ، الآية (٧٨) .

يقول علم المنطق ان كل موضوع نفترض وجود التناقض فيه لا يمكن القطع باحتماله للتناقض حتىٰ تنطبق عليه ثمانية شرائط ، ولو لم ينطبق عليه شرط واحد من تلك الشرائط الثمان ارتفع التناقض . والشرائط هي :

١ ـ وحدة الموضوع . ٢ ـ وحدة المحمول . ٣ ـ وحدة المكان . ٤ ـ وحدة الزمان . ٥ ـ وحدة الشرط . ٦ ـ اضافة الجزء الى الكل . ٧ ـ الفعل . ٨ ـ القوة .

فلو حصل التعدد في أحد هذه الشرائط لارتفع التناقض كما قلنا ، والقضيتان اللتان نبحث موضوع التناقض المحتمل فيهما هما (السؤال أو عدمه في القيامة) .

ولو جئنا الىٰ شرط وحدة المكان ، لوجدنا أن الموقف الأول في القيامة لا يشتمل علىٰ السؤال لأنه موقف تملأه الحيرة والذهول والخوف ، بينما يشتمل موقف الحساب علىٰ الميزان وتطاير الكتب والصراط وهو موقف السؤال في القيامة باعتبار وجود الاستعدادات اللازمة للمسؤول في الاعراب عن اجاباته ، وكما يبدو أن الموقفان يختلفان من حيث الوحدة المكانية وعلىٰ هذا يرتفع التناقض في القضيتين .

* مسائلة البعض وإعفاء آخرين :

اما الشرط الآخر فهو وحدة المحمول ، وهنا هو وحدة المسؤول ، أي الأفراد الذين يستنطقون ويستجوبون أو لا يستجوبون ، وكما نعلم ان الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث أداء التكليفات الشرعية ، وعليه فان في القيامة من يسئل ومنهم من لا يسئل لأن السؤال لا يشمل الجميع ، فخواص الشيعة مثلاً ليس لديهم ذنوباً أو أنهم كفروا عن سيئاتهم في دار الدنيا وأخلصوا التوبة لله فهم حينئذ في حلٍّ من مسألة السؤال والحساب في ذلك اليوم .

* عدم تعلق الضريبة بالسفن الخالية من الشحنات:

فقد نقلت رواية عن الامام الصادق (ع) نقلها صاحب البحار، مثلاً رائعاً حول موضوع المسائلة في القيامة حيث شبّه الامام (ع) الحالة بوجود سفينتين قد مخرتا عباب البحر، احداهما محملة بالبضائع والأخرىٰ خالية من أية بضاعة، وما أن تصل السفينتان الىٰ جمرك الميناء حتىٰ يباشر رجال الجمارك بتقدير الضريبة المترتبة علىٰ حمل البضائع، وهنا يتسائل الامام (ع) قائلاً: فأي سفينة سيطول مكوثها في الميناء وأيتهنّ سيأذن لها بمعاودة الحركة في البحر؟ وبالتأكيد سيأذن للسفينة الخاوية من البضائع بمواصلة مسيرها لأنها في منأىً عن دفع رسوم الموانيء والبحار، أما تلك السفينة المحملة بالبضائع فستتأخر في الميناء حتىٰ يتمكن رجال الجمارك من تقييم بضاعتها المحمولة وتحديد المبالغ المفترض دفعها كرسوم للابحار بالبضائع. وهكذا الحال بالنسبة للانسان الذي قد صفّىٰ حساباته وقضىٰ ديونه وذممه في دار الدنيا، فهو عندما يموت، ينتقل الىٰ العالم الآخر وليس في ذمته شيء فهو قد أدىٰ عباداته من صلاة وصيام وحج وزكاة، ودفع نفقات عياله، ولم يظلم أحداً أو يبخسه شيئاً من حقوقه وادّىٰ حقوق الوالدين والجار والأقربون بحيث يصدق عليه أن يقال له انه كان رجلاً مسلماً حقيقياً ملتزماً، وبذلك فهو يجنّب نفسه الحساب والمسائلة وطول الوقوف في عرصات القيامة.

وطبقاً للرواية الواردة في كتاب لئاليء الاخبار فان هكذا أفراد ما أن يبعثوا من قبورهم عند قيام الساعة حتىٰ يجدوا مراكباً قد أعدّت لهم، فيمتطي المؤمن مركبه فينطلق به بطرفة عين واحدة الىٰ مأواه في الجنان. وحينها يتسائل المؤمن: إذاً اين الحساب والكتاب والميزان والصراط؟ واي شيء هذا المركب؟ فيأتيه الجواب، ان مركبك هذا هو المسجد الذي أنست به في دار الدنيا وها هو اليوم قد أتاك بهيئته الملكوتية لأجل أن ينقلك الىٰ مأواك الجنة بكل هناء، وبالطبع عندما نقول أن المرء المؤمن قد لا يكون عنده ذنب فهو معصوم، ومرادنا بالعصمة هنا هم خصوص المعصومين الاربعة عشر (ع)، أما

الآخرون الذين تصدر عنهم المعصية ويبدر عنهم الخطأ أو الخطيئة ثم يتوبون الىٰ الله (عز وجل) منه فهم وكما تشير نصوص الروايات الشريفة كمن لم يذنب «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٤] ، وفوق ذلك فان الله تعالىٰ يعده أن يبدل سيئاته حسنات لأنه طهر تلك السيئات بالتوبة ، يقول تعالىٰ ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾[٤] ، وعلىٰ ذلك يكون المرء الذي قد ودع دار الدنيا بسريرة نقيّة وثوب طاهر قد أعرض عن الحساب وسلم من التأخير في عرصات القيامة ، ولو افترضنا أن العبد مات وعليه شيء من الذنوب لم يتب عنها ، فيصار به الى عذاب البرزخ حتىٰ يطهر ثم يرد المحشر طاهراً نقياً ، وهذا المعنىٰ نقل عن الامام الرضا (ع) عندما قال: انما هذا خاص بكم (الشيعة) فأنتم الذين لا تسئلون يومذاك .

وروي عن الامام الصادق (ع) قوله: من احب علياً (ع) وعادىٰ أعدائه ثم أذنب فمات دون أن يتوب من ذنبه يصار به الىٰ البرزخ فيلبث هناك ما شاء الله (تعالىٰ) حتىٰ يطهر لكي يرد القيامة وهو لا ذنب عليه ، وعندها لا يُسئل عن ذنبه لأنه قد أوفاه وطهره في برزخه ، ثم يقول الامام (ع): ولكني أخاف عليكم عذاب البرزخ ، اما شفاعتنا فانكم تنالوها في القيامة .

اذاً ايها الاعزاء ينبغي علينا المثابرة والسعي والجد في دار الدنيا وقبل فوات الأوان بحلول الأجل المحتوم لكي نصلح احوالنا واعمالنا وننقي سرائرنا ، لأننا في الواقع لا طاقة لنا علىٰ تحمل عذاب البرزخ الالهي ، وها نحن نرىٰ الموت قد تأهب للهجوم علينا وهو يريد أن ينشب مخالبه في أبداننا ، فينبغي بنا أن نراه كما هو قريباً منا ونحدث انفسنا علىٰ الدوام أن لعل سنتنا هذه هي آخر سني العمر التي نطويها .

إذخر ليومك ما نبضت فيك العروق   قبل الرحيل ولات حين تأسّف

---

(٣) سفينة البحار ، (ج ١ ، ص ١٢٧) .
(٤) سورة الفرقان ، الآية (٧٠) .



﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأي آلاء ربّكما تكذبّان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام﴾[1] (لا بشيء من آلائك رب اكذب) .

* تناسب العذاب البرزخي مع كبر المعصية :

قلنا عن موضوع التناقض المزعوم في هذه الآية القرآنية مع غيرها من الآيات أنه يرتفع بمجرد عدم تحقق أحد الشرائط الثمان آنفة الذكر ، وقد تحقق لدينا الآن ارتفاع التناقض من خلال شرط تعدد المكان اذ ان الموقف الأول والمسمىٰ بموقف البعث والنشور لا يشتمل على السؤال باعتبار حالة الدهشة والرعب التي تتملك جميع الخلائق حينذاك ، وهو موقف يختلف تماماً عن موقف الحساب . ثم ذكرنا وجود التعددية في شرط وحدة المحمول ، وقلنا بوجود تعدد الاشخاص الذين يتراوح حالهم بين تحقق الحساب والمسائلة معهم وبين عدمه في القيامة ، وقلنا أن المسلّم به هو اعفاء المسلم الموالي لأهل

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٣٩ ـ ٤٠) .

البيت (ع) التائب عن ذنوبه في دار الدنيا أو المطهر في سجن البرزخ وعذابه من الحساب والمسائلة هناك لأنه سيقدم علىٰ الآخرة وهو نقي طاهر لا تبعة عليه ، وقد اكدت هذه الحقيقة كما قلنا جملة من الروايات الشريفة .

وهنا ننبّه الىٰ ان شكل الذنب وحجمه يتطلب انواعاً وألواناً من العقوبات والعذاب يتناسب معها ، فقد يستدعي ذنب عذاباً برزخياً لمدة سنة واحدة ، بينما يتطلب بعض الذنوب عقاباً يشتمل علىٰ عذاب برزخي لألف سنة مثلاً ، ويتأكّد ذلك بالخصوص في موضوع حقوق الآخرين ، وعليه وجب الحذر الشديد من مسألة عدم الايفاء بتلك الحقوق أو تعمد غبنها او انتهاكها ، ولكي نتبيّن صورة الخطر المرعب هذا ، نطالع سوية هذه القصة :

* سنة من العذاب لأجل حقوق الناس :

ذكر المرحوم الحاج الشيخ النوري في كتابه دار السلام نقلاً عن المرحوم الحاج السيد محمد الأصفهاني (وهو من كبار علماء أصفهان) أنه قال : بعد مضي عام واحد علىٰ وفاة المرحوم والدي ، شاهدت في ليلتي تلك في عالم الرؤيا والدي وسألته عن أحواله فأجابني : لقد كنت في عناء شديد لم أفرغ منه نهائياً إلّا يوم أمس ، فعجبت لقوله وسألته عن سبب عنائه ذاك؟ قال : لقد كنت مديناً بثمانية عشر قراناً للسقا المعروف بمشهدي[3]رضا ونسيت ان اوصي بها في وصيتي لأجل ترد إليه ، ولقد صرت الىٰ اليم العذاب منذ ساعة وفاتي وحتىٰ يوم أمس حينما وهب (المشهدي رضا) لي حقه الذي بذمتي ، وانا الآن في حال حسن . يقول السيد محمد الاصفهاني ، كانت هذه الرؤيا حينما كنت مقيماً في مدينة النجف الأشرف فسارعت إثرها الىٰ كتابة رسالة الىٰ اخوتي في

---

(٢) القران : أصغر عملة نقدية اجرانية كانت تستخدم في التداول الىٰ حد قريب وتسمى اليوم ريالاً .

(٣) المشهدي : لقب يضاف للمرء المسلم الذي يوفقه الله تعالىٰ بزيارة مدينة مشهد حيث ضريح الامام الثامن علي بن موسىٰ الرضا (ع) ، وهي تقارن كلمة حاج التي تطلق علىٰ زائر بيت الله الحرام في مناسك الحج المعروفة .

مدينة اصفهان وضمّنتها موضوع الرؤيا وسألتهم التحقق من مسألة الدين الـذي كان في ذمة والدي وطلبت منهم تسديده لصاحبـه ، ولما وصلت رسـالتي لهم ذهبوا الىٰ المشهدي رضا السقا وسألوه عن دين والدي فأجابهم بالايجاب وقال لهم: لقد كان لي بذمته ثمانية عشر قرانـاً ، ولكنه قـد مات وضـاع عليّ حقي لانني لم آخـذ عليه حينهـا سنداً بـالمبلغ ، وعزفت عن المـطالبة بحقي لانني ظننت أنها ستكون عقيمة لعدم وجود الدليل علىٰ حقي ، وبعد مرور عام علىٰ وفاة والدكم تذكرت الدين فحدثتني نفسي أن والدكم قد قصّر بحقي عندما لم يكتب لي بالدين ، بل انه لم يتجرأ ان يذكره في كتاب وصيته ، فقلت لأهبها له علىٰ حب جده رسول الله (ص) لكي لا يعذّب عليها ، وهنا سارع اخوتي بدفع مبلغ الدين الى هذا الرجل فاعتذر عن قبوله وامتنع قائلاً: كيف آخذ ما وهبته! فتأمّل عزيزي القاريء وأعلم ان البقاء في عذاب البرزخ مـرهون بنـوع الذنب وخطره ، وأن شيعة علي (ع) يتم تطهير المذنب منهم غير التائب في البرزخ .

* تطاول زمان الحساب في القيامة ، إمعانٌ في عذاب المذنبين:

اما الوجه الثالث في باب حل اشكال التناقض فهو كيفية السؤال ، فهل هو سؤال استفهـامي؟ ام هو سؤال إستنكـاري؟ ، فمرة يسـأل المرء مـاذا عملت؟ بقصد أن يطلع السائل علىٰ ما فعله المسؤول لأن السائل لا يدري ، ومرة يسئل المرء ماذا عملت؟ بقصد التوبيخ وهو يعني في نص سؤاله لماذا تجـرّأت على فعل هذا الأمر القبيح استنكاراً وتوبيخاً ، لذلك كان موقف البعث عندما يخرج المرء رأسه من قبره وينفض عنه التـراب وهو علىٰ هيئتـه الحقيقية فـلا ضرورة حينها للسؤال الاستفهامي لأن الله تعالىٰ يظهر كل ما اخفاه العبد في دنياه ، في يـوم القيامـة ، بينمـا يكـون السؤال في مـوقف الحسـاب علىٰ هيئـة تـوبيخية واستنكارية ، ولذلك يقف البعض ألف سنة يوبّخ ويعنف زيادة في عذابه ، لا ما يـذهب اليه البعض من أن سؤال الحسـاب استفهـامي (وهـو السؤال المـوجـه للمسؤول بقصد التعرف علىٰ ما فعل و ما نوىٰ) ، وخير دليل علىٰ ما نقول هو قوله تعـالىٰ في الآية الـلاحقة ﴿**يعـرف المجرمـون بسيماهم**﴾ أي أن اعمـال

المجـرمين تتجسد في مـلامحهم وصورهم فتعـرف منهم حينئذ حقيقـة ذنوبهم ومعاصيهم .

* كشف غطاء المُلك عن الملكوت:

﴿بسيماهم﴾ السيماء هي ظهـور حالات وأفكـار الانسان علىٰ قسمـات الوجه ومـلامحه ، فيعـرف حينذاك المجـرمون من خـلال قسمات وجـوههم ، السارق يبدو علىٰ سيماه ما يدلل علىٰ انه سارق ، وكل فرد مذنب يعكس علىٰ قسمات وجهه ما ابطن واخفىٰ من اعمال وعقائـد . فكما أن الأثـر يترتب علىٰ العمل الصالح الذي يفعله المؤمن في الآخرة ، فكذلك أيضاً تترتب الآثار علىٰ الاعمال المشينة التي يرتكبها المجرمون والمذنبون فتظهر جلية في القيامة عندما يكشف الغـطاء المتمثل بعـالم الملك عن عالم الملكـوت ، فالايمـان والعمل الصالح يتجلّىٰ نورهما في ذلك اليوم فيبصر العبد المؤمن سبيله بهما وهو يجتاز الصراط ، بينما تعم الكافر والمنافق ظلمات المعاصي والنفاق والكفر فلا يبصر شيئاً ، ولا يستطيع حتىٰ أن ينتفع من انوار المؤمنين في ذات الحال كما يقول الله (عز وجل) **﴿يوم يقول المنافقون والمنـافقات للذين آمنـوا انظرونـا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً﴾**(٤) .

* نماذج من هيئات بعض المجرمين في عالم الملكوت:

وهنا نستعرض سوية بعض الصور الملكوتيـة لبعض المذنبين كمـا نقلها صـاحب تفسير مجمـع البيان عن رسـول الله (ص) ، يقول (ص) (يـرد النمـام المحشر يوم القيامة وهو علىٰ هيئة القرد) بحيث ان جميع من يراه يعرفه علىٰ أنه نمام(٥) ومثير للتشاحن والبغضاء بين الناس (وبطبيعة الحال لا تستدعي الحاجة ان يوجه اليه سؤال يستفهم فيه عن عمله) .

---

(٤) سورة الحديد ، الآية (١٣) .

(٥) **النمّام**: هو الشخص الذي يسمع كـلاماً مـا من أحد الأفـراد فيعمد الىٰ نقله لـلآخرين متوخياً اثارة العداوة والبغضاء والاحن بينهم بقصد التفريق .

(اما آكل السحت (كنقص الكيل والميزان) فيأتي علىٰ هيئة الخنزير ، ويأتي مؤذي جاره وهو مقطوع اليد أو الرجل ، أما آكل الربا فيأتي وقد انتفخت بطنه حتىٰ أنه لا يطيق معها الوقوف أو المشي كما يقول عز وجل ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾(٦) . اما العلماء الذين لا يعملون بعلمهم فيردون المحشر وهم ينهشون بألسنتهم ، ويأتي المتكبّرون وقد لبسوا جبباً من نار ، ويرد ذو الوجهين واللسانين (ممن يقابل الناس بوجه جميل ولسان طيب ثم يكيل لهم السوء والأذىٰ بوجه كالح في غيابهم) المحشر بلسانين من نار ، واحد قد اندلع من فيه والآخر من قفاه ، اما المرء المعجب بعمله فيرد المحشر وهو أصم أبكم ، ويرد الظالم الجائر الىٰ المحشر وهو أعمىٰ) .

* إسوداد الوجه وارتعاش اليد من علامات المجرمين:

ومن الوجوه الاخرىٰ في معنىٰ الآية الكريمة ، هو أن يرد المجرمون المحشر وقد أسودت وجوههم واسوداد الوجه وحده كاف كدليل علىٰ جرم صاحبه كما أن بياض الوجه دليل علىٰ صلاح صاحبه ، ومن سيماء المجرمين الأخرىٰ التي يعرفون بها في القيامة هو ارتعاش اليد ، واستلامهم لصحائف اعمالهم بشمالهم (بأياديهم اليسرىٰ) كما نقرأ في قوله تعالىٰ ﴿**فأمّا من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه**﴾(٧) ، وتصور آية اخرىٰ مظهراً آخر يعرب عن الاحتقار والتوهين للمجرمين كما في قوله تعالىٰ ﴿**وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً**﴾(٨) .

---

(٦) سورة البقرة ، الآية (٢٧٥) .
(٧) سورة الحاقة ، الآية (١٩) .
(٨) سورة الانشقاق ، الآية (١٠) .

* إلقاء المجرمين في النار بجمع رؤوسهم الىٰ أقدامهم:

﴿فيؤخذ بالنـواصي والاقدام﴾ النـواصي جمع نـاصية وهي مقـدم شعر الرأس والجبهة ، ومعنىٰ الآية هو أن الله يأمر بامساك المجرم من رأسه من ناحية ناصيته ثم يجمع الىٰ أقدامه ، أو يمسك من رأسه لوحده من جانب ويمسك من اقدامه من جانب آخر ثم يلقىٰ به في نار جهنم ، أو أن يمسك البعض منهم من أحد هذين الموضعين من بدنه والبعض الآخر من الموضع الآخر ثم يلقىٰ بهم في نار جهنم علىٰ هذا الوضع المزري المشين .

﴿فبأي آلاء ربكما تكـذبان؟!﴾ انمـا هذه الاخبـار نعم لكم ، فبأيهـا لا تؤمنان ولا تصدقان يا معشر الناس والجِنّة؟!

* لا تسكن روعك حتىٰ تستيقن العفو من ربك:

فيا أيها الانسان أعلم أنك لو عفوت عن الذنب ولويت عنه عنان نفسـك فلم تباشره بـرأسك هـذا لوردت القيـامة في غـدك الآتي وانت مرفـوع الرأس شامخاً ، ولكنـك ان ملأت هـذا الرأس (والعيـاذ بالله) من ثقـل الكبر فستجـد رأسك في غد القيامة الطويل قد تمرغ بأديم الأرض ذلاً وهواناً ، وعليه فلنسائل أنفسنا: هل تيسّر لدينا الحصول علىٰ براءة من عذاب الله وسخطه أم لا؟ وهل أن يقيناً أن ألوان العذاب تلك لم تعد لنا بالذات؟ ترىٰ هل نحن علىٰ يقين من أننا سنستقبل الموت القادم وقـد تبنا؟ تـرىٰ هل نـزعنا عن انفسنـا لباس الغفلة وتهيّأنا للموت المسرع نحونا؟ بل هل جعلنا من قول الله سبحانه وتعالىٰ «انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» منهجاً استعدادياً للقاء الآخرة وفراق الدنيا الحتمي؟

فلنعلم ان الله (عز وجل) لم ينفك يحذّرنا وينبأنا لكي نستعد في البقيـة المشكوكة الباقية من العمر لمثل تلك الأهوال الشديدة والعقبات الكؤودة فنحيد عنها باصلاح ذواتنا وبناء ما أفسدناه في سالف عمرنا ، فنعمر لما هو آتينـا (ان شاء الله تعالىٰ) .

* إسحبوني علىٰ وجهي في النار عساني لا أعود لغفلتي!

ولعل مما يروض النفس الصعبة هـذه الحادثـة التي نقلها كتـاب قصص العلماء في موضوع فضائل سماحة الشيخ المهدي ، كان الشيخ المهدي رجلاً بكّاءً من خشية الله عز وجل ، وكان في بعض الأحيان وعندما يستشعر أن الغفلة قد ألهته عن ذكر الله والآخرة يدعو ولده وخادمه ليصحبانه الىٰ ظاهر المدينة في قفر من القفار ، ثم يجمعون شيئاً من اشواك الأرض واعشابهـا ثم يأججـوا فيه النار ، ثم يلتفت الشيخ المهدي الى ولده وخادمه ويـأمرهمـا أن يأخـذا بلحيته ويسحبانه علىٰ وجهه في النار ويقولا له: (ايها الغافل ، هذه نار الدنيا وانت لا تطيقها ، فكيف بك بعذاب أعده الله في الآخرة من غضبه وسخطه) ثم يوصيهما أن لا تأخذهما به شفقة فيدعا ما أُمرا به!!

(آه من ذنوب أنا ناسيها وأنت محصيها) .

« ٤٥ »

﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان* هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آن* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١] (لا بشيء من آلائك رب اكذب) .

* سيماء المؤمن والكافر في عصر ظهور المهدي (عج):

ذكرنا فيما سبق ان الآية المباركة تشير الى تحقق معرفة المجرمين والكافرين من خلال سيماهم وعليه لا تعود هناك حاجة الى الاستفهام من اولئك النفر عن اسمائهم أو أعمالهم أو سيئاتهم ، وتفيد بعض الروايات المروية من طرق أهل البيت (ع) بصدد هذه الآية ان من مصاديق هذه الآية هو ظهور الامام الحجة بن الحسن المهدي (عج) . يقول الامام أبو عبد الله الصادق (ع) : (ذلك لو قام قائمنا ، أعطاه الله السيماء ، فيأمر بالكافرين فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ثم يخبطهم بالسيف خبطاً)[٢] ، نعم ففي ذلك الرفان ينقش على

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٤١ ـ ٤٥) .

(٢) تفسير نور الثقلين / المجلد الخامس ـ ص ١٩٦ نقلاً عن كتاب بصائر الدرجات .

جبهة كل كافر (وهذا كافر بالله) ، وينقش كذلك علىٰ جبهة كل مؤمن بأحرف من نور (هذا مؤمن بالله) .

وعن الدجال الملعون ورد أيضاً أنه أعور ومكتوب علىٰ جبهته (هذا كافر بالله) .

* وحدة الانسان والحيوان من حيث القيمة في الجوانب الماديّة:

﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي فيؤخذ بمقدم رأس المجرم وقدميه فيجمعا سوية ثم يلقىٰ به في النار . ولنا هنا وقفة قصيرة لتوضيح سبب ذكر الآية لرأس الانسان ، فكما نعرف أن احترام رأس الانسان في الواقع يعود الىٰ تحقق ذكر الله من خلاله ، وحصول عملية السجود لله (عز وجل) بواسطته ، ولو أفترضنا عدم خضوع رأس الانسان (والعياذ بالله) لله رب العالمين ، فما الفرق حينئذ بينه وبين رأس الحيوان؟ بل وبماذا سيمتاز عليه؟ لأننا ندري ان قيمة الانسان تكمن في حيازته للجوانب المعنوية التي يفتقر وجودها لدىٰ الحيوان ، وعليه لو فرّط الانسان تكمن في حيازته للجوانب المعنوية التي يفتقر وجودها لدىٰ الحيوان ، وعليه لو فرّط الانسان بتلك الجنبات المعنوية المؤلّفة للقيمة الانسانية فحينئذ لن يكون لكلمة (انسان) أي معنىً ، بل يتهاوىٰ الانسان الى منزلة الحيوان عندما لا يتبقّىٰ لديه سوىٰ الجوانب المادية ، ولعل الكثير من الحيوانات تمتلك من القدرات المادية ما تفوق مثيلتها التي يمتلكها مثل اولئك النفر من البشر . فالهدهد مثلاً لديه من القدرة علىٰ تشخيص محل وجود الماء تصل الىٰ مسافة عدة أميال ، والكركون يمتلك حاسة شم قوية تمكنّه من شم الروائح النفاذة من مصادرها من علىٰ مسافة عدة فراسخ ، أما عن النطق ، فان الكثير من الحيوانات باستطاعتها الاعراب عن رغباتها ومقاصدها بعدة وسائل ، وأحد تلك الوسائل هو اللسان ، فهي تتخاطب بلغات خاصة فيما بينها ، وعن حاسة السمع ، فان البعوضة تمتلك حاسة سمع أقوىٰ من تلك التي لدىٰ الانسان ، فهي بامكانها سماع الترددات والذبذبات الناشئة عن اهتزاز الهواء عندما يحاول أحدنا رفع يده لطردها مثلاً ، فتلوذ بالفرار قبل ان يستطيع النيل

منها بسوء ، وفي الصناعة والهندسة نجد أن النحل هو أعظم المهندسين الذين يختصون بهندسة العمارات والانشاءات ، فهو ينشأ البيوت السداسية المنتظمة دون أن يلجأ الىٰ إستخدام الوسائل الهندسية المساعدة في عمليات التصميم والانشاء .

من كل ما سبق يتبين لنا أن الانسان لا يختلف عن الحيوان من حيث الجوانب والقدرات المادية التي يمتلكها ، فهو له رأس كما للحيوانات رؤوس ، ولكن هذا الرأس لو تنوّر بنور العقل وخضع لربه (تعالىٰ) وتواضع له ساجداً علىٰ الأرض وارتبط بعالم الارواح ، لصار عزيزاً كريماً ، كما أراد الله (عز وجل) له ذلك حين قال ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾ وقوله ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ .

* الجنّة ليست محل عبادة:

ويروىٰ عن المؤمنين الذين يستقر بهم الحال في الجنان ، أن أنواراً خاصة تشع عليهم فيخرّون للأذقان سجّداً ، فيأتيهم النداء: (ارفعوا رؤوسكم ، ليس ها هنا محل سجود ، حسبكم سجودكم في دار الدنيا) . ولأن الجنة مكان الملك والسلطنة لا مكان العبودية والخضوع ، مكان الحصاد وجني الثمار لا مكان البذور والغرس .

بينما يؤخذ بنواصي واقدام المجرمين وقد غُلّوا بالسلاسل الحديدية ثم يلقىٰ بهم في نار جهنم لأنهم يستحقون هذه النتيجة المرّة باعتبارهم لا شأن ولا وزن لهم بالمرّة .

* غلّ أهل النار بالسلاسل والأصفاد:

أما عن دواعي تقييد أيادي وأرجل اهل النار بالقيود والاصفاد والسلاسل ثم الالقاء بهم في جهنم ، فتعود الىٰ أن لنار جهنم ألسنة لهب وشرر عظيمة ، يبلغ من عظمتها ما تستطيع ان تدفع بالأجسام الىٰ أعلىٰ من فرط حرارتها الهائلة وشدة انفجارات براكينها العنيفة ، لذلك كانت الاغلال والاصفاد والقيود

والسلاسل الحديدية ذات السبعين ذراعاً علىٰ حد وصف القرآن المجيد[٣] لتثقل من وزن أبدان اهل النار فينتهون حيبها الىٰ قعر جهنم نزلاً .

* هذه النار التي كذّبتم :

﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ هذه الآية تشتمل علىٰ التقريع العنيف والتعنيف الشديد وكفىٰ بها عذاباً معنوياً كبيراً يتلقاه المجرمون والآثمون ، فحينما يعرض اولئك المذنبون علىٰ النار يقال لهم ، أنها جهنم التي كنتم بها تكذبون ، ومن ذكرها تسخرون ها قد رأيتموها عياناً ومعنى كلمة (مجرمون) في هذه الآية علىٰ الظاهر هو (منكرون) لأن حقيقة جرمهم الكبير تنبع من انكارهم لوجود جهنم ، ويعود منشأ انكارهم هذا الىٰ جهلهم المركب الذي جرّأهم علىٰ انكار هذه الحقيقة .

* الانكار ، منشأهُ ضحالة الفكر وسطحيّة التفكير :

فلو أراد أحد أن يُنكر شيئاً ما وجوداً (من حيث القول بعدميّته جزماً وقطعاً) لوجب عليه الاحاطة التامة بجميع جوانب الشيء مورد الانكار ، والاّ فان الانكار حينئذ لا يعدو أن يكون مجرد زعم وهراء ، وعليه فان الذي ينكر وجود الجنة أو النار هو في الواقع زعيم بأنه قد أحاط بجميع عوالم الدنيا والآخرة والملك والملكوت ، ظواهرها وبواطنها بحيث أنه وصل الىٰ درجة اليقين في عدم وجود الخبر المقنع وعليه انكر وجود الجنة أو النار ، بينما هو في واقع أمره لم يتجاوز حدود التراب المحيط بأقدامه ، ومثل هذا الانكار يعد دليل علىٰ حماقة المنكر وقلة عقله وضحالة فكره ، لأنه من المسلّم به أن كلمّا وفر عقل المرء كثر بذلك إحتماله للمحتملات كما نقرأ في نص القول المأثور الآتي (إنما يعرف عقل المرء بكثرة محتملاته) إذاً فهو لا يسارع الىٰ انكار ما لم يعلم بل يحمل ما لا يعلمه علىٰ محمل الامكان والجواز .

---

(٣) ﴿خذوه فغلّوه* ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ سورة الحاقة ، الآية (٣٠ ـ ٣٢) .

فلو افترضنا أن مخبراً أخبر بخبر ما وهو ممن يشهد له بالصدق والعقل ، فيكفينا في اخباره هذا دليلاً على صحة ما أخبر به ، خصوصاً ولو أن المخبر ذاك كان نبياً أو إماماً فحينها سيقول العقل ان ما أخبر به صحيح قطعاً .

اما لو كان المخبر أمرءً عادياً ، وأخبرنا أن بعد عالمنا هذا عالم آخر فيه جنة ونار لقال العقل لنا علينا أن لا نقطع بالانكار فلعل ما أخبر به صحيح . إذاً عندما يقول القرآن العظيم أن محمداً (ص) هو رسول الله تعالىٰ لقال العقل بلا تردد قد قبلت ما أخبرت به أيها الكتاب نه قطعاً هو رسول الله (ص) .

* آية ورواية عن النار:

يقول المولىٰ (سبحانه وتعالىٰ) في كتابه الكريم ﴿**فان جهنم لموعدهم أجمعين* لها سبعة أبواب لكل باب معهم جزءٌ مقسوم**﴾(٤)أي أن جهنم هي ما وعد بها المجرمون والكافرون ، وجهنم هذه لها سبعة أبواب (أي سبع طباق) لكل طبقة فئة من اولئك النفر تختص بهم تلك الطبقة وبألوان من العذاب خاصة ، وتأتينا رواية شريفة تشرح لنا هذه الآية ، تقول الرواية (إن لجهنم سبع دركات (طبقات أو أبواب) كل دركٍ فيها سبعون ألف جبل ، لكل جبل سبعون ألف وادٍ ، ولكل وادٍ سبعون ألف قعر ، في كل قعر سبعون ألف قصر ، وفي كل قصر سبعون ألف صندوق من نار تضّج بالحيّات والعقارب)!! إن مثل هذه الآيات والروايات المفزعة التي نقرأها الآن لو لم تكن صادرة عن كتاب الله الحكيم واقوال المعصومين (ع) لقال العقل عنها لعلّها كذلك وعسىٰ أن تكون صحيحة ، ولكنها ولأنها صدرت عن القرآن الكريم وأحاديث المعصومين (ع) فهي مؤكدة يستيقنها العقل ولا تحتمل الشك أو الترديد . فقد جاء رجل الىٰ الامام الرضا (ع) وسأله: يا بن رسول لله (ص) أخبرني عن الجنة والنار أهما مخلوقتان؟ فردّ عليه الامام (ع): بلىٰ ، وان رسول الله دخل الجنّة ورأىٰ النار لما عرج به الىٰ السماء(١) .

---

(٤) سورة الحجر ، الآية (٩٠) .

(٥) تفسير نور الثقلين/ (ج ٥ ـ ص ١٩٦) نقلاً عن كتاب عيون أخبار الرضا (ع) للصدوق .

ويقول سيد الأُولىٰ وفخر الكائنات محمد (ص) (عندما عرج بي الىٰ السماء ، أتىٰ بي جبريل حتىٰ وصلنا الىٰ مالك خازن النار ، فسألته أن يرفع عن جهنم غطاءها ، فردّ علي مالك: إنك لا تطيق ذلك يا محمد (ص) ، فسألته أن يريني جانباً منها ، فكشف مالك شيئاً من غطائها واذا بلهيبها يتأجج عالياً فلم يطق رسول الله (ص) ، رؤية ذلك) . نعم إنها جهنم ، ولو أن قطرة من الزقوم سقطت علىٰ الدنيا لاحترقت ، ولو أن أحد خزنة جهنم أطّل علىٰ اهل الدنيا بهيئته المخيفة المهيبة لخرّ الناس مغشياً عليهم من شدة الرعب . وروي أن رسول الله (ص) بعدما عرج به الىٰ السماء ورأىٰ النار لم ير ضاحكاً حتىٰ قبضه الله (تعالىٰ) إليه ، فالرسول (ص) شهد الأمر وأبلغنا به ونحن سمعناه ، وها نحن نلهو عنه ، فلنعلم ان المرء اذا ما طهر ظهر عنده التأثر بهذه الأخبار ، ولكننا للأسف شغلنا انفسنا بمشاغل إصطنعناها فاستغرقت منّا أعمارنا ولم يعد فيها ما يكفي للتشاغل بأنباء الآخرة!!

* إنشغال يحيىٰ (ع) في صباه بذكر الموت:

ورد في كتاب لئاليء الأخبار وعدة الداعي وسائر الكتب الأخرىٰ ، عن رسول الله (ص) في شرح قوله تعالىٰ ﴿**وآتيناه الحكم نبياً**﴾ أنَّه قال (ع) (كان من زهد يحيىٰ بن زكريا (ع) أنه أتىٰ بيت المقدس فنظر الىٰ المجتهدين من الأحبار والرهبان عليهم مدارع الشعر وبرانس الصوف وإذا هم فرقوا تراقيهم وسلكوا فيها السلاسل وشدّوها الىٰ اسواري المسجد . فلما نظر الىٰ ذلك ، اتىٰ أمه فقال لها: يا اماه إنسجي لي مدرعة من شعر وبرنساً من صوف حتىٰ آتي بيت المقدس فأعبد الله مع الأحبار والرهبان فقالت له امه: حتىٰ يأذن نبي الله في ذلك ، فدخل زكريا بمقالة يحيىٰ فقال زكريا: ما يدعوك الىٰ هذا وانما انت صبي صغير؟ فقال له: يا أبت أما رأيت من هو اصغر سناً مني قد ذاق الموت؟ قال بلىٰ ثم قال لأمه انسجي له مدرعة من شعر وبرنساً من صوف ، ففعلت . فتدرع بالمدرعة علىٰ بدنه ووضع البرنس علىٰ رأسه ، ثم أتىٰ بيت المقدس فأقبل يعبد الله عز وجل مع الأحبار حتى اكلت مدرعة الشعر لحمه . فنظر ذات

يوم الىٰ ما قد نحل من جسمه فبكىٰ ، فأوحىٰ الله تعالىٰ : يا يحيىٰ اتبكي مما نحل من جسمك وعزتي وجلالي لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج ، فبكىٰ حتى اكلت الدموع لحم خديه وبدا للناظرين اضراسه . فبلغ أمه ذلك فدخلت عليه واقبل زكريا واجتمع الاحبار والرهبان فأخبروه بذهاب لحم خديه ، فقال ما شعرت بذلك ، فقام يحيىٰ فنفض مدرعته ، فأخذته امه فقالت: أتأذن لي يا بني ان اتخذ لك قطعتي لبود يواريان اضراسك وينشفان دموعك؟ فقال لها: شأنك ، فاتخذت له امه ذلك ووضعتهما فابتلتا من دموع عينيه فحسر عن ذراعيه ثم اخذهما وعصرهما فتحدرت الدموع بين أصابعه ، فنظر زكريا الىٰ ابنه والىٰ دموع عينيه ، فرفع رأسه الىٰ السماء ، وقال (اللهم هذا ابني وهذه دموع عينيه وانت ارحم الراحمين) .

* زكريا يحدث قومه بحديث العذاب:

وكان زكريا (ع) اذا اراد أن يعظ بني اسرائيل يلتفت يميناً وشمالاً فان رأىٰ يحيىٰ لم يذكر جنة ولا ناراً ، فجلس ذات يوم يعظهم ، فالتفت فلم ير يحيىٰ فأنشأ يقول: حدثني حبيبي جبرئيل عن الله تبارك وتعالىٰ ان في جهنم جبلاً يقال له السكران ، في اصل ذلك الجبل وادياً يقال له الغضبان ، يغضب لغضب الرحمن تبارك وتعالىٰ ، في ذلك الوادي جب قامته مائة عام ، في ذلك الجب توابيت من نار ، في تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وسلاسل من نار واغلال من نار . فرفع يحيىٰ (ع) رأسه فقال: واغفلتاه من السكران ثم اقبل هائماً علىٰ وجهه ، فقام زكريا ع من مجلسه ودخل علىٰ ام يحيىٰ فقال لها: يا ام يحيىٰ قومي فاطلبي يحيىٰ فاني قد تخوفت ان لا نراه الاّ وقد ذاق الموت ، فقامت فخرجت في طلبه حتىٰ مرت براعي غنم قالت له: يا راعي هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا؟ فقال لها لعلك تطلبين يحيىٰ بن زكريا؟ قالت نعم ذكرت النار بين يديه فهام علىٰ وجهه ، فقال اني تركته الساعة علىٰ عقبه ثنية كذا وكذ ناقعاً علىٰ قدميه في الماء رافعاً بصره الىٰ السماء ي قول: وعزتك يا مولاي

لا ذقت بارد الشراب حتىٰ انظر الى منزلتي منك ، فاقبلوا اليـه: ولما رأتـه امه دنت منه فأخذت برأسه فوضعته بين ثدييها وهي تناشده باللّٰه أن ينطلق معها الىٰ المنزل . فقال زكريا: يا بني ما يدعوك الىٰ هذا ، إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقر بك عيني؟ قال: انت امرتني بذلك يا أبه ، قال ومتىٰ ذلك يـا بني؟ قال: ألست القائل: ان بين الجنة والنار لعقبة لا يجوزها الّا البكاؤون من خشية الله ، قال بلىٰ ، فجد واجتهد وشأنك غير شأني . ثم كانت نهاية يحيىٰ بن زكريا (ع) علىٰ يد ملك تلك البلدة وكان للملك ابنة تعجبه وكان يريد ان يتزوجهـا! فلما بلغ أمها ان يحيىٰ (ع) كان ينهىٰ عن نكاح ابنة الاخت ، ادخلت ابنتهـا مزينـة علىٰ الملك ، فلما رآها سألها عن حاجتها قالت ما حاجتي ان تذبح يحيىٰ بن زكريا ، فدعا بطشت ودعا يحيىٰ فذبحه ، وكانوا يعتقدون ان الدم المسفوح من القتيـل لـو سـاح علىٰ الأرض لعمهم البـلاء ، فلذلـك أمر بـالـطشت! وذاك الحسين (ع) مرملٌ قد ساح الدم منه في الفلوات .

واهٍ لدمك الطهر قد فاض علىٰ البقاع فهلّا أذنت يا يحىٰ العزيز فآتيك بالطشت

« ٤٦ »

﴿هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون* يطوفون بينها وبين حميم آن* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١]
(لا بشيء من آلائك رب اكذّب) .

* الزقّوم والضريع طعام أهل النار:

ومن الأخبار المهمّة والمفجعة هي اخبار طعام وشراب اهل النار ، حيث تمت الاشارة الىٰ ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم ، فأهل النار يأكلون ويشربون تماماً كأهل الجنة ، ولهم ألوان خاصة من الأطعمة والأشربة .

وأحد تلك الاطعمة (الزقوم) وهي شجرة عظيمة مهيبة تنبت في قعر جهنم ولها ثمر يقال له الزقوم أيضاً وهي طعام الآثمين والمذنبين كما يتأكد في قوله تعالى **﴿ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون* كغلي الحميم﴾**[٢] ، اما هيئة هذه الشجرة وهيئة ثمرتها ، فلها هيئة ظاهرية مقززة تشمئز منها النفوس ان لم تكن الفرائص مرتعدة منها ، وهي كما وصفها المولىٰ

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٤٣ ـ ٤٥) .
(٢) سورة الدخان/ الآية ٤٤ .

عـز وجل في كتـابه ﴿طلعهـا كـأنـه رؤوس الشيـاطين﴾[٣] ، أمـا عن طعمهـا ومذاقها ، فهو بشكل لـو أن المرارة في هـذه الدنيـا اجتمعت كلها سـوية لمـا شكلت في ازاء مرارة هذه الثمرة من الشجرة المخيفة هذه الّا النـزر اليسير من مرارتها[٤] ، ومن الطبيعي أن يكون إدراك هذه الحقيقة صعب علينا ومتعسراً لأننا نعيش في عالم يختلف عن ذلك العالم من حيث موجوداته وتفاصيله ، وشأننـا في ذلك كشأن الطفل وهو لم يزل جنيناً في رحم أمه لم يخرج الىٰ عالمنا ليدرك حقيقة ما هـو موجـود هنا ، ويبقىٰ تحقق الادراك مـرهون بخـروج الجنين الىٰ الدنيا ، ونحن أيضاً هكذا ، فطالما لا زلنا في رحم عالم الطبع المادي فنحن لا نستطيع أن نحير إدراكاً لتلك الحقائق علىٰ واقعها حتىٰ ننتقـل الىٰ رحبة ذلـك العالم الجديد .

وتنقل الروايات عن ثمرة الزقوم ما يفيد أن من يبتلعهـا من اهل النـار لا يلبث حتىٰ تتقطع احشائه إرباً إرباً .

اما الضريع فهو الآخر من اطعمة اهل النار التي ذكرها القـرآن الكريم ، وهو كمثيله الزقوم يقطع الأحشاء من شدة حرارته ولا يتجرعه المجرمون من فرط مرارته .

* الحميم ، الماء المغلي في أقصىٰ درجات الحرارة .

وكما أن اطعمة اهل النار لها الوان عديدة ، فان أشربتهم هي الأخرىٰ لها أنواع متعددة ، وأحـد هذه الأشـربة الـوارد ذكرهـا في القرآن الكـريم في عدة مواضع منه هو (الحميم) ، ومعنىٰ كلمة (الحميم) هو الماء المغلي ، أمّا كلمة (آن) فهي تعني (بالغ) وهي صفة للحميم وآن مشتقة من انىٰ ـ يـأنىٰ أي بلغ ـ يبلغ ، فماء جهنم يصل الىٰ أقصىٰ درجات السخونة والغليان بحيث ان حرارته

---

(٣) سورة الصافات/ الآية ٦٤ .

(٤) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضـوع ، يمكن الرجـوع الىٰ كتاب الـدار الآخرة في تفسير سورة الواقعة للسيد المؤلف (رض) .

تقطع لحم وجه الانسان المجرم وتنبقطه بمجرد أن يقرّبه من فيه ليشرب منه ، فكيف به إذاً لو دخل جوف المجرمين؟! ، يقول تعالىٰ ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾[٥] .

أما النوع الآخر من الأشربة الجهنميّة فهو (الغسلين) ، وهو اسم لحفيرة في جهنم تتجمع فيها الأدران والأوساخ والقيوح والدماء التي تخرج عن ابدان اهل النار ، وهذا الشراب يعاني منه اهل النار أشد العناء من شدة نتنه وعفن ريحه .

وهناك نوع آخر من الشراب هو (الصديد) وهو قيح فروج الزناة .

والآن انتبهوا الىٰ هذه الحقيقة وهي ، ان في جهنم اماكن يتناول فيها أهلها الطعام كالزقوم والضريع ، وهناك اماكن لتناول المشروبات كالحميم والغسلين والصديد .

* آلام الجوع والعطش عند أهل النار:

﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ ، ثم لا يلبث أهل النار حتىٰ يسلّط الله عليهم آلام الجوع فيدفعهم الىٰ السعي بأقدامهم الىٰ شجرزة الزقوم (وهو ألم وعذاب آخر يشتمل علىٰ عناء عظيم) فهم لفرط ما بهم من جوع يلجأون الىٰ شجرة الزقوم المرّة البشعة علّهم يسدوا من ثمرتها شيئاً من رمقهم ولو بطعام يقطع أمعاءهم ، فيتناولوا منها شيئاً فلا يلبثوا حتىٰ يكتوون بنار العطش الشديد الذي يدفعهم الىٰ السعي نحو الحميم بعد أن يأخذ منهم كل مأخذ وهم علىٰ علمٍ بأن ماء الحميم يغلي من شدة حرارته العالية ، فتصوروا مبلغ حرارة عطشهم الذي يدفعهم نحو شرب الحميم؟! أو قناتهم بشرب الغسلين أو الصديد . وهم يعلمون ان الصديد هو السائل الذي تتقيحه فروج الزناة وهو منتن وحار جداً! لكنهم يرضون به شراباً معللين أنفسهم باطفاء جذوة العطش المتقدّة في أحشائهم ، فما أن يهتريء أحدهم حميم جهنم حتىٰ تتقطع أمعاءه

---

(٥) سورة الكهف ، الآية (٢٩) .

وأحشاءه كما نقرأ ﴿**كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم**﴾[٦] ، بل ومن فرط حرارة جهنم والوان عذابها الاليم تحترق جلود اهل النار ، ثم لا يلبثوا حتىٰ يبدلهم الله جلوداً غيرها إمعاناً في العذاب الشديد فيتواصل الألم فيذوقوا العذاب بجرمهم ﴿**كلمّا نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب**﴾[٧] ، ويروىٰ أن جلود اهل النار تبدل أربعين مرة حينها ، لأنه من البديهي وجود ألوان العذاب الاليم في جهنم يستدعي وجود أبدان قادرة علىٰ تحمل ذلك العذاب الذي لا ينفك عنهم .

* الطواف بين الزقوم والحميم :

ويقوم أهل النار بالتنقّل المتواصل بين الزقوم والضريع وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بعملية الطواف ﴿**يطوفون**﴾ لأجل تأمين الطعام والشراب مؤّملين رفع أذىٰ الجوع وآلام العطش بذلك . تُرىٰ هل يوجد لدينا خبر يشتمل علىٰ اكثر من هذا الخبر هولاً ورعباً؟! فوالله لو أن قلباً تنبّه من غفلته بهذا الخبر لما عادت عيونه تعرف لطعم النوم معنىً من شدّة ما سيتملكه من الخوف والذعر .

وبعد هذا الخطاب الالهي، الاخباري المزلزل يعود الباري (عز وجل) الىٰ مخاطبة خلقه من الجنّة والنّاس فيقول ﴿**فبأيّ آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ لأنّ آية ﴿**يطوفون بينها وبين حميم آن**﴾ هي نعمة أخرىٰ باعتبار ان جهنم التي وصفها لنا الله تعالىٰ ، وحددت لنا الروايات بعض تفاصيلها ، هي أمر مطلوب بالعرض (كما قلنا من قبل) لكي يخشىٰ الناس وعموم الخلق نتائج الأعراض عن اوامر الله وفرائضه فيصير مصيرهم الىٰ الجنة .

وبغير ذلك لا يجد المرء سبيلاً الىٰ الجنة فيصير الىٰ النار جزاءً بما كسبت يداه ، لأن الانسان يحب العاجلة ويذر الآخرة ويسارع الىٰ الشهوات الحاضرة .

---

(٦) سورة محمد (ص) ، الآية (١٥) .

(٧) سورة النساء ، الآية ؛(٥٦) .

فمن هنا كان الانذار بالعذاب نعمة ، لأن ذلك يدفع العباد الىٰ التعلق والتوسّل بالوسائل المؤديّة الىٰ الجنة ، فيصلحون أحوالهم ويوفّقون الىٰ التوبة والانابة هرباً وفراراً يحدوهم الخوف من نار جهنم .

* في طي الطرق الشاقّة سعادة ولذّة:

ومن جانب آخر يتجلّىٰ وجه نعمة النار للمؤمنين عندما يجتاز المرء المؤمن الصراط وهو يشهد النار توشك أن تأخذه عن يمينه وعن شماله ومن تحت رجليه ، تقول الروايات (ان الله (عز وجل) أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتىٰ إبيضّت ، ثم نفخ عليها ألف عام حتىٰ أحمرّت ، ثم نفخ عليها ألف عام حتى إسودّت ، فهي سوداء مظلمة) فما أن يعبر المؤمن الصراط ويصل الىٰ منزله في الجنة سالماً حتىٰ يطير فرحاً وينتشي سروراً ، ولعلّنا شاهدنا مثل هذه الحال في حياتنا ، فعندما يسافر أحدنا الىٰ بلدٍ ما ثم يعود الىٰ وطنه يحس أنه قد مليء فرحاً وسروراً بعد أن يطوي سفره وقد عانىٰ وكابد من الشدائد والاهوال والصعاب ، لأن كثرة المخاطر في الأسفار تولّد لذات كبيرة عندما يطأ المرء أرض وطنه وقد سلم منها فهو حينئذ يشعر بالأمن والاطمئنان ، ولأجل ذلك يقول المؤمن الناجي من اخطار النار بمجرد ان يصل الجنة وهو يشعر بالامن والسلام ﴿**الحمد لله الذي أذهب عنّا الخوف**﴾[٨] ثم يزيد بقوله ﴿**الحمد لله الذي صدقنا وعده**﴾[٩] .

* النار جزاء للقاسية قلوبهم:

سألت ابنة مالك بن دينار أباها: لم لا تنام؟ فأجابها: أخاف أن يحلّ عليّ غضب الله وأنا في نومتي!) ، فما دام القلب معموراً بخشية الله تعالىٰ فان صلاح المرء مضمون ، تخيلّوا ما سيفعل من رأىٰ في منامه رؤيا وقد استيقنها ، وهي تعلمه بحلول أجله بعد شهر واحد! أهناك من شك في مسارعته الىٰ قضاء

---

(٨) سورة فاطر ، الآية (٣٤) .
(٩) سورة الزمر ، الآية (٧٤) .

ديونه وتسديد ما بذمته للآخرين ، ثم تهالكه في طلب التوبه والصفح والغفران علىٰ ما جنته يداه في ما مضىٰ من عمره .

ومن وجوه اعتبار وجود النار والوان عذابها نعمة هو لأنها ستكون جزاءً وعقاباً للظالمين والجائرين . فالمؤمنون بما يملكون من رقة القلوب فهم لا يستطيعون حتىٰ من إيذاء نملة كما هو شأن أميرهم الامام علي (ع) حيث يقول (والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته)[١٠] .

لماذا؟ لأن المؤمنين هيّنون ليّنون فهم لا يطيقون سماع أحوال النار ، فكيف بهم لو يشاهدونها؟ بينما أولئك الذين قست قلوبهم فهم لا يرحمون حتىٰ الطفل الرضيع والشيخ الفاني ينبغي لهم محلاً ومستقرّاً يكافيء أعمالهم بالحق كما يقول الباري تعالىٰ ﴿**وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾[١١]فيضع الله كل إنسان في مستقره اللائق به ، اذاً الحمد لله رب العالمين الذي جعل أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة .

* الذكرىٰ تنفع المؤمنين:

ومن وجوه عدّ جهنم وعذابها نعمة هو التذكير المستمر للمؤمنين بها لكي يكونوا علىٰ بينّة من أمرها وخطرها ، فينتخبوا السبيل الواضح والصراط القويم بما لديهم من فطنة فيجنبّوا أنفسهم اصابة الخطايا وارتكاب الذنوب المؤديّة الىٰ نيل العقاب الأليم .

ولما كانت درجات إيمان المؤمنين متفاوتة فهم سينتظمون في عدة مجاميع ، فبعضهم من يتأثر بشكل مؤقّت بهذه الآيات ثم لا يلبث حتىٰ يعود الىٰ وضعه المشين السابق ، وبعضهم من ﴿**يبكون ويزيدهم خشوعاً**﴾[١٢] ، وفيهم

---

(١٠) نهج البلاغة/ الخطبة ٢٢٤ .
(١١) سورة الزمر ، الآية (٧٥) .
(١٢) سورة الاسراء ، الآية (١٠٩) .

من يستشعر عظمة الله وجلاله في كل آن فاذا بهم قد ﴿خرّوا سجدّاً وبكيّا﴾[13] .

(13) سورة مريم ، الآية (58) .



﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾[1] .

(لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب) .

* جنتان للخائفين من شأن ربهم:

وبعد سرد آيات التهديد والوعيد في هذه السورة ، يأتي الدور الىٰ بيان واستعراض آيات الرحمة والبشارة التي هي بحق بشائر وانباء سارة لأهلها .

﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتان﴾ ومعناها أن الله يعطي لمن يخشاه ويهاب شأنه ومقامه روضتان من رياض الجنة وسنأتي لاحقاً الىٰ وصف هاتين الجنتين ، ولكن ما يهمّ بحثنا في هذه الآية هو معنىٰ (الخوف من مقام الرب) ، وقد أورد العلماء وجهين لذلك هما:

* مقام الرب في نفس الانسان:

الوجه الأول: وتعني **﴿ولمن خاف مقام ر به (عند نفسه) جنتان﴾** ، أي من يجد في نفسه مخافة الله وخشيته فله منه جنتان ، ولا تتحقق مخافة الله في

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٤٦ ـ ٤٧) .

نفس الانسان الاّ عندما يؤمن بواقع ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٢] وحقيقة ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾[٣]فهو قد استحضر وجود الله في قلبه واستشعره حاضراً معه ورقيباً عليه فيتولد حينئذ الخوف في قلبه فلا يعود يسيء أدباً ويرتكب معصية لله عز وجل في سرّه أو علانيته . فلو افترضنا أن بائعاً قد عرض سلعة ما للبيع وهو عالم بجودتها وقيمتها ، وهناك مشتري لتلك السلعة (نحتمل اطلاعه علىٰ جودة السلعة تلك وقيمتها أو عدم اطلاعه) وكان البائع رجلاً يؤمن في قرارة نفسه بحضور الله تعالىٰ ورقابته له فهو لا يغش المشتري إيماناً منه بأن الله خبير ومطلع وان كان المشتري غافلاً ، لذلك يجعل الله عز وجل لذلك البائع جنتان لأنه خاف مقام ربه في نفسه .

* صفة الخائف من مقام الرب:

ولتوضيح معنىٰ الخوف من مقام الرب نستعين بهذا الحديث الشريف الذي ورد في كتاب أصول الكافي مرويّاً عن الامام كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق (ع) ، يقول الامام (ع) (من علم أن الله تعالىٰ يراه ويعلم ما يعمله ويسمع ما يقوله ثم يحجزه ذلك عن القبيح فهو خائف من مقام ربه) . إذاً العلم الحائل دون إرتكاب القبيح أمر ضروري وملح ، ولكن بشرط وجود المراقبة ، وتختلف درجات العلم هذا من فرد لآخر ، وأدنىٰ تلك الدرجات هي ان تحصل لدىٰ الانسان خشية الله عز وجل حين صدور الذنب فيمتنع عن مباشرته ويعفّ عن إجتراحه ، وتتدرج تلك الدرجات حتىٰ تصل الىٰ أسماها فتتولد لدىٰ الانسان حينئذ آثاراً باهرة عجيبة .

* أربعون عاماً يرقب حضور ربه!

فعن أحوال المقدّس الأردبيلي يقال أنه لم يمد رجليه طيلة أربعين عاماً في يقظته أو منامه معبراً عن حاله تلك بالقول (والله اني لأستحيي أن أمدّ رجليّ

---

(٢) سورة ق ، الآية (١٦) .

(٣) سورة الحديد ، الآية (٤) .

في حضرة رب العالمين) ، وبالتأكيد فان مثل هذا الأدب لا يخلو من أجر وثواب إلهي يناله المرء .

وفي حال آخر للمقدّس الأردبيلي ، (وهو ما حصل له حين حلول الموت) عندما أراد أن يصيب السُنّة فيمد رجليه وهو مستقبل القبلة في ساعة إحتضاره قال (اللّهم أسألك العفو ، فاني لم أمدّهما الّا وأنا في إضطرار لذلك وانت تعلم اني لم اجرأ علىٰ مدّهما طيلة الأعوام السابقة ، وها أنا ذا أمتثل لأمرك وسنّة نبيك (ص)) .

وقد يكون لدىٰ البعض من الأحوال ما تشاكل هذه الاحوال ، فهناك من لم يجرأ أن يرفع صوته عند الحديث إجلالاً واكباراً لحضور رب العالمين فضلاً عن أنه لم يفحش القول ، وهكذا يزداد تأدّب العبد مع ربه بازدياد معرفته .

* كيف ألهو عنك وأنت ناظري:

يقول الامام السجاد (ع) (إلهي كيف ألهو عنك وانت ناظري ، وكيف أنساك ولم تزل ذاكري) . ولقد اشرنا سابقاً الىٰ ان المراقبة لا تنعقد الّا بوجود طرفين للتراقب ، فكما أن الله تعالىٰ رقيب لعباده ، وجب في المقابل أن يكون العبد مراقباً لربّه ، وهذه حقيقة يصرح بها القرآن الكريم في قوله تعالىٰ **﴿وكان الله علىٰ كل شيء رقيباً﴾**[٤] وقوله عز وجل **﴿ان الله كان عليكم رقيباً﴾**[٥] .

* تحريم النار علىٰ الخائفين:

ونقل كتاب مصابيح القلوب قصة نقلتها بعض كتب التذكرة تقول ، (مرّ رجل صالح بسوق الحدادين فوقع بصره علىٰ حداد وهو يدخل يده في كور الحدادة ثم يخرجها وهو ممسك بالحديد المحمر من شدة السخونة دون أن يصيبه أذىً ، (يقول الراوي) فتحيّرت من فعله وشأنه ، وقلت في نفسي أي

---

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٥٢) .

(٥) سورة النساء ، الآية (١) .

رجل هذا الذي لا تعمل النار أثرها في يده؟! فدنوت منه وتجرّأت بسؤاله: كيف لم تعمل النار أثرها في يدك فتحرقها؟ فلم يكترث بي، فعاودت السؤل وازددت الحاحاً حتىٰ اجابني قائلاً: لقد كنت في شبابي ثريّاً موسراً، فمرّت علينا سنة قحط وجدب ضج الناس فيها من كثرة الجوع، وكنت قد ذخرت لي طعاماً كثيراً يسد حاجتي فجاءتني في يوم امرأة علوية من جيراني وسألتني شيئاً من الطعام تسد به رمقها ورمق عيالها، فبهرني حسنها وجمالها، فقلت لها: لك هذا ولكن بشرط أن تسلميني نفسك فاستعففت وأمتنعت وردت عليّ قائلة: ليس ذا شأني فأنا لم اجرأ علىٰ فعل كهذا طيلة حياتي ثم ولّت عني بوجهها وانصرفت، ثم لم تلبث حتىٰ عادت ثانية وذكرت لي ما ألمّ بها من ألم الجوع وتوسّلت بي أن أساعدها، فلم أزدها علىٰ ما طلبت منها أولاً، فولّت عني وقفلت راجعة الى دارها، وبعد حين عادت وقد بدا عليها أن الجوع قد أضرّ بها فقالت انت وما شئت فانني أكاد أنفق جوعاً، ففرحت بذلك، ثم عقبت قائلة ولكن بشرط أن تقودني الىٰ مكان خالٍ لا يرانا فيه أحد، فأجبتها الىٰ ما أرادت فأخذتها الىٰ مكان خالٍ لاقضي وطري منها فرأيتها ترتعش ثم قالت لي: إلزم مكانك، ألم تُعاهدني أن تقودني الىٰ مكان لا يرانا فيه أحد؟ فرددت عليها: ما الذي دهاك، ترىٰ أهناك من هو مطلع علينا في هذا المكان؟! فقالت: بلىٰ، فلا زال هنالك خمسة سوانا حاضرون ها هنا، انهم ربنا (تعالىٰ) والملكين الموكلين بي والملكين الموكلين بك، فسرت في جسدي رعشة لرعشتها، وعزفت عن ارتكاب الحرام، ثم قفلنا راجعين، فلما وصلنا الىٰ داري أعطيتها شيئاً من الطعام تسدّ به حاجتها فخالط تلك العلوية السرور ودعت الله لي قائلة: (اللهم حرم عليه نار الدنيا والآخرة)، ومنذ حيني ذلك وأنا لا أحس للنار أذىً وإيلاماً، واني لارجو ربي أن يعيذني من حريق نار الآخرة.

ونظير هذه القصة، يذكرها القرآن الكريم في سورة يوسف (ع)، حيث تقول التفاسير أن زليخا عندما رامت فعل القبيح ألقت بجرامها علىٰ شيء في الحجرة، فلما سألها يوسف عن سبب ما فعلت، قالت: ان هذا الصنم ربي،

وأنه لمن المخجل أن ارتكب عملاً قبيحاً وهو يراني ، وهنا بادر يوسف (ع) بالقول: أتستحين من صنم عملته يداك ولا استحيي من ربي الذي خلقني؟ ﴿ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾[6] .

(٦) سورة يوسف ، الآية (٢٤) .



﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتّان* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1]

(لا بشيء من آلائك رب اكذب) .

* الجنتان ، واحدة للعقائد والأخرىٰ للأعمال:

﴿ولمن خاف مقام ر به جنتان﴾ ومعناها (ان لمن خشي مقام ربه جنتان ، واحدة عن عقائده الحقة جزاءً والأخرىٰ لقاء أعماله الصالحات ثواباً ، فالجنة الأولىٰ لما عقد عليه قلبه في توحيد الله والايمان بعدله واعتقاد نبوة سيدنا محمد (ص) واعتقاد امامة الائمة الطاهرين الاثني عشر (ع) والايمان بالآخرة والمعاد ، والثانية لقاء أدائه للفرائض والسنن والاتيان بالطاعات ولزوم العبادات والاقلاع عن المحرمات ومباشرة المعاصي والآثام . وهناك من يقول أن الجنة الاولىٰ هي جزاء الاتيان بالطاعات والفرائض ، والثانية لقاء الامتناع عن المعاصي وارتكاب الذنوب . يقول فخر الكائنات وسيد الورىٰ محمد (ص) (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الاّ ظلّه (في القيامة ، ولا ظل في الآخرة في الحقيقة الاّ ظل العرش الالهي المجيد) ، واحد اولئك السبعة نفر هو من يرىٰ الله رقيباً عليه وحاضراً معه وشاهداً علىٰ ما يفعل في خلواته ، فيذكر الله تعالىٰ

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٤٦ ـ ٤٧) .

ويخشع قلبه لذكره فتنفجر الدموع من عينيه وتبتلّ لهما وجنتيه . لأن الله عز وجل آل علىٰ نفسه أن لا يجمع خوفين لعبده ، فأما خوف الدنيا وأما خوف الآخرة ، يقول رسول الله (ص) (قال الله تبارك وتعالىٰ ، وعزتي وجلالي لا أجمع علىٰ عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، فاذا آمنني في الدنيا اخفته في الآخرة ، واذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة)[٢]فيهبه الله حينئذاك جنتين .

* ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[٣]:

أما **الوجه الثاني**: وهو لا يتعارض مع الوجه الأول ، وعليه يكون معنىٰ الآية هو **﴿ولمن خاف مقام ربه ـ يوم القيامة ـ جنتان)** أي من خاف مقام ربّه في الآخرة عند قيام الساعة والحساب والمسائلة ، فحفظ نفسه وراقبها وتعاهدها خوفاً من الله تعالىٰ عند تلك المواقف لأنه سينتهي به المصير الىٰ الوقوف بين يدي رب العالمين كما يؤكد هذه الحقيقة الواقعة قوله تعالىٰ **﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** فهو يخاف ذلك فيُصلح حاله في دنياه ، ولأجل ذلك يجزيه الله عز وجل جنتين جزاءً وفاقاً .

* حالات الغشية عند الامام الحسن (ع):

وقد نقل اصحاب التواريخ في أحوال الامام الحسن بن علي المجتبىٰ (ع) أنه كان يجهش بالبكاء كلمّا ذكر الموت ، وكلمّا ذكر القيامة والصراط والميزان ومواقف الآخرة في القيامة ، وما أن يذكر (ع) موقف العرض علىٰ الله (جل جلاله) حتىٰ يخر مغشياً عليه ، لأنه كان يتمثّل موقف الحساب كلمّا ذكر الوقوف بين يدي الله (عز وجل) وذكر قدوم ذلك اليوم الذي يأتي فيه نداء رب العالمين (يا عبدنا أتذكر ما فعلته في اليوم الفلاني والمكان الكذائي)!

يقول الشيخ البهائي: ومرّ الامام الحسن (ع) يوماً بنفر جالسين وفيهم

---

(٢) تفسير نور الثلين ، (ج ٥ ، ص ١٩٧) .
(٣) سورة المطففين ، الآية (٦) .

شاب يقهقه بصوت عالٍ ضاحكاً ، فكلمّه الامام (ع) قائلاً له : مه أيها الشاب هل جزت القبر والمسائلة ومنكر ونكير؟! أم هل فرغت من حساب يوم الجزاء؟ فبان علىٰ وجه الفتىٰ بالغ التأثّر بعد سماعه لكلام الامام (ع) ، ولم ير بعد ذلك اليوم ضاحكاً مقهقهاً حتىٰ فارق الدنيا .

* صلاح الحال يأتي في التخوّف من المستقبل المجهول:

يعد الخوف أحد مستلزمات الايمان ، وكلما إستحكم هذا الايمان في قلب المسلم ، كلمّا أدىٰ ذلك الىٰ زيادة درجة خوف المرء من مقام ربّه (عز وجل) .

فلو لم ينس الانسان عقبات يوم القيامة بما فيها كأد وصعوبات ، وعدّ مستقبله قريباً وأنه أوشك أن يطأ أعتاب القيامة والحساب بقدميه حالما تغفىٰ ساعات عمره ، فينشغل حينئذ بالتفكير ببقية العمر كيف سيفنيه ، وسيفكر أيضاً بما أعدده الله من إبتلاءات ستواجهه قريباً ، وسينشغل بذكر الموت المباغت له وهو لا يدري علىٰ أيّة حال سيدركه فيها ، وعلىٰ أي أمل سيعقد العزم ، أيموت وهو مشتاق الىٰ لقاء الله واهل البيت (ع) ، أم أنه سيموت وقد شغف قلبه حبّاً للمال والسلطة والعنوان؟ ثم يعتصر المرء ذهنه فيفكر في أحواله وهو قد انزل الىٰ قبره ، فيأتيه الملكان ويسألانه ، فهل سيحير لما سئل جواباً؟ وأي جواب هذا الذي سيردّ به؟ ثم تحل الساعة ويلج عالم القيامة بمواقفها الملئىٰ بالشدائد والصعوبات والعقبات ، ثم يعرض عليه سجله وقد أحصىٰ عليه الكثير من الذنوب والآثام التي نسيها . فهنيئاً للمرء سعادته عندما يعمر قلبه بخشية الله تعالىٰ ، وهذه الخشية التي تأتي بنارها علىٰ هشيم مزارع الذنب فتذرها كالصريم . وعلىٰ ذلك كانت شدة الخوف من دلائل الايمان ، يقول رسول الله (ص) (أنا أخوفكم بالله) ويقول المولىٰ عز وجل في كتابه المجيد **﴿ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً﴾**[٤] في وصف خوف أهل البيت (ع) ،

---

(٤) سورة الانسان ، الآية (٧) .

ويبقىٰ الخوف من الله أحد أهم المنجيات من العذاب كما يرشدنا الىٰ هذه الحقيقة إمامنا الباقر (ع) في قوله (وأمّا المنجيات فخوف الله في السر والعلانية)[٥] .

* رواية توجب الخشية :

وضمن ما جاء في الرواية الشريفة المروية عن النبي (ص) في معرض نزول قوله تعالىٰ ﴿**لها سبعة ابواب**﴾ ، أن جبريل أخبر النبي (ص) عن جهنم وهيئتها ، فقال: ان لجهنم سبعة أبواب (طبقات) بين الباب والآخر مسيرة سبعين عاماً ، وعذاب كل باب (طبقة) سبعون ضعفاً من عذاب الطبقة التي تعلوها ، وأقل العذاب في الطبقة الأولىٰ وهو معّد لمن خرج من دار الدنيا ولم يتب من ذنوبه الكبائر من أمتك . بعد ذلك يخبره قائلاً: وان امتك لا تقيّد بالسلاسل ، ولا يختم علىٰ أفواههم كما يختم علىٰ أفواه المجرمين (لأنهم كانوا يرددون شهادة لا اله الاّ الله طيلة أعمارهم كما أنهم لا يقيّدون بالأصفاد والأغلال في أيديهم لأنهم مدّوها الىٰ الله عز وجل بالدعاء) ، وبعد أن سمع النبي (ص) ذلك بكىٰ بكاءً مرّاً ، ولم يستطع من مغادرة الدار ، فلمّا حان موعد الصلاة جاء بعض الصحابة إليه فقيل لهم إنه في حال لا يستطيع أن يكلّم أحد بها ، وكان من بينهم اولئك النفر من الصحابة سلمان الفارسي ، فأدرك سلمان أن ما من أحد يمكنه حل هذه الأزمة التي أهمت النبي (ص) سوىٰ الزهراء فاطمة (ع) (لأن النبي (ص) بمجرد أن يشم ريحها أو يراها يدخل الفرح والسرور الىٰ قلبه ، فالزهراء (ع) إن أقبلت تقبل معها ريح الجنة ورحمة الله عز وجل لأنها خلقت من مادة ثمار الجنة) ، فذهب سلمان الىٰ عند فاطمة (ع) وسألها أن تلقىٰ رسول الله (ص) ، فجاءت الزهراء وشاهدت أباها وقد غارت عيناه في محجريهما وهنّ محمرّات من كثرة البكاء ، وقد برزت عظام جبهته وخديه وأصفّر وجهه فسألته: فديتك نفسي يا أبتي ما الذي أبكاك؟ فحدثها النبي (ص)

---

(٥) تفسير نور الثقلين ، (ج ٥ ، ص ١٩٧) نقلاً عن الخصال .

بما اخبره به جبرئيل من انباء جهنم وعرّفها بشيء منه واخبرها أن امته لا تصفّد بالأغلال والسلاسل ولكنهم يسحبون علىٰ وجوههم في النار (الرجال يسحبون من لحاهم ، والنساء من ذوائبهن) ويصرخ الشيوخ الويل لشيخوختنا ، ويضج الشبان الويل لشبابنا ، وتولول النساء آه ووافضيحتاه ، ثم يلقون في حفيرة النار وهم علىٰ تلك الحال ، فيسألهم مالك خازن النار: من أية أمة أنتم ، فلقد أُمرنا ان لا نغلكّم بالقيود والسلاسل ، وأن لا نختم علىٰ أفواهكم؟ (فينسىٰ اولئك الاشقياء ذكر اسم النبي محمد (ص) لأنهّم قد علقوا قلوبهم بحب الدنيا . وكيف ينسىٰ المرء اسم نبيه محمد (ص) وحب محمد وآله ويجري في عروقهم وقد خالط لحومهم ودمائهم؟! وكيف ينسون اسماء اهل البيت (ع) وهم يندبون العمر كلّه يا حسين ويا علي!!) فيقولون نحن من أمة من أنزل الله عليه القرآن! فيرد عليهم مالك قائلاً: ويحكم ألم يكن في القرآن ما يحجزكم عن ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات؟ فيلقي بهم عندئذ في النار ، فتتنحّىٰ عنهم النار جانباً وهي تقول كيف أُحرق من يقول لا اله الاّ الله ، فيقال لها إنه أمر الله عز وجل ، فتمتثل النار أمر ربها فتأخذهم من كل جانب ، ويستمرون علىٰ هذا الحال المؤلم من العذاب حتىٰ يتذكرون أسماء الله الحسنىٰ (يا حنّان ويا منان) ، فيدعون الله بها ، فيأمر الله جبريل أن يمضي إليهم ويسألهم حاجتهم ، فيمضي إليهم ملك الرحمة فيسألهم ما بهم ، فيردون عليه قائلين من انت؟ فيقول: أنا جبريل ، فيقولون: امين الوحي الالهي ، فيقول بلىٰ ، فيحملونه تحياتهم وسلامهم الىٰ النبي محمد (ص) ويوصونه أن يذكر له سوء حالهم ، وعندما يصل خبر اولئك الىٰ النبي (ص) ، يشفع لهم باذن الله فيخرجهم الله من النار وقد صاروا كالفحم قد إسودت أبدانهم ووجوههم ، فيأتيهم النداء ان امضوا الىٰ المكان الفلاني حيث أحد أنهار الجنة ، فيذهبون الىٰ حيث أمروا فيلقون بانفسهم في ماء النهر ثم يخرجوا منهم وكأنهم الفضّة بياضاً ثم يعودوا شبّاناً فيوردهم الله جنته .

* في تعاهد حب أهل البيت (ع) تحصل النجاة:

ولقد ذكرت في معرض الحديث أهمية محبة وولاء أهل البيت (ع) ، لأن أي تأكيد يرد الىٰ المؤمنين بضرورة التعلق بعالم المحبّة انما تتأكـد حقيقته في السعي الىٰ اعمار القلوب بحب أهل البيت (ع) ، هـذا الحب الذي ينبغي أن يأخذ بمجامع القلوب .

وقد تجلّت هذه الحقيقة فيما اولاه المولىٰ عز وجل للصلاة علىٰ النبي وآله من أهمية فائقة ، يضاف لها اكرام السادات من ذراري اهل البيت (ع) واكنـان المـودة والاحتـرام لهم ولآبـائهم الائمـة الـطاهـرين (ع) والانفـاق علىٰ شيعـة علي (ع) واطعامهم بقصد القربة الىٰ الله تعالىٰ ، وهذه الأمور في ذاتها حسنـة بغض النظر عما تترتب عليها من عوائد ومنـافع ربـانيّة في العـاجل والآجـل ، وصدق من قال ؛

ربّ زِدْ في حُـزْني في فقدي حسين وأضـرم الأحشـاءَ نـاراً في هـواه

ثـم جـرّد قـلبـي عـمـا غـيـره إنـنـي عُـدت لا أبـغـي سـواه

« ٤٩ »

﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١] .

(لا بشيء من آلائك رب اكذّب) .

* أرض الجنة مفروشة بالمسك والعنبر:

﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ . يروىٰ أن سعة الجنة الواحدة منهما تمتد الىٰ مسيرة مائة عام ، وقد غطيّت أرضها بالمسك والعنبر ، وهاتان الجنتان هما جزاء لمن خاف مقام ربه ، ثم تسرد السورة ألوان النعيم في تينك الجنتين اللتين وهبهما الله لذاكره ومستحضره في نفسه ومراقبه في خلواته . ولقد أسلفنا القول حول وجهي المعنىٰ لهذه الآية الكريمة وقلنا ان احد الوجوه هو أن يكون معنىٰ المقام الرباني عند نفس الانسان ، وقلنا أن الوجه الآخر هو أن يكون المعنىٰ مقام الرب عند الحساب ، والمعنىٰ الأول أسمى وأرفع .

* المطلوب هو الخوف الصادق:

وبالتأكيد أن المراد من الخوف في هذه الآية هو الخوف الصادق المؤثّر الذي يجعل صاحبه يفر من الذنب فراره من الأفاعي والعقارب ، فضلاً عن أنه

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٤٦ ـ ٤٧) .

لا يدنو منها ، ولذلك يقول الامام الصادق (ع) في معنىٰ هذه الآية المباركة (من علم ان الله (تعالىٰ) يراه ويعلم ما يعمله ويسمع ما يقوله ثم يحجزه ذلك من القبيح فهو خائف من مقام ربه) . إذاً ليس كما يزعم أولئك من أنهم يخافون الله عز وجل وهو لا يعرفون للحياء معنىً فتراهم عند ارتكابهم للمعاصي واحتمالهم للآثام لا يجدون للترك ر ادعاً من أنفسهم ، بينما يقول الحديث المأثور (دليل الخوف الهرب ، ودليل الرجاء الطلب) فلو خاف العبد عذاب ربه لما ارتكب ذنباً بالمرّة ، ولكن الناس يتهيبون الفضيحة ولا يعملون ما يفضحهم أمام أمثالهم ، وهذه الحالة من المراقبة كانت أجدر بهم لو أنهم خافوا الفضيحة امام الله ففروا مما زيّن لهم الشيطان ، إذاً حقيقة الخوف من الله وعذابه تكمن في الهرب والفرار من ما يستوجب سخط الله وعذابه ، وحقيقة الرجاء تكمن في السعي والمثابرة خلف ما رجاه الانسان من ر به في اداء الطاعات ولزوم الفرائض وتعاهد الاعمال الصالحة لا التفريط أو التقصير بها .

* مغالطة العالم مع هارون الرشيد:

وأؤكد ثانية ان دليل الخوف هو الفرار من الذنب قبل الدخول فيه ، ولا يعد الخوف صادقاً عندما يزعم البعض أنه قد تحصل له الخوف من الله بعد مباشرته للمعصية!! لأن الخائف لا يسعىٰ خلف المعصية ، ودواعي تأكيدي المكرر علىٰ هذا الأمر هو وجود مغالطات بعض علماء العامة من علماء السوء والضلالة التي لا يمكن للعاقل تصديقها ، وخير شاهد علىٰ ذلك هذه القصة التي نقلتها بعض كتب تفسير العامة وبعض كتب التأريخ لتتضح الصوره لدىٰ القاريء الكريم:

حدّث هارون الرشيد يوماً زوجته الصالحة زبيدة (وهي امرأة صالحة ، ولعلها كانت من شيعة اهل البيت (ع) ظاهراً ، وقد شبهها البعض بزوجة فرعون الصالحة ، فهي تعيش في بيت طاغوت عصرها ، ولقد قدمت هذه الأمرأة خدمات جليلة لاهل الاسلام أحدها أن نقلت الماء المشهور بماء زبيدة الىٰ مكة المكرمة من منطقة تقع علىٰ بعد عشرة أميال علىٰ طريق مكة ، حيث كان سعر

القربة الواحدة من الماء قبل النقل يعادل سعر مثقال من الذهب لندرة الماء وصعوبة نقله) فقال لها: اني امامٌ عادل ، والامام العادل مصيره الجنة دون ريب! فردت عليه زبيدة: كلّا انك لحاكم جائر وقد افتريت علىٰ الله كذباً عندما حتّمت الجنة لنفسك ، وانت تعلم ان من يتجاهر بالكذب علىٰ الله (تعالىٰ) فقد خلع من رقبته ربقة الاسلام وعليه لم يعد لي مكاناً في قصرك بعد هذا . فتحير هارون من قولها ولم يحر جواباً ، فاغتم كثيراً لذلك واستدعىٰ على اثره أحد علماء البلاط من الذين باعوا دينهم بدنانير ، (ولعل مائة لون من الجهل يحمله اولئك افضل من حمل لون علم واحد يغوون به الناس) ، فبعث خلف عالم البلاط (محمد بن الحسن الشيباني) ، فلما حضر بين يديه حدثه بما دار بينه وبين زوجته زبيدة ، فرد عليه عالم البلاط قائلاً: أيها الخليفة ، هل مرّ بك أن أصبت ذنباً ثم تحسست في قلبك مخافة الله من ارتكابك لذلك الذنب؟ فأجابه هارون بلىٰ والله وكثيراً ما هو ، هنا صاح عالم السوء: بشراك بشراك فلك بدل الجنة جنتان ، وأنا لا اقول ذلك بزعمي بل هذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالىٰ ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ فسر هارون من قوله ومنحه جائزة!! (لكي يزداد تملقّه فيما بعد عندما يفسر القرآن برأيه وتبعاً لرغبات ونزوات السلاطين وامراء السوء وخلفاء الجور) .

لقد باع ذلك الرجل آخرته بدراهم ودنانير ، الا فلعنة الله علىٰ علماء السوء ووعاظ السلاطين الذين لم يضلوا أنفسهم لوحدهم بل وأضلّوا من الناس جبلّاً كثيراً .

تصوروا أن الشيباني يقول ان من يتعقّب المعصية ويسعىٰ في طلبها ثم يقترفها ويلوّث نفسه بها ، ثم يستشعر الخوف بعد ذلك في نفسه فيقول آه علىٰ تفريطي فله حينئذ جنتان! ايها الاحمق ان العبد لو خاف ربه حقاً لما بحث عن المعصية ليدنسّ نفسه بها ، وهل تراه سيجد لله خوفاً في نفسه وهو مشغول بالبحث عن المعاصي ليفتك بها؟!! ، يقول الامام (ع) (ومن عرضت له فاحشة أو شهوة فأجتنبها مخافة الله عز وجل ، حرم عليه النار ، وآمنه من الفزع الاكبر ،

وانجز له ما وعده في كتابه)[2] ، ولكن هارون الرشيد ومن فرط خـوفه من الله ألقىٰ بالامام موسىٰ بن جعفر (ع) في غياهب السجن! ، ثم يعتمر قلبـه بخوف الله وخشيتـه فيقتل ويسجن المئـات من السادة العلويين والفـاطميين الأبريـاء! تصـوروا ان هـذا المجـرم يخـاف مقـام ربـه[3] ، مـع ان الامـام علي اميـر المؤمنين (ع) (من خاف ربه كف ظلمه)[4] .

* المريض يمسك عن الضار من الأطعمة:

وعليه يتجلّىٰ الخوف الصادق في ترك ارتكـاب الذنب ، لأنـه بغير هـذه الصورة لا يبقىٰ للخوف معنىً سوىٰ أنه مجرد مزاعم محضة . إذاً دليل الخوف هو ترك ما يوجب الضرر ، فالخائف الوجل من سخط الله وعذابـه حالـه كحال المريض الذي يخشىٰ تفاقم وحدة وشدة الرضى عليه لئلاّ ينتهي به الىٰ الموت فيمسك عن تناول الأطعمة والاشربة الضارة ، وهكذا حال الخائف من مقام ربه فهو يمسك ويمتنع عن ارتكاب ما يخالف اوامر ربه عز وجل ، وهذه هي ادنىٰ منازل الخوف ودرجاته ، وكلما ازدادت درجات الايمان صعوداً عند الفرد كلما ازداد معها مقدار الخوف . ولكي تتضح لدينا ماهية درجات الخوف نعمد الآن الىٰ نقل هذه الرواية المشفعة بحكاية تفيد مقصدنا:

* عبد الله لا يخشىٰ أحداً إلا الله:

نقل صاحب تفسير منهج الصـادقين أن امير المؤمنين علياً (ع) لما قتـل الملعون عمرو بن عبد ود العامري في معركة الخندق المشهورة قفل راجعاً الىٰ عسكر المسلمين ، فسأله المسلمون كيف لم يعتريك الخوف من لقاء عمـر يا علي؟! (لقد كان عمرو رجلاً شجاعاً يعد بألف فارس وله من غلظة البدن ورباطة

---

(٢) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٧) .
(٣) راجـع قصة حميـد بن قحطبـة وقتله لمائـة علوي في ليلة واحدة بـأمر هـارون الخليفة المذكورة في كتاب الذنوب الكبيرة ـ الجزء الاول لسماحة السيد المؤلف (رحمه الله) .
(٤) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٧) .

الجأش وقوة الشكيمة ما أن يحملْ فصيل الناقة لوحده فيجعل منه ترساً ويكرّ علىٰ الألف فارس وقد تدججوا بالسلاح! فكيف لم يهابه علي الفتىٰ حينذاك؟) فرد عليهم الامام (ع): كيف يخشىٰ من سوىٰ الله من لم يعبد الاّ إياه؟!!.

إذاً أحد عوامل التوحيد هو توحيد الله في مقام الخوف، أي ان العبد الموحّد هو من لا يخشىٰ أحداً سوىٰ ربه[5]. كما أن من عوامل التوحيد في مقام الرجاء هو أن لا يرجو العبد الاّ ربه. فلا الزوجة ولا الابناء ولا السلطان ولا الجاه ولا العلم ولا القلم ولا يفاعة الشباب ولا سلامة الأبدان هي التي تنتهي به الىٰ مناه وسعده لأن كل هذا زائل فانٍ، وعليه كان لزاماً علىٰ المرء ان يخاف ربه وحده ولا يعلق رجاءه الاّ به لأن ﴿**كل من عليها فآن، ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والاكرام**﴾[6] بينما نجده في كل الموجودات أنها مصاديق لقوله تعالىٰ ﴿**ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب**﴾[7] وقوله عز وجل ﴿**يحسب أن ماله أخلده**﴾[5] لأن الزائل بمنزلة السراب للظاميء من فرط العطش.

* حوار مؤمن الجن مع إبراهيم الأدهم:

اما الحكاية المفيدة لموضوعنا فهي حكاية ابراهيم الادهم التي نقلها كتاب تفسير منهج الصادقين: يقول ابراهيم الادهم (وهو زاهد مشهور) كنت أقطع طريقي في وهد من وهاد الأرض بمفردي فاذا بشخص مهيب يتصور أمامي بغتةً، فهالني أمره، ثم لم يلبث حتىٰ اقترب مني فسارعت بالسؤال: أمن الانس أنت ام من الجن؟ فرد علي قائلاً: أمن المؤمنين أنت أم من الكافرين؟ فأجبته بل أنا رجل مؤمن، فرد علي حينها وقال: لقد كذبت، لأنك لو كنت مؤمناً حقاً كما تزعم لما هبت أحداً غير الله!!

---

(٥) راجع كتاب الذنوب الكبيرة ـ مبحث الشرك، وكتاب القلب السليم مبحث العقائد للاستزادة. وهما من تآليف سماحة السيد المؤلف (رض).

(٦) سورة الرحمن، الآيات (٢٧ ـ ٢٨).

(٧) سورة المسد، الآية (٢).

(٨) سورة الهمزة، الآية (٣).

ولعل ذلك النفر كان من مؤمني الجن علىٰ ما يبدو ، المهم هنا ان المؤمن الكافل هو من لا يخشىٰ احداً الاّ الله تعالىٰ ، وكمال الايمان لا يتأتىٰ للمرء المسلم حتىٰ يمتلك وحدة الخوف والرجاء لله تعالى ! .

* المشرك الذي إنفرد بالنبي (ص):

ففي معركة أحد كان وضع المسلمين غير متكافيء مع وضع المشركين عدة وعدداً ، بالاضافة الىٰ وجود عوامل أخرىٰ سببت لحوق الهزيمة بجيش المسلمين واصابة عدد منهم بين قتيل وجريح ولائذ بالفرار بجلده ، وكان الامام علي (ع) وأبو دجانة الأنصاري حينذاك يذودان عن رسول الله (ص) الذي لحقته عدة جراحات أثناء المعركة ، وقد بقيا يقاتلان قتالاً شديداً مع المشركين لابعادهم عن رسول الله (ص) ، وبعد عدة محاولات يصل هذا المشرك الىٰ الرسول (ص) ويشهر عليه سيفه ويقول له: والآن يا محمد (ص) من تراه سينجيك منّي؟ فيرد عليه النبي (ص) بكل ثقة ووقار: إنه ربي (اي أن الله تعالىٰ لو لم يشأ قتلي علىٰ يديك فلن يستطيع أحد ان يفعل شيئاً ولو اجتمع الكون معه) فعزم المشرك أن يهوي بسيفه علىٰ النبي (ص) ليقتله فاذا بيده ترتعش ويسقط السيف أرضاً فتناوله النبي (ص) وشهره بوجه المشرك وقال له: وأنت من ينحيك مني؟ فرد عليه المشرك (وقد كان صاحب دهاء): عفوك عني ، فعفىٰ عنه الرسول (ص) وتركه .

* رجوح كفّة الايمان علىٰ كفّة الحسنات:

إذاً الجنتان لأهل الخوف من الله تعالىٰ جاءتا كثواب ، الاولىٰ على ايمانهم بالله والأخرىٰ لادائهم صالحات الاعمال ، ومن البديهي أن كل ما يوفق اليه المرء المسلم من صالحات انما هو بفضل وبركة ايمانه ، لذلك يقال ان جميع حسنات المؤمن توضع في كفة ميزان يوم القيامة ، ثم يوضع ايمانه المتجسد بالكلمة الطيبة (لا اله الا الله) وهي شعار الايمان ورمز التوحيد في كفة أخرىٰ ، فيرجح الايمان علىٰ الحسنات ، وسبب الرجوح هو أصل التوحيد ،

فبالتوحيد يدرك خوف مقام الله عز وجل ويتحصل رجاؤه . أما لو اخذنا معنىٰ الآية علىٰ الوجه الثاني حيث ان احد هاتين الجنتين هي جزاء الاعمال الصالحة واداء الفرائض ، والاخرىٰ جزاء ترك المعاصي والذنوب ، فتكون هاتين الجنتين هما جزاء ما سيتحمله المؤمن في دنياه في ذات الله عز وجل من نصب وشقاء وأذىٰ حينما يصون عينيه عن النظر الىٰ المحرمات ويصون نفسه عن الانزلاق في مهاوي الردىٰ والهلكة ويؤدي الطاعات ويلتزم الفرائض وينكر الكذب ويكره الغيبة ويستهجن فعل السيئات .

* جنّتا العدل والفضل :

وهناك وجه آخر في معنىٰ الجنتين اللتين ينعم بهما الله تعالىٰ علىٰ اهل خوفه وخشيته ، فالجنة الأولىٰ هي جنة العدل التي يثيبها لعبده بعدله لأنه تحمّل في سبيله شتىٰ ألوان العذاب وصنوف الشقاء ، والثانية هي جنة الفضل ، يهبها الله بفضله ومنّه لعبده دون استحقاق منه ، بل فوق استحقاق العبد رحمة من الله تعالىٰ به .

ويقول البعض ان الجنتين اللتين تعطيان للمؤمن ، انما يعطىٰ الاولىٰ منهما لينعم بها وأزواجه اما الثانية فهي لخدمه وغلمانه .

وتشتمل الجنتان علىٰ ضروب النعم وألوان الآلاء التي تشير الىٰ بعضها الآيات البينات التي سيرد ذكرها في ما يلي ، ويكفينا لادراك أهمية الجنة للانسان ذكر حديث شريف واحد ، يقول المعصوم (ع) (لموضع سوط في الجنة افضل من الدنيا وما فيها) فتأمّل .

* سعة الجنة :

ولكي نطلع علىٰ سعة الجنة وعظمتها نكتفي بذكر هذه الرواية بمضمونها وقد نقلناها عن كتاب لئاليء الأخبار وهي مرويّة عن رسول الله (ص) (استأذن جبريل من الله تعالىٰ أن يأذن له في حساب عرض الجنة ، فأذن له (علماً أن لجبريل قدرة وقوة هائلة ، فهو علىٰ سبيل المثال بمقدوره أن يهبط من السماء

السابعة الىٰ الأرض بطرفة عين واحدة) فانطلق ثلاثين ألف سنة فأصابه التعب ، فسأل الله أن يمدّه بعونه ، فأعانه الله ، فسار ثـلاثين ألف سنة أخـرىٰ ، فتعب (وهكذا كل مرة يستأذن الله ويسأله العون فيمده بثلاثين الف سنة كل مرة) الى أن استقر به الحال في مكان في الجنة فوقف ليستريح واذا بحورية تطل برأسها من غرفتها عليه وتسأله الىٰ اين تريد الذهاب؟ قال جبريل: أريد أن أبلغ منتهاها فردت عليه الحورية: لا تتعب نفسك فانك مذ شـرعت في سيرك ولا زلت لم تخـرج عن حدود مملكتي!! فسـألها جبـريل: ومن تكـونين من الحور العين؟ فأجابته: أنا حورية أحد المؤمنين! تأمّلوا تلك الحقيقة ، إنها والله فوق مستوىٰ إدراكنا وأسمىٰ من حدود فهم عقولنا ، لأننا نعيش في عالم غير ذلك العـالم ، كما أن الجنين في بطن أمه يجهل معرفة عالمنا .

* جنتا البرزخ والقيامة:

وقال العلامة المجلسي (رحمهُ الله) في شرح الكافي عنـد تعرضـه لهذه الآية المباركة ، لعل المقصود من الجنتين هما جنة البرزخ وجنة القيامة ، لأن المؤمن بعدما تنزع روحه عن بدنه بالموت ترفل حينـذاك هذه الـروح في دلال ونعيم وسعادة في جنة البرزخ ، وهي روضة مترامية الأطراف تشتمل علىٰ الوان النعم البرزخية ، وهذا الأمر تؤكده شواهد وأدلة قرآنية كثيرة ، كما في قوله تعالىٰ **﴿قيل ادخل الجنـة ، قال يـا ليت قومي يعلمـون﴾**[٩] فضلاً علىٰ جنـة الآخرة الموعودة التي يخلد فيها أهلها[١٠] .

---

(٩) سورة يس ، الآية (٢٦) .

(١٠) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع الى كتابي قلب القرآن في تفسير سورة يس والمعاد في فضل البرزخ وهما من آثار السيد المؤلف (رض) .

«٥٥»

﴿ذواتا أفنان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيها عينان تجريان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما من كل فاكهة زوجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين علىٰ فرش بطائنها من استبرق وجنا الجنتين دان﴾[1] .

* جنتان كثيفتان :

﴿ذواتا أفنان﴾ أي إشتمال الجنتين علىٰ الشجر الكثير ذو الأغصان المتشابكة والأوراق الكثيرة . ومعنىٰ كلمة (ذواتا) هو صاحبتا أي انهما يشتملان ويحتويان ، (أفنان) وهي جمع فنن وهو الغصن ، وعليه يكون معنىٰ الآية أن الجنتين معمورتان بالاشجار ذوات الأغصان ، فهما كثيفتان ومليئتان بالثمار والفواكه كما سيأتي ذلك في الآيات اللاحقة ، ومن البديهي أن يكون وجود الأغصان الكثيرة المملوءة بالأوراق دليلاً علىٰ غناها بالثمار الكثيرة أيضاً .

وقد ورد معنىً آخر لكلمة أفنان وهو جمع لفنن ، والفنن هو النوع ، وعليه

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٤٨ ـ ٥٤) .

يكون معنىٰ الآية هو (ذواتا انواع مختلفة من الشجر والنعم) ، فأشجار الجنتين تحتمل الثمار والفواكه الكثيرة والمتنوعة بطعومها واشكالها .

* عينان من الرحمة تجريان بدموع الخوف والرجاء:

﴿فيهما عينان تجريان﴾ أي وتحتوي الجنتان علىٰ عيني ماء جاريتان ، وقال البعض ان العينين تجريان بماء وشراب الجنة ، وقال آخرون ان هاتين العينين هما من عيون الرحمة الالهية التي تعبر عن عيني المؤمن اللتان جرتا بدموع الخوف والرجاء في دار الدنيا ، فتمثلتا في الجنة علىٰ هيئة عيون الرحمة ، وقد ذكرت التفاسير أن اسمي هاتين العينين هما: سلسبيل وتسنيم ، واصل هاتين العينين يصدر من بيت رسول الله (ص) في الجنة .

* فيهما من كل فاكهة نوعان:

﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ ، وتشتمل الجنتان علىٰ الكثير من الثمار والفواكه ، ولكل ثمرة نوعان اما عن وجوه معاني هذه الزوجية أو العددية في الفواكه فقد وردت عدة وجوه في ذلك نشير الىٰ اهمها:

الوجهُ الأول: يقال ان الفواكه الموجودة في الجنتين ، هي من فواكه الدنيا المعروفة ، وهما علىٰ شكلين ، أحدهما رطب والآخر مجفف ، كالعنب والزبيب ، والتمر والرطب ، ونحو ذلك .

الوجهُ الثاني: ان الفواكه التي تحتويهما الجنتين هي فواكه متعددة الانواع ، يشتمل كل نوع منها علىٰ زوجين ، لكل زوج منه لون خاص يختلف عن الزوج الآخر .

الوجه الثالث: ان يكون المراد بالزوجين هو وجود نوعين من الفاكهة الواحدة ، أحدهما معروف ومألوف لدينا في دار الدنيا والآخرة نعرفه ولم نره .

* في الجنة ينعدم اللون الاسود والطعم المر:

وقد ورد عن ابن عباس في شأن تفسير هذه الآية قوله ان في الجنة جميع ثمار الدنيا وفواكهها ، مرّها وحلوها ولكن الثمار المرّة تفقد خاصية مرارتها في الجنة ، فالجنة لا تحتوي علىٰ ثمار واطعمة مرة ، ولا مكان للون الأسود فيها أيضاً .

وعندما يقال ان الجنة تحتوي علىٰ جميع ثمار وفواكه الدنيا فليس المقصود به ان الجنة تشتمل علىٰ هذه الثمار والفواكه بذاتها ، وانما يقصد بذلك وجود نظائر فواكه الدنيا من حيث الشكل ولكنه يختلف تماماً عما في الدنيا من حيث طعمه ، فطعم ثمرة الدنيا طعم واحد ، بينما ثمار الجنة يكون لكل ثمرة فيها طعوم متعددة (مائة ألف طعم) ، وفي الجنة توجد الاشياء المشتملة علىٰ المتفرقات فثمرة الجنة لها مائة الف طعم يتحسس المرء لذة كل طعم لوحده في آن واحد مما لا يكون مثيله في الدنيا . ولعل بعضنا ذاق طعم فواكه البرزخ انه يقظة او في المنام ، وهذه القصة انموذج لذلك .

* شفاء العلامة المجلسي وشرحه للزيارة الجامعة:

كتب المجلسي الأول في معرض شرحه لكتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق قائلاً: وقعت في أحد الأيام طريح فراش المرض ، فتدهورت احوالي وساءت صحتي وأحسست بيأسي من الحياة إثر ذلك المرض العضال ، وحينها أُغشي عليّ وانا مسجىً باتجاه القبلة فتراءت لي خمسة انوار قدسية هي انوار النبي (ص) وأمير المؤمنين والزهراء والحسنين (ع) ، فدنوا مني ، فأجهشت بالبكاء واظهرت لهم توجعّي ، فقالوا لي: لا تخف ثم ناولوني شيئاً من شواء كان معهم ، فأكلته واذا بي احس له مائة ألف طعم ، فسألتهم أهو من طعام الجنة ذي المائة الف طعم؟ فأجابوني: نعم ، وهنا سألت رسول الله (ص): دلني يا رسول الله علىٰ سبيل النجاة ، فقال لي: عليك بأهل بيتي .

لذلك إنشغل (رض) بشرح الزيارة الجامعة بعد أن منّ عليه الله (عز وجل) بالشفاء ببركة أهل البيت (ع) .

* دواعي وجود الفواصل بين الأوصاف الثلاث:

ولعل هذا التساؤل يدور في خلد البعض وهو (لماذا جاءت الفواصل بين الآيات الكريمة ﴿**ذواتا افنان**﴾ و﴿**فيهما عينان تجريان**﴾ و﴿**فيهما من كل فاكهة زوجان**﴾ مع أنهن صفات لموصوف واحد هو ﴿**جنتان**﴾؟ والرد بظننا يشبعه هذين الوجهين:

الوجه الأول: لما كان المقام هو مقام ذكر النعمة ، كان طويل الحديث أجمل وأشيق ، يقال ان (وصف العيش نصف العيش) أو كما يقول المثل الفارسي (كلمّا طال الحديث العذب صار أعذب) . بينما نجد في آية العذاب السابقة ، وجود آيتين لم تقع بينهما الفاصلة ﴿**هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن**﴾ والسبب في ذلك هو أن الآيات المشتملات علىٰ وصف الجنة تؤالف رغبة السامع وتشوّقه إليه ، لذلك جاء الفصل لتشويق السامع .

* إنكار الصفة يوجب الكفر كانكار الموصوف:

الوجه الثاني: جاء الفصل بين الآيات باعتبار أن انكار الموصوف وهو الجنة يخالف مقتضىٰ العقل فيوجب بذلك الكفر ، وان انكار خصوصيات الموصوف التي جاء بها القرآن الكريم يوجب الكفر أيضاً باعتباره انكاراً لضروري من ضروريات الدين ، فعندما ينكر المرء وجود الجنة فيقول أية جنة هذه؟! أو يقول عن الحور: أية حور تلك؟! أو عن الفاكهة وثمار الجنة ، اي فاكهة تلك؟! منكراً ، فهو حينئذ يعرب عن عدم قبوله لأي من تلك النعم المتمثلة بالجنة أو بنعم الجنة الضمنية ، وهذا الانكار بحد ذاته كفر ، لذلك جاءت الفواصل بعد كل آية من آيات النعم بقوله تعالىٰ ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان؟**﴾! بنعمة اشجار الجنة ذوات الافنان تكفران؟! أم بنعمة العينين

الجاريتين تجحدان؟! أم بنعمة تعددِ ضروب الفواكه والثمار ووجود الزوجين من كل ثمرة لا تؤمنان؟!

* أيّهما أهم ، أخبار المنجّم أم أخبار القرآن؟

والآن بعـد أن مرت علينـا بعض الآيـات المشتملة على الأخبـار الغيبيـة القرآنية ، فهذه الأخبار تحدثت عن امور تقع خارج حدود ادراك حواسنـا (كما في عرض الجنة ، إشجارها ، وعيون الماء فيها) مما ذكره القرآن الكريم أو ما تناولته احاديث اهل البيت (ع) . ترىٰ هل أن هـذه الأخبار القـرآنية أقـل شأنـاً وأدنىٰ أهمية من اقوال علماء الفلك؟ هل سألنا أنفسنا يومـاً لماذا نحن نصـدق ونؤمن بل ونقطع بصحة ما يقوله عالم الفلك أو المنجّم حتىٰ وان كان قوله عجيباً أو غريباً ، بينما نتردد في الجزم والقطع بصحة ما يخبرنا به القرآن العظيم والنبي الكريم (ص) والائمة الطاهرين (ع)؟!

لماذا نحن نصدق ودون تردد ما يقوله الفلكي من أن نـور الشمس يصل الىٰ الأرض في غضـون سبع دقـائق ونصف الدقيقـة ، ونؤمن بما يؤكـدّه عالم الفلك من أن بعض الاجرام والكواكب تبعد عن كوكبنـا (الارض) مسافـة الف سنـة ضوئيـة ، بل أن بعض الكـواكب أو الشموس المـوجودة في هـذا الكون الرحب لم يصلنا نورها منذ أن خلقها الله عـز وجل لفـرط بعدهـا الشاسـع عن كوكبنا!؟

ونتـردد في تصديق سعـة الجنة أو عـرضها!! رغم أن مـا يقولـه العلماء والمنجمـون يستند في الأغلب علىٰ الحـدس والتقديـر والحساب ، وبينمـا ما يخبرنا به الانبياء والأئمة (ع) يستند الىٰ المشاهدة الحيّة أو الأخبار بالواسطة عن رب العالمين ، فنبينا محمد (ص) عرج به الى السماء ووطأ أرض الجنة بقدميه الشريفتين ، وذاق طعم ثمارها بفمه الطاهر ، ولعل حادثة أكله (ص) من تفاح الجنة التي كانت سبب انعقاد نطفة الزهراء فاطمة (ع) قد سمعتموها كثيراً وهي دليل يضاف الىٰ ما لا يحصىٰ من الدلائل علىٰ هذه الحقيقة .

* متكأ بطانته الديباج :

﴿متكئين علىٰ فرش﴾ أي أن الذين يخافون مقام ربهم لهم جنتان فيها فرش قد إتكأوا عليها ، و(متكئين) صفة للخائفين من مقام الرب ، فهم في الجنة كالملوك والسلاطين قد إتكأوا علىٰ (فرش) وهي جمع فراش وهو ما يفترشه المرء للجلوس أو الاستناد اليه في جلوسه .

والنقطة اللطيفة في هذه الآية هيَ اننا لو حاولنا أن نفهم ماهية وكيفية هذه الفرش والمتكئات لما حزنا إليها سبيلاً ، بل لا نستطيع أن ندرك بطائن تلك الفرش .

﴿بطائنها من استبرق﴾ وكلمة بطائن مشتقة من بطن وباطن ، وهي تعني المادة التي تبطّن الاقمشة عادة فتستبطنها ، أما (الأستبرق) فهو ما نصطلح عليه بالحرير الصيني أو ما يسمىٰ بالديباج ، وهو ألطف وأنعم انواع الحرير ، ولعل تسميته بالأستبرق ناشئة عن بريق البرق الأخّاذ ، وقيل عن اصل مادة بطائن الأستبرق انه النور ، ولكن ورد عن سعيد بن جبير هذا المفسر الجليل عندما سئل عن مادة بطائن الأستبرق قال: لو كان يمكن توضيح هذا الأمر لبيّنه الله عز وجل في كتابه الكريم . وهذا يكفي لوحده كدليل علىٰ أن الاستبرق لا يمكن وصفه ، يقول تعالىٰ ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**﴾[1] .

« ٥١ »

﴿متكئين علىٰ فرش بطائنها من استبرق وجنا الجنتين دان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١] .

* طلاب الجنة قليلون:

إذاً أعد الباري تعالىٰ لعباده الخائفين مقامه (تعالىٰ) جنتين فيهما من ألوان النعيم التي أشار القرآن الىٰ شيء منها ، ومن جملة النعم الفُرش الرائعة ذوات البطائن الحريرية ، فكيف بالفراش نفسه؟ مع العلم أن بطائن الفرش من افضل والطف وأنعم وأنور وأزهىٰ الأقمشة حيث عبر عنها القرآن بأن مادتها الأستبرق . يقول الامام علي (ع) (ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها)[٢]مع ان المرء كم تأخذ السعادة منه مأخذاً ويحلّق به السرور أوجاً لو حصل في هذه الدنيا علىٰ بستان أو روضة؟ بل وكم ينفق من جهده وعرقه وسعيه حتىٰ يحقق ما صبت نفسه إليه في

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٥٤ ـ ٥٧) .
(٢) سورة السجدة ، الآية (١٨) .

دنياه باقتناء بستان مثلاً؟ وهو يعلم تماماً أنه سينتفع منه لأجل محدود ثم يغادره الىٰ حيث لا رجعة إليه ، بينما الجنة أولىٰ بالشوق إليها والسعي نحوها وبذل العرق وتحمل الصعاب وتجشم العناء طلباً لها لأنها الباقية ، ولأنها المُلك المقيم ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[٣] .

* فواكه الجنة في متناول أيدي أهلها:

﴿**وجنا الجنتين دان**﴾ ، كلمة (جنا) تعني الثمرة المقطوفة من الشجر ، ولا يصح تسمية الثمرة التي لم تجنىٰ بعد من شجرتها (جنا) ، ففواكه الجنة وثمارها في متناول ايادي اهل الجنة وأنّىٰ شاؤوا ، فما أن يشتهي المؤمن فاكهة ما حتىٰ يهبط إليه غصنها وتقترب الثمرة المطلوبة عند فمه ، فهو لا يحتاج الى النطق والافصاح عن حاجته أو رغبته أبداً .

ومعنىٰ كلمة (دان) هو قريب ، وهي مشتقة من الدنو أي القرب ، إذاً خلاصة معنىٰ الآية هو (ان ثمار الجنتين وفواكههما قد دنت الىٰ المؤمن واضحت في متناول يده وعند رغبته ، بل ان القطاف والجني ذاتي ولا يحتاج فيه المؤمن الىٰ الامساك بالثمرة وقطفها بل تصير بذاتها الىٰ فمه وقتما شاء ذلك . فطوبىٰ لك ايها العبد المؤمن الذي أفنىٰ عمره في طاعة الله تعالىٰ وتبع ارادة ربه فقد جعل الله عز وجل لك في غدك الآتي ثواب طاعتك وعبادك في نعيم الجنة فيصيّر لك الاشياء حينذاك وفقاً لارادتك ومطيعة لرغبتك وشهواتك .

* من قال كلمة التوحيد فله بها شجرة في الجنة:

يقول أحد العلماء ، لو أن ملكاً سمع بخبر يقول أن في الأرض الفلانية شجرة لها ثمار ، يعطي مائة الف طعم في مذاق ثمرتها ، وقد خلص الثمر من النوىٰ والقشور ، وهي تثمر علىٰ مدار فصول السنة جميعاً ، ترىٰ كم سينفق هذا الملك ، وكم سيعطي من جهده وعنائه جرياً وراء الحصول علىٰ هذه الشجرة

---

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة (٣٨) .

(٣) سورة المطففين ، الآية (٢٣) .

ليتمكن من حيازتها والاستفادة منها؟

وأنت أيها المرء المؤمن حسبك أن لا تستهين بوعد الله أو تستصغره ، فان من قال كلمة (لا اله الا الله) مخلصاً غرس الله له شجرة في الجنة بها ، وفي سائر الأذكار يعد الله عباده بجزيل الثواب وعظيم المّن ، فلِمَ التهاون والتقاعس إذاً؟! ان فاكهة الجنة لا تحتاج منك الىٰ بذل جهد أو حركة ، فهي جنيّة ، ولو انك طعمتها واكثرت منها سوف لا تثقل علىٰ معدتك ولا يحصل لديك انتفاخ البطن أو وجع القلب الناشيء عن تناول الأطعمة دون الشهيّة .

* نساء الجنة مولهات بأزواجهن:

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ اي وفي الجنتين نساء يقصر نظرهن علىٰ ازواجهن . ويعد وجود الحور العين في الجنة احد اكبر النعم لالهية ، فقد خص الباري تعالىٰ خلقهن للآخرة وحدها ، ومع الحور العين توجد أيضاً النسوة المؤمنات الصالحات في الجنة ، والمؤمنات يفوق جمالهن جمال الحور العين بأضعاف مضاعفة ، مع أن زيادة تقوىٰ وايمان الامرأة الصالحة يؤدي الىٰ زيادة درجات الجمال الآخروي .

ويبلغ من عشق الحور العين لازواجهن حداً يقصر فيه طرفهن عن رؤية غير ازواجهن ، لذلك وصفهن الله عز وجل بـ (قاصرات الطرف) ، وقد ورد عن النبي (ص) قوله (قاصرات الطرف ، قصر طرفهن على ازواجهن فلم يردن غيرهم) وقال ابو ذر (رض) (انها (أي الحورية) تقول لزوجها ، وعزة ربي ما أرىٰ في الجنة خير منك ، فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي)[٤] .

(٤) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٨) نقلاً عن تفسير علي بن ابراهيم القمي .

* قاصرات الطرف من الحور لمن قصر طرفه عن النظر الىٰ الحرام:

ويقول أحد المفسرين ، ان نعمة قاصرات الطرف من الحور العين اللواتي يقصر نظرهن عن رؤية غير أزواجهن ، إنما هن لمن يقصر طرفه عن النظرة المحرمة ، فلا يجعل عيناه تزيفان بالنظر الىٰ ما حرم الله تعالىٰ . وهناك من يقول علة تسمية الحور العين بقاصرات الطرف هي أنهن يقصر طرف الرائي عنهن من شدة تألّق ضيائهن[٥] ، فلا يستطيع من مواصلة النظر إليهن .

وتذهب احدىٰ الروايات الىٰ تأكيد هذا المعنىٰ إذ تقول (ولو أطلّت حورية من حور الجنة علىٰ أهل الدنيا لغشي عليهم من فرط جمالها ، حتىٰ أن ضوءها ليطغىٰ علىٰ ضوء الشمس ، ولو أنها بصقت في البحار المالحة لعذب ماؤها ، وان المرأة من اهل الجنة ليُرىٰ مخ ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير)[٦] ، فيكون ذلك زيادة في جاذبيتها[٧] .

* رحلة خطوبة الحور العين تبدأ من المساجد:

وينقل كتاب بحار الانوار عن رجل انه قال: رأيت يوماً الامام زين العابدين (ع) وقد خرج لتّوه من الحمام وقد تخضّب ولبس جبّة وهو يروم الذهاب الىٰ المسجد ماشياً مشية ملؤها الوقار كأنه في مشية عرس ، فدنوت منه وسألته: الىٰ أين يا سيدي؟ قال: الىٰ حيث تخطب الحور العين . «ومن الحور العين برحمتك فزوّجنا»[٨] .

إذاً الجنة مكان طاهر نظيف لا يشتمل على نجاسات أو أوساخ ، فما فيها هو محض نور ، ولذاتها نابعة من الجمال المحض فلا يعكّرها صفواً من نجاسة

---

(٥) تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٨) نقلاً عن تفسير علي بن ابراهيم القمي .
(٦) المصدر السابق .
(٧) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع راجع كتاب الدار الآخرة في تفسير سورة الواقعة للمؤلف (رض) .
(٨) دعاء ايام شهر رمضان ، كتاب مفاتيح الجنان .

كما في لذات الدنيا وشهواتها . وعوداً علىٰ بدء ، نقول ان معنىٰ قاصرات الطرف هنّ من لا تتعدىٰ أبصارهن أزواجهن .

* الحور ، أبكار لم يتزوجن من قبل:

﴿ولم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي لم يمسسهن أحد من الناس أو الجنّة من قبل ، ويرىٰ البعض ان المقصود من هذه الآية الكريمة هو أن الحور العين المخصصات للرجل الأنسي لم يطمثها أنسي قبله ، والحور العين المخصصات للجنّي المؤمن لم يطمثها جنّي قبله .

وبالتأكيد ان جمال الحور يتزايد ويتناقص تبعاً لاعمال المؤمن الصالحات واستناداً الىٰ ايمانه وتقواه . ثم تأتي الآيات اللواحق لتقدم لنا أوصاف الحور ، وما يهمّنا الآن هو ان الجنة سعادة في سعادة لا تشوبها شائبة ، ونعيم في نعيم لا ينغصه شيء .

ولعله من المناسب لمقالنا هذا أن نذكر احدىٰ فضائل اهل البيت (ع) ، تقول إحدىٰ الروايات ان الحور العين بجمالهن الأخّاذ وضيائهن الباهر ، يشع عليهن نور فجأة فيبهر أبصارهن ويغلب كل الأنوار (بما فيه نورهن) فيضاء له كل شيء هناك ، فيتساءلن عن مصدر النور ، فيأتيهن الجواب أن علياً وفاطمة (ع) قد أنسا ببعضهما فضحكا ضحكة فشع النور من فيهما .

« ٥٢ »

﴿كـأنهنّ الياقـوت والمرجـان * فبـأي آلاء ربكمـا تكذبان * هل جزاء الاحسـان الاّ الاحسان * فبـأي آلاء ربكمـا تكذبـان﴾(١) (لا بشيء من آلائك رب اكذب) .

* نساء الجنة كأنهن الياقوت في تألقهن:

ذكر سابقاً ان الحور العين ابكار لم يمسهن من قبل أحداً .

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ حمرة وبياضاً ، ألا هـل من مشتاق لهن؟ ألا هل من راغب لزوجات مدحهن الله تعـالىٰ في كتابـه الكريم؟ اللّهم فـأنزع حب الدنيا من قلوبنا ، واجعل بدله حبك والرغبة الىٰ الآخرة ونعيمها المقيم .

في هذه الآية نرىٰ أن الله عز وجل يصف الحور العين بالياقوت والمرجان تشبيهاً ، والياقوت كما نعرف هو حجر كريم ثمين جداً يمتاز علىٰ سائر الأحجار الكريمة بخصائص ومزايا ، ولليـاقـوت أنواع متعـددة ، فهناك اليـاقوت الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر ، وأشهر أنواعه هو الياقوت الأحمر ، وهو يشبه الىٰ

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٥٦ ـ ٦٣) .

حد كبير حبة الرمان الحمراء ، وهو نفيس للغاية ، ومن خصائصه أن كثرة مسه ولمسه لا تعدمه بريقه وتألقه . وقد شبّه الباري تعالىٰ جمال الحور العين ونساء الجنة المؤمنات بالياقوت ، ويكفي المرء من هذا التشبيه أن يدرك السر بعد أن تعرّف علىٰ شيء من خصائص الياقوت .

* حمرة الحور كالياقوت ، وبياضهن كالمرجان:

وأحد دواعي تشبيه الحور بالياقوت هو **جانب الصفاء والتألق** ، فللحور العين من اللطافة والصفاء ما يبلغ حداً يقول عنه رسول الله (ص) (فهي تلبس سبعين حلّة ويرىٰ زوجها مخ ساقيها من وراء حللها وبدنها ، كما يرىٰ أحدكم الدراهم إذا ألقيت في ماء صاف قدره قيد رمح) .

اما الجانب الثاني في علة تشبيه الحور بالياقوت فهو **جانب اللون** ، فهن حمراوات كالياقوت ، بيضاوات كالمرجان ، وقد يبدو مظهر الجمال وفق هذين اللونين أشبه بالسراب في دار الدنيا فلا يتجلّىٰ لنا جمال هذين اللونين علىٰ حقيقته ، لأن هذين اللونين يعبران في دار الدنيا عن مظهر القيح والدم ، بينما تظهر حقيقة الجمال والألوان في الجنة التي يغفل عنها الكثيرون ، كما هو الحال في جمال الحور وصفائهن وسائر اللذات والنعم الآخروية .

* وجه ياقوتي وبدن بلوري كالمرجان:

ونقل صاحب كتاب معالم الزلفىٰ أن المرء المؤمن عندما يرد الجنة ويحتضن حوريته ، يذهب معها في عناق وتقبيل يطول خمسمائة عام! وهذه الصورة لا يمكن تصورها طالما كنا في هذا العالم ، ولكن يصار بنا الىٰ ذلك العالم فعندها سنتمكن من مشاهدة هذه الحقيقة في دار النعيم والكرامة حيث تتجلّىٰ هناك قدرة الباري تعالىٰ فيبرّز الجمال الآخّاذ .

وعليه فان معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿**كأنهن الياقوت والمرجان**﴾ هو كأنهن كالياقوت في حمرة الوجوه ، وكالمرجان في بياض وصفاء الأبدان . ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ فبأي نعمة يا معشر الجنة والناس أنتما تكفران؟! أبنعمة ازواج

الجنة حمراوات الوجوه كالياقوت أم في صفاء وبياض أبدانهن كالمرجان؟!!

* وما جزاء الاحسان الّا الاحسان:

﴿هل جزاء الاحسان الّا الاحسان؟﴾ لـ (هل) الاستفهامية الواردة في هذه الآية أربعة معانٍ ، كما ذكر ذلك المفسرون ، وأهم هذه المعاني المناسبة لموضوع الآية هو الاستفهام التقريري ، وعليه يكون معنىٰ الآية ـ ان من البديهي ان يكون جزاء الاحسان هو الاحسان ، وهي الاجابة التي لا يجد المسؤول بدّاً من القول والاعتراف بحقيقتها .

فأنتم ايها المؤمنون الاعزاء لم تمرغّوا وجوهكم بصعيد الأرض في هذه الدنيا الّا لتعربوا لله عز وجل عن انكساركم وعجزكم وذلكم إليه ، فظهرتم بمظهر العبودية والخضوع ، لذلك حصل الله لكم من الثواب علىٰ ذلك أن يكسبكم مظاهر العزة والعظمة والجلال في تلك الدار (بأذنه تعالىٰ) ولأجل توضيح هذا الأمر نعمة الآن الىٰ استعراض هذه الرواية زيادة في فهم الموضوع:

* الملائكة تستأذن المؤمن في زيارة التهنئة:

يروىٰ عن رسول الله (ص) أنه قال: عندما يستقر الحال بالمؤمن في الجنة ، يبعث الله ألف ملك يهنئونه بالجنة ، فيصلون الىٰ أول باب من جنان ملكه فيقولون للملك الموكّل بأبواب جنان عبد الله المؤمن: ١ ـ استأذن لنا علىٰ ولي الله فان الله بعثنا من عنده مهنئين ، فيقول الملك: حتىٰ أقول للحاجب فيعلمه مكانكم ، فيقول للحاجب: ان علىٰ باب العرصة ألف ملك بعثهم رب العالمين ليهنئوا ولي الله وقد سألوني ان استأذن لهم بالدخول عليه ، فيقول له الحاجب: انه ليعظم عليّ ان استأذن لأحد للدخول علىٰ ولي الله وهو مع زوجه ، قال (ص): وبين الحاجب وبين ولي الله جنتان ، فيدخل الحاجب الىٰ القيّم فيقول له: ان علىٰ باب العرصة الف ملك بعث بهم رب العالمين مهنئين من عنده لوليه فاستأذن لهم ، فيقوم القيّم الىٰ الخدمة ويقول لهم: ان رسل الجبار علىٰ باب العرصة وهم الف ملك بعث بهم الىٰ ولي الله مهنئين فاعلموه

مكانهم فهم يستأذنون بالدخول عليه ، قال (ص): فيعلم الخدمة ولي الله ، فيؤذن لهم فيدخل الملائكة علىٰ ولي الله وهو في الغرفة ولها الف باب ، وعلىٰ كل باب يقف ملك موكل بتلك الباب ، فيدخل كل ملك مبعوث من باب من ابواب الغرفة ويبلغونه رسالة الجبار ﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبىٰ الدار**﴾[٢] . فأنظروا الىٰ هذه العظمة والهيبة التي يعطيها الله تعالىٰ لعبده المؤمن بديلاً عن انكساره وذله في دار الدنيا ، وكما يقول الحديث الشريف (ان اهل الجنة ملوك) بلىٰ فهم الملوك والسلاطين في عين الحقيقة وذات الواقع لا سواهم .

* وما جزاء التوحيد إلّا الجنة:

وورد كذلك في تفسير هذه الآية عن رسول الله (ص) وهو يحدث أصحابه(أتدرون ما يقول ربكم؟ (يريد بذلك قوله تعالىٰ ﴿**هل جزاء الاحسان الاّ الاحسان**﴾ فردوا عليه: الله ورسوله أعلم ، فقال (ص): فان ربكم يقول هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد الاّ الجنة؟)[٣] ، أي أن جزاء الاحسان وهي كلمة التوحيد (لا اله الاّ الله) التي يفني المرء المؤمن عمره في تحقيق وتأكيد حقيقتها فلا يشرك بالله شيئاً ، ان شركاً خفياً أو ظاهراً ، فيعبد الله وحده ، ويخشاه ولا يرجو الاّ هو ، ان ينعم عليه ويكرمه باحسانه حقاً عليه تعالىٰ . ولكن بشرط مهم وخطير ، هو شرط الولاية في التوحيد كما وضح لنا ذلك إمامنا الثامن علي بن موسىٰ الرضا (ع) عندما قال: بشرطها وشروطها ، وأنا (الولاية) من شروطها . إذاً إلحاق الولاية بالتوحيد شرط لازم من شروط التوحيد الكامل .

* وهل جزاء الاستغفار الاّ المغفرة:

ولقد أجاد القول أحد المفسرين عندما قال: ان معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿**هل جزاء الاحسان الا الاحسان**﴾ هو ـ هل جزاء التوبة الا القبول؟ وهل جزاء

---

(٢) سورة الرعد ، الآيات (٢٣ ، ٢٤) .
(٣) تفسير مجمع البيان ـ عن تفسير نور الثقلين (ج ٥ ، ص ١٩٨) .

الاستغفار الا المغفرة والصفح؟ وهل جزاء الشكر الا الزيادة في العطاء؟ وهل جزاء الدعاء الآّ الاجابة؟ وهل جزاء السؤال الآّ العطاء؟ ـ . ويبقىٰ المعنىٰ الأشمل لكل تلك الأمور هو قوله عز وجل ﴿**هل جزاء الاحسان الآّ الاحسان**﴾ لأنها ضمنت جميع تلك المعاني في نصها المجيد .

* لقمة بلقمة:

وفي معرض حديثه عن هذه الآية المباركة ذكر أحد المفسرين هذه القصة (في سنة جدب وقحط وغلاء ، حملت امرأة مؤمنة طفلها ومعها قرص من الخبز وانطلقت الىٰ البادية لتجمع الحطب والأشواك ، فمرت برجل مسكين قد أضرت به المسكنة واشرف علىٰ الهلكة من فرط جوعه ، فرقت المرأة لحاله وناولته قرص الخبز ليسدّ به رمقه ، ثم تركته وذهبت الىٰ شأنها ثم لم تمض بعيداً حتىٰ وضعت طفلها في جانب من البادية وشرعت تجمع الحطب والأشواك . فجأة أقبل ذئب وأمسك طفلها بأسنانه يريد افتراسه ، فذهلت الامرأة ولم تدر ما تفعل؟ وهنا ظهر رجل علىٰ حين غرّة فأنتزع الطفل من انياب الذئب وحمله الىٰ أمه وهو يقول لها: إنها لقمة بلقمة! يريد بقوله ان جزاء احسانك الىٰ المسكين الجائع بقرص الخبز هو أن انقذ الله وليدك الذي اوشك ان يكون لقمة سائغة للذئب .

* كافيء بالمعروف من أحسن إليك:

وينبغي التنبّه الىٰ ان هذه الآية هي آية عامة لا تخصيص فيها ، فهي تشمل المؤمن والكافر ، البر والفاجر . يقول علي بن سالم ، سمعت أبا عبد الله (الصادق (ع)) يقول: آية في كتاب الله مسجلة ، قلت وما هي؟ قال (ع): قول الله (عز وجل) ﴿**هل جزاء الاحسان الآّ الاحسان**﴾ جرت في المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ومن صنع اليه معروف فعليه ان يكافيء به ، وليست المكافأة أن يصنع كما صنع حتىٰ يُربي ، فان صنعت كما صنع ، كان له الفضل بالأبتداء)(٤) .

---

(٤) مجمع البيان ـ عن تفسير نور الثقلين (ج٥ ، ص١٩٩) .

ولما منعت السماء قطرها في الكوفة ، جاء الناس الىٰ علي (ع) فشكوا له ذلك ، فأمر ولده الامام الحسين (ع) : اذهب وأدع ، فذهب الامام الحسين (ع) ودعىٰ دعاء الاستسقاء فأمطر الله سماءه وأرتوىٰ الجميع ، فكيف كان جزاء أهل الكوفة لهذا الاحسان؟!

منعــوا المــاء علىٰ الحسـين وأهـله　　　واستأنسوا الحـال في هتك حـرماتـه

« ٥٣ »

﴿ومن دونهما جنتان * فبأي آلاء ربكما تكـذبان * مدهامّتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وفيهما عينان نضّاختان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما فاكهة ونخـل ورمّان * فبـأي آلاء ربكما تكـذبان * فيهن خيرات حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾[١] (لا بشيء من آلائك رب اكذّب) .

* وجنتان أخريان:

﴿ومن دونهما جنتان﴾ أي وغير الجنتين الأوليين أعد الله تعالىٰ للخائفين المقربين جنتين أخريين . وقد ذكر المفسرون وجهين في معنىٰ هذه الآية هما:

الوجه الأول: المـراد بكلمة (دون) هـو (غير) وعلىٰ ذلـك يكون معنىٰ الآية ـ ومن غيرهما جنتان ـ أي ولمن خاف مقام ربـه جنتان اخـريان ، وتصف الروايات الواردة هاتين الجنتين كا يلي (عن النبي (ص) أنه قال: جنتان من فضة أبنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب أبنيتهما وما فيهما)[١] ، إذاً الجنتان الاوليان

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٦٢ ـ ٧١) .

من ذهب ، والأخريان من فضة . وسنأتي لاحقاً الىٰ ذكر الوجه الثاني في معنىٰ الآية .

ولهاتين الجنتين جملة أوصاف ، نذكر منها: ﴿**مدهامتان**﴾ وهي مشتقة من مادة (أدهم) وهو اللون الأسود لفظاً ومعنىٰ ، ومدهام هو اسم مفعول ، ومدهامتان تثنية لكلمة مدهام ، وهي صفة للجنتين من حيث كثرة خضرتهما وزرعهما حتىٰ استحالتا للرائي وكأنهما سوداوان ، وبذلك فانهما مبعثان علىٰ انشراح القلب وانفراج أساريره لأن كثرة الخضرة والزروع ما تشر الناظر وتفرحه عادة .

* عينان من المسك فوّارتان:

﴿**فيهما عينان نضّاحتان**﴾ اي فيهما عينا ماء فوارتان ، والنضخ هو الفوران ، وعن إبن عباس (رض) ورد في تفسير هذه الآية أنه قال (وتنضخ هاتان العينان بالمسك) .

* وفيهما فاكهة وتمر ورمّان:

﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمّان**﴾ وفي تينك الجنتين فواكه وتمر ورمان ، انمّا جاء التأكيد علىٰ الرمان ، لأنه أحد ثمار الجنة كما قال الامام الصادق (ع) (الفاكهة مائة وعشرون لوناً ، سيدها الرمّان)[١] ، لأن الرمان فاكهة تنير القلب ، وقد جاء في السنة استحباب تناول الرمان في ليلة ونهار الجمعة ، فقد جاء عن الامام الصادق (ع) قوله (ما من شيء أشارك فيه أبغض اليّ من الرمّان ، وما من رمانة الاّ وفيها حبة من الجنة ، فاذا أكلها الكافر بعث الله (عز وجل) له ملكاً فأنتزعها منه)[٣] ، وقيل عن رسول الله (ص) أنه كان لا يحب أن يشاركه أحد في أكل الرمان ، يقول الصادقان (ع) (ما علىٰ وجه الأرض ثمرة كانت أحب الىٰ

---

(٢) مجمع البيان ، نقلاً عن تفسير نور الثقلين (ج٥ ، ص ١٩٩) .
(٣) تفسير نور الثقلين (ج٥ ، ص ٢٠١) نقلاً عن الكافي .

رسول الله (ص) من الرمّان ، وكان والله إذا أكلها لا يشاركه فيها أحد)[٤] . ولقد كان الامام الصادق (ع) يفترش منديلاً عندما يشتهي أكل الرمّـان لكي لا يغادر منها حبة واحدة .

وقد جاد في فوائد أكل الرمان أن من تناول رمانة طرد بذلك الوسوسة من قلبه أربعين يوماً . إذاً وجه الاهتمام بالرمان لأنه غذاء وفاكهة ومادة تنير القلب .

وقد جاد في فوائد أكل الرمان أن من تناول رمانة طرد بذلك الوسوسة من قلبه أربعين يوماً . إذاً وجه الاهتمام بالرمان لأنه غذاء وفاكهة ومادة تنير القلب .

ونعـود الآن الىٰ ذكر الـوجه الثـاني في معنىٰ قولـه تعالىٰ ﴿ومن دونهمـا جنتان﴾ .

* جنات أصحاب اليمين دون جنات الخائفين رفعة وعلوّاً :

الوجه الثاني: وهو ما عليه أغلب المفسرين ، وإليه تذهب روايات أهل بيت العصمة (ع) في تأييد هذا المعنىٰ ، حيث ان معنىٰ (دون) وفق هذا الوجه هو أقل واخفض وادنىٰ ، فللمقربين واهل الخوف من مقام الرب جنتان علىٰ ما مر القول في شأنهما ، أما هاتان الجنتان فهما أقل منهمـا شأواً واخفض منهمـا رفعة ، وهما تقول الأخبار قد أعدتا لاصحاب اليمين ، فللمقربون والخـائفون جنات عالية ، ولأهل اليمين جنـات دون جنات اولئـك الأبرار منـزلة ، ويعـود السبب في ذلك الىٰ عدم استواء المذنب مع المتقي ، لأن من أفنىٰ العمر كلّه مخلصاً لله عز وجل طائعاً مكابداً لا يتساوىٰ في الشأن أو العطاء والثواب مع من بدر منه الذنب وصدرت عنه المعصية في حيـاته الـدنيا واشتغـل قلبه حينـاً من الزمان بحب الدنيا ، ولكن مع ضرورة الالتفات الىٰ أن نيل الجنـة بذاتـه مبعثاً علىٰ السعادة والشرف ، ومنزلة اصحاب اليمين منزلة رائعة وحسنة فهم ينعمون في جنتين تنور منهما عينا ماء بالمسك الأذفر ولهم فيها ضروب الفواكه والتمور

---

(٤) المصدر السابق .

والرمان وألوان النعم الأخرىٰ ، ولكن تبقىٰ منزلة المقربين والخائفين أشرف وأسمىٰ من درجة أولئك ، وتبقىٰ جنتاهما اكثر عطاءً وأوفر حظاً ونعماً من جنتي اصحاب اليمين لاختلاف المنازل والدرجات . يقول الامام الصادق (ع) (لا تقولنّ الجنة واحدة ، إن الله يقول ﴿**ومن دونهما جنتان**﴾ ولا تقولنّ درجة واحدة أن الله يقول ﴿**درجات بعضها فوق بعض**﴾ إنّما تفاضل القوم بالأعمال)[٥] بل ان منازل المقربين والخائفين هي الأخرىٰ تشتمل علىٰ درجات متعددة كما أن لأصحاب اليمين منازل ودرجات متعددة تتفاوت في رفعتها وشرفها .

* لا يستقر الجميع في محل قرار واحد:

ونقل صاحب تفسير البرهان حديثاً شريفاً عن الامام الصادق (ع) سنورده لما فيه من فائدة لا تعدم ، فقد تحدث الامام (ع) الىٰ بعض أصحابه قائلاً بما مفاده (يساق الىٰ جهنم عدد من الناس ممن تكتب لهم النجاة فيما بعد فيصار بهم الىٰ الجنة لما لديهم من ايمان بالله عز وجل (لأن الخلود في النار من شأن اولئك الذين لا يؤمنون بالله تعالىٰ بالمرّة) فمر أحد اصحاب الامام (ع) علىٰ الامام وأخبره أن هناك من يتناقل في المجالس ان الامام الصادق (ع) يقول بخروج المذنبين من النار وورودهم الجنة وأن الناس يتعجبون منّا إذا قلنا يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة ، ويقولون لنا: أو يكونون مع اولياء الله في الجنة؟ فقال الامام (ع) يا علي ان الله يقول ﴿**ومن دونهما جنتان**﴾ ما يكونون مع اولياء الله)[٦] . لأن أولئك المذنبون التائبون والمصرّون علىٰ الذنب المعذبون عليه يكونون في الجنتين التاليتين لجنتي المقربين والخائفين من مقام الله عز وجل .

وفي رواية سُئل الامام (ع): هل باستطاعة اهل الجنة ان يتزاورون فيما بينهم؟ فقال الامام (ع): إن باستطاعة صاحب الدرجة العالية أن يزور من هو ادنىٰ منه درجة ، ولا يمكن صاحب الدرجة الدنيا أن يزور صاحب الدرجة

---

(٥) مجمع البيان ـ نقلاً عن تفسير نور الثقلين .

(٦) المصدر السابق (ص ٢٠٠) .

العليا ، لذلك كان بعض اهل الجنة باستطاعتهم زيارة النبي محمد (ص) مرة كل اسبوع ، بينما هناك من يستطيع البقاء معه في مقامه كسلمان المحمدي (رض) .

* منزلة بين منزلتين:

ثم يعود السائل بالسؤال قائلاً: وهل يعد الذين نجوا من النار كفار؟ فيجيبه الامام (ع): لا والله لو ماتوا علىٰ الكفر لما وجدوا لهم سبيلاً الىٰ الجنة ، فيقول السائل: فهل كانوا مؤمنين؟ فيقول الامام (ع): لو كانوا مؤمنين لما سيقوا الىٰ النار (ولعل مراد الامام (ع) انهم لم يمتلكوا درجة الايمان الكامل التي تحصن المرء من ارتكاب الاثم واجتراح السيئة ، وتدفعه الىٰ اداء الفرائض والتزام الواجبات بحيث يستحيل عليه ورود النار ، ولكن اولئك لم يكونوا علىٰ تلك الدرجة من الايمان ، ولكنهم سيقوا الىٰ النار لكثرة ذنوبهم ومعاصيهم) ، فهم لم يكونوا كفاراً ولم يكونوا مؤمنون واقعيون ، وحسب تعبير الامام (ع) (بين ذلك) أي بين منزلة الكفار ومنزلة المؤمنين ، ولذلك شملهم العذاب لفترة معينة ثم نجّاهم الله برحمته وجعل مثواهم في منازل الجنان الدنيا .

* فهلّا فكرنا بمصائرنا؟

أيها الاعزاء ، ان العمر أشرف علىٰ النفاد ، ولا ندري الىٰ مَ ستؤول عواقب أمورنا؟ فهل سنصير مع اصحاب اليمين؟ أم سنكون مع أصحاب الشمال (لا سمح الله)؟ وحينها كيف سيكون بنا الحال ووجوهنا قد اسودت بفعل المعاصي ، فهل يعقل أن نصحب المقربين؟ ألا هل من لبيب يفكر بنفسه ويقدّم لغده ويسأل نفسه: اذا ادركني الموت ، فعلىٰ أية حال سأموت؟ هل اموت وأنا غافل أم ذاكر لله تعالىٰ؟ إلتفتوا ايها الأعزة الىٰ أنفسكم فلا يغرنكم ما أنتم عليه اليوم من إلتزام الطاعات ، ولا تيأسنّ من ماضيكم المنعم بالمعاصي ، انما هي العبرة في الساعة الأخيرة من رحلة العمر في الحياة الدنيا فهي ساعة الحسم والفصل ، واعلموا أن جميع ساعات عمرنا هي ساعة الفصل الأخيرة لأننا لا نعلم ساعة الرحيل ، فلعل كل ساعة من اعمارنا يدركنا الموت فيها

فننتقـل حينهـا الىٰ عــالم البقـاء والخلود ، فــطوبىٰ لمن خلد في رحمـة الله ورضوانه ، اللّهم منّ علينا برحمتك واجعل آخر ساعة في أعمارنا افضل ساعات العمر طاعة وعبودية لك يا أرحم الراحمين .

« ٥٤ »

﴿فيهن خيرات حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * حور مقصورات في الخيام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين علىٰ رفرف خضر وعبقري حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] .

* ربّات الوجوه الصبيحة والأخلاق المليحة في الجنة :

﴿فيهن خيرات حسان﴾ اي في تلك الجنان نسوة صالحات (أو منتخبات) حسناوات . وتعد نساء الجنة (من الحور العين ونساء الدنيا المؤمنات) من نعم الجنة السنيّة ، حيث يشير القرآن الىٰ هذه النعمة في العديد من المواضع فيه . ومعنىٰ كلمة (خيرات) وهي مجمع (خيره) المنتخبات والمنتقيات والمختارات من النسوة من ذوات الأخلاق الفاضلة والملكات الحسنة الذي تحصّل لديهن نتيجة ايمانهن بالله عز وجل وقيامهن بالأعمال الصالحات في الحياة الدنيا ، لذلك جاء الانتقاء والاختيار لهن بفضل ما

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات (٧٠ ـ ٧٧) .

اكتسبن ، ومن جملة ملكاتهن الحسان فـرط عشقهن لازواجهن وغض الطرف عمن سـواهم ، والاستجابـة الىٰ رغبات وشهـوات ازواجهن مع مـا لديهن من جمال مفرط وحسن أخّاذ يفوق ما لدىٰ مثيلاتهن من الحور العين ، يقول الامام الصـادق (ع) (الخيرات الحسـان من نساء أهـل الدنيـا وهن أجمل من الحـور العين)[٢] . ولعل كلمة (خيـرات) مشتقة من مـادة خير ، فيكـون المعنىٰ نسوة صـالحـات ، ويصبـح معنىٰ الآيـة : ـ في تلك الجنـان نسـوة صـالحـات حسناوات ـ .

وكلمة (حسان) مشتقة من الحُسن وهو جمال وملاحة الوجه ، وعليه يكون المعنىٰ ـ أن حسن النسوة الصالحات أو المنتقيات يصل الىٰ كمال الهيئة وجمال الصورة . وقد ذكر النبي (ص) معنىٰ (خيرات حسان) في حديث روتـه عنه أم سلمة (رض) يقول فيه (ص) : «خيرات حسان» أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه)[٣] .

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فبـأي نعمة من نعم ربكمـا [illegible] الجنة والناس تكفران؟ أبنعمة الزوجات الحسان الخيرات لا تؤمنان؟! [illegible] هذه الآية هي إشارة صريحة الىٰ نساء الدنيا ، يقول الراوي سألت أبا عبد الله الصـ[illegible]ـدق (ع) عن قول الله (عز وجل) ﴿فيهن خيرات حسـان﴾ فقال هن صـ[illegible] المؤمنات العارفات[٤] . وهذه الآية تقف بأزاء الآيات السابقة واللاحقة [illegible] عن الحور العين ونسوة الجنان في عالم الآخرة .

* حور مخدّرات في الخيام:

﴿حـور مقصورات في الخيـام﴾ أي ان الحـور العين أودعن في خيـام وحجبن عن نـظر الأجانب إليهن ، وهـذا النص القرآني يعـرب عن بيان رفيـع

---

(٢) تفسير نور الثقلين نقلاً عن كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق .
(٣) تفسير نور الثقلين ، نقله كتاب مجمع البيان .
(٤) نفس المصدر .

حيث يؤكد منتهىٰ العفاف والطهر لحور الجنان ، فهل لا يخرجن من خيامهن كما تذهب هذه الرواية الىٰ تأكيد هذا المعنىٰ (الحور هن البيض المكنونات المخدرّات في خيام الدر والياقوت والمرجان ، لكل خيمة أربعة أبواب ، علىٰ كل باب سبعون كاعباً حجّاباً لهن ويأتيهن في كل يوم كرامة من الله (عز ذكره) وبشر الله عز وجل بهن المؤمنين)[٥] . فالحور العين محتجبات في خيامهن عن نظر الغرباء وليس حالهن كحال بعض نساء الدنيا اللواتي تتعقبهنّ نظرات السوء والريبة لأنهن خرجن عن بيوتهنّ وتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولىٰ . وجاء في تفسير علي بن ابراهيم القمي في معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿**حور مقصورات في الخيام**﴾ أن الحور يقصر الطرف عنهن وروي عن النبي (ص) أنه قال: (الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلاً)[٦] .

* المؤمن غيور مثل ربّه:

﴿**لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان**﴾ أي لم يمسسهن أنس من قبل ولا جان ، فكما أنهن لم ينظر إليهن أحد نظرة حرام فهن لم يمسسهن أحد بيد سوء ، وتشير هذه الآية الكريمة الىٰ حقيقة كون الحور أبكاراً ، ولعل تكرر مجيء هذا المعنىٰ في السورة المباركة هو بمثابة التذكير بهذه النعمة لأن المؤمن غيور ولا يرتضي لنفسه نظر أحد من الخلق الىٰ عرضه ، أو أن تمتد يد سوء اليه ، لأنه يبغي العفاف الدائم لأزواجه ، لذلك اكدّ الباري تعالىٰ علىٰ هذه الحقيقة ، بعد ذلك يعقب الباري عز وجل قائلاً ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ اي فبأي نعمة من نعم الله لا تؤمنان يا معشر الجنة والناس؟ أبنعمة عفاف زوجاتكن اللواتي لم يستطع من أحد أن يسترق منهم حتىٰ النظرة ، فوق أنهن لم يمسسن بيد سوء من أي مخلوق كان؟!!

---

(٥) تفسير نور الثقلين ـ نقلاً عن روضة الكافي .
(٦) تفسير نور الثقلين ـ نقلاً عن جامع الجوامع ومجمع البيان .

* الجنة دار الراحة والهناء ، لا الدنيا:

﴿متكئين علىٰ رفرف خضر وعبقري حسان﴾ و(الرفرف) هو المتكأ في أحد معانيه ، أما (العبقري) فيعني البساط أو كل ما يفترش للجلوس عليه ، وبذلك يكون معنىٰ الآية ـ متكئين علىٰ تكايا خضر وقد افترشوا لهم بُسطاً جميلة ـ فأهل الجنة قد إتكأوا علىٰ رفرف المجد والعزة الاخضر وافترشوا عبقري الفخر والملك الرائع . ومن يراقب حال الانسان في دنياه يجده ورغم جميع محاولاته في تأمين الراحة لنفسه ، لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يعثر علىٰ ما فقده ، لأن دار الدنيا دار محفوفة بالبلايا والشدائد والمكاره ، ففي شرابها يحصل الشَرَق ، وفي طعامها تأتي الغصص ، وسعي المرء مشتت بين تهيئة الطعام واعداد الملابس وايجاد المأوىٰ والتوجّع لأجل تأمين الرزق وتدبير المعيشة ، وعندما يفكر الانسان بالترويح عن بدنه وفكره لساعة واحدة ، يجد أن ساعة الراحة المنشودة هذه كثيراً ما تتبدل عليه الىٰ مرارة وعناء ، فتستحيل حياته الىٰ مجلس عزاء وهم وحزن .

لذلك جعل الله تعالىٰ الجنة مكان الراحة الحقيقية المناسب ، ومحل الهناء التام كما نجد ذلك في إشارات الروايات الشريفة . ولعلنا عرّجنا كثيراً وبعدنا عن صلب موضوعنا ، وعليه فنعود الىٰ تفسير آياتنا موضوع البحث ، يقول بعض المفسرين ان معنىٰ كلمة (رفرف) هو بساط من بسط الجنة وهو غاية في الجمال والروعة ، وقد جاء في أخبار المعراج ان رسول الله (ص) قد جلس علىٰ رفرف ليلة عروجه الىٰ السماء .

* هل يهزّكم الشوق الىٰ الجنّة:

لقد استعرضنا سوية جميع نعم الجنان وآلاء الرحمن الواردة في هذه السورة الكريمة ولم يبق منها سوىٰ آية واحدة ، ونقول الآن ترىٰ بعد احصاء كل تلك النعم العظيمة هل هز الشوق أحدنا الىٰ تلك النعم الجليلة فراح يشغل الفكر في كيفية بلاغها ونيل الوطر منها؟ ولعل الشوق كان لدىٰ البعض منذ

البداية ، فهل تضاعف عندهم الشوق حتىٰ ملك عليهم كل حالهم؟ الا هل من طالب ، الا هل من راغب في نعم الله المعدّة لمن أراد ان ينجح صفقته مع ربه؟ انها والله سهلة المنال لمن هجر الغفلة وودع الكسل وفارق الضجر .

نعم ان الشوق لو غلب علىٰ الانسان لما ضاع عمره الثمين وساعاته النفيسة في هوس بناء عمارات الدنيا الزائلة وشراء الرياض والبساتين المنتقلة الىٰ الورثة ، ولو غلب الشوق علىٰ الانسان في الوصول الىٰ مناه في الحور العين الحسناوات الفاتنات اللواتي وصفهن الباري تعالىٰ في كتابه الحكيم لما تعرّض الىٰ حرمات الناس بنظرات الحرام ولما عكف علىٰ معاكسة النسوة الأجنبيات ، لأن شوقه الىٰ الحور قد أخذ بمجامع فؤاده وساقه الىٰ طلب النعم الدائمة الرائعة ، وحينئذ يهجر الذنوب ويصلح حاله ليكون طالباً حقيقياً للجنان وآلائها ، فيدخل حينئذ الىٰ دار السلام التي لا يردها الاّ الأصحاء المعافون **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾**(٧) ، واما من اختار لنفسه المرض علىٰ السلامة فحينئذ سيكون مصيره المؤكد الىٰ مستشفىٰ الآخرة في جهنم ليتلقىٰ العلاج المناسب لأمراضه فان صلح حاله فبها وحينئذ سيدخل مدخل أصحاب السلامة في دار السلام ، وان لم يصلح وبقيت امراضه غير قابلة للعلاج فحينئذ عليه البقاء الدائم في مستشفىٰ جهنم ليؤمّن الأصحاء سلامتهم من داءه الوبيل خوف العدوىٰ . اما اهل الجنة فهم من الأصحاء واصحاب السلامة والعافية وقد تحرروا من ربقة الأمراض العضال من حقد وحسد وحب للدنيا وغيرها كما يقول المولىٰ عز وجل في كتابه الكريم **﴿ونزعنا ما في قلوبهم من غل اخواناً﴾**(٨) .

---

(٧) سورة الانعام ، الآية (١٢٧) .
(٨) سورة الحجر ، الآية (٤٧) .

« ٥٥ »

﴿تبارك إسم ربك ذي الجلال والاكرام﴾[١]

* شرف الاسم من شرف المسمىٰ:

(تبارك) من باب تفاعل ، وتعني تعاظم وتنزّه ، ومعنىٰ ﴿تبارك اسم ربك﴾ هو ـ عظمت البركة في اسم ربك العظيم ـ أو ـ حلّت البركة في اسم ربك ذي العظمة والأنعام وكلمة (اسم) منبثقة عن المسمّىٰ ، وهو صاحب الاسم الذي منه يكتسب الاسم شرفه ، وكلمة (ربّك) تعني رب العالمين (تعالىٰ) صاحب العظمة والجلال والانعام والاكرام . إذ أن (العظيم) احد أسماء الله (عز وجل) ، وقد اكتسب هذا الاسم الشرف من عظمة رب العالمين لأن الله تعالىٰ مبارِك ومبارك ، واسم (المبارك) هو من اسماء الله تعالىٰ ، وعلىٰ اساس ذلك يكون معنىٰ ﴿تبارك اسم ربك﴾ هو تعاظم إسم ربك ومليء بالبركة . وعليه كان لزاماً على المؤمنين ألّا يدعو ذكر إسم الله (عز وجل) على أية حال ، وفي كل حركة وسكنة عند الطعام والشراب ، وعند ارتداء الملابس ، وعند الدخول أو الخروج من الدار ، وعند المواقعة والجماع ، بل وحتىٰ عند الذهاب الىٰ بيت الخلاء لقضاء الحاجة ، لأن البركة الالهية تكمن في إسمه تعالىٰ .

---

(١) سورة الرحمن ، الآية(٧٨) .

* بسم الله الحقيقي يتحصّل في معرفة التوحيد:

البركات الالهية كثيرة بالطبع ، ولا تحدها حدود تحصرها ، ويبقىٰ مقدار الاستفادة ونيل تلك البركات منوط باستعدادات الافراد ولياقاتهم الذاتية ، وعليه تتحقق استفادة المرء من (اسم الله) مثلاً بذلك المقدار الذي يحويه من الايمان ومعرفة الله (عز وجل) وبواسطة مبلغ همته ودرجة معرفته . ولـو ارتقىٰ الانسان الىٰ مقام المعرفة بحيث يصل الىٰ حقيقة العبوديـة فسيدرك حينئـذ حقيقة بسم الله ، وسيحصل علىٰ بركات لا حصر لها ولا حدود بحيث تحيـر فيها الألبـاب وتعجز عن ادراكها العقول . ولو إستيقن المرء قول «لا حول ولا قوة الاّ بـالله» وهو يفهم ان معنىٰ ذلك هو (ما من قدرة مؤثرة ولا قوة فاعلة في هذا العالم سوىٰ قدرة الله تعالىٰ وقوته) إذّاك يستطيع ان يقول بسم الله بحقيقتها ، وحقيقة (بسم الله) هي أن يستنتج المرء منها أن لا عون الاّ من عند الله ولا بركـة الاّ باسمـه الكريم ، ويبقىٰ قول (بسم الله) مجرد ألفاظ صماء جامدة عندما يرىٰ المرء في نفسه أو الآخرين ان الفعل والمشيئة والارادة منه أو منهم .

ولتقريب الموضوع الىٰ الاذهان نقول ، ان المرء لـو خرج من داره وهـو يعلم ان ما من خطوة خطوها وما من قدم ينقلها الاّ ولارادة الله تعالىٰ فيها شأن ، ومـا من قول يلفـظه الاّ ولله فيه ارادة وحكمـة فحينئذ سيـدرك (بسم الله) علىٰ حقيقتها ، ولو أفترضنا ان المرء نسي ذكر الله (لا سمح الله) أو إنعقد لسانه وهو يدرك في قرارة ذاته ان لا حول له ولا للآخـرين في أي شأن الاّ بـالله تعالىٰ ، فسينسـاب اسم الله عز وجـل الواقعي علىٰ لسـانه ويجـري من فيه بكـل يسـر وسهولة ، مع تأكيدنا علىٰ ان الخصائص والأسرار الكامنة في (بسم الله) ترتبط إرتباطاً وثيقاً بدرجة معرفـة الانسان النـاطق بذلـك القول وبسلوكـه العملي لما يعتقده .

* الله هو الحق وما دونه الباطل:

واذا ما تدرّج الانسان وتقدّم في منازل المعرفة والتوحيد فعندهـا سيصل الىٰ مرحلة التصديق واليقين ويقطع بأن الله هو الحق المطلق وما سواه (تعالىٰ)

باطل زائل .

يقول الساعر الجاهلي لبيد بن ربيعةِ العامري : ـ

ألا كـل شيء مـا خـلا الله بـاطـل وكـل نـعـيـم لا مـحـالـة زائـل

وطبقاً لرواية منقولة عن رسول الله (ص) انه قال في شعر لبيد هذا ، (إنه أفضل ما قيل من الشعر قبل الاسلام) ، ويقول المولىٰ عز وجل في كتابه المجيد ﴿ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾[٢] .

فالله تعالىٰ هو القوي وما سواه ضعفاء ، والله هو الغني وما خلاه فقراء ، وستتجلّىٰ هذه الحقيقة بعد الموت لأهل الحسن والظاهر الذين لا يؤمنون الاّ بما تدركه حواسهم الخمس .

ولتفكيه كلامنا ، والاشارة الىٰ البركات التي حصلت لمن تبرّك بأسماء الله تعالىٰ نسرد لكم هذه الحكاية عن بعض الأخيار : ـ

* إبطال آثار السم بقول بسم الله:

نقـل صاحب كتـاب الكبريت الأحمـر وآخرون ، أن رجـلاً صالحـاً من المؤمنين عرف حقيقة بسم الله ، فكـان لا يفعل أي شيء دون أن يسبق ذلـك بقول (بسم الله) ، وكان لهذا الرجل زوجة شابة كانت قد عمدت في أحد الأيام الىٰ دس السم لزوجها في طعامه ، فجاء الرجل الصالح ليتناول طعامه وهـو لا يدري بقضية السم ، فذكر اسم الله علىٰ طعامه ثم شرع بتناول الطعام حتىٰ فرغ منـه فلم يلحقه أي ضـرر من السم ، وبعـد فتـرة من الـزمـان شـاع أمـر السم المدسوس في الطعام عند أهل البلدة فسمع الرجل الصالح بذلك ، ولما عـاد الىٰ منزله سأل زوجته عن سبب دسها السم له في الطعام؟ فردّت عليه قـائلة : أريد منك تجيبني كيف لم يفعل السم أثره فيك وانا اعلمك بسبب دسي السم في طعامك؟ قال لها الرجل الصالح : لعلني حينمـا سبقت الأكل بـذكر الله لم

---

(٢) سورة الحج ، الآية (٦٢) .

يفعل السم أثره ببركة (إسم الله) عز وجل ، فردت عليه الزوجة بالقول: لقد فعلت ذلك وأنا اريد الخلاص منك لانك شيخ فانٍ وأنا لا زلت شابة في مقتبل العمر وأبغي لنفسي رجلاً شاباً يشاركني الحياة الزوجية!

* سد الرمق من الجوع باسم الله:

وذكر صاحب كتاب الكبريت الأحمر قصة أخرىٰ مفادها: ان رجلاً مؤمناً فقير الحال كان يقيم في مدينة مكة المكرمة ، وكان هذا الرجل لا يجد في يومه كفاف نفسه ، مع أنه كان يصوم الدهر ، وكثيراً ما كان رفقاؤه يشاهدونه عند موعد الافطار يخرج رقعة مكتوبة من جيبه فيحملق فيها ثم يدسها في جيبه دون أن يتناول شيئاً من الزاد أو الشراب ، وحينما حل به الأجل ونزل به الموت فتشوا جيوبه فاذا بهم يعثروا علىٰ الرقعة ، فنظروا فيها فلم يجدوا شيئاً سوىٰ آية ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ فعلموا حينئذ أنه كان يرفع حاجته من الطعام ويسد رمقه ببركة هذه الآية الكريمة المتضمنة لأسماء الله الحسنىٰ . وهذا أمر صحيح ويجب علينا أن لا نبادر الىٰ إنكاره ، لأن الانكار كما قلنا دليل ضحالة الفكر وقلة العقل ، ويعود منشأ ضحالة الفكر الىٰ غلبة الأسباب المادية علىٰ عقل الانسان نتيجة صمم الأذنين وعمىٰ العينين وأسر النفس الانسانية بجدران الحواس الخمس ، وحينئذ يتعذّر علىٰ الانسان أن يحلق في عالم الأسباب المعنوية الفسيح .

* السير علىٰ وجه الماء ببسم الله:

وحول كرامات السيد الشريف المرتضىٰ الملّقب بعلم الهدىٰ (هذا اللقب وهبه إياه جده الامام موسىٰ بن جعفر (ع) ، وقد ناله عن جدارة واستحقاق) نقل أن كان للسيد علم الهدىٰ مجالس درس وبحث في مدينة الكاظمية نهاراً يقصدها جمع من الناس من اطراف المدينة طلباً للفائدة ، وكان من جملة تلاميذه شخص يسكن في بغداد ويحرص علىٰ حضور الدرس بعبور نهر دجلة يومياً بعد أن يتم نصب الجسر في وقت متأخر من كل صباح فيصل بشكل مستمر الىٰ درس سماحة السيد علم الهدىٰ متأخراً ، فشكىٰ للسيد حاله وكيف أن

الدرس يمضي جلّه فتعدم الفائدة منه وهو حـريص علىٰ كسب العلم ، فأشفق عليه السيد وتناول رقعة فكتب بها شيئاً ثم طواها وسلمها له وأوصاه أن يبكّر في الغد الىٰ الدرس ويدع الجسر ويضع قدميه علىٰ الماء ويمشي فيعبر نهر دجلة .

فعمل الرجل وفق توصية السيد علم الهدىٰ وامتثالاً لأمره فعبر الماء مشياً علىٰ الاقـدام فوجـد ان قدميـه لا تبتلان بـالماء ، واستمـر به الحـال علىٰ هذا المنـوال عدة أيـام . وفي أحد الأيـام حدثتـه نفسه أن يتعـرف علىٰ هذا الأمـر العجيب المكتوب في الرقعة ، ففتح الرقعة فلم يجد فيها سوىٰ قوله تعالىٰ **بسم الله الرحمن الرحيم﴾** ، وهنـا برز جهله وضحـالة عقله فقـال (عجباً انهـا ذات الـ بسم الله الرحمن الرحيم التي نقرؤها كل يوم) ثم طواها وعاود الحال قاصداً اجتياز النهر فما أن وضع قـدمه حتىٰ غـاصت في الماء واوشـك على الغرق ، فتنحىٰ عن الماء وقصد الجسر وانتظر هناك حتى إنعقد الجسر فعبر الىٰ الجانب الثاني ، ولما وصل حلقة الدرس متأخراً سأله السيد عن سبب التأخير؟ فذكر له الأمر بما جرىٰ ، فقال له السيد عندئذ لقد ضاع أثر الآية الكريمة لأنك أقللت من أهميتها في نفسك! إذاً ما حصل إنّما هو لعدم توفر اللياقة المناسبة ، وعليه ينبغي علينا ان نعلم ان كل نقص أو قلة انما تحصل لنا نتيجة ضعف إيماننا وقلة معرفتنا بالله تعالىٰ . إذاً معنىٰ **﴿تبارك اسم ربك﴾** هو عَظُمتْ بركة اسم ربّك .

* آل محمد «صلوات الله عليهم أجمعين» هم جلال الله وكرامته :

وجاء في حديث شريف روي عن الامام الباقر (ع) في معنىٰ قوله تعالىٰ **﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام﴾** أنه قال : (نحن جلال الله وكرامته ، وهم أسمـاء الله الحسنىٰ كمـا ورد ذلـك عنـهم (ع) (نـحن والله الاسمـاء الحسنىٰ) ، فالاسماء اللفظية لله تعالىٰ نحو (الغفار ، الرحيم وغيرها) هي أسماء تناسب جميع مراتب الوجود إما الاسم التكويني لله تعالىٰ فهو يظهر في كل مرتبة من مراتب الوجود وبما يناسبها ، ومعنى الاسم التكويني هو (الاسم الذي يدل ويشهـد علىٰ المكوِّن والمنشِـأ والموجِـد) فلو نظر إمـرؤ مـا الىٰ المـوجـودات والكائنات من خلال اسم الهي ما أو آية الهية ما لوجد أن جميع اجـزاء العالم

(عالم الوجود) تدخل في هذا الاسم وتحمل عنوانه ، يقول الامام علي (ع) (وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء)[٣] ، وتدخل اسماء الانوار الأربعة عشر الطاهرة في جملة الأسماء التكوينية لله عز وجل وهي من الأسماء الحسنىٰ لله تعالىٰ كما يتأكد ذلك في مقولة الامام الرضا (ع) (نحن والله الأسماء الحسنىٰ) ، ويشترك العقل مع النقل في تأكيد هذه الحقيقة الناصعة كما سنتناول هذا الأمر بالشرح والتعليق لاحقاً . اذاً إن للجلال والاكرام مظاهر متعددة وتظهر في كل مرتبة ومنزلة من مراتب ومنازل الوجود ، وأتم وأكمل تلك المراتب هو ما طهر في العترة الطاهرة من ذرية النبي محمد (ص) .

---

(٣) دعاء كميل / كتاب مفاتيح الجنان للقمي .

« ٥٦ »

﴿تبارك إسم ربك ذي الجلال والاكرام﴾[١] .

* علي (ع) إسم الله الأعظم وآيته الكبرىٰ:

قلنا فيما سبق ان اهل البيت (ع) هم أسماء الله الحسنىٰ . ولتوضيح هذا الأمر ومعرفة معنىٰ الأسماء نعمد الىٰ إستبيان هذا الحديث الشريف المروي عن مولىٰ المتقين وإمام الموحّدين الامـام علي (ع) يقول الامـام (ع) (أنا إسم الله الأعظم ، وما من إسم لله هو أعظم مني) وفي حديث آخر يقول الامام (ع) (أنا آية الله الكبرىٰ وما من آية لله هي اكبر مني)[٢] ، إذاً علي بن ابي طالب (ع) هو اسم الله الاعظم وآيته الكبرىٰ . وفي حديث آخر مروي عن الامام الرضا (ع) في تعليقه علىٰ قوله تعالىٰ ﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فأدعوه بها﴾[٣]نقـل صاحب تفسير الصافي عن تفسير العيّاشي انه قال: (إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنـا) وهو قول الله ﴿ولله الاسماء الحسنىٰ فأدعـوه بها﴾ قـال: قال ابـو عبد الله (ع) (نحن والله الاسماء الحسنىٰ الذي لا يقبل من أحد الا بمعرفتنا ، قـال فادعـوه

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية (٧٨).

(٢) ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ سورة النجم، الآية (١٨).

(٣) سورة الأعراف، الآي (١٨٠).

بها)(٤) ، لذلك كان الدعاء بأسماء الله الحسنىٰ باعثاً علىٰ قضاء الحوائج ونيل رفيع الدرجات ، والآن فلنتبين كيف أن اهل البيت (ع) هم أسماء الله الحسنىٰ؟

* أسماؤنا تدلّ علىٰ المسمّيات:

كلمة (اسم) مشتقة بالأصل من (السمة) وهي العلامة ، رغم أن البعض إعتبروا إشتقاق كلمة (اسم) من مادة (سمو) ، ولكن ما يطابق ما جاءت به الروايات وبالذات الرواية المنقولة عن الامام الرضا (ع) ان الاشتقاق جاء عن مادة (سمة) حيث قال الامام (ع) (ما أن يلفظ اسمنا حتىٰ يتبادر الىٰ الذهن صاحب الاسم ، فاللفظ الحسن لنا يدلّ علىٰ المسمّىٰ وهو صاحب الاسم ما فاللفظ دال وصاحب الاسم مسمّىٰ ومدلول عليه) . وفي بعض الأحوال يكون الدال هو الدليل علىٰ اللفظ كما في هذه الالفاظ الحسنىٰ التي تدل علىٰ صاحب الاسم ولكن يبقىٰ للاسم معنىً كليّاً ، وحينئذ لا يكون دالاً علىٰ اللفظ بل يكون مجرد خط وكتابة ، فهذا اللفظ الحسن لو صوّر علىٰ هيئة تصوير مثلاً فيكون المصور أو المخطوط الذين يشاهده المشاهد يدلّ علىٰ صاحب الاسم المكتوب أو الصورة المصورة . واستناداً الىٰ ذلك ، يجب أن لا يلتفت الىٰ الاسم اللفظي لوحده حينما تقال كلمة (اسم) لأن للاسم معنىً أوسع من مجرد الألفاظ .

* الأسماء اللفظية ، والخطيّة ، والذهنيّة ، والمسمىٰ الخارجي:

ولو أفترضنا أن شخصاً ما أهان اسم شخص آخر لفظياً لبدت علامات التأثر والانزعاج علىٰ وجه صاحب الاسم المهان ، ولو مزّق صورته أو اسمه المكتوب بقصد الاهانة ، لتأثر أيضاً ، لأن لفظ الاسم وأثره في الخطوط أو الصور منسوبات الىٰ صاحب الاسم .

وقد يحصل أن يتخيل أحدنا صورة شخص ما في مخيلّته ، وذهنه ، وهذه الصورة المرسومة في الذهن والمخيلّة هي في الواقع اسم لصاحب الصورة أيضاً . ويبقىٰ الاسم اللفظي محدوداً بحدود الألفاظ ، والاسم المكتوب أو

---

(٤) تفسير الصافي ، ص١٧٥ .

المصور محدوداً بحدود عالم الخطوط والرسوم والصور الفتوغرافية ، ويبقىٰ الاسم المرسوم في الذهن والمخيلّة محدوداً بعالم الذهن .

وتبقىٰ الحقيقة في المسمىٰ والوجود الخارجي لصاحب الاسم ، أي ما يجسده هذا الاسم من وجود حي خارجي ، أما الألفاظ والخطوط والصور الفتوغرافية والذهنية فلا تمثّل إلّا محل الاسم وملامحه .

* الشهادة لله بالوحدانية:

لذلك كانت كل مرتبة من مراتب الوجود الناطقة بلسان الحال الفصيح دليل وبرهان علىٰ الخالق والصانع (تبارك وتعالىٰ) ، فيصرح كل متحرك قائلاً بلسان التكوين (ان لي محركاً وصنعاً عالم قادر .

كل نبت انبتته الأرض يصيح (وحده لا شريك له) بقول مليح

ويقول الشاعر الايراني سعدي الشيرازي أيضاً ما معناه:

أوراق الأشجار الخضر في نظر اللبيب

كتاب دليل في كل ورقة علىٰ معرفة الصانع

نعم ، ان كل ورقة من اوراق الاشجار هي اسم من اسماء الله تعالىٰ فيما لو لم ينظر المرء الىٰ الاسماء نظرة استقلالية ، بل بنظرة ان وجود الاسم هو للشيئية ، يقول الامام أمير المؤمنين (ع) (ما رأيت شيئاً الاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه)(٥) .

واني لأعشق العالم كله لأن كل العال ذا منه

فكل شعرة في البدن ، وكل عرق وكل عظم هو اسم من اسماء الله تعالىٰ ، وجميعها تشير الىٰ أن خالق تلك الاشياء هو عالم وقادر ، بل وكل كلمة تصور عن فم إنما هي دليل علىٰ الناطق نفسه ، فالموحّد يرىٰ المسمّىٰ ويعبده ، ولو لم ير المرء المسمّىٰ وعبد الاسم وحده فهو كافر بالله تعالىٰ ، يقول الامام

---

(٥) نهج البلاغة .

الصادق (ع) (من عبد الله بالتوهم فقد كفر ، ومن عبد الاسم والمعنىٰ فقد أشرك ، ومن عبد المعنىٰ بايقاع الاسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته فأولئك هم المؤمنون حقاً)(٦) .

* عشقت العالم كلّه ، لأن العالم كلّه منه:

ولما كان الكون بأسره هو اسماء الله تعالىٰ ، لذلك يتعلق الاشخاص الذين تنورت قلوبهم بنور العلم والمعرفة بحب اشياء ذلك العالم ، فالنبي (ص) كان كلمّا قدمت له فاكهة في أول أوانها يقبلها ثم يضعها علىٰ عينه ، ونتسائل ، لماذا يقبل الرسول (ص) العنب؟ أهناك عناق وتقبيل خاص بالأعناب؟! والجواب نعم ، فالشخص الذي لا يرىٰ في العنب الاّ العنب ينبغي عليه ألاّ يقبله ، أما من يرىٰ في العنب صانع العنب فهو يرىٰ فيه اسم الله لذلك تراه يكرمه ويقبله ، وله الحق في ذلك أيضاً ، لأن صنع الله عز وجل محبوب ، هذا المصنوع (كشجرة العنب) التي ينشئها الله تعالىٰ بين الصخور والتراب والحصىٰ خشبة يابسة فتخضر وتورق وتحمل عناقيد حامضة الطعم لا تلبث حتىٰ يجعل الله عز وجل مذاقها عذب طيب فتأمّلوا كم هو لطيف خلق الله عز وجل؟ حتى أننا نأكل العنب دون أن نضطر الىٰ نزع قشوره .

* آل محمد (ص) مرآة يتجلّىٰ فيها الله عز وجل:

وأما معنىٰ (الحسنىٰ) وهي علىٰ وزن (فعلىٰ) وهي مؤنث الأحسن فتعني الأفضل والأجود . ولقد قلنا ان جميع اجزاء الكون ومركبات عالم الوجود هي اسماء لله تعالىٰ ، وجميعها تشهد لله عز وجل بالعلم والقدرة والحكمة ، ولكن الانوار الاربعة عشر (ع) اهل بيت العصمة والطهارة هم افضل تلك الاسماء وأحسنها وأجودها .

ولتوضيح القصد نسوق المثال الآتي : كلنا يعلم ان المرايا لها عدة

---

(٦) تفسير الصافي ، (ص ٢٦) .

أشكال ، فبعض المرايا محدبة تنحل وتنحف وتطيل صور الاشياء ، والبعض الآخر مقعرة تقمأ وتبدن صور الأشياء وبعضها مستوية تظهر صور الاشياء وفقاً لمظهرها الخارجي المألوف ، واحجام المرايا المستوية تظهر من صور الأشياء بمقدار حجومها ، فبعض المرايا لا تظهر الاّ صورة الوجه لصغر حجمها ، وبعضها يظهر صورة البدن كاملة لكبر حجمها فلا تخفي شيئاً منه . والموجودات في واقعها تشابه المرايا في فعلها فهي تظهر صور الله عز وجل بمقدار يتناسب وسعة وجود الموجود ، والواقع أن جميع الموجودات لا تظهر إلاّ جانباً معيناً من التجلّي الالهي بحيث لا يصدق القول علىٰ تلك الموجودات أنها استطاعت أو تستطيع أن تكون دليلاً كاملاً علىٰ تجلي الله (جل جلاله) ، بأستثناء المعصومين الاربعة عشر (ع) فهم المرآة الكاملة التي اظهرت صفات الله عز وجل بصورتها التامة ، بينما باقي الموجودات لم تظهر الاّ صفة واحدة أو صفتين من صفات الله تبارك وتعالىٰ . وتأسيساً علىٰ ما سبق فان أهل البيت (ع) هم الذين عكسوا كافة أسماء وصفات الله عز وجل لذلك كانت جميع الموجودات ناقصة من حيث الجهة الاسمية في مقابل آل محمد (عليهم الصلاة والسلام) .

* علي (ع) الاسم الاعظم ، والاسم الالهي الجامع :

اذاً الوجود المقدس الذي ظهرت فيه جميع الاسماء الالهية ، بل وحتىٰ جمال الله تعالىٰ وسخطه هو علي (ع) كما نقرأ في الزيارة السادسة لأمير المؤمنين (ع) (السلام علىٰ نعمة الله علىٰ الأبرار ، ونقمته علىٰ الفجار) .

﴿**تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام**﴾ اي تبارك وعظم اسم ربك (ويعني بذلك محمداً (ص) وعلياً وفاطمة والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين (ع)) . فكل امريء من اهل النجاة تقوده يد علي (ع) ، وكل امريء من اهل النار يتبعه سخط علي (ع) .

ومن المسلّم به عند المسلمين كافة (سنة وشيعة) أن علياً (ع) يقف عند جسر جهنم فيبعث اهل النار الىٰ النار ، وأهل الجنة الىٰ الجنة ، لأنه قسيم النار

والجنة كما في النص الآتي (السلام علىٰ قسيم الجنة والنار)[7] ، فهو عين الله ويده واذنه كما في النص التالي (السلام علىٰ عين الله الناظرة ، ويده الباسطة ، واذنه الواعية)[8] .

(٧ -٨) الزيارة السادسة للإمام أمير المؤمنين (ع) /كتاب مفاتيح الجنان.

« ٥٧ »

﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام﴾[1] .

* أسماء الله هي ما أقرّه الشارع المقدس:

قلنا إن الأسماء اللفظية هي الأسماء التي تدلـل علىٰ أصحابهـا ، والتي وضعت من قبل واضعين لها بحيث صارت تلك الأسماء علامة وسمة للمسمّىٰ بها ، واسماء الله تعالىٰ فيها اللفظي وفيها التكويني ، أما اللفظي منها وكما في هذه الأسماء المباركة (الله ، الـرحمن ، الكريم) تـدلل علىٰ وجـود وضع لهـا وثبات ، لذلك كان إطلاق الأسماء علىٰ رب العالمين موقوف علىٰ تلك الاسماء التي أجازها الشارع المقدس فلا يمكن لأحدٍ أن ينتخب إسماً لله تعالىٰ من عنده فيسميه به كأن يسمي الله (الجوهر) أو (العاشق) ، فهذا الأمر لا جواز فيه إطلاقاً لثبوت عدم تسمية الشارع المقدس لهذه الأسماء ، أما الاسماء (الشريف) . . (الحبيب) أو (المحب) فيمكن اطـلاقها علىٰ الله عـز وجـل لـورود مثـل هـذه الاسماء عن الشارع المقدس (جل جلاله) .

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٧٨).

* الدليل العقلي أقوىٰ من الدليل اللفظي:

فدليل الموجودات «أي الأسماء التكوينية» علىٰ الله عز وجل هو دليل عقلي ، وهو عند العقلاء أقوىٰ بمراتب كثيرة من الدليل اللفظي ، لذلك كان أهل البيت (ع) (وهم أسماء تكوينية لله تعالىٰ) أسمىٰ وأشرف من الاسماء اللفظية . وبالتأكيد ان كافة الموجودت هي اسماء الله تعالىٰ ولكن الأنبياء والأولياء (ع) من حيث الأسمية لهم الغلبة والترجيح علىٰ سائر الموجودات لانهم (ع) من أبينا آدم (ع) وحتىٰ سيدنا المسيح (ع) هم اسماء وجودية لله عز وجل ، وكل منهم في حقيقته يمثل تجليّاً لصفة ، واحدة أو اكثر من صفات الله تبارك وتعالىٰ .

اما سيدنا محمد (ص) وآله الطاهرين (ع) فهم أسماء الله الحسنىٰ ، وهم الذين تجلّت بهم صفات الله عز وجل بشكل كبير ، وما الموجودات بأسرها الاّ كلمات الله ، ويبقىٰ محمد (ص) وأهل بيته (ع) هم الكلمات التامّات .

* الحسن الذاتي والحسن الوصفي:

لقد تطرقنا سابقاً الىٰ موضوع المرايا ، وسنتكلم الآن عن المرايا من جانب غير الجانب الذي تناولناه بالحديث سابقاً . والموضوع الذي سنطرقه هو موضوع الظهور التام ، الناقص للشيء ، وجانب نوعية وكيفية المرآة من حيث القيمة ، فكما هو معروف أن بعض المرايا مصنوعة من مادة البلور الثمينة وهي تشتمل علىٰ حسنيين ، الحسن الذاتي والحسن الوصفي (حسن الأظهار) ، بينما هناك مرايا تشتمل علىٰ حسن واحد .

فأهل البيت (ع) لديهم الحسن الذاتي ولديهم أيضاً الحسن الوصفي ، فهم قد نهلوا من مبدأ الوجود بشكل كاف واستطاعوا أن يظهروا مبدأ الوجود بصورة حسنة ، فكان نور محمد (ص) هو اول المخلوقات التي ظهرت وتجلت وتلألأت ، فكانت منه انوار العرش وغيرها ، وعن نور الحسين (ع) وهو نور الأنوار إنبثقت الجنة (وهي نور في حقيقتها) .

فأهل البيت (ع) مظهر ودليل لجميع اسماء وصفات الله عز وجل ، حتىٰ أن أسماءهم الشريفة هي في حقيقتها منبثقة عن اسم الله تعالىٰ كما يتأكد ذلك في هذا الحديث المبارك .

* أسماء أهل البيت (ع) مشتقة من أسماء الله تعالىٰ:

فقد نقل صاحب تفسير الصافي عن الامام السجاد (ع) ، عن آبائه (ع) عن رسول الله (ص) أنه قال (يا عباد الله ، إن آدم لما رأىٰ النور ساطعاً من صلبه اذ كان الله قدّر نقل أشباحنا من ذروة العرش الىٰ ظهره رأىٰ النور ولم يتبين الاشباح ، فقال ي رب ما هذه الأنوار؟ فقال عز وجل اشباح نقلتهم من اشرف بقاع عرشي الىٰ ظهرك ، ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت دعاء لتلك الاشباح ، فقال آدم يا رب لو بينتها لي ، فقال الله عز وجل: أنظر يا آدم الىٰ ذروة العرش ، فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم علىٰ ذروة العرش فأنطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره كما ينطبع وجه الانسان في المرآة الصافية فرأىٰ أشباحنا ، فقال ما هذه الاشباح يا رب ، قال الله : يا آدم هذه اشباح افضل خلائقي وبرّياتي ، هذا محمد وأنا الحميد المحمود في فعالي اشتققت له إسماً من إسمي ، وهذا علي وأنا العلي العظيم شققت له اسماً من اسمي ، وهذه فاطمة وانا فاطر السماوات والأرض ، فاطم اعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي ، وفاطم اوليائي عما يعّيرهم ويشينهم فشققت لها اسماً من اسمي ، وهذا الحسن وهذا الحسين وانا المحسن المجمل شققت اسمهما من اسمي ، هؤلاء خيار خليقتي وكرام بريّتي ، بهم آخذ وبهم اعطي وبهم اعاقب وبهم أثيب ، فتوسّل بهم الي يا آدم ، وإذا دهتك داهية فأجعلهم اليّ شفعائك فاني آليت علىٰ نفسي قسماً حقاً الاّ أخيّب بهم أملاً ولا أرد بهم سائلاً ، فلذلك حين زلّت منه الخطيئة دعا الله عز وجل بهم فتبت عليه وغفرت له[٢] .

---

(٢) تفسير الصافي (ص ٢٧) .

* الأسماء التي يسميها الله تعالىٰ تشتمل علىٰ المعاني:

وتختلف تسمية الله تعالىٰ للأشياء عن تسميتنا نحن لها ، ونعني بذلك التسمية ذات المعنىٰ ، اذ ان الانسان انما يسمّي لاجل ان يضع السمة والعلامة علىٰ المولود الجديد مثلاً لأجل أن يمّيزه فعندما يسمي المرء وليده باسم زين العابدين فهو لم يراع مسألة العبادة . وانه ينتظر من وليده ان يكون بالفعل زيناً للعابدين ، أو أن يسمي المرء إبنته الدميمة قمراً ، أو أن يسمي ابنه قبيح الوجه حسناً ، فهو في هذه التسمية لا يراعي موضوع المعنىٰ في التسمية لذلك نرىٰ شهرة تسمية الطفل الاعمىٰ (في إيران) باسم نور علي . ولكن تسمية الباري تعالىٰ تشتمل علىٰ المعنىٰ المطابق للسمة ، فهو عز وجل عندما يقول اشتققت له اسماً من اسمي فانما قد اشتق له اسماً يحمل في طياته صفة من صفات الله عز وجل يجلّيها صاحب الاسم الموسوم بالاسم الالهي .

اذاً التسمية الالهية لا تقتصر علىٰ اللفظ لوحده ، فهو عندما سمىٰ حبيبه ونبيه محمداً (ص) فانما قد اختار له هذا الاسم واشتقه له من أفعاله الحميدة لأنه تعالىٰ هو الحميد المحمود في فعاله ، لذلك اراد ان يظهر افعاله الحميدة جلية فخلق حبيبه (ص) وأسماه محمداً (ع) لكي يعرف الخلق علىٰ صفة الله هذه .

* محمد (ص) الأسوة في جميع خصاله وفعاله:

ومما لا شك فيه أن محمداً (ص) كان يحمل في بدنه الانساني جميع الصفات والافعال والأقوال الحسنة الحميدة سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها ، بحيث ان الجميع اتفق علىٰ ذلك ، المحب منهم أو الكاره ، والعدو منهم أو الصديق ، فهو العفو الحليم الرحيم الرؤوف ، وكما قيل فيه (ص) (حسنت جميع خصاله) دون شك .

وعلي (ع) قد أشتق الله عز وجل له اسمه من اسمائه تعالىٰ أيضاً ، فالله هو العلي العظيم ، فعلي هو العالي السامي في علو شأنه فتجلت عظمة الله

وعلو شأنه في علي (ع) ولذلك فمن يريد ان ينظر الىٰ علو الله وعظمتـه فلينظر الىٰ علي (ع) ، ويكفي من رفيع مقام علي (ع) وعلو شأنه أنه لم يعرف منزلته هـذه الّا الله تعالىٰ ونبيـه محمد (ص) بحيث ان بعض الأفـراد ممن يفتقـرون للاستعدادات اللازمة في ادراك مقام علي (ع) قالوا بألوهيته (نستغفر الله) .

* الشفاعة الكبرىٰ للزهراء (س) في محشر القيامة:

وعن فـاطمة الـزهراء (س) قـال الباري تعـالىٰ ، اشتققت لها اسمـاً من اسمائي فانا فاطر السماوات والأرض وهي فاطمة ، وتعني كلمة (فاطـر) فاصم الشي وفاصله عن بعضه البعض ، وهو ذات معنىٰ (فاطمة) الذي يعني كـذلك الفصل والفصم .

فقـد فطر الله عـز وجل السمـاوات والأرض من عـالم العـدم الىٰ عـالم الوجود ، ومن ظلمات(الماكان) الىٰ نور الكينونة ، وتجيء فـاطمة (التي اشتق الله تعـالىٰ اسمها من اسمـه) يوم القيـامة فتعـظم محبّيها من ظلمـات المحشر بشفاعتها وتترك المحشر الحالك يضج بأعدائها لـوحدهم. . ويـرویٰ ان تجمع الخلائق في عرصة القيامة يكون علىٰ هيئة طوائف ثلاث ، قد إمتازت كل طائفة عن غيرها بما كتب علىٰ جباه أهلها ، فطائفـة تحمل عنـوان (هذا مؤمن) علىٰ الجباه ، وأخرىٰ تحمل عنوان (هذا كافر) ، والثالثة تحمل عنوان (هذا محب) وهذه الطائفة الأخيرة هم محبّـوا أهل البيت (ع) الـذين يكونـون آنذاك بـأمسّ الحاجة الىٰ الشفـاعة ، فتـأتي الزهـراء (س) فتنقل اولئـك النفر بشفـاعتها من ظلمات محشر القيامة الىٰ أنوار جنان الخلد .

* الحسنان مظهران من مظاهر تجلّي الاحسان الالهي:

والحسنان (ع) قد اشتق الله عـز وجل لهمـا اسميهما من اسمـائه ، فهـو المحسن المجمل ذو الاحسان والأنعام ، والحسنان همـا مظهـران من مظاهـر تجلّي الاحسان والانعام الالهيين اللذان بلغ من شأن احسانهما انهما لا يردان يد سائل الىٰ صدره خاوية من فضل الله .

يقــول الشيـخ الشــوشتـري (عليــه الـرحمــة) في بـاب البكــاء علىٰ الحسين (ع) ، ولو ترقرق الدمع في عين المرء دون أن ينهمل لشمل الله هـذا العبد برحمته ، ولو إنحدرت الأدمع من عينيه ولو مقدار جناح بعوضة لأثابه الله تعالىٰ بذلك ثواباً حسناً ، ولو جرت دموع المرء حتىٰ إخضّل منه وجهـه لأثابـه بذلك ان يحول دون ان ترهق وجه ذلك العبد ذلة أو قتر في القيامة . وما ذكره الشيخ الشوشتـري يطابق تمـاماً مـا جاءت بـه الروايـات في هذا الشـأن . إذاً الاحسـان هو أحـد صفـات الله تعـالىٰ ، وعليـه فهلمـوا نقبـل بـوجـوهنـا الىٰ الحسين (ع) لننال العطاء الالهي الفذ بشفاعتـه واحسانـه ، ولعلّنا نعـرف قصة آدم (ع) التي يقول فيها (مالي كلمّا ذكـرت الحسين (ع) هاجت بي الأحـزان؟ وكيف لا وجبريل قد حدث آدم (ع) بمصيبة الحسين (ع) وعطشه .



﴿تبارك إسم ربك ذي الجلال والاكرام﴾[1]

* ولله الأسماء الحسنىٰ فٱدعوه بها:

وها قد تبينت لنا حقيقة أسماء الله الحسنىٰ ، ومصاديقها في اهل بيت النبي (ص) ، وثبت لدينا أن أسماء أهل البيت (ع) هي أحسن وأشرف اسماء الله التكوينية الخارجية التي جلّت صفات الله عز وجل . وانما قيل لأسماء الله الحسنىٰ حسنىٰ ، لأنها اشتملت علىٰ جوانب ثلاثة هي :

١ ـ جانب الدلالة . ٣ ـ جانب الذات . ٣ ـ جانب الصفة .

ولقد شبّهنا الموجودات بالمرايا المستوية التي تعكس صور الصفات والأفعال الالهية مما شّع منها علىٰ سطوحها ، فظهر من شأن الله تعالىٰ ما ظهر وبذات المقدار المناسب من لياقة تلك الموجودات واستعداداتها .

أما الحسن في جانب حد الذات ، فكان مصداقه في الصوادر الأولىٰ ، وهم الأنبياء والائمة (ع) ، فهم يظهرون بشكل جلّي صفات الجمال والجلال الالهيين ، وهم إسم الله الاعظم . لذلك نلفت إنتباهكم الىٰ أن قوله تعالىٰ

---

(١) سورة الرحمن ، الآية (٧٨) .

﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فآدعوه بها﴾ يعني اسماء العترة الطاهرة التي جاء الأمر الالهي بضرورة التمسك بها .

* النمطيّة الواحدة في الأسماء اللفظية:

ويعترض بعض المحققين علىٰ موضوع إعتبار الأسماء اللفظية أسماءً حسنىً ، قائلين ان ذلك لا يولد القناعة الكافية في اعتقاده باعتبار وجود النمطية الواحدة في الأسماء اللفظية . فطالما كانت الاسماء لفظية فهي حينئذ لا تعدو أن تكون مجرد أسماء لا يخرج من وتيرة اللفظ ، بينما تتحقق حقيقة المراتب والمنازل في الاسماء العينية الخارجية المشتملة علىٰ المراتب .

وهذه الأسماء هي التي جاء الأمر الالهي بالدعاء بها لانجاح المطالب ، وأشرف مراتب الاسماء الحسنىٰ هي مرتبة وجود خاتم الانبياء محمد (ص) ثم أهل بيته الطاهرين (ع) الذين سمّاهم الباري عز وجل في كتابه الحميد بالوسائل الالهية كما في قوله ﴿وابتغوا اليه الوسيلة﴾[٢] ، ومن البديهي ان لا تمتلك الوسائل أية إستقلالية في ذاتها ، إنما نالت ما نالت من الشرف من خلال وساطتها في نيل وايصال الفيوضات الالهية ، ولكيما تتضح هذه الحقيقة بشكل اكثر ، ننقل لكم شرح سلمان الفارسي (رض) لهذه الحقيقة :

* سلمان يحاور المنافقين:

فقد اورد صاحب البحار في المجلد التاسع عشر هذه الحادثة ، يقول ان سلمان الفارسي (رض) كان جالساً في مسجد النبي (ص) يوماً وحوله جمع من أهل الاسلام قد إندّس بينهم بعض المنافقين الذين حرموا من نعمة الولاية ، فقال سلمان : لو كانت لأحدكم حاجة مهمة عند سلطان ما ، فهل هناك من شك أن سيسارع صاحب الحاجة هذه الىٰ اكرم الناس علىٰ السلطان ليشفع له في نيل حاجته فيجعله وسيلته (وهذا في الواقع أمر وجداني)؟ فأقر الجميع بذلك ، وهنا عاد ليقول لهم : فاعلموا إذاً ان أحب الخلق الىٰ الله واكرمهم عليه هم محمد

---

(٢) سورة المائدة ، الآة (٣٥) .

وعلي (ص) فادعوا الله بهما واجعلوهما لما سألتم الله فيه الوسيلة . فطفق المنافقون يسخرون ويستهزئون من قول سلمان معلنين عن نفاقهم بالقول: لو كانت اجابة الله موكولة ببركة التوسل بمحمد وعلي كما زعمت ، فعلامك لا زلت فقيراً؟! الا تسأل الله بهما ليغنيك فيجعلك اغنىٰ أهل يثرب؟ (لقد ظن اولئك الجهال أن الرزق الالهي لا يعدو الطعام واللباس والسكن والنكاح ، يقول الامام الرضا (ع): (العقل رزق) ، تصوروا انهم يظنون ان الرزق منحصر بالشؤون المادية لوحدها ، ولا يدرون ان الرزق المعنوي صورة اخرىٰ من صور الرزق الالهي ويفوق في شرفه وشأنه الرزق المادي) فأجابهم سلمان قائلاً: فوالله لقد أبّر الله قسمي عليه عندما سألته بحقهما حينما اعطاني من فضله الجزيل ما يعدل الدنيا وما فيها بمائة الف الف ضعف ، فبهت المنافقون من قوله هذا ، وسألوه: وما اعطاك؟ قال سلمان: إنه كنز ثمين (فظن الحمقىٰ أنه قد هدي الىٰ اموال طائلة) فقالوا: وأي كنز هذا؟ قال: لقد سألت الله أن يهبني قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً وان يجعلني عند البلاء صابراً ، ولقد انعم الله عليّ بما سألته ببركة أهل البيت (ع) .

* الأسماء التي يستجيب الله بها:

﴿**فأدعوه بها**﴾ أي فادعوا الله بهذه الاسماء الحسنىٰ ، لأن هذه الاسماء هي وسائل نيل الآلاء ، والنعم التي منّ الله عز وجل علىٰ العالمين بها ﴿**لقد منّ الله علىٰ المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾[3]فألبس تلك الانوار لباس البشرية وجعل ذكرهم مستوجباً للتطهير من الذنوب وباعثاً علىٰ قبول الأعمال ، كما في النص الآتي (وجعل صلواتنا عليكم. . . كفارة لذنوبنا)[4]وأيضاً في نص الدعاء التالي (وبأسمك الذي إذا دعيت أجبت واذا سئلت به اعطيت)[5] . وما الأسماء الحسنىٰ إلاّ أسماء أهل البيت الذين لو جعلهم المرء وسيلته الى الله

---

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٥٩) .
(٤) الزيارة الجامعة الكبيرة ، كتاب مفاتيح الجنان .
(٥) دعاء ليلة عرفة ، كتاب مفاتيح الجنان .

تعـالىٰ بقلب واع وهو عـارف بحقهم لاجيبت دعوتـه البتة ، ولقضيت حـاجتـه قطعاً ، ان (إن للدنيا أو للآخرة) ، مع ان الـدنيا لا قيمـة لها بـذاتها كمـا قال سلمان (رض) (افضل من الدنيا بمائة الف الف ضعف) .

* إختلاط الحرمان بالثراء:

ولعل البعض يقول لقد توسلنا الىٰ الله تعالىٰ بأهل البيت (ع) ولكننـا لم نجد لقضاء حوائجنا جـواباً ، فنقـول ان الدنيـا بذاتهـا مذمـومة ، وقـد عمرت بالحرمان والمكاره ، ولو دققنا النظر فيمن حصل علىٰ الثراء والسعة لوجدناهم قد اندفعوا نحو التوسل بالبقاء في دار الفناء! وقد باتوا وكأنهم مسامير قد سمّرت في الدنيا لا يبغون عنها حـولاً ولا بدلاً ، وهم علىٰ تلك الحـال يصعب انتزاع حب الدنيا من قلوبهم ، ولو ادركهم الموت لألفيناهم قد خفقت قلوبهم لأموال الدنيا ومناصبها ، لذلك نظر الله تعالىٰ بعين رأفتـه وحكمته الىٰ مصـالح عبـاده فابتلىٰ بعض العباد بالحرمان والبلاء المناسب لحالهم ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يمن عليهم بفرجه ، لأن الله عز وجل لا يجعل عبده يرىٰ الحرمان المنقطع الىٰ الهم والمؤدي الىٰ اليـأس من رحمته ، وهـو في جانب آخـر لا يعـطيـه الثـراء والعطاء الذي يؤدي بقلبه الىٰ الشغف بالدنيا الزائلة حباً ورغبة . ومما لا شـك فيه أن توسل العبد بـأهل البيت (ع) الىٰ الله تعـالىٰ وجعلهم شفعاء في قضـاء حـوائجه يؤدي الىٰ اجـابة الحـوائج وقضـائها ولكن بشـرط تطابق مـا سأل مـع مقتضيات الحكمة الالهية والمصالح العامة وفي الأوان المناسب .

ولو افترضنا عدم قضاء حاجة العبد في الدنيا ، فمن المسلّم به ان الله عز وجل سيجعل له ما طلب ذخيرة للآخرة كما فصّلنا القول من قبل عند تعـرضنا لقوله تعالىٰ ﴿يسئله من في السماوات والأرض﴾ .

* الاستغاثة بأهل البيت (ع) مؤكّدة الأثر:

ولقد جاءت وصايا عديدة تؤكد ضرورة التوسل بأهل البيت (ع) ، ولو كان الحال هو انعدام الأثر لما جاءت التأكيدات علىٰ موضوع التوسل والحث على

المداومة عليه ، وقد أفرد كتاب بحار الانوار في المجلد التاسع عشر منه باباً خاصاً لموضوع الاستغاثة بأهل البيت (ع) اشتمل علىٰ ذكر الصلوات والأدعية الخاصة بهذا الشأن ، بل أنه اشار الىٰ بعض القضايا والأمور الباعثة علىٰ التعجب والاندهاش لما في ذلك من عبر ومواعظ ، كما في قصة ابي العباس احمد بن كثير ومكابداته عام ٣٨٢ هجرية في سجن سليمان بن الحسن ، وصدور حكم الاعدام بحقه ، ثم حصوله علىٰ النجاة والخلاص من الهلكة بعد استغاثته وتوسله بأهل البيت (ع) ، وبالذات بالامام أمير المؤمنين (ع) .

* أينما حلّت العظمة والانعام فهي من الله تعالىٰ:

﴿ذي الجلال والاكرام﴾ وتقرأ ايضاً **﴿ذو الجلال والاكرام﴾** والأولىٰ أشهر ، وفيها يكون المعنىٰ للآية الكريمة هو ـ عظم اسم ربك صاحب الجلال والاكرام ـ ذي الجلال والاكرام هنا صفة للرب تعالىٰ علىٰ القراءة الأولىٰ وفي القراءة الثانية صفة لاسم الرب (تعالىٰ) . ولقد قلنا آنفاً أن اسم الرب العظيم والمبارك هم محمد وآله (ص) ، وقد ذكر صاحب مجمع البيان وغيره من المفسرين جملة من الروايات الواردة عن رسول الله (ص) التي تحث العباد علىٰ الاكثار من الدعاء بهذين الاسمين المباركين . لأنه من المقطوع به عند الدعاء بهذين الاسمين الكريمين أن يمن الله عز وجل بأجابته علىٰ الداعي بما إحتمل الاسمان الشريفان من معانٍ ساميات . فمعنىٰ **الجلال**: هو العظمة والكبرياء والاستغناء المطلق ومن المؤكد ان الجلال والعظمة هي شأن الله وحده وكل ما عداه ذليل ، وما من عظمة نراها أينما كانت إلاّ وتعرب عن عظمة الله (عز وجل) وجلاله .

اما معنىٰ **الاكرام**: فهو الانعام والفضل والاحسان ، فالله تعالىٰ هو صاحب الاكرام وحده ، اي انه هو صاحب الفضل العظيم والمن الجسيم ، فهو يكرم الجميع ، وحقيقة ما يقدمه المرء الىٰ الآخرين من احسان انما هو من عند الله (جل جلاله) لأن الخلق كله لله وهم الفقراء الىٰ الله والله هو الغني الحميد .

* التنّور وإبصار النور:

وطبقاً للتفسير الوارد عن الامام الباقر (ع) في معنىٰ هذه الآية الكريمة مما أشرنا اليه من قبل في قوله (ع) (نحن جلال الله وكرامته) ، فان الله عز وجل يمن علىٰ كل عبد تعلّق بحجزة أهل البيت (ع) بالعظمة ويحفّه بكرمه ، وكما قلنا آنفاً ان الله عز وجل عندما يجيب عبده الداعي بـالاسمين الشريفين ﴿**ذي الجـلال والاكرام**﴾ فانما يجيب بما يحملان من معآن ، لأن (من لم يتنـوّر لا يستطيـع رؤية النور) ، وقد قال الحكماء: يجب ان يكون المدرك (بكسر الراء) من سنخ المدرك (بفتح الـراء) ليتمكن من الادراك عندئـذ . ولقد طهـر الله تعالىٰ أهـل البيت (ع) ﴿**انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيـراً**﴾[٦] ، ولما كانوا (ع) مطهرين وطاهرين ، استلزم ذلـك امتلاك المـرء لعين سالمـة طاهـرة نظيفة تمكّنه من رؤية جمالهم وساطع انوارهم ، ومعرفة اسرارهم المعنوية . وما كانت التأكيدات والوصايا والتعاليم الاخلاقية المتعددة والمتكررة بشأن تهـذيب النفس ومحـاولة الحصـول علىٰ ملكات الـزهد والتقـوىٰ الاّ لأجل ان يحصـل الانسان علىٰ السعة والرحبة في الصدور فيكون عظيماً وحينها يدرك العـظمة ، ومن لم يعـظم به حـاله سـوف لن يتسنىٰ مطلقـاً مجالسـة العظمـاء والنهل من فيوضهم .

إذاً لا نجد مناصاً من القول ان حقيقة إدراك جلال وعظمة أهل البيت (ع) مرهون بلزوم اكتسابنا للجلال والعظمة .

* الاكرام الالهي للشيعة ببركة أهل البيت (ع):

(نحن جـلال الله وكـرامتـه) وهـو قـول أهـل البيت (ع) في معنىٰ الآيـة الكريمة ، ويعقّبـون القول (سـلام الله عليهم اجمعين) ـ(نحن كرامـة الله التي اكرم الله عباده بطاعتنا ومودتنا)ـ بلىٰ والله إنـه لكذلـك ، بل وأن مـا سمعناه أو قرأناه ما هو الاّ قطرة من بحار كرامات الله عز وجل ، لأن بركة اهل البيت (ع)

---

(٦) سورة الاحزاب ، الاية (٣٣) .

تحول بين المرء المؤمن وارتكابه للذنوب ، بل ويجعل مسألة اجتراح السيئات علىٰ المؤمنين صعبة شاقة ، وطعمها مراً علقماً ، فمن بركة أهل بيت العصمة (ع) أن لا يعرف المؤمن للدنيا أية أهمية وينزع عن قلبه غشاء محبتها .

والحمد لله رب العالمين

«إنتهىٰ»

الفهرس

الموضوع .... الصفحة